

مَوَالِ الْبَيَّاتِ وَالنُّومِ

نحیری شـلبی





رواية

B..HAMDAN

12-4-2008

مِوَالِ الْبَيَّاتِ وَالنُّمُ

حـيـرى شـلـبـى

الإشراف الفني : حلمى التونى

إلى شاعر مصر الأكبر .. القطب العظيم ..
المسحراتى فؤاد حداد .. الذى ألهمنى كتابه
هذا الموال ، وإلى صديقى الحميم إبراهيم
منصور .. الذى تسلط على بالضغط حتى
كتبته .

«خير لك»

إزاي أفضل أهيم
ع الخط المستقيم
من حاره لجوه حاره
وأفضل قلبي سليم ؟

فؤاد حداد

- ٩ -

نزول الليل

كنا جلوساً فى غرفة أشبه بالقاعة الريفية ظلماء رغم وجود مصباح
كهربى صغير كالبلحة بارز من أحد الأركان ..

وكان من الواضح أننا قد وصلنا إلى هذه القعدة بعد متاعب جمّة وبعد
لف طويل غامض فى حوارى الليل ملئ - وملئ - بالمساومات الطريفة المحوطة
بأخطار هائلة ! ..

وكنا نجلس على الأرض متربعين فوق شلت ناشفة ومخدات مزينة الوجوه
كالحة كأنها منجدة بالحصى . أمامنا برتقال مشقق على صينية كبيرة لكن أحداً
لا يأكل منه ومن ثم فلا تواتينى الجرأة على الإمساك بشريحة واحدة ، إذ بدا
من الواضح أن صاحب هذا المكان الذى استضافنا بناء على رغبتنا يعرض
علينا هذا البرتقال كديكور من لوازم الضيافة . وكان ريقى ناشفاً . وكان
صاحب القاعة كما فهمت واحداً من طائفة الكومبارس الذين يستأجرهم «سيد
بك دسوقى» ، الذى بدا من الواضح أنه هو الذى اقتادنا إلى هنا أنا
وصديقى مهندس الديكور وصديقى السيناريست لكى نمر رؤوسنا بنفسين
يصعدان بنا إلى نشوة عالية .

صاحب القاعة الكومبارس قد فرش فوق الكليم الرخيص قطعة مشمع
عريضة ، وضع فوقها المنقد الفخارى الكبير ورص حوله عشرة من حجارة

الجوزة ، والجوزة ، وطبقا مليئاً بالدخان المعسل ، وكوباً به ماء ملوث ينظف فيه أصابعه بعد تنظيف الحجارة وتغسيلها . وكان «سيد بك دسوقي» مدير الإنتاج المشهور قد راح منذ وقت طويل يقطع الحشيش من كلّ كعكة فى حجم ليمونة كزلطة سوداء ، يضع فوق كل حجر بصمة كبيرة منه . الكومبارس ينتقى قطعة نار يطحنها فى المصفاة ، يثبت الحجر فوق بُخس الجوزة ويقدم البوصة لـ «سيد بك دسوقي» قائلاً : «ميه مسا» . فيشد «سيد بك» الأنفاس المتلاحقة ينفث على أثرها أطنانا من دوائر الدخان الأزرق المتدافع فى سرعة . تنتقل البوصة إلى فم صديقى الديكوريسست ، ثم إلى صديقى السيناريسست ، ثم إلى ، فأعترى فى كل مرة ، فيلحون على بإصرار شديد قائلين : «ياراجل ولع .. والله لتولع» ، فأشد أنفاسا واهنة وأكح حتى أكاد أدلق صدرى كله ودموعى كلها . لكننى مع ذلك استحسننت الأمر ورأيتنى فى حالة من الشرود اللذيذ وخيالى بجناحين عريضين يحلقان به فى سماوات شاهقة الارتفاع ، نسيت أننى كنت مرهقا أبحث فى الأصل عن مكان أبيت فيه ليلتى ، ونسيت نشفان الريق وخواء البطن ونسيت وجوه الحرس والخبراء العكرة التى تعترض طريقى فى كل مكان أذهب إليه للبحث عن عمل أو للسؤال عن صديق !!

ثم بدا أننا نتهى للانصراف فنهضت مثلهم وسلمت على الكومبارس مثلهم ، وخيل لى أننى شكرته أيضا مثلهم على حسن هذه الضيافة ، وخيل لى أنه رد على قائلاً : «الزيارة دى ما تتحسبش» ! ..

ثم فوجئت بأننا قد رحنا نهبط فى جوف الظلام درجات متاكلة متخالفة تبعا لاستدارة السلم ، وصوت رجل أظنه الكومبارس ، لاينى يصيح من أعلى منبها إلى أننا يجب أن نحذر الدرايزين فلا نعتمد عليه لأنه مقطوع الصلة فى مسافات كثيرة ، وعلينا محاذاة الحائط حتى لا تقع أرجلنا على الجانب الضيق

من درجات السلم القريبة من البسطات عند الحودايات . وكان صوته يبتعد فى الأعلى شيئا فشيئا ونحن نتساند على الحائط ممسكين فى بعضنا البعض مندمجين فى ضحك هستيرى متواصل تهتز منه أجسادنا بعنف فنضطر للتوقف عن الهبوط لبرهة ثم نستأنف الغوص فى الظلام والرطوبة والعفن !

أيقنت أننا قد نزل نهبط هكذا إلى مالا نهاية . لكننى فوجئت بباب مفتوح على وسعه ينبثق منه ضوء عليل خافت ففتفتست وفرحت ودخلته فى حين واصل رفاقى الهبوط ، فصرت أهتم بهم ضاحكا أننى قد عثرت على باب الشارع ، فإذا بصديق منهم يلحق بى صاعدا درجتين بسرعة ثم يسحبنى هامسا فى حرج : «أنت دخلت شقة مفتوحة . لا مؤاخذه يا أسيادنا» ، مع أن أحدا لم يكن موجودا فيما تبينت أنه صالة عريضة ممتدة خالية من أى أثاث . لكننى استأنفت الهبوط معهم إلى أن اشتدت كثافة الظلام تماما ، وصلت قدمى الأرض بحثا عن درجة تهبطها فلم تجد ، فصرنا نمد أذرعنا فتصطدم ببعضها وهى تبحث عن موضع الباب المغلق ، وكنت أتين صوت «سيد بك دسوقي» يقول وسط الظلام والرطوبة والعفن - كأنه مستغرق فى حلم وردى - أن الجرائد زمانها الآن قد وصلت إلى بوفيه المحطة وأننا سوف نشرب الشاي الفاخر باللبن ، فلم يرد عليه أحد إذ أن عقولنا قد كمنّت فى أيدينا فصارت تصطدم بالحوائط المتباعدة فتتشعر أبداننا من ملمسها الخشن اللزج وملحها الذى يعلق بالأصابع .. ولم يكن ثمة باب للخروج على الإطلاق .

- ٢ -

مدافعة

أخيرا بدأ الشارع يتضح أمامى بصورة شبه جلية ، فعرفت أننى يجب أن أدخل حارة ها هنا يقبع على ناصيتها دكان كبابجى ، فأظل ماشيا فيها أتعثّر فى بلاطها العريض المتفصص من بعضه ناعما زلقاً تحيط به أخايد من مياه الغسل والمجارى والمطر القديم . البيت الذى أقصده مميز ، إذ هو جديد نوعاً ، وبارز عن كل البيوت بضلع أنيق مزيج يحمل فوقه ثلاث بلكنات ، البلكنة الأولى يحتلها رجل بلدياتى ، ليس يمت لى بأية صلة قريى ، لكنه يعرف أبى وأهلى معرفة جيدة ، ويعرف أننى مغترب فى هذه المدينة من أجل التعليم ، وهو - كما يلوح لى كلما قابلته فى البلدة أثناء أجازة العيد - يحبنى ويقدرنى لأننى أتغرب من أجل التعليم متحديا الفقر الذى يعيشه أبى العجوز الغلبان بحمل إخوتى الكثار ، ودائما يوصينى بأن أزوره فى منزله ، وقد وصفه لى حتى حفظته تماما .

رأيت نفسى جالسا فى داره . راح يستقبلنى بحفاوة بالغة . أحاط بى زوجه وأولاده ، صاروا يدللونى ، يعزّمون علىّ بالعشاء ، يظهرون أمامى ذكاهم وشطارتهم فى المدرسة ، ويبرزون أطقم الأكواب التى اشتروها من السعودية حيث كان بلدياتى يعمل هناك لأكثر من خمس سنوات تبع أحد المقاولين ، ويقدمون لى مشروبات متعددة تثبت لى أن عندهم أكثر من خلط للعصير . فى

الصالة المربعة ثلاث من الكنب البلدى وبعض كراسى منجدة من النوع المسمى بالأسيوطى . على الترابيزة - المصنوعة خصيصا - تليفزيون ملون مفتوح على التمثيلية . على الرف راديو كبير جدا مفتوح على أم كلثوم . على الكنبه جهاز تسجيل كبير أيضا مفتوح على أحمد عدوية !! ..

بدا لى أننى أحب هذه الأسرة رغم ذلك الصخب وهذه «الغلوشة» . وبدا أيضا أننى رغم ذلك غير مستريح فى جلستى هذه مع كل ما يحيطونه بى من كرم واهتمام زائد كأنما قد زارهم بالفعل النبى . شئ ما فى أعماقى كان يمنعنى من الانطلاق والاندماج الحقيقى . ذكريات البلدة اللطيفة التى راحت تحكيها الزوجة فى ود وحلاوة ، تذكرنى بالبلدة وبها هى نفسها أيام كانت صبية حلوة فاتنة نتعشقها ونؤلف فى حبها الأغانى والمواويل .. حتى هذه الذكريات الحميمية رحت أستقبلها بابتسامة شاحبة معلقة على شفتى أكرسها أحيانا بضحكة جوفاء أو بهزة رأس غائب عن الوجدان . النكت العتيقة التى اشتهرت فى بلدتنا زما طويلا لكونها مشاهد حقيقية لناس من أهلنا ، والتى كان مجرد تذكرها يصيب المرء بهستيريا الضحك المتواصل إلى أن توجهه بطلنه وتعصر عيناه كل دموعها .. حتى هذه النكت رحت أستقبلها هى الأخرى بضحك فائر ولا أشارك فى حكى جوانب منها تزيد فكاهتها عمقا كما كان من المفروض أن يحدث . وكنت أشعر أننى ربما كنت السبب فى كل هذا الهياج الأسرى الصاخب إذ أن كل هذه الأصوات منطلقة للعمل على إرضاء مزاجى بأى شكل ، صحيح أن فيها ما يخدم حبهم للاستعراض الفطرى ولكننى أشعر كما لو كنت سيد الموقف وإذا مال مزاجى نحو صوت أسكت ماعداه من الأصوات ! ..

ثم بدا كأننى أعرف سر هذا القلق الذى يعترينى مشوها هذا اللقاء الذى تم بعد إلحاح ، معلقا إياى فى فراغ كئيب مرور ! .. ثم بدا كأن هذا السر

ربما يكون رغبتى فى أن أنفرد بالرجل بلدياتى : فما أنذا - بشكل خفى - أتحين الفرص وأكاد أدبر تدبيرا للانفراد به ، لولا أن الأولاد يحيطوننى تماما بود واحترام وعواطف بريئة ساخنة . شعور بالحرج المرير يكبلنى فيما لو ظهر أمام الأولاد أننى راغب فى الانفراد بأبيهم ! هذا أمر سوف يشغلهم لابد ! وسوف ينزعجون منه لا محالة ! ويتسألون ما الأمر ؟ ! ..

ثم بدا لى أن الأمر فى غاية الفظاعة ، إذ أننى فى حقيقة الأمر - كما يلوح لى - كنت قد صادرت الخطة التى اتضح لى أننى فى حقيقة الأمر جئت إلى هذا المكان من أجل تنفيذها : وهى أن أرسم علامات الحزن والكدر على وجهى تمهيدا لأن أحكى عن شئ هام ضاع منى فى زحام المدينة التى بلا خلق أو ضمير ! زوادتى مثلا وفيها مصروف الأسابيع المقبلة ! كتب الدراسة وأود شراء غيرها ! أزعم أننى أفكر فى إرسال برقية إلى البلد أبلغهم فيها بالخبر غير أننى متخوف من شدة إنزعاج «الجماعة» عند تلقيهم البرقية ولهذا فسوف أرجئ الأمر مضطرا لحين السفر ! أزعم كذلك أننى أفكر فى الاقتراض من صاحبة البيت الذى أسكن مع رفاقى حجرة فوق سطحه !! هدفى من كل هذه المزاعم ثقتى فى أن بلدياتى سوف تركبه النخوة فيعرض على قرضا حسنا ! يمد يده فى جيبه العامر يغمزنى ببضع جنيهات أدبر بها نفسى مؤقتا ، واحنا اخوات يا راجل المليون يكب على الفاضى مفيش داعى تعلق البلد ! .. وحينئذ رأيتنى مقبلا على مطاعم المدينة بواجهاتها اللامعة ثم أدخلها منتفخ الأوداج منغمسا بلذة فائقة فى رائحة الشواء الشهى التى تدير كيانى وتوقظ بأعماقى جوعا أبديا لم أكن أعلم قبلا أنه فى .. ثم رأيتنى جالسا على رصيف إحدى المقاهى التى لم أكن رأيت فى حالاتها قط والجرسون ينحنى أمامى واضعا صينية حافلة بالأكواب والأطباق .. ثم رأيتنى بين زملائى الطلبة فى حوش المدرسة أمام «الكانتين» وأنا فى مقدمتهم أمسك طبقا من المهلبية بالكريمة كان السبب فى أن أضحك مثلهم وأكتشف أنهم جديرون بأن أحبهم وأصاحبهم هكذا !! ..

انبعث فى أذنى رنين ملعقة تدور فى كوب زجاجى ، وبدأ أننى قد عدت إلى منزل بلديأتى من جديد ولكن فى حجرة أخرى بها سرير سفرى عليه فرش أشد كلالحة من بطانية مخلفات الجيش التى ننتطى بها أنا ورفاقى فى غرفة السطح ، تذكرت أن هذه الحجرة التى نجلس فيها الآن هى حجرته قبل الزواج . وكنت أشعر أن انفرادى به الآن يعبر عن رغبة قديمة شديدة الأهمية بالنسبة لى غير أننى لست أذكرها الآن على وجه التحديد !! .. ثم بدا أننى أشعر بالغثيان ، أكاد أتقيأ روى ، أفعل بعض حركات توحى بأننى أتهيأ للإنصراف مع أننى أشعر فى قرارة نفسى برغبة فى البقاء برهة لعلنى أكتشف سر حرصى الدفين على هذه الفرصة النادرة التى هى بين يدي الآن . إشتد شعورى بالغثيان والمرارة الغامضة المبهمة . بدون مقدمات وجدتنى أفرك يديّ قائلاً للرجل بلديأتى : «مايلزمش أى خدمة ؟! » . فإذا هو قد نهض فى التوقائلا : شكرا يا حبيبى مايلزمش انت ؟! .. قلت بحماسة : «مش عايز فلوس ولا حاجة ؟! إطلب مايهمكش» . تبسم الخبيث فى عبه قائلاً : «يعنى الحاله رايجة معاك ؟! » . شعرت باستياء شديد من هذا التعريض المستتر خاصة وأن لهجته فيها إيحاء ودى بأنه يأخذ عرضى هذا على نحو عكسى مظهرها - بطريقة ملفوفة - إستعداده لمساعدتى . تزايدت ضربات قلبى واشتد عنفها فاشتد ضيق أنفاسى ، قلت دون نظر فى العواقب : «طبعاً رايجة والحمد لله إطلب وأنا رقبتي ! جيب المؤمنين عمارا ! » .. ثم ارتعدت مفاصلى حين رفع عينيه وسلطهما فى عيني بخبث شرير لكنه حميم مع ذلك خفت أن يتمادى فى العشم قائلاً طب ورينى اللى معاك عشان اطمئن عليك ! قررت التعتجيل بالانصراف ! .. ثم رأيتنى أعود راكضاً فى شارع كئيب عليل الضوء عريض بلاطات الأرض تتخللها أخاديد مياه عطنة والأرض زلقة والبيوت على الصفيين المتقابلين كنمو

متهالكة تترصد بعضها بعضاً من تحت الجفون الساجية ، وصوت صديقى بلديأتى يلاحقنى من شرفة الدور الأول صائحا : «بس خد أما أقول لك ! اسمع بس ما تبقاش عيل ! » . وكان صوت ضحكاته الساخرة الصاعقة يجلجل فى أذنى فيما أنزع نفسى من هذه الحارة إلى أفق عريض لا أدرى مداه لكنه رمادى ملئ بالرياح العنيفة المتعاكسة المليئة بالضباب والتراب تكاد تقتلعنى من الأرض . ولم أكن أعرف إلى أين ينبغى أن أسير ولكننى مع ذلك كنت أسير مدافعا دفع الرياح لى من جميع الاتجاهات .

رقائق ثلج أسود

كنت أسير فيما بدا أنه شارع عمومي عريض إلى حد أفقدني الإحساس
بمبانية المترامية على الجانبين ؟ في مدينة تبدو إقليمية صغيرة ونائمة في
أحضان صمت أزلى طويل . وكنت متعباً ومتردداً ، قد بدا لي أنني أذهب إلى
مشوار في مكان ما في هذا الشارع .

وضح لي أنني نسيت هذا المشوار مع أنني أسعى إليه بحماس يشوبه
التردد ، وفي تردد يشوبه الحماس بدا أنه لامفر أمامي من الذهاب إلى هذا
المشوار واستمرار السير من ثمة في نفس الشارع الذي وضح أنني أجهله
تماماً وأنني ربما أتعرف عليه إذا عرفت طبيعة المشوار ، وربما إن تعرفت عليه
عرفت طبيعة المشوار على وجه التحديد !! .

اكفهر الشارع فجأة ، احتشد بالضباب الكثيف ، تعذرت على الرؤية ثم
إنعدمت لبرهة وجيزة . بدا كأنني آلف هذا الضباب وإن كنت أشعر الآن تجاهه
برعب دفين ، تتسارع دقات قلبي أسمع بها ، يداخني يقين بأنه أعلى صوت في
الكون كله هذه اللحظة ! أشعر بالخطر ، أشعر كذلك أنني موشك على الدخول
في قلب ما يشبه الأمان ! .

خفت صوت الدبّ في حنايا صدري . رقت كثافة الضباب شيئاً فشيئاً ، بدت
كأنها الثوب يتخلله البلى في رقع كثيرة منحولة كسدى بلا لحم ولحم بلا سدى .

منذ برهة طويلة جداً وأنا أتوقع مدى الرهبة التى ستعترينى حينما أراى قد بدأت أدخل فى صفحة هذا النسيج المتحول إذ خيل إلى أنه سيطبع بصمته هذه فى دماغى .

فوجئت بأننى ودعت خلفى عشرات من هذه الصفحة المنحولة ولا تزال نفس اللوحة تواجهنى بخيوط سوداء قاتمة تتخلل صفحة أقل سواداً اعرضها عرض الأفق تتراجع قصادى إلى ما لانهاية .

ينتفض الرعب فى قدمى ، ارتفعت فروة رأسى ، اتسعت حدقتاى . ميزت أن رقائى السواد التى كانت تسد الأفق راحت تتساقط كرقائق ثلج أسود لتكشف عن مساحات مبيضة قليلاً ، سرعان ما بدت كأنها نوافذ على أفق مجهول سرعان ماراحت هذه النوافذ تتسع شيئاً فشيئاً تجور على مساحات الظلام تحولها إلى كتل هرمية سوداء . سرعان ماراح اللون الأبيض يتخلل هذه الكتل الهرمية السوداء يصنع منها سلالاً من الخيوط الرمادية المنسوجة على أوتار عالية . وضع لى أننى سائر بين صفين من أشجار الكافور والجزورين والحناء والصفصاف والزيتون . وضع لى أن يد بستانى بداع قد أبدعت فى خرطها بهذه الدقة الهندسية البديعة .. فعرفت أننى سائر فى شارع أظنه الشارع الخامس على وجه التحديد ، فى ضاحية أظنها ضاحية المعادى فيما يشبه اليقين ! ..

وضع لى أننى كنت أقطع فى ليل بهيم لا أذكر متى بدأ ، وأننى أخيراً قد بدأت أنجح فى امتطائه والوصول إلى هذه اللحظة .. وعرفت أنه قد بقيت من الليل ساعات قاتمة على أن ألف الشوارع المحيطة لأدهنها بفرشاة اللون الأبيض ، ثم أتولاها بالدك والصنفرة إلى أن تتأكل جلدة الأفق الرمادية عن ثقب تتسلل منها خيوط الشمس .. حينئذ يحل لى أن أدلف إلى عتبة العمارة

المهيبة الكائنة فى عمق الشارع ، وأطرق باب شقة رفيق صباى الوحيد الذى أعرفه فى هذه المدينة ، لأجده قد استيقظ وتناول فطوره وتهيأ للخروج إلى عمله ، فيصير من حقى أن أستخدم سريره فى النوم بضع ساعات .

الرماد

لم أكن أعرف من أنا على وجه اليقين ، ولكن ادراكى بأن هذا هو شارع سليمان ، وهذه هى سينما مترو ، وهذا هو مسرح ميامى ، وهذا هو مقهى الإكسيلسيور ؛ كل ذلك يؤكد أننى من هذه المدينة . كما أنه فيما يبدو أن هذه الأماكن كلها ، وحتى أرض هذا الشارع ، تعرفنى حق المعرفة ، لها معنى - كما لى معها - ذكريات طويلة غامضة لعلها خدمت مختبئة كجمرات النار تحت ركام الرماد .

كنت أرتدى قميصا قديما وسروالا أقدم وحذاء يشكو لطوب الأرض عذاب المر الأليم . ليس فى يدي أية حقائب ، ولا فى جيبى أية أوراق . يداى فى جيبى السروال المخرومين من الداخل حتى لتتفد اليد من كل ناحية لتلامس ذلك الشيء الذى انكمش بين ساقى كبلحة ذابلة . وفى رأسى كانت يد الشرطى تقبض على مخى من الكتف بخشونة تكاد تفريه . وكنت أحس لسبب ما أننى يجب أن أتستر فى مكان ، بمكان ما .

يشملنى توق شديد إلى معرفة من أنا وما هى شغلتى وما علاقتى بهذه المدينة وبهذه المنطقة منها على وجه التحديد ، هذه المدينة التى أذكر أنها تبدو مفتوحة فى النهار موصدة فى الليل كمصيدة الفئران . ضبظت نفسى واقفا منذ

وقت طويل أستند إلى السور الحديدى فوق رصيف الشارع أمام محل الأمريكيين ، الذى أطفئت أنواره الخارجية كلها فبدا كبيت عتيق مهجور .. فلم أعرف إن كنت قادما من جهة ميدان التحرير أم من جهة باب الحديد ! ولكن ارتفاع الضغط فى ساقى وقدمى كأسراب من النمل تحاول رفع جسدى على ظهورها وحملنى إلى حجورها ، يؤكد أننى كنت أمشى منذ برهة وجيزة وأننى توقفت عجزا عن مواصلة السير ، فمن أين كنت قادما وإلى أين كنت أتجه ؟ ذلك ما يحيرنى الآن بالفعل .

وَقَعَّ خطوات يرن يقترب من بعيد ، تلفت حوالى بحثا عن أحد . كنت مشوقا لملاقاة أى مخلوق فى هذه اللحظة لعلنى أرى فيه من قد يعرفنى ، يتعرف على أو أتعرف عليه ..

لم أدر كم من الزمن مضى علىّ فى وقفتى ، لكن وقع الأقدام كان يتزايد من حوالى ، ويقوى ، ويتجسد فى أشباح تظهر من حين إلى حين خارجة من الممرات الجانبية إلى الشارع العمومى ، لتختفى فى ممرات جانبية أخرى . ثم بدأت بعض السيارات تظهر من بعيد لتقترب ثم تختفى فى البعيد لا تلتوى على شئ ، من جميع الإتجاهات إلى جميع الإتجاهات . بعض عربات اليد جعلت تقعقع فى الشوارع الخلفية لابد أنها عربات الفول والكشرى ؛ كم يطربنى صوتها هذا ، إنها مثل صياح الديك ايزانا بقصف عمر الأرق . داخلتنى بعض الطمأنينة ، روادنى بعض الأمل فى معرفة أشياء كثيرة تختص بى . فجأة انطفأت كل الأنوار الخافتة فى الشارع دفعة واحدة ؛ فإذا العمائر والأرصفة والدكاكين والأشباح والسيارات ترتدى كلها ثوبا من البوية الزرقاء القاتمة الكايبية كجلايب قدامى الفلاحين ، لونها لون طين المصارف ..

تذكرت أننى من قرية معينة ، فلا بد إذن أن لى أهلا فيها وأننى لست فرعا

منبت الجذر . رموش عيني كانت متلبكة بلزوجة العماص ، أحاول رفعها عن بعضها بصعوبة لإفساح الطريق أمام ناظرى . مددت ظهر يدي لأدعك عيني أزيل عنهما العماص ، فاصطدمت بمنظار طبي فوق أرنبية أنفى ، فتذكرت اننى من أهل القراءة والكتابة ، وأننى كثيرا ما قرأت وكثيرا ما كتبت حتى اضطرتت للبس هذا المنظار . تذكرت أن لى مشاكل عديدة جدا مع القراءة والكتابة لم أعد أعى تفاصيلها الكثيرة الكثيرة . رفعت المنظار ودعكت عيني فسالته الدموع منهما غزيرة ، وغامت الرؤية كثيرا فى عيني ، شعرت بدوار كأن الأرض تميد بى ، ملت مستندا إلى السور الحديدى .

أشعر أن وقتا طويلا مضى ورأسى مستند إلى عمود النور المشتبك بالسور الحديدى . هى برهة وانشق الفضاء عن صوت خشن يشرح الصمت فى قوة بالغة . إستدرت خلفى فرعا ، فإذا هى أبواب بعض الدكاكين يرفعها أصحابها داخل مجاريها فى الحوائط لتتكور على بكرة داخل الدكان . وكان اللون السماوى الزاهى قد انتشر فى الشارع كما انتشر الناس والسيارات والدراجات وعربات اليد ، وراحت الحركة تتدفق آتية من كل ناحية إلى كل ناحية ، وأوراق الصحف تنتشر من حولى على الرصيف وفى أيدي الباعة ..

تذكرت أننى كنت أطوى الجنان على حلم كبير فيما يختص بالقراءة والكتابة. تذكرت أننى كنت قد نسيت هذا الحلم منذ وقت طويل . تذكرت أننى يسست حتى من العثور على الرغبة الحاف . تذكرت أننى منذ ساعات قليلة كنت أحمل هم المبيت والخوف من صقيع الليل ، فأحسست كأن كابوسا مروعا قد انزاح عن كاهلى كأنما إلى الأبد . ثم بدأ ذهنى ينتفض فى الحال مفكرا فى دروب وحوار ومنعطفات . بكثير من الفرح انخرطت فى قلب الشارع المتدفق متغطيا بالجماهير ، رحلت أمشى بينهم كأننى مثلهم مربوط بموعد ينبغي أن أدركه بسرعة ، وقد بدأت أشعر بشئ من الأمان .

الأقفال

كنت أضع يدي في جيبي سروالي وأمشي مترنحا، وبدا أنني لم أكن شربت شيئا على الإطلاق ، كما أنني لست أذكر متى أكلت آخر مرة . وكانت رائحة التقلية الزاعقة تشي بملوخية وأرانب محمرة ، تنبعث من شقة ما ، في عمارة ما ، من هذه العمائر التي تحف بي على الجانبين ، حيث الشارع هادئ تماما وقد خلا من الناس وشمله صمت مريب ، تتخلله خرخشات وطرقعات صفيحية سرعان ما يتضح أن رهطا من القلط يتقاتل على صحيفة قمامة كبيرة كالصندوق مندلفة فوق الأرض على ناصية حارة جانبية ضيقة ، فتختلط القمامة بالأرض الزلقة وبرك من مياه المجارى تحمل لون الصابون برائحة زنخة تزكم الأنف تكاد تزهق روى .

تجاوزت معركة القلط بمسافة كبيرة . السكون يتحول إلى وشيش غامض خفى . بعض نوافذ مضاعة في الأتوار العليا ، وبعض الشرفات . لم أكن أعرف أى شارع هذا الذى أسير فيه الآن ، لكن ما تخلف منه ورائى كان يبدو طويلاً ، طولاً يقاس بالشهور والسنين لا بالأميال والأمتار ، وأن نهايته لا تزال بعيدة بعيدة . يخيل لى أنني ألف بعض معاله ، فكثير من هذه العمائر تبدو غير جديدة على ، أكاد أعرف بعضها حق المعرفة ، بل لعلنى دخلتها وصعدت

سلالها ذات يوم لسبب من الأسباب، وبدا لى كائننى أمشى فى شارع معروف لى ، فلا بد إذن أننى أقصد وجهة بعينها وإلا ما مشيت فى هذا الشارع على وجه التحديد ، تذكرت أن الشوارع فى هذه المدينة تتشابه كما تتشابه البيوت والدكاكين والبشر، حينذ انتفض قلبى كفردة حمام مذعورة ، وشعرت بأن مشكلة تكمن خلفى وأننى مطالب بحلها على الفور قبل الشروع فى الخطوة القادمة ، سرعان ما انسحبت هذه المشكلة - التى لم أعرفها على وجه التحديد - من خاطرى ، وبدا أنها التحقت بما يشبه أن يكون مأساة حارقة كبيرة تقودنى إلى السير هكذا فى هذا الشارع فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ..

صوت طرقعات متسقة الإيقاع ينبعث من خلفى فى شئ من الإنسجام ، يقترب ، يعلو ، يتحول إلى خيب ، كانت عربة حنطور يجرها حصانان ، تفر بجوارى وعلى جانبيها فانوسان يفرشان أسفلت الشارع بضوء شاحب محمر قليلا ، لمحت بداخلها بعض السياح العرب لابسى الدشداشة والعقال . تذكرت أننى لابد أن أتوقف الآن عن السير لأبت فى وجهتى ، لابد أن ألتقط أنفاسى من التعب لأعرف - على الأقل - إلى أين أنا ذاهب الآن على وجه التحديد ولماذا ..

أول شعور دهمنى بمجرد توقفى هو الرغبة فى الارتقاء فوق رصيف الشارع والإستغراق فى نوم عميق لا أصحو منه أبدا الدهر . هممت بفعلها ، ولكن الصقيع شملنى فجأة من أذننى إلى أصابع قدمى . وكانت لسعة من الصقيع فى بطن قدمى كلسان من اللهب ، سرعان ماتذكرت أن نعل حذائى مثقوب تحت مخزن الأصابع ، وأن بلل الطريق وترا به قد صنعا فى الجورب نعلا داخلنا من اللزوجة الخشنة . تبين لى أن الدفاء قد غادرنى بمجرد توقفى عن السير . تبين لى أن لا مفر من استئناف السير ..

توقفت وأنا لما أشرع فى السير بعد ، صرت ألتفت حوالى ناظرا إلى الأرض ، وبدا أننى أبحث عن شئ مهم كان بحوزتى ثم ضاع منى ، ترى ماذا يكون ؟ إنتفض قلبى ، نفس الإنتفاضة وغاض اللعاب فى حلقى ، فيما رحت أمعن النظر فى الأسفلت على وافت من ضوء فانوس بعيد معلق فى صدغ بارز من بيت ذى مشربيات تشرئب مكررة نفسها لعدة طوابق عليها علاها القدم والشيخوخة والصدأ ، وكانت جدران البيت مجرد طوب صغير تلتحم رعوسه ببعضها ، وجدته ، وجدتها ، إنها هى ، هذه الزلطة الصغيرة التى علقت بقدمى منذ وقت طويل مضى ، ولا أذكر من أمرها سوى أننى كلما أدركتها ضربتها ببوز حذائى ، فتفر زاحفة على الأسفلت إلى مسافة بعيدة ، ليصبح كل همى أن أدركها بعد خطوات ، لأشوطها ببوز الحذاء إلى بعيد .. حتام ستنتهى رحلة هذه الزلطة ؟ هى لا تحيد عن الطريق ولا تنط على الرصيف بل تجرى فى خط مستقيم أو متعرج ، لكنها لا تنحرف إلا لترتد مسرعة . أهى قدمى أم الزلطة ؟ الحذاء سيبلى إن عاجلا أو أجالا ، خير البلى ما كان أجلا .. تذكرت أننى لست أرتدى سوى هذا القميص الأزلى ، الذى لا أذكر متى ارتديته ولا متى اشتريته بل لم أعد أذكر لونه الحقيقى الأصلى ، لكننى أذكر أننى خيطت أزراره عشرات المرات ، ورفوت عراويه مرارا ، وصارعت الشواشى والشراشيب المتسللة من خياطة ياقته بشكل خبيث جدا ، فبوز حردة الياقة الشبيه بورقة الفجل منسولة ، وعبثا أدارى خيوط النسل فى داخل ثنية الخياطة ، وعديد من الإبر تتكسر فى هذا البوز المجلد المكلك ، فقماشة القميص نوع غريب من القماش لا أعرف إن كان صوفيا أم جبردينا أو كتانا ، أما السروال فقد بدا أنه كان مصلوب الحيل يوم استعرتته ذات صباح يبدو قريبا من أحد معارفى فى مدينة غير هذه المدينة ، حين بلى سروالى وأنا ضيف عليه فتنازل لى عن هذا السروال الذى

تهدلت ساقاه وانتفخت ركبته وتكونت فوقها طبقة مجلدة من الوسخ المخلوط بالعرق فبدتا لامعتين حتى فى الظلام . وكنت أحس أن الريح السامة قد شوت وجهى وأذنى ، وها هى ذى تنفض بدنى ، ترنحنى متصليبا ويدائى فى جيبي السروال تبعثان بعض الدفء فى فخذى ..

رأيتنى فيما يشبه الميدان الصغير ، مجرد فراغ كبطن دائرية للشارع ، يقف فى قلبها عمود ينتهى بفانوس صدىء عاطل . تذكرت أننى كنت هاهنا منذ وقت طويل مضى ومع ذلك يبدو كأنه حدث منذ وقت قليل أننى مررت حول هذا العمود لأدخل هذه الحارة الضيقة فى هذه المنطقة التى تدعى بأى المصريين ، لكى أسأل عن صديق عمري « بدر صفوان » ، مخرج التليفزيون الذى يسكن فى شقة صغيرة فى الطابق الثانى فى ثالث بيت على يدك اليمين وأنت داخل ، مع صديق له بلدته دمنهور يعمل موظفا فى إحدى إدارات محافظة الجيزة ، تعودت أن أبيت عنده ليلة كل بضعة أسابيع . لو كانت الشقة شقته وحده لأوانى فيها ، لكنها فى الأصل شقة صديقه وقد وفد هو عليه وشاركه فى إيجارها . هى عبارة عن حجرة وردة صغيرة ، ومرحاض ضيق ، ومطبخ كبرج الحمام ؛ فى الحجرة سريران صغيران من الحديد لايتسع الواحد منهما إلا لجسد واحد . صاحب الشقة هو الذى يتركنى أنام بجواره بحكم أن سريره أعرض بحوالى عشرين سنتيمترا ، وهو سمين ، فكان جسده يطرد نصف جسدى خارج السرير ، فينكسر عظمى ، ومع ذلك يغغم هو فى الصباح بما يعنى أنه لم يأخذ الليلة راحته فى النوم . يقولها رغم يقينه بأننى ليس لدى مانع من التمدد فوق الأرض لاعطائه حرية القلب على راحته واف البطانية جيدا حول جسده ، لولا أن الأرض عارية تماما وليس من فائض فى الفراش يسترها بله أن يسترنى ..

أعرف كل هذا ، ولهذا قررت أن أستدير عائدا دون أن أعرف لى وجهة أخرى . ولكنى حين اعتدلت لأشوط الزلطة بقدمى اليمنى فى اتجاه الشارع العمومى المؤدى إلى ميدان الجيزة رأيتنى قد شطتها بقدمى اليسرى ، فإذا هى تنحرف فى اتجاه الحارة التى يسكن فيها صديق عمري ، بل وتدخلها منزلة على الأرض إلى قرب باب البيت . اندفعت وراءها فيما يشبه الغضب وأنا زعيم بأنى سأردها بضربة معاكسة إلى الشارع الفرعى كما كانت . غير أننى حين واجهت باب البيت وجدتنى أدخله متخطيا فى ظلام المدخل ، الذى درست كل بلاطة فيه حتى بداية درجات السلم المتهاكة فى ركن خفى كما أعرف كيف أتلافى المسافة التى بلا درابزين ورأيتنى أطرق الباب القائم بدرفتيه المستطيلتين بلونهما القاتم والشراعة المستطيلة بشبكته الحديدية . سمعت صوت طرقاتى ترن داخل الشقة ، فحقق قلبى وأحسست بكثير من الخجل الدافق لجرأتى وسخفى على محاولة إيقاظ النيام فى هذه الساعة المتأخرة من الليل . مر بخاطرى صوت صامت يهيب بى للأعواد الطرق ثانية ، وأن أستدير عائدا ، وكانت قبضتى لاتزال على باب الشراعة ، فلما استجبت لصوت العودة تذكرت شيئا خفق له قلبى ثانية قبل تأكدى من حدوثه ، ولأتأكد من حدوثه مررت بيدي على مفصل الدرفتين صاعدا هابطا بحثا عن رزة القفل للتأكد مما إذا كان القفل موجودا على الباب فى رزته أم لا ، فإن كان موجودا فإن الأمل فى النجاة من الزمهرير يبقى ممتدا . القفل لم يكن موجودا وهامى ذى الرزة فى قبضتى سائبة . مادريت إلا وقد شرعت فى الطرق من جديد بشدة وإلحاح . ولحظة أن تذكرت أنه كان يجب على الإنصراف كما انتويت سمعت صوت تككة السرير . وكنت قد استدترت بالفعل وتهيأت لهبوط الدرج حين سمعت صوت انتفاض وهبوط على الأرض فيما يشبه الذعر ، فهبطت الدرجة الأولى ببطء مذعورا مرتعشا وقد أحسست بندم شديد على ما فعلت . جاعنى من خلف الباب صوت تشققت فى حباله صخور النوم ، فيه زعر وغضب واحتجاج واستنكار وعدوانية

- ٦ - البن الفائر

.. كان الضجيج قد تلاشى تماما من الوجود ؛ لعلى أنا نفسى قد تلاشت ، تحولت إلى خاطرة محلقة تحت مظلة كبيرة من السحب الداكنة الغامضة . كنت أشعر أننى أفساد فى الفضاء على كتل من الأصوات المعجونة فى بعضها ، صرت صوتا ، ربما نغما ضاع وانكتم صوته فى موجات متلاحمة متلاطمة . الأرض من فرط سرعة دورانها تبدو ثابتة راسخة والأثير من فرط الضجيج والصخب يبدو مكتوم الصوت وإن كان يعبق برائحة التوجس ؛ إذ يبدو أن فى الأعماق البعيدة رجة عنيفة عنيفة . أحسنى فى القاع برهة وعلى السطح فى البرهة التالية ؛ وفى الخلاء التام برهة ، كخيط من الدخان ينسلخ من الكتل الثقيلة ويصل موصولا بها إلى مالا نهاية . ها هى ذى تلتقطنى من الجانب الآخر ، فيحتوينى حضن سحابة هابطة من عل ..

صرت أرى بين طيات السحب غرضا من الصفيح مفروشة بالحصير ، ومقهى فوق علوية يضج بصخب يبدو من وجوه الجالسين أنه عال جدا بل وعنيف .. أرى كذلك بعض حارات مقفرة ذات أبنية قديمة الطراز عتيقة كابية ، تحترق أسافل جدرانها بآثار قش الأرز المحترق تحت كوانين مبيضى النحاس ؛ تعبق فيها رائحة الفول المدمس الطازج ورائحة « القرمل » ، والرماد ، والقمامة ...

وتهديد : « مين ؟! » . نويت ألا أرد ، لكن صوت هبوطى الدرجة الثانية فضح وجودى ، فإذا بالصوت المتسائل يقتحمنى هذه المرة أمرا مهددا : « مين اللى بره ؟! » . إستدرت صاعدا الدرجة من جديد ، وقلت : « أنا يا أستاذ عبده ! » ، وخيل لى أن صوتى لم يخرج وإن سمعت هديره فى صدرى ، فإذا باللمبة المعلقة على واجهة الباب تضاء فجأة فكأنها شبكة انطرحت فوقى فعزتنى ؛ وإذا بالصوت المتسائل يصيح فى شخطة مربعة داوية ، فيما يده تعكرش فى ترباس الشراعة الداخلى « باقول مين إالى بره ؟! » . كححت مسلكا صوتى صائحا بصوت مرتعش « أنا يا أستاذ عبده ! » . قال وقد خفت عدوانيته قليلا : « سامى ؟! » . قلت : « نعم ! » . قال فى ود مفتعل : « الأستاذ بدر سافر ياسامى ! دخل الجيش منذ شهر ولن يجى هنا ثانية ! تفضل ياسامى ! » . ومضت برهة طويلة ، فلم أعرف ماذا يقصد بكلمة : تفضل ، لكن الللمبة قد أطفئت فجأة ، وسمعت صوت خطواته عائدة به إلى الحجرة ، ثم سمعت صوت صيحات السرير وهى تتلقى جسده السمين ..

حين انسللت من الباب إلى الحارة وقفت تائها لبرهة طويلة ، شعرت خلالها أن ثمة شيئا مما كان معى قبل أن أدخل هذا البيت ، عاودنى الخفقان . رحت أجهد ذهنى محاولا تذكر هذا الشئ ما هو بالضبط وأين نسيته . وكانت عيني قد اعتادت ظلام الحارة المخفف بفانوس الشارع الفرعى ، فإذا بها تنادىنى كالواقفة فى انتظارى واثقة من أننى سأخطف رجلى عائدا إليها بعد قليل . فى الحال كف ذهنى عن تشنجه ، وأقبلت على الزلطة باسمها ، فضربت بها بقدمى فى رفق حتى تصل فى زحف محسوب إلى أول الشارع الفرعى . ثم لحقت بها معطيا ظهرى للحارة . ضربتها بيوذ الحذاء فى إتجاه الشارع العمومى الكبير . كانت الضربة - فيما بدا لى - قوية مغتازة غاضبة ، جعلت الزلطة تنط قافزة إلى بعيد تكاد تخفى ، فهرولت خلفها وقد أحسست بذعر هائل ، خوفا من ضياعها .

رغم خلو الحارات من المارة ومن مظاهر الحياة فإننى على يقين من أن هذه الشقوق وما خلف هذه الأبواب التى تفتح على غموض مظلم تحتوى على ناس ينشرون بطاطينهم فى صفحة الشمس تزحف فوقها جحافل من القمل والبراغيث والبق والبعوض ؛ رجال تفوح من جوفهم رائحة الجوع ومن أجسادهم رائحة العرق المعتق الزنخ ؛ ونساء صدئات نحيفات يفضن رغم ذلك بالأنوثة . أوقن أنه على مبعدة خطوات قليلة حمام عتيق ذو باب غائص فى الأرض لبوابة كبيرة ؛ ومن خلفه موقد يحتل حوشا كبيرا يمتلى بأحمال القش والحطب المشتعل ، ترتص بينها قدور الفول الخزفية كفصيلة من الفئران الخرافية المنتفخة البطون ...

لم أكن أتوغل فى الحارات إنما صارت هى التى تتوغلنى زاحفة بإيقاع بديع ؛ فأرى أخصاصا منزوية تحت جدران شاهقة مهيبة لعلها جدران مسجد ابن طولون أو مسجد قلاوون أو مسجد برقوق أو المؤيد شيخ ، لعلها إحدى الخنقاوات القديمة أو بقايا قلعة عظيمة احتلها أحد الغرزجية فأقام بها خصا يحرق فيه الحشيش للزبائن ؛ أو أحد البلطجية أقام بها بنكا لبيع السجائر والحلويات . أخيرا بدأت السابلة ؛ رهط من الرجال والنساء بتشكيلة غريبة من الأزياء يقفون لصق عمود صغير مائل ؛ من الواضح أنهم ينتظرون إحدى المركبات ؛ من الواضح أيضا أن انتظارهم بدأ منذ قرون موعلة فى القدم وأنهم مهياون لاحتماله قرونا أخرى قادمة ...

زحفت بهم أرض الحارة كشريط ينطوى بين كتل السحاب يتحول إلى ركام من الظلال القاتمة . ثم رأيتنى فى علو شاهق ؛ والحارات من أسفل تبدو كأخطاط بارزة تتسرب من بينها المركبات والرعوس والحافلات وعربات اليد ، وتحتشد فيها أرهاط من الباعة وأرتال من المارة وتزأر فى حدودها قطارات

تمرق فى غطرسة لتختفى كديدان ؛ كل ذلك دون أى صوت على الإطلاق ، لكننى كنت واثقا أن أعنف الأصوات الصاعدة من أسفل هو الذى يرتفع بى شيئا فشيئا إلى هذا العلو الشاهق . غير أن كل ذلك سريعا ما ينطوى ، يتحول إلى سحب تجدد خيمة الظلام ، التى صرت أراها تتسع شيئا فشيئا وتعلو قبتها حيث تمتلى بنقوب من الضوء البارق فى ومضات ثابتة أشبه بومضة لحام الأكسوجين

فجأة رأيتنى أثقال وأثقال ، وأميزنى بين السحب ، فأتعرف لى على يدين وقدمين وذراعين وساقين ورأس ورقبة ؛ وكلما تميز فى شئ انفصل شيئا عن كتل السحاب ، فأبذ تميز لى كامل جسدى إرتج لى قلب بعنف رهيب فصرت لأول مرة بعد طول صمت أسمع صوتا يدق فى لهاث ورعب .. وكنت واثقا أننى هاو فى الفراغ اللآ نهائى لامحالة ؛ لولا أن بقايا من حبال دخانية لاتزال تربطنى بكتل السحاب كالحبل السرى . وكنت قد بدأت أهوى بالفعل وخيوط الدخان تمتط وترق هابطة معى . لدهشتى أننى لم أرتطم بالصلد دفعة واحدة كما توقعت ؛ إنما فوجئت بأنه حتى الهبوط الفجائى هو الآخر رحلة طويلة بين عبث الرياح المختلفة مع الهوى ..

إرتطمت بصلب ناعم مزلط ، إصطدم أنفى به فإذا هو خشب مسطح ، شريط رفيع من الخشب ، سرعان ما تبين أنه مسند لسور طويل ممتد على الجانبين . انفتحت عيني على فراغ هائل جدا بينى وبين الأرض ؛ فانتفضت صارخا متشبثا بإفريز السور كأنما لأمنع نفسى من مواصلة الهبوط إلى الأرض البعيدة جدا ماتزال . أغمضت عيني مرتجفا وشعر رأسى يطفلق وركبى السائبة تنتفض محشورة بين حديد السور ، انضمت صرختى إلى السحب القريبة جدا فى متناول اليد . كالعصفور تحت هائل المطر كان عقلى

قد بدأ يعود فيسكننى ، فجعلت أتبين شيئاً فشيئاً أننى واقف فوق سطح عمارة شاهقة جدا وعتيقة فى حى أظنه حى العباسية ، وأننى منذ وقت بعيد مضى صعدت إلى هذا السطح لأزور صديقا تعرفت عليه حديثا ، يسكن فى هذه الغرفة الصغيرة القائمة وحدها فى هذا الركن من خلفى ؛ وكان فى نيتى أن أتلكأ فى السهر حتى أضطر للمبيت عنده ؛ لكننى وجدت القفل على الباب ، فرأيت أن أستند إلى هذا السور حتى يستكن قلبى المضطرب وتهدأ أنفاسى اللاهثة من صعود هذا السلم القاتل الأليم . حينئذ حاولت عدل ظهرى فشعرت أنه قد تصلب فى إنحنائه تحت جبل ثقیل من الرطوبة الندية . ولما شعرت أن أرض السقف تستقر تحت قدمى فتحت عينى باطمئنان وألقيت ببصرى فى الفضاء .. كانت السحب قد بدأت ترق ، وتتجه شواشيها نحو لون اللبن الفائر حيث تتدافع موجات زبده المتخثر تلتهمها السماء .

- ٧ -

سواد العين

كان الصقيع ينفضنى نقضا ، ولم أكن أملك له دفعا ، فلقد كنت أعرف أننى نائم خارج جسدى فى مكان بعيد مجهول ، لكن انتفاضه الشديد استدعانى على عجل ؛ فإذا بى أشعر كأن الرياح تهب على من جميع الجهات فتتلقى عظامى وتتشنج ، ويمتلئ جلدى بقروح ملتبة . كنت أعرف أننى أنام متكورا على نفسى دافنا ذقنى بين ركبتى ، عاقدا ذراعى فوق رأسى أصد عنه غوائل الصقيع القارس اللاهب . خيل لى أننى نهضت جالسا ، فعرفت أننى أزمع الإعتدال على جنبى اليمين ، فانتبعت إلى أننى أنام فى سيارة ملاكى على المقعد الخلفى الضيق الذى لايسمح لى بالتقلب إلا إن جلست واعتدلت، شعرت بدماعى يتلكأ على باب الغيبوبة لكى ينبه جسدى بأن يخف من ثقله ما أمكن حتى يظل على أهبة فى اللحظة التى بدت قريبة ، فصاحب السيارة سيحضر بعد قليل ليتسلم سيارته من الجاراج ، فلا بد أن أكون خارجها قبل حضوره بوقت كاف لإعادة ترتيب المقعد وطرد رائحة النوم من داخل السيارة . تذكرت أن هذه السيارة ليست من زبائن الجاراج التى تدفع الحساب كل شهر ، إنما هى سيارة عابرة طلبت المبيت ليلة واحدة ؛ ولأنها ستتأخر قليلا فى الإنصراف أزيح بها إلى الداخل بعد العمدان لصق الحائط الأخير وتقدمتها صفوف السيارات

التي ستبكر فى الإنصراف حسب الترتيب الذى يعرفه السائس بحكم الإعتياد؛ ولهذا اختارها لى السائس كى أنام فيها ، واستكن هو فى حضن زوجه فى حجرة تحت سلم للخدم فى نفس العمارة موصول بالجاراج بممر ضيق. تذكرت شيئا بدا أشد أهمية ، كدت أنتفض جالسا وأنزع الدفتر الصغير من تحت إبطى لأراجع عدد السيارات العابرة التى تبيت عندنا هذه الليلة وهى دائما كثيرة كما أنها مصدر الدخل الحقيقى بالنسبة للجاراج . حاولت استعراض ألوانها - بدلا من أرقامها - فى رأسى . كنت على يقين أن السيارة التى أنام فيها الآن لم يتم تقييدها فى الدفتر بادئ ذى بدء ، وبالتالي فهى منزوعة من الحساب السرى القائم بينى وبين السائس . ليس من حقى التطلع إلى البقشيش لأن « حمدين » السائس هو الذى ينظف ويلمع ويدفع السيارات وحده بدرجة هائلة بظهره فيما يده ممسكة بعجلة القيادة توجه مؤخرة السيارة كما يشاء على الشعرة فلا تحك فى عمود أو تصطدم بجارتها ، رغم تأكدى من دقة الحساب داخلنى الشك فى « حمدين » إنه هو الذى فتح عينى على هذه السرقة . فأننا - كما بدالى - أعمل كأننا فى مكتب الأستاذ « حبيب الحبيب » المحامى الكبير جدا بمدينة المنصورة ، ومكتبه فى عمارة خطيرة الشأن بهذا الحى الأفرنجى المعروف بإسم « توريل » ويحفل بعدد هائل من الموظفين والوكلاء والكتبة والفراشين والمحامين الشبان الذين يعملون تحت التمرين ، ولديه فى كل يوم عشرات الجنايات والجنح فى محاكم الدقهلية برمتها ؛ وسيارته الفورد المكشوفة أشهر من نار على علم ؛ ومجرد ظهوره بجوار المتهم فيه تخفيف لثقل المصيبة وفيه أمن واطمئنان أحلى من حكم البراءة نفسه ؛ فالأستاذ « حبيب الحبيب » ليس مجرد محام كبير شهير لامع فحسب ، إنما هو صحفى بنفس الحجم ونفس الدرجة من الشهرة واللمعان ؛ صحفى صحفى بالمعنى

الحرفى للكلمة وليس مجرد هاو يمارس الكتابة فى الصحف ، يكتب التحقيقات الصحفية الكبرى التى تهز الرأى العام فى المجالات القانونية والقضائية والمسائل التى تهم الرأى العام ، ويتابع محاكمات السياسيين على صفحات كاملة من جريدة (الأنباء) وهى من كبريات الصحف ؛ وله إلى ذلك زاوية أسبوعية ثابتة بحجم ربع صفحة فى الصفحة الأخيرة يتابع فيها أخبار القضاء والشئون القانونية ونشاط المحاكم . هو حاصل على شهادتين : ليسانس الحقوق ولسانس آداب قسم اللغة الإنجليزية ؛ وهو خطيب مفوه جهير الصوت رصين الأسلوب متزن الفكرة ضيق العبارة فى بلاغة ناصعة ، موفور المفردات ، مرافعاته فرجة مابعد فرجة ، يحتشد لها الناس خصيصا ويعرفون مواعيدها فى جميع المحاكم إذ أن لمكتبه فروعا فى جميع مراكزها وبناجرها ، ولأنه من أسرة غنية فى الأصل فإنه يملك عمارة مكتبه وهذه العمارة التى يحتل هذا الجاراج دورها الأرضى كله بمساحة شاسعة يجرى فيها الحصان . هو إلى ذلك رجل غاية فى اللطف والدمائة والرقه واتساع الأفق والحنو ، لدرجة أننى حين اقتحمت مكتبه ذات يوم منذ مايقرب من عامين وطلبت مقابلته أذن لى بعد مضى ثلاث ساعات ؛ هكذا أبلغنى مدير مكتبه وطلب منى الإنتظار فى الاستراحة وهى عبارة عن ردهة كبيرة فيها أكثر من صالون وأكثر من أنترية وأكثر من طاقم على النظام المسمى بالأسيوطى . جلست بين عديد من الزوار على مختلف الأشكال والألوان ، جلابيب وعباءات وزعابيب وطرايبش ورعوس عارية مصففة الشعر ، وهوانم يرتدين التاثيرات وسيدات عجفوات ونساء حافيات يرضعن أطفالا مهزولين . ولم يكن ذلك غريبا لأن الأستاذ « حبيب الحبيب » عضو بمجلس الأمة عن أكبر دوائر الدقهلية لأكثر من مدة . حين طلبت لمقابلته تلقانى فى ترحاب ، بجسده الضخم الممتلى ، وجهه كالفطيرة الفلاحى

المحمرة فى الفرن ؛ متناسق الملامح فى وسامة فاتنة ؛ بغم ضيق مكتنز الشفتين وأنف مستقيم وعينين حالمتين خلف منظار ذهبى الإطار سميك العدسات ؛ تحت الأنف شارب كالخنفساء مشذب؛ والشعر أسود قصير مصفف ومفلوق من الجنب الأيسر من قرب الأذن مباشرة ؛ أما السوالم فطويلة نوعا ؛ وأما الرقبة فقصيرة جدا ، تضع تمام تحت ياقة القميص السمنى الكبيرة المحرودة بزائوية منفرجة تتوسطها عقدة رباط العنق المسحوبة كرقبة الديك؛ وأما الكتفان فعريضان ممثلئان تنطرح فوقهما سترة من الشركسكين الأبيض اللامع لون سن الفيل ، السروال الأسود من الصوف الهيلد ، رائحة العطور تملأ الغرفة العريضة الحافلة بالسجاجيد الكثيفة الشعر والألوان؛ الأثاث والرياش فاخران ، المكتب ضخم كتحة فنية مشغولة بالأصداق ، ترتص فوقه عشرات الملفات والأجندات والمجلدات والكتب وعلب السجائر والغلايين ؛ جميع الحوائط مغطاة بدواليب الكتب المجلدة تبرق على كعوبها حروف الذهب ، المرايا فى الأركان والمراوح فى السقف والحيطان ؛ أين الجنة الموعودة من هذه الغرفة . أشار لى باسماء فجلست ، بهيئة كبيرة زحفت يده السمينة البيضاء المليئة بالشعر والنمش والخواتم الذهبية الدقيقة الصنع ، مقدما لى علبة السجائر فارتعشت ؛ كنت أنوى الإعذار عن التدخين أمامه حتى يأخذ عنى إنطباعا طيبا ، لكن حركة يده كانت حاسمة ، كرمتنى بإصرارها بأن أفضّل بأخذ واحدة . كانت سيجارة أجنبية طويلة القامة ؛ قلت : شكرا ، لكنه نزع السيجارة وقدمها لى فأخذتها . ثم دخل فنجان القهوة مع أفندى شاب يرتدى بذلة مشغولة بالقصب مكتوب عليها اسم مكتب الأستاذ بطريقة مموهة فى شكل تنكرى جميل. قال الأستاذ : « تحت أمر سعادتك » . قلت إننى من قرائه وإننى من هواة الكتابة الأدبية لكننى بلا عمل وأطمع فى الإلتحاق بمكتبه إذ أننى أعرف

بعض الخبرة بشئون مكاتب المحامين . ببساطة لم أكن أتوقعها سألنى عن آخر مكتب اشتغلت فيه ؛ فقلت إنه مكتب الأستاذ « أنور الخبى » فى بلدتى مركز قلين بمحافظة كفر الشيخ . فلماذا تركته ؟ زعمت أننى جئت إلى المنصورة لمواصلة التعليم من منازلهم تحت إشراف زوج خالتي رجل التربية والتعليم المقيم فى قرية قريبة من المنصورة سوف أبيت فيها كل يوم ، قال بأريحية عظيمة : « معك أوراق ؟ » . قدمت له استمارة الشهادة الابتدائية التى حصلت عليها من عامين مضيا ، وصحيفة سوابق مطوية تكاد تنهز ، وعدد من مجلة الأدب لأمين الخولى منشور به رسالة بإسمى ورد بها عبارة : جاعنا من الأديب فلان الفلانى - أى أنا يعنى - وكراسة فيها أشعار وأغنيات وخواطر أدبية كتبتها . تصفح كل ذلك بهوء عجيب وصبر مذهل ، فلم أعجب من نجاح رجل يتسع صدره ووقته لقراءة ماقدمته له بكل اعتبار ويدون أدنى استهانة أو استخفاف . ثم إذا به يسحب ملفا جديدا فيضع كل هذه الأوراق ويكتب فوقه اسمى وعنوانى ، ويضغط على زر الجرس ، فيدخل مدير مكتبه ، فيعطيه الملف قائلا وهو يشير إلى : « فلان أفندى سيتعاون معنا ! سلمه للسعداوى أفندى يساعده فى شغل المختلط ! » ثم وجه الكلام لى : « يا فلان أفندى سأعطيك راتبا قدره ثلاث جنيهات فى الشهر ! ولكن عملك ليس هنا فحسب ! إنما سأكلفك بمسك حسابات الجاراج وتكون ملاحظا عليه ! تقيد أرقام السيارات الواردة كل ليلة ! وأما مشكلة المبيت فتستطيع أن تدبرها فى أى لوكاندة شعبية ! سأزيدك خمسين قرشا لذلك ! وحينما يعجبنا شغلك سنعطيك علاوة طيبة ! وستكون مبسوطا ! توافق ؟ » . قلت والفرحة تغمرنى : « طبعاً أوافق ! هذا شرف كبير لى ! » . قال مدير مكتبه فى لهجة كالإنذار : « العمل يبدأ هنا من الثامنة صباحا ! تحافظ ما أمكن على نظافة ثيابك وكيها واتساقها ! » كاد

الدمع يطفر من عيني ، قلت : « حاضر ! » قال الأستاذ : « ستكون مبسوطا ! ولكن إياك وفعل أى شىء يضر بسمعة المكتب ! كن عنوانا لنا ! وابتعد عن السلوكات التى يسلكها الصبيان مع العملاء فى سبيل البقشيشات ! نحن نستخلص لك البقشيش الكريم بطريقتنا ! إعتد على الله » . قلت : « شكرا يا سعادة البية » .

قال : « حمدين » السائس فيما نجلس فى الهزيع الوسيط من الليل نتبادل شرب الشاي والجوزة فى الممر أمام سلم الخدم : « ثلاثة ملاطيش ونصف ؟ ! معك الابتدائية وتقبل هذا المرتب ؟ ! إن أصغر فراش جاهل عنده يتقاضى سبعة جنيهات ونصف ! الولد الذى قدم لك القهوة مرتبة تسعة جنيهات غير البقشيش ! على كل حال الأستاذ طيب وابن حلال ! الواحد يحب أن يخدمه ولو بالمجان ! هو فى الحقيقة يستاهل ! لكن كيف تستطيع تدبير نفسك بهذا المبلغ ! أنت كفيف سجاىر وشاى وتحب التأليف والتأليف لابد له من مكيفات تعدل الدماغ ! إسمع ! بدلا من دفع القلوس فى اللوكاندات المليئة بالبق والقمل ضيع الليل معى ها هنا ! نم فى أى سيارة ! على شرط أن تصحو مبكرا ! أظن أن الأستاذ تهمة حسابات ؟ قلبك أبيض ! كنت أقيد فى الدفتر وأعرضه كل يوم عليه فلا يفتحه ! إنه رجل بركة ! لن يعد وراك وليس من طبعه التخوين ! مدير مكتبه سوسة ! هو الذى يُوحي ! لكنه طيب هو الآخر ! سيجارة ترضيه ! علبه سجاير هدية ! أنت والله صعبان على ! لكنك تستطيع أن تكسب كل ليلة ثلاثين قرشا لو لينت مخك قليلا ! لدينا سيارات الأبونية معروفة ! أما السيارات الطيارى فكثيرة ! تمكث بضع ساعات وتدفع إيجار الليلة ! لماذا لا تكون من نصيبنا نحن ؟ هو رجل غنى لديه دخل من هذه العمارة وعمارة مكتبه ومكتبه وأرض زراعية فى بلدته ! وهو ملىء العين لن ينظر لهذه الملايم التى نختصرها من

ورائه ! أقول لك : نقسم البلد بلدين ! سيارة له وأخرى لنا ! أنا رجل عندى زربة عيال وأهلى فى المنوفية لا يملكون اللضى ! وأنت رجل صاحب مكيفات وغريب عن الأوطان ! ولو رحلت له الشغل بقميص مقطوع لردك فى الحال ! فهل الثلاثة الملاطيش ونصف يكسونك ويعالجونك ويكيفونك وينيمونك ؟ ! لئن مخك ! يفوز بالذات كل مغامر ويموت بالحسرات من يدرى العواقب كما قال ابن عروس ! « قلت بشىء من التوجس : « قد يرسل من يفتش علينا فتكون الكارثة ! » . دارت عيناه فى محجريهما بسرعة ، تكاثفت التجاعيد فى خديه المستطيلين الغائرين ، انعوجت البسمة الخبيثة على حنكه الواسع المخرب من الدروس والأنياب ، قال هامسا : « لا يشغلنك هذا الأمر ! أنا أرتب كل شىء ! السيارات التى تقيدوها ندخلها إلى الجاراج ! السيارات التى نأكلها نتركها فى الشارع على مقربة منا فتكون تبعنا وليست تبعنا فى نفس الوقت ! مع أنى واثق أن أحدا لن يفتش وراعنا ! دعها على الله ! » . كنت على ما يشبه اليقين بأن شيئا كهذا قد بات يحدث منذ وقت طويل مضى ، مع ذلك كنت على ما يشبه اليقين أيضا بأنه لم يحدث بعد ، وأننى مازلت متوجسا من مجرد التفكير فيه . ثم رأيتنى فى الحال واقفا على باب إحدى المحاكم ممسكا ببعض الملفات فى انتظار الأستاذ أو من ينوب عنه من أساتذة المكتب ! وكان من الواضح أننى قد أخطأت خطأ فادحا ، إذ كان من المفروض أن أكون فى إحدى المحاكم بالأمس فى لحظة معينة فى انتظار أن ينادى الحاجب على القضية الفلانية رقم كذا فى الرول ، لكى أقدم بالملف من أى محام من الجالسين على المنصة فأعطيه الملف راجيا منه باسم الأستاذ أن يتكرم بالوقوف لإرجاء النظر فى هذه القضية بعض الوقت أو تأجيلها لجلسة أخرى لحين حضور المحامى الأسمى نظرا لظرف عارض عطله ، لكننى بسبب سهرة تحشيشة مع « حمدين » السائس نسيت أن أفعل وذهبت

متأخرا فتم شطب القضية نهائيا . ثم رأيت الأستاذ نفسه مقبلا ، فتقدمت منه لكى أمضى خلفه بالملفات حتى قاعة المحامين ، فإذا به يتناول الملفات ويقلمها فيأخذ منها ملفا ثم يرد لى الباقي ، ثم بكل هدوء وبساطة يقول : « ليكن فى علمك أنك ستفصل اليوم حينما نعود إلى المكتب ! » . إنتفضت فى الحال جالسا أحاول فتح عيني بصعوبة واستدعاء عقلى من مناطق مجهولة ...

إذا بى على حرف سرير سفرى فى مساحة لاتزيد على شبرين ، وبجوارى شخص متكلفت بالبطانية . تذكرت أنه لم يكن يريدنى أناام بجواره . الحجرة كانت صغيرة مربعة ، ضمن شقة صغيرة فى البدروم ، مكونة من هذه الحجرة وحجرة أخرى على ممر جانبي ، وردة ضيقة ، ودورة مياه . تذكرت أن الحجرة المطلة على الممر الجانبي بجوار باب الشقة يسكنها صديق لنا اسمه « مسعود كامل دهب » ، من كتاب القصة القصيرة . أعرفه من الإسكندرية حيث كنا معا أعضاء فى جمعية أدبية وهمية مكونة من مجموعة أصدقاء يزاولون هواية الكتابة الأدبية . أبوه صاحب مقلاة لبيع اللب والفول السودانى فى حى محرم بك ، يشتري الكتب والمجلات القديمة بالأقة ليحيلها إلى قراطيس يبيع فيها ، مسعد ابنه منذ طفولته كانت هذه هى مهمته ، التى وكلت إليه بشكل رسمى منذ أن سقط فى أمتحان الشهادة الإبتدائية ، فدأب على قراءة كل هذه الأوراق قبل تحويلها إلى قراطيس ، فركبه الجنون ، جنون القراءة ثم جنون الأدب ، فراح يقلد ما يقرأه فى كتابات إن افتقرت إلى أصول الكتابة المتبعة حينذاك فإنها تنطوى على صدق وحرارة وتجربة . كان نصف مجنون نصف عاقل ، يبدو الجنون على وجهه لأول وهلة ، فى منظاره الطبى العريض الذى يبتلع كل وجهه المكبظ الغليظ ، بعينين واسعتين بشكل يبعث على الخوف ، وحنا واسع كبير الأسنان ، وضحكة موصولة لاتنقطع مجلجلة ممطوطة بمناسبة

وبلا مناسبة ، وسمت عام أقرب إلى سمت البلطجية والشوارعية ، حديث هو لغة الحوارى فى أحط صورها مخلوط بمقدرات فخيمة رنانة وشعارات المثقفين التقدميين ، ومن يستمع إلى حديثه المرسل فى عفوية وثقة عمياء يدهشه الكثير من الخلط والتناقض والإبهام ، لكنه لودقق فيه فسوف يخرج بأفكار لابأس بها ، ومعان على شىء من العمق والوجاهة ، وبعض الحكمة المستقاة من موروثات رجل الشارع والحرفيين ، ومن ماثورات الفلاسفة القدامى ورجال الدين وكونفوشيوس . كان يسهر الليل بطوله يدبج الكلام فيملا الكرايس ، ويستيقظ فى الضحى مغلق العينين ، يبدأ الشجار اليومى مع أبيه ، فيتفرج عليهما كل عابرسبيل ، ويلتم الجيران والزبائن فيصلحون بينهما بعد لآى ، فيبقى كل منهما مزورا عن الآخر بقية اليوم ، حتى يئس الرجل فطرده من المحل والبيت معا ، فانطلق متحررا ، استأجر غرفة من الصفيح فوق سطح بيت عتيق فى حارة الفرارجى بحى بوالينو ، والتجأ إلى إحدى المقليات فأخذ منها - على حس أبيه - تشكيلة من اللب الأسمر والأبيض والفول السودانى المقشر ، عبأها فى قراطيس وأكياس ، رصها فى سلة مفرطحة ، إتخذ من سينما رياتو سوقا له ، يلف بين الكراسى صائحا : سودانى واللب ! سودانى واللب ! ، ويدفع عمولة للمتعهد . كان على شىء كثير من الجرأة والصفاقة ودقة الملاحظة والذكاء ، يعرف لجميع الكتاب والشعراء والمفكرين المشهورين بصورهم وأخبارهم ونتائجهم ، بل يعرف مواعيد نزولهم إلى المصيف وعناوينهم والشواطىء المفضلة عندهم ، فيقتحمهم ، يقدم لهم نفسه على حقيقتها دون أى محاولة للتجميل ، يعرض عليهم كتاباته ، يفتنهم ويثير فضولهم ، يرحبون به فعلا ، يقرأونه بحماسة كبيرة ، يتلطفون فى التعليق عليها وعليه . أحدهم بالغ فى الإعجاب به ، هو كاتب سياسى تقدمى يكتب فى الأدب

أحيانا ، ويحرر صفحة فى جريدة المساء يملأها بصور الكادحين والعمال والقضايا الإشتراكية ، استخفه الطرب بـ « مسعد كامل ذهب » فكتب عنه مقالة كبيرة صب فيها كل إعترازه بالطبقة العاملة والبروليتاريا والتيارات التحتية ، ونشر له أقصوصة وصورة أحدثت دويا فى الأوساط الثقافية والأدبية وأحسن « مسعد » إستغلالها بذكاء كبير ، إذ نزع هذه الصفحة وأرسلها فى خطابات مسجلة لجميع المسؤولين المرموقين فى مراكز العمل الثقافى والفنى نفعت بالفعل ، تحمس له أحدهم ، ألحقه بوظيفة كتابية متواضعة فى هيئة ذات صبغة ثقافية وفنية . وهكذا انتقل « مسعد كامل ذهب » إلى القاهرة فى اللحظة التى كان قد صار فيها زوجا لبنت فقيرة ، فتركها ، وعاش شخصية الكاتب المرموق ، صارت الصحف والمجلات تنشر قصصه بإعجاب دعائى لا يعكس تقديرا حقيقيا ، إلى أن بدأوا يتمعنون فى كتاباته ، فيجدونها أقل مما تصوروا ، فبدأوا يترآخون فى نشر قصصه ، وبدأ يشاكلهم ويعاركهم ، وباتوا يضيّقون بإلحاحه وصفاقته وطول لسانه ، فيغلظون له القول ، ثم يتهدّبون بصريح العبارة ، حتى بات عصيبا لا يطاق ، وأستفحل جنونه ، أصبح أسير عقدة الشعور بالإضطهاد ، حكم على نفسه بالعزلة التامة ، معتبرا أن الجميع يحقنون عليه ويصادرون نجاحه وموهبته ، لا يكاد يكلم أحدا فى مكان العمل ، فإذا أب إلى المنزل أغلق على نفسه حجرته وراح يقرأ ويكتب عن خسة البشر حتى يدهمه النوم ..

الشقة أصلا كانت بإسمه ، فى شارع المتحف الزراعى بحى العجوزة ، إيجارها ستة جنيهات . لم يكن يقبل أن يشاركه فيها أحد ، حيث كان يزعم أن يقيم فيها مع زوجته ، لكنه حين أتى بها أكتشف أن منظرها ومستواها لا يليقان بشخصية كاتب مشهور ، كما أنها يمكن أن تبادله الرّوح مثلما كان يفعل مع

أبيه ، فأعادها الى الاسكندرية حاملا ، ثم أهملها حتى أنجبت طفله ، فطلقها ، ثم ردها ، ثم طلقها ثم ردها ثم طلقها ، وبات يدفع نفقة ، فبات يستكثر إيجار الشقة . إلى أن ساقته له الظروف صديقنا « البرديسى محمود البرديسى » . كان هو ثانى مسافر إلى القاهرة من شلة الإسكندرية التى كنا نطلق عليها جمعية الطليعة الأدبية ، يترأسها « مسعد كامل ذهب » بحكم أنه مكونها ومأنحها رصيف دكان أبيه كمقر ثابت للإجتماعات والندوات التى كانت تدور عادة حول قصص « مسعد » وأرائه المتطرفة فى الحياة والناس والأباء وتفاهة جميع الكتاب ، وحول قصص يوسف إدريس ويوسف الشارونى وادوارد الخراط ونجيب محفوظ وأزجال بيرم التونسي وشعر عبدالرحمن الشرقاوى وصلاح عبدالصبور ، وحول الأفلام الأجنبية التى لا يفوتنا فيلم واحد منها . لم يكن فى المجموعة كلها من كاتب فيه الرّمق الحقيقى سوى « البرديسى محمود البرديسى » يليه « مسعد كامل ذهب » لولا جنونياته الكتابية غير المبررة ، غير المفهومة أحيانا . البرديسى كان أقرب لى ، كان صديقى الوحيد بينهم . كنت بائعا سريحا فارتقيت إلى مستوى آخر من الباعة ، أحمل عينات فحسب ، لأبيعها بموجب طلبيات كتابية لحساب شركة بويات كبيرة . تنتهى رحلتى اليومية - بتدبير منى - فى حى الشاطبى ، حيث تكون الساعة قد بلغت الخامسة مساء ، أتجه إلى مقهى حميدو فأشرب الشاي والبورى فى أنتظار البرديسى . بيتهم مواجه للمقهى ، بابه يفتح على حارة ضيقة ، وشبابيكه الخلفية تفتح على الأخرى على حارة ضيقة أيضا ، له مدخل بسلم كثير الدرج ، والبيوت ذات طابع رومانى يونانى قديم . حينئذ يكون البرديسى على وشك الإنتهاء من حسابات أبيه . فأبوه مقال مبان متوسط الغنى ، خلفته كلها بنات فيما عدا البرديسى وغلام آخر صغير . كان البرديسى قد واصل التعليم حتى شهادة الثانوية العامة وعجز

عن حيازتها لثلاث سنوات متتالية بسبب انقطاع مخه السارح دائما فى القصص والروايات ، فتنحصر من المدرسة ، لم يعد له عمل سوى أن يظل طول النهار يقرأ ويكتب حتى يئوب أبوه إلى البيت فيمكث فى خدمته ساعتين على الأكثر يجرى فيهما حساباته ينظم دفاتره ويقبض عماله ، يكون موقنا أنني فى إنتظاره ، مايكاد ينفلت من أبيه حتى يجرى بمشية كمشية أولاد البلد الصناعية فيها لهوجة وتشويح بالذراعين ، بقامته النحيلة المديدة قليلا ، ووجهه الشبيه بحبة مانجو كهربائية اللون مكتنزة وجذابة ، أنف صغير رشيق بين عدستى منظار مشرق أبيض العدسات أرجوانى الإطار، شعره قصير مقلقل منسق ، يرتدى على اللوام سترة ثمينة وسروال من لون مختلف ، وصديريا من الصوف المشغول باليد بأزرار صدقية كبيرة ، ورباط عنق ، ودائما أبدا يتأبط بعض المجلات والكتب ، فى عينيه نظرة تأمل رصينة حانية دافئة ، وفى صوته صلصلة جميلة حين يضحك أو ينفعل ، هو نادرا ما ينفعل وكثيرا ما يضحك متفجرا ، كثرة الضحك عنده نابعة من شدة الذكاء وعمق الملاحظة واكتشاف المفارقات ، لذا فضحكه دائما مفهوم ومشع وباعث على الإنتباه ، عكس كثرة الضحك عند مسعد الذى ينبع من التضخم والإستهانة والإستخفاف ولذا فضحكه دائما فيه مسحة البلاهة ودائما غير مفهوم . أول مايطب البرديسى يبدأ فى الحال يحدثنى عما قرأه اليوم فى المجلات ، الروايات العالمية التى يلخصها أحمد بهاء الدين بعبقريّة مدهشة ، سخطه على نجومية يوسف إدريس المترهلة التى ستحجزه عن الشارع . ثم نقوم لنتجه إلى السينما ، أو يختطفنا صديقه « فاروق عريشة » بائع الأحذية صاحب الدكان المجاور للمقهى ، الشاب السمهرى القوام الذى يبدو لأول وهلة أنه من أصل طليانى أو رومانى فى حين أنه ابن بلد صرف ، قد يذهب معنا إلى السينما ، قد يعزّما

على تحشيشة فى دكان آخر فى حارة خلفية ، يستقطب شلة من أبناء الحى فنمكث الليل كله على رصيف مقهى آخر نتبادل النكت والقافية الساخرة ومنح جائزة لمن يستطيع إرسال الكلام الفارغ التافه لمدة ربع ساعة بدون توقف فى لهجة جادة رصينة ، غالبا ماكان يفوز بها البرديسى لما عنده من حصيلة هائلة من المفردات الجوفاء التى جمعها ذهنه الإنتقادی من برامج الإذاعة والتليفزيون والندوات التى ينبرى فيها المتحدثون دون أن يقولوا شيئا مهما . من البرديسى تعلمت عادة جميلة نفذتها حرفيا بل اخترت لها نفس المقهى ، إذ تعرفت على « محمد » صاحب أكبر فرش للجرائد على محطة الرمل ، كان لطيفا جدا ، يفخر دائما بأمانا بأن إدوارد الخراط كان زبونه أيام طلبه العلم فى الجامعة . فى صباح كل يوم أمر عليه ، فيجمع لى الجرائد الثلاث ، مع كل المجلات الأسبوعية والشهرية التى صدرت اليوم ، والكتب التى صدرت مؤخرا . فأعير الشارع ومقهى التريانون الفاخرة ، لأعرج على حارة جانبية شديدة النظافة لامعة الأسفلت مطلة على البحر مباشرة ، وفيها مقهى بلدى يؤمه الموظفون والعمال والبوابون ويوزع المشروبات على مكاتب الشركات والمحلات فى الشقق حتى منتصف شارع صفية زغلول . ساعتان بالضبط ، من الثامنة إلى العاشرة صباحا أكون قد أنتهيت من تصفح كل ذلك وقرأت مايهمنى فيه ، لأعود به إلى « محمد » فأدفع له إيجار ذلك قرشا أو قرشين ، فإن أعجبني كتاب احتجزته يوما أو يومين بالإيجار أيضا أو ربما اشتريته بالأجل ، ثلاثية نجيب محفوظ كلها اشتريتها منه بالأجل ، وكذلك أرض الشرقاوى وديوان الناس فى بلادى لعبد الصبور وديوان القمر والطين لجاهين وجمهورية فرحات لإدريس وحيطان عالية للخراط ، أظن أنني اشتريت نصف ذلك واشترى البرديسى النصف الآخر وصرنا نتبادل الأنصاف . أدمن البرديسى دخول المسابقات حتى لقد فاز ، بجائزة نادى القصة فى القصة القصيرة لمدة أربعة أعوام متوالية

وصل فيها إلى المركز الثانى . وكانت قصصه الفائزة تنشر فى مجلات الرسالة الجديدة والتحرير والبوليس والإذاعة وقصتى . حدث أن مجمع اللغة العربية أقام مسابقة للقصة الطويلة فاشترك فيها وفاز بالمركز الثالث ، وأقامت إحدى الهيئات مسابقة لإكمال الرواية التى كتبها الرئيس جمال عبدالناصر بعنوان «فى سبيل الحرية» عن معركة رشيد ، وكان الرئيس قد كتب فى صباه حوالى أربع صفحات ، فاشترك البرديسى فى هذه المسابقة التى فاز فيها عبدالرحمن فهمى بالمركز الأول ، وفاز البرديسى بمركز لأبأس به ، فكانت هذه هى شرارة الإنطلاق ، على أثرها سافر إلى القاهرة والتقى بمسئول كبير عن هيئة ثقافية كان فى نفس الوقت كاتباً مشهوراً ، قدم له طلباً ، فعينه فى نفس الهيئة التى عين فيها من قبل صديقنا «مسعد كامل دهب» فى وظيفة مشابهة . للبرديسى صديقان من أصدقاء الطفولة يعملان فى القاهرة ، كنت أعرفهما بحكم أوبتهما الأسبوعية إلى أهليهما فى الشاطىء بالإسكندرية : «سعيد شنقار» ، ربعة القوام صدىء الوجه غائب الملامح واسع الفم بأسنان كبيرة مسودة متزاحمة متلاحقة فكأنها مقطوع واحد ، يرتدى هو الآخر منظاراً طبياً غليظاً متهدلاً على أنفه ، خشن الثياب والمظهر لكنه ينطوى على كثير من الرقة وروح الفكاهة ، وحديثه ملىء دائماً بالغمز واللمز ولغة السيم المغطاة شأن أولاد البلد ، شغلته سباق ، فى شركة مقاولات كبيرة ، يتقاضى مرتباً بأس به ، يفهم قليلاً فى السياسة والأدب بحكم عشرته للبرديسى ، ينفق نصف ساعة قبل النوم فى قراءة الروايات البوليسية أو مقالة بصراحة لمحمد حسنين هيكال التى يقرأها على مدى الأسبوع كله . الثانى هو «فخرى الحباك» طويل القامة نحيف البدن مسخوط الوجه كأنه مجرد قناع مشدود الجلد مأزوم الملامح كأنها منحوتة من الفخار بيد مثال بدائى ناشف الأصابع ضنين بالحيوية ؛ فى أنفه قليل من الخنف ، وفمه ضيق يكاد يكون بلا شفيتين ، قليل الكلام لكنه يشارك فى الحوار

بعينه البراقتين اللتين لاتهمدان كأن وراءهما مهمة عاجلة جد خطيرة . يعمل فى نفس الشركة التى يعمل بها «شنقارة» ولكن فى وظيفة كاتب حسابات إذأنه يحمل دبلوم التجارة المتوسطة ؛ متأنق فى ملبسه يقلد أبناء النوات المنقرضين فى لبس السترة البليزر فوق القميص المفتوح الباقة وأزرار الصدر؛ يشتري جريدة الأخبار كل يوم ليطويها تحت إبطه كجزء من الأناقة . أتى بهما البرديسى ليشاركاه المسكن فى شقة «مسعد كامل دهب» ، على أن يستقل «مسعد» بحجرته الكبيرة الشرحة مقابل جنيهين اثنين فى الشهر ، ويستقل البرديسى وصديقه بالحجرة الثانية والردهة التى لاتزيد عن باحة يتحرك فيها باب الشقة ، مع ذلك وضع فيها البرديسى مكتباً ومقعداً . منذ سفر «البرديسى» شعرت أنه لابقاء لى فى الإسكندرية ؛ شعرت أن انتظار الفرصة قد يطول ويطول ، شعرت بضرورة السفر ؛ قررت المغامرة ؛ بعث مكتبتي التى جمعتها بجوع السنين ، ملأت ثلاث حقائب كبيرة بتشكيلة من الملابس كنت قد اشتريتها بواسطة أحد أقاربي من السنن الأجنبية بأسعار تافهة لاتليق بشدة فخامتها وأقمشتها الثمينة وتفصيلاتها المبهرة ، لدرجة أنها كانت تضى على شكلى طابعا أرسقراطيا فريدا وتسلكنى فى زمرة الأنقاء من نجوم السينما؛ وتَخَذْتُ طريقى إلى القاهرة لأبدأ مهمة شاقة وعسيرة : البحث عن عمل . غير أننى كنت موقنا أننى لن أدوخ طويلاً ، فالذى عمل بائعاً سريعاً فى مدينة الثغر لن يستنكر عملاً مثله فى العاصمة الكبرى فى رحاب الصحف والمجلات ودور النشر والإذاعة والتلفزيون . لم أكن أعرف أحداً فى القاهرة سوى البرديسى ، ولا مسكناً سوى مسكنه ، وهكذا رآنى أهبط عليه ذات ليلة ومعى حقائبي ، فاستقبلنى استقبالا حافلاً واحتفى بى صديقه ، ووسع لى «فخرى» مكاناً بجواره على السرير الخاص ، ففى الحجرة ثلاثة أسرة من الحديد ، إثنان منها لا يتسعان إلا لشخص واحد ؛ سرير «فخرى» وحده أعرض منهما ، ويتميز ببعض الميزات الأخرى . كان معى حوالى مائة جنيه حصيلة بيع المكتبة وبعض

المدخرات ، صرت أصرف منها ، أدفع نصيبا معلوما فى الأكل والشرب والمسكن ، وأجلس على مقهى البرابرة فى حى الزمالك لأشرب الشاي الميزا الثقيل وأقرأ الصحف والمجلات بشغف هائل ، وأقوم بزيارة بعض المحررين والكتاب فى مكاتبهم بهدف التعرف عليهم ؛ وأعود إلى الشقة آخر النهار ، فنقضى جزءاً من الليل نتندر بعزلة « مسعد كامل ذهب » ونوادره الجنونية ، ونردد أخبار الكتاب والشعراء والرجال المشهورين فى إنبهار وغبطة ونزق طفولى كأننا فرحون باكتشاف أنهم حقائق موجودة من لحم ودم وليسوا مجرد أسماء نقرأ لها وعنهما من بعيد . إلى أن جاء اليوم الذى هربت دائما من توقعه فلم أحسب له حسابا ، يوم أن وضعت يدي فى جيبى فلم أجد به نقودا ؛ أكلت مرة ومرتين على نفقة الزملاء ؛ أخفنى من الشقة فى مواعيد الطعام ، ثم صرت لا أجيئ إلا للنوم فى وسط الليلة بعد مشقة مضنية فى الشوارع ، ثم صرت أفقد جميع البسمات والبشاشة وكل علامات الترحيب ..

كنت لا أزال مستندا على حرف السرير أحاول اختراع وضع يريح جسدى ولو لبضع دقائق ، تذكرت أننى منذ دقائق مضت فكرت نفس الفكرة . مع ذلك تجولت ببصرى الملبد بالعماص فى أنحاء الحجرة : كل واحد متكلف ببطانيته على سريريه . لو لم تكن الأرض عارية لتمددت فوقها . وأتانى جسدى بما أفضله دائما فى الليالى السابقة فى نفس هذه اللحظة المتكررة : تفرصت مستندا ظهرى إلى حاجز السرير ، تكورت ، دفنت رأسى بين ركبتي واستسلمت لزحف زورق خفى مجهول راح يمضى بى فى متاهة ظلماء حالكة ، كانت مع ذلك لذيدة مريحة ، لكننى مع ذلك سرعان ما شعرت يذراعى تتناقلان ويدب فيهما نفخ وشد وألم شديد ؛ رقبتي تكاد تنكسر تحت ثقل داهم ؛ كنت عاريا تماما ، كل

مهمتى راحت تنصب على محاولة إخفاء عورتى ما أمكن ، أحاول عدل نفسى طلبا للستره فلا أستطيع تحريك أى عضو فى جسدى ، يخيل لى أن عورتى تطل من كل بقعة فى هذا الوضع الزرى ؛ الظلام الحالك يصبص لى بعيون لاحصر لها تومض فى خيمة العتمة كنجوم خشبية شديدة الخسة والندالة ؛ أكاد أنفجر من الغيظ إلى شظايا من دموع ؛ شئ فى أعماقى يحاول طمأنتى بأن الأمر ليس خطيرا كما أشعر ، وأن فى الأعماق المطوية ثم ورقة رابحة سألعب بها معركة النجاة من خطر مجهول . ترائى لى فجأة كأننى تمكنت من رفع رأسى وعدل رقبتي ؛ فوجئت بأعين الحلقة النجمية قد اتسعت وأغرقتنى ببياضها كأننى البقعة السوداء التى ترى فى هذه العيون . وإفانى شئ كاليقين بأننى أجلس هكذا فى إنتظار شئ لابد أن يحدث ، سرعان ما تبينت أنه باب لابد أن يفتح أو ينبغى أن يفتح ؛ سرعان ما تبينت ما قد حدث بالتفصيل : لقد أنهكنى المشى فى شوارع المدينة ونشفتنى الصقيع فصرت أبحث عن أى خن أستكن فيه ؛ لم أكن أنوى العودة إلى شقة البرديسى بعد أن تهرأت أحاسيسى من فرط اللسع والكى بنار التجهم والإنكار وعدم الترحيب ، لكننى مع ذلك رأيت قدمى قد شارفتا بى إلى شارع المتحف الزراعى ثم قادتانى إلى شقة البرديسى؛ مع ذلك رأيت يدي تمتد لتطرق الباب ، وكأنه صوت المذيع جلال معوض يسرى متسللا من شباك خفى يقدم برنامج أضواء المدينة ويصف منظر الفستان الذى ترتديه الشحورة صباح ، وكان يقول أن الساعة تقترب من الثانية صباحا ولازال فى جعبة الحفل الكثير من الفقرات الممتعة وكان الضوء الليل ينبعث من خصاص شباك « مسعد » وصوت أنفاسه منتظم وصوت كحته العابرة وصوت هزهة السرير السفرى فيما هو يعتدل فوقه ؛ لو ظلمت أطرق هذا الشباك حتى الصباح فلن يفتح لأنه ليس ينتظر قدوم ضيف بل ليس يحتاج

إلى أى أحد ، لو كان أبوه نفسه يسأله بشخطة خسيصة ولدغة لسان همجى
عمن يكون وماذا يريد ، وقد يتبادل معه حوارا طوله عشر دقائق وقد يتركه يرن
ملتزما الصمت المطبق ؛ أما الثلاثة النائمون فى الحجرة الداخلية فقد لا يبلغهم
صوت الطرق وهم مستغرقون فى النوم ؛ وإن وصلهم فإنهم واثقون أن أحدا لم
يجرؤ على طرق الباب فى هذه الساعة المتأخرة من الليل سواء وحيداً لن يكلف
أحدهم نفسه مشقة القيام من تحت البطانية . كنت موقنا من هذا ، موقنا فى
نفس الوقت أنني لن أقبل الطرق على الباب ، بل لن أقبل الدخول حتى لو فتحوا
لى ، فلماذا جئت هاهنا إذن ؟ سرعان ما تبين أن خاطرا دفينا فى أعماقى هو
الذى جاء بى هاهنا ، لقد أبديت لنفسي استعدادى للإنزواء فى أى مدخل بيت
والاختباء خلف بابيه وليكن مايكون ، أو فى بكية الباب من الخارج ، هذا الخاطر
جر خاطرا آخر بأن الباب الوحيد الذى يمكن أن ألوذ به دون التعرض لفضيحة
هو هذا الباب على وجه التحديد ؛ على الأقل توجد ذريعة يمكن أن أسوقها إذا ما
اشتبه أحد فى وألقى القبض على باعتبارى لصا ؛ لن تقبل دعواى بأننى لص
فعلا ولكنى متخصص فى سرقة النوم ، لكننى يمكن أن أكون مقنعا إذا قلت أن
أصدقائى يسكنون فى هذه الشقة وأننى طرقت الباب فلم يسمعوا فجلست فى
انتظارهم فغلبنى النوم . كان للباب ميزات كثيرة ، إذ أنه فى أعماق حارة سد
ضيقة فلن يرانى عابرو السبيل فى الشارع العمومى ، ثم إن بكيته عريضة
وبارزة الصدغين بحيث أنني فى جلستى القرفصاء هذه والباب فى ظهري قد
لا يلحظنى البواب نفسه وهو مار فى نفس الحارة . وكان طائر النوم الذى عشت
فى دماغى قد بدأ ينتفض من فرط القلق والذعر ، وبدأ يتأهب للطيران ، فينقرنى
بمنقاره المدبب فى رأسى لكى أنتبه إلى الخيط الأبيض وهو ينسلخ بارزا عن
الخيط الأسود لكى أنهض فأستأنف المشى فى الشوارع مطمئنا فى رداء الضوء

الربانى قبل أن يصحو أحدهم لشراء الفول المدمس . كنت أستشعر أن عش
رأسى يهدد طائر النوم لكى يخفف من غلواء قلقه بعض الشئ إعتادا على
أننى سأسمع صوت النهوض عن الأسرة وصوت الإغتسال تحت الحنفية فألوذ
عند ذلك بالفرار . كنت لحظتُ على درجة من القلق فظيعة ، إذ بدأت أسمع
صوت هزهة أحد الأسرة فتحفزت كل مشاعرى وأنصت فى إنتظار صوت
النهوض أو صوت الإغتسال . فما دريت إلا ببركة قوية غادرة تُسد إلى وجهى
مباشرة تكاد من عنفها تتساقط أسناني وتورم عيني . غريفا كنت وانتشلتنى
هذه الركلة من القاع السحيق فإذا بى على البر ألثت أحوال التقاط أنفاسى ،
وإذا بى ممسك بالقدم التى ركلتنى . كانت قدم « فخرى الحباك » التى تقلب
أثناء نومه وأراد فرد ساقه فعاقه جسدى تدفعها فى غيظ لتستقر على وجهى .
هو الآخر نهض مذعورا يسب ويسخط بألفاظ مضغمة غامضة ، ثم دعك فى
عينيه ونظر لى ، ثم همهم بما اعتبرته اعتذارا عما حدث ، ثم أحكم لف البطانية
حول نفسه ثم انداح فى أفق النوم البعيد تاركا مساحا من السرير لاتزيد على
شبر واحد . إعتدت ، تمددت فوق هذا الشبر على جنبى قابضا بيدى على
حديدة من حاجز السرير المتاخم لرأسى . وكأن البرد يرعشنى بشدة ، فأحاول
لصق جسدى بوبر البطانية ، فكلما استشعر النائم ظلى تقلب داخل البطانية
لينبهنى إلى أنني قد تجاوزت حدودى ، فأنزاح قليلا ، وكنت أستنيم مدفوعا
بأمل غامض فى شئ ما ، سرعان ما تبين أنني أترقب هذا النائم حتى أتأكد
من استغراقه لكى ألصق جسدى بوبر البطانية . وكانت قدمى تتسلل خلصة
شيئا فشيئا لتلامس طرف البطانية المنطرح بجوارها . فلما لم يردا استقرت
على هذه البقعة مستشعرة خشونة وبر البطانية ، ثم سرعان مراح الدفء
يسرى فى ساقى وجميع أنحاء جسدى . وكنت واثقا أن النائم سوف يعدل نفسه
بعد دقائق معدودة ليجذب طرف البطانية ليحكمه حول ساقيه ، ولكنى ساكون قد
اختلطت برهة من النوم مطمئن ربما تعادل دهرا بأكمله .

سـلالة الطين

كنت مقعيا على الملاقي ، فوق أرض زلقة قدرة عرفت أنها قاعدة الكنيف .
كنت صبيا يافعا فيما بدا لى ؛ وفتحة الكنيف تحت مؤخرتى مفشوخة كحنك
التساح الذى أراه فى كتاب المطالعة . فوق رأسى درجات السلم الطينى
متراصة فوق عرقين تخينين من الخشب الأسود ينكسران فى إتجاه العلو .
أمامى إبريق الفخار الكالنج المسود ، إحدى أذنيه مكسورة وبزبوزه مقطوش
ورقبته ضائعة . أمسكته من الأذن السليمة ، هزته مختبرا عمق ما فيه من
مياه ، لم أسمع سوى خرخشة حبات الرمل والحصى المختبئة فى جوفه . التعب
ثقيل جدا جدا فى جنبى ؛ مؤخرتى تدفق التعب مبقلا فى فتحة الكنيف ؛ لمبة
الجاز الصاروخ مشبوكة فى مسمار على الحائط الطينى تتصاعد من شريطها
فرشات الهباب تصبغ مكانها ويرسم ضوءها الغليل على الحائط أشباحا
غامضة مفزعة ...

بحثت عن ورقة أمسح بها ؛ لم أجد . تحسست الأرض بحثا عن حصوة
كبيرة ؛ لم تكن الأرض إلا حصيرة من الطين اللزج الناصع بالمياه النتنة .
شعرت بحيرة ؛ جاعى إحساس بأن الدار تخلو من المياه ، ربما لأن أمى لا
تزال فى مستشفى البندر تعالج عينيها من رمد مزمن ، عجز أبى - لأول مرة -
عن علاجه بيديه . عرفت أن خارج تقفيصة الكنيف فناء كبير نصفه مسقوف

بشبكة من الحصير والجريد وأعواد الحديد الخردة.. عرفت أن جدتى «أم العز» تنام الآن فى الحوش الكبير ، حيث تطل عليه ثلاثة أبواب هى قاعة المنام ذات المصطبة الكبيرة المنتهية فى ساحة بابها بقرن للخبيز ، عليها حصيرة مصنوعة من ورق البردى المدهون بالأحمر والأخضر والأزرق لكنها كلحت بتقادم العهد وبولنا ونحن فى لفائف الطفولة لعدة أجيال ؛ تغسلها جدتى أم العز فى مياه التربة المواجهة لدارنا مباشرة كل يوم جمعة ، وتنشرها فى سفح التربة أو أمام الدار فوق الحبال الممتدة ، إلى جوار قاعة المنام مخزن التبن ، الذى يستخدم أيضا مخزنا للقمح والذرة والأرز وما شاكل ذلك من محاصيل ترد إلينا على سبيل المعاونة من أولاد عمومى الفلاحين على اعتبار أبى هو آخر الكبار فى العائلة كما أنه آخر فقرائها ولا يصح فى نظرهم أن يكون كبير العائلة فى وضع زرى . أما ضرورة التبن بالنسبة لنا فإن عبد الودود وصدقى ابنى عمى المتوفى حديثا يقيمان معنا فى نفس الدار ، ويقومان برعى الأغنام وتربية الماشية التى يشتريها لهم ناس آخرون ، إذ تصبح البهيمة فى عهدتنا أمانة الله نتكفل بأكملها وشربها ورعايتها وتطبيبها فى مقابل أن نقاسم صاحب الرسمال فيما قدره البهيمة من لبن وعيال . ولأن أبى الزعيم الوفدى السابق قد بات عضوا فى أمانة الإتحاد الإشتراكي فقد سعى لأن يحصل عبد الودود وصدقى على فدانين فى الإصلاح الزراعى من أرض الباشوات المؤممة . أما الغرفة الثالثة فهى زربية كبيرة . وفوق القاعات الثلاث ثلاثة مقاعد وسيدة نصعد إليها بسلم مبنى بالطين ؛ المقعد الأول ينام فيه أبى و أمى ؛ المقعد الثانى ينام فيه عبد الودود وزوجه الصغيرة الفاتنة التى تقضى يومها كله سارحة بالبهيمة ؛ المقعد الثالث ينام فيه صدقى مع طيف خطيبته النائمة على مبعدة سطح واحد فى بيت عمى . ويفضل سمعة أبى الطيبة فى قرى الدائرة الإنتخابية أدخلنى المدرسة الابتدائية

فى البندر ؛ حمار يوصلنى كل يوم إلى المحطة وينتظرنى آخر النهار على المحطة ؛ قطار يومى فيه أحلى الأصباح وأبهج الأمنيات ، ووجوه الفتيات اللائى من المعروف أنهن سيركن من المحطة القادمة أو التى تليها ؛ فقلوب تخفق ووجوه تترقق وعيون تطير حمام السلام وتلتقى صباح الخير ؛ محصل التذاكر يعرفنا بالإسم واللقب والعنوان . يعتبر موسوعة فى قصص الحب التى نشأت وترعرعت فى كنف قطاره على مدى الأجيال ؛ باعة المياه الغازية فى الدلاء يجعرون بلا ملل ودون توقف ؛ موكب الضجيج البهيج يتكامل بصفير القطار الزاعق كالنذير لكنه يطربنا فننتبه فجأة على جحافل الأشجار وأعمدة البرق الزاحفة علينا فى سرعة داهمة تمرق فى اللانهاية ؛ نشوة ركوب القطار على موعد تصل فيه إلى ذروتها حينما تطرأ على الأنوف رائحة المازوت المحترق برائحة الشحومات ؛ فإذا ما داهمتنا روائح الطعمية المقلية الساخنة ، وانضم إلى صخب القطار صخب جديد مضاء بلمبات النيون ؛ أيقنا أن المدينة قد أتت ، وأن علينا أن نتأهب للنزول ، حيث ينهض البعض واقفا ، ليسحب لفة أو حقيبة أو قفة من فوق الرف الخشبي الضيق ، ويمضى مقتربا من باب القطار ما أمكن، لتكون له أولوية النزول على الرصيف بمجرد توقف القطار ؛ هى اللهفة على المدينة بجاذبية منبهة على بعض الوجوه ؛ وهى الفرحة بالوصول والمبادرة بالفرار على وجوه أخرى ...

أنا الآن مقع فوق الملاقى فى كايينة خشبية ضيقة لابد أنها مرحاض القطار ؛ فتحة الملاقى من المعدن الأبيض اللامع لكنها جافة ملطخة بنعال الأحذية والبلغ ؛ يوجد صنوبر أسفل ماسورة من النحاس الصدئ ؛ كان من الواضح أن الصنوبر كان مفتوحا إن لم تكن جلده فاسدة . مدت يدي وحركت رأس الصنوبر فلف بدون توقف لايحكمه فتح أو غلق . كانت رائحة الصنان

قوية ؛ وكنت مرتاعا ، قلقا ، أشعر أن بطنى كانت تتركب منذ برهة ، وأننى انتهيت لتوى من إزاحة أرياح وجبال صلدة ، وأن القلق لم يهدم بعد ، مع أن بطنى لم يعد فيه شيء فيما بدا لى ؛ كل ما أسمعه يدور الآن فى بطنى هو فلول ثورة كاذبة انتهت منذ قليل وهذه بقايا من شرانم ريح غزتنى ، لكنها لعينة تكلفنى حزقا وعتلا حتى لتكاد فتحة الشرج كلها تسقط منفصلة عنى . من شارع خلفى بعيد فى رأسى جاعى خاطر يقول لى أن السبب ليس فى بطنى إنما هو فى مكان آخر من نفسى ؛ حاولت أن أعرفه . تذكرت أن أبى نصحنى بكل جدية ورهبة أن أجعل بالى من نفسى ، أن أحذر عيال المدينة الرقعاء الصياح ، أن أفيق لكل درس وكل كلمة ألقاها ، أن أقتصد فى مصروفى ما أمكن ، فالقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود ، أن أبحث لنفسى عن تربة تلمنى أو قطار ياكلنى إذا لا قدر الله رسبت فى الإمتحان أو ضاعت حوائجى أو ضحك أحدهم على عقلى . كذلك نصحتنى أمى بأن أضع عينى فى وسط رأسى ، أن أحترس من القطارات والسيارات وأمشى بحذر جنب الحائط على الرصيف فى شوارع البندر ، أن أغطي جيدا عند النوم مهما كانت حالة الجو ، أن أكون حلو اللسان مع الناس كلهم وخصوصا مع الأفنديات الذين يعلموننى ، أن أصاحب زملائى بالمعروف ولا أبدأ بالغلط ، أن أكون راسيا متفاهما واعيا فلا أقبل عزومة أى أحد ولا أذهب مع أى شخص لا أعرفه إلى أى مكان . حمل كبير ثقيل من المخاوف والمحاذير أشعر أنها تزلزلنى ؛ يهتز قلبى بعنف كلما تذكرت إحدى هذه النصائح خشية أن أكون نسيتها فى موقف من المواقف ..

رائحة الصنان تزكم أنفى . من الواضح أننى جالس هكذا هاهنا الآن على رغمى ، وأن سببا مجهولا يمنعنى من القيام ومغادرة هذا المكان . لامست يدى صنبور المياه من جديد ؛ قرصنى اليأس مرة ثانية ؛ دارت فى رأسى مجموعة

أوراق وقصاصات عبثت بها الريح فى مخيلتى وهى راقد فى جيبى ؛ بدا أننى أفكر فى انتخاب ورقة منها أو قصاصة صغيرة أزيل بها بقايا الروث عن مؤخرتى ؛ خشيت أنها كلها جداول حصص وعناوين ناس وخطابات لناس سأقوم بتوصيلها لناس . كان الروع قد نفصنى فجأة بخوف أن تكون المحطة التى سأنزل فيها قد بدأت تحل ، فلا بد حينئذ من النهوض فورا ومغادرة هذا المكان . ثم إن الطرق على الباب من الخارج قد بدأ يشتد ويتواصل بشكل أزعجنى ؛ أكاد أصرخ فى الطارقين بجماع انفعالى : لو عرفتم ورطتى لأمهلتونى وأشفقتهم على . شرعت فى الصياح فعلا ، لكن يدا خفية مجهولة فى بطنى أمسكت صوتى عن الحركة ، شعرت أن ثمة مانعا قويا يحول بينى وبين أى اتصال بمن هم خارج هذا المكان على الإطلاق حتى ولو كان فى يدهم مساعدتى ؛ لكنى مع ذلك تاهبت للوقوف ، وبدا كأننى قررت النهوض بأوساخى، وصعب على أن يحملها سروالى الذى سيرافقنى أسابيع طويلة ، والذى لابد سيصبح منظره عارا فى نظر من سيراه وخاصة أمى التى عدتنى رجلا أتعلم فى البندر فإذا بى أتبرز على نفسى كالأطفال الصغار ؛ رأيت أن الزعم بضياح أحد الخطابات التى معى ليس جرما أحاسب عليه ؛ وهكذا شرعت أستل خطابا من جيبى لأستخدمه أسوأ استخدام خلق له ، وكلى أسف شديد ؛ وبدا كأننى منذ وقت طويل وأنا أخشى أن يقع لى شئ من هذا وأنه أخيرا قد وقع . على أننى لم أجد بجيبى أوراقا على الإطلاق ، وتبين لى أن أمى ربما تكون قد وضعتها مع مصروفى داخل الزوادة فى قلب القفة . إرتعت ، انتابتنى حالة من العصبية العنيفة ، رحت ألف حول نفسى يمينا وشمالا أكاد أقع مغشيا على من فرط الإختناق ..

★★★★

.. رفعت رأسى وهو يوشك أن يصطدم بالأرض ، فأفقت لنفسى دفعة واحدة ؛ فإذا بى فوق الملاقى مفشوخ الساقين ، ولكن دون أن أفك حزام سروالى ؛ فاندھشت لذلك بالغ الدهشة . نظرت فى المكان من حوالى : الحجرة ضيقة نوعا ، واسعة نوعا ؛ جدرانها كلها من القيشانى الأبيض اللامع النظيف ، والأرض كذلك . على يمينى صنوبر أنيق برأس كبيرة مستديرة من النيكل الأبيض ؛ يتفرع منه خرطوم مشروخ طوله حوالى نصف متر ، يكفى للوصول إلى منطقة العورة بكل راحة ، وسرسوب رفيع جدا من المياه ينساب منزلقا إلى فتحة كبيرة مستديرة تحت مؤخرتى مباشرة ؛ غير أننى لم أكن فى حاجة إلى مياه ، بل لم أكن فى حاجة إلى الإرتحاض . كان واضحا أن بطنى فارغة تماما من كل شئ ، ودماغى أكثر فراغا . عرفت فى الحال أن هذه الحجرة هى مرحاض فى دورة مياه عمومية . إقتحمتنى أصوات قادمة من المراحيض المجاورة المتلاصقة لايصلها عن بعضها البعض سوى جدر قصير القائمة غير مسقوفة : حزق وضراط وتأوهات وأنين وزحف كيزان صفيحية على الأرض ودفق مياه من الصنابير ، وكان يخيّل إلى أنه كان ثمة من يطرق الباب منذ برهة مضت ، وأن الطارق ربما يكون قديئس أو انفتحت له محلات مجاورة . عرفت أنى بإمكانى معرفة ما إذا كان الطارق قديئس فعلا أم أن مشكلته انحلت بفتح باب مجاور ، كما عرفت أننى قد دربت على هذا جيدا . ملت برأسى تلقائيا بشكل مدروس ، حيث ركعت بيدي وركبتى على الأرض ، فصار بإمكانى النظر من تحت عقب الباب الذى يفصله عن الأرض بمسافة طيبة . رأيت عددا كبيرا من الأقدام واقفة بجوار المحل الذى أقطنه ، فعرفت أنها تنتظرنى أو تنتظر خروج غيرى ..

خفق قلبى حينما تحركت إحدى الأقدام زاحفة نحو بابى ، بسرعة اعتدلت

مقعيا ، بسرعة انتهت إلى أن سروالى لا يزال مربوطا فى خاصرتى بحزامه الجلدى ؛ رأيت من باب الإحتياط أن أفكه وأنزله وأتخذ وضع المرتحض بالفعل . فعلت ذلك ؛ سخرت من نفسى كيف أنى لم أسقط السروال طالما أننى أقمعت هكذا برسم الارتحاض حتى لو لم أكن أريد ذلك بالفعل . غير أن مؤخرتى ما كادت تتعرى ، وما كدت أستوى فى قعدتى على الملاقى حتى شعرت ببطنى تتحرك بالفعل ، ووافد من الريح يتأهب للإنطلاق من مؤخرتى ، ليشعرنى براحة كبرى ؛ لكننى ماكدت أستشعر الراحة حتى انتصب فى أعماقى خاطر غامض يطالبنى بإيقاف خروج هذا الريح أو خنقه قبل أن يرن صوته فيفضح وجودى هاهنا فيحدث ما لا تحمد عقباه ؛ وكانت ضرطة قصيرة جدا قد أفلتت رغما عنى وانداحت خلفى لتخلط بمثيلاتها المنطلقة من المحلات المجاورة ؛ واستطعت كتمان الصوت فخرج وشيشا كخرخشة أوراق الخريف . أدركت فى الحال لماذا كنت أجلس دون أن أسقط السروال ؛ فسخرت من نفسى مرة أخرى ونهضت واقفا على حذر شديد لأرفع السروال من جديد ؛ لكننى فى منتصف القيام شعرت بضرورة إبقائه ساقطا لأمر ما تبينته فجأة ..

بدا كأننى على شئ من الثقة بأنى فى الأمان ، وأننى يمكن أن أغفو قليلا ولو نصف ساعة أخرى أتمكن بموجبها من استئناف السير فى شوارع هذه المدينة التى جئتها طامحا فى الإلتحاق ببلاط صاحبة الجلالة الصحافة فإذا هى تضن على حتى ببلاط الشوارع . غير أننى لم أكن تبين بعد : فى أية دورة من دورات المياه العمومية أحاول الآن الإستغراق فى النوم ؟ فى أى حى هى ؟ ..

وقع الأقدام بدأ يتزايد فى الممر الخارجى ، فوجف قلبى ، وركعت ناظرا تحت عقب الباب ، رأيت قدمين تمشيان على الأرض فى زحف شبه راقص ، إذ تنتقل القدم بهدوء وروية فتقترب من أختها تكاد تلمسها وتكاد فى نفس الوقت

ترتد عائدة لكنها لم تلبث حتى تلحق بأختها لتعود أختها فتفعل نفس الحركة ، داخل صندل من الكاوتشوك صنع باتا بتسعة وتسعين قرشا ، يطل من فتحاته جورب رمادى . عرفت صاحبه فى الحال ؛ إنه عم عبده الجرسون فى بوفيه محطة مصر الذى يسهر حتى الصباح ، وكانت أطراف المريلة البيضاء تظهر من فوق ، وشخصه النقود الفضية تشغل فى جيبها الكبير . كان يروح ويجئ أمام أبواب المراحيض فى إنتظار أن يفتح أي باب ، وكان متعجلا قلقا ، فعرفت أن مرحاض البوفيه معطل كعادته فى معظم الأوقات ، وتيقنت أننى لآئذ بمرحاض فى دورة مياه محطة مصر ، كما عرفت أن هذه ليست أول مرة ألوذ فيها بهذا المرحاض على وجه التحديد ، وأن هذ المرحاض ليس هو الوحيد الذى تعودت أن ألوذ به ..

فجأة سمعت طرقا على الباب عميقا ملحاحا ، فراح قلبى يتراقص وينتفض بين ضلوعى على نغمات الطرق ؛ حينئذ بدأت أتأهب لفعل شئ انتويته من قبل ؛ غير أننى سمعت صوت عم عبده الجرسون يقول بنبرته الطيبة المدربة على اليأس القاطع :

« لا ! لا ! متحاولش الباب ده عطلان من قبل المغرب ! يظهر أن الغفير قفله وروح ! » .

وقال الرجل الطارق :

« مع إنه بيكسب منه ! دى دوره مخصوصه لوكل واحد يدفع قرش تعريفه حيروح متعشى ! » .

قال الجرسون :

« بورتين مخصوصين ! حضرته قافلهم بقفل خزنة زى خزنة التليفون !

ساييهم متعطلين والناس مش لاقيه تهشخ ! » .

قال الطارق :

« مش معقول محطة كبيرة زى دى فيها موظفين وعمال وركاب من كل البلاد ! ويبقى فيها ثلاث مراحيض بس شغالين ! ده حرام ! » .

وراح يهز الباب بعنف يكاد يخلعه . وقال الجرسون : - ريح نفسك ! روح دور على الغفير فى الناحية الثانية عند دورة النسوان حتلاقيه مع مراته ! » .

فمضى الطارق ، وابتعد الجرسون ، وهدأت الخطوات والحركة بعض الشئ . وصبرت أنظر حوالى كاتما أنفاسى التى شرعت تتدفق بقوة وغزارة حتى خشيت من ارتفاع صوت خرخشة بلغم الدخان فى صدرى ، وخشيت أن أنسى فأكح ، فصرت أنففس من فمى ، فوجئت بملف جلدى يشبه حافظة الأوراق ، شكله لم يكن غريبا على ، صرت أتعرف عليه شيئا فشيئا ، تبينت أنه يخصنى ، أعارنيه صديقى الشاعر فخر الدين إسماعيل ، طبيب الأسنان الناشف الصارم ، ذو الوجه المشدود التياه والقامة الطاووسية المذيبة المختالة ، الذى يهوى قرض الشعر مع أنه لا يحمل فى قلبه أية مشاعر حية ، بل إنه بعيد كل البعد عن العاطفة بمختلف أنواعها ؛ قادم هو من إغارة فى اليمن بعد تسريح دفعته كلها ؛ عامر الجيب ببضعة آلاف ، وسيارة أنيقة بسقف متحرك وشقة خطيرة فى حى الزمالك ، بلا زوجة أو عشيقة ، فى أنتظار التقاط أى بغى من بغايا الليل السارحات فى الطرقات ، لايعرف من الشعر إلا دواوين نزار قبانى ، ولا يعرف من أهل الأدب والصحافة إلا بعض أسماء خاملة من الدرجة الثالثة ، قدمه لى صديق صحفى أراد أن يهرب منه فزحلقه على ، ورجانى أن أستمتع لأشعاره وأوجهه كيفما شئت ، وكان قد قرأ هذه الأشعار ونفر منها حيث لم يجد فيها

متسعا للكلام أو النقد فقرر الخلاص منه بصنعة لطافة ، فى مقابل أن يداعب غرورى ويصغنى له بأننى أقدر منه على فهم الشعر وتذوقه . وكنت قمينا بأن أعطيه رأى الحقيقى فى محاولاته هذه الساذجة بكل صراحة ووضوح فى أول لقاء ، لولا أن السيارة والشقة وفلوس اليمن كل ذلك أقنعنى بتأجيل الرأى قليلا، ولقد تركنى أبييت فى شقته بعض ليال متفرقة ، على وجه التحديد الليالى التى نجحنا فيها - بواسطة صديقى الممثل الناشئ سمير أبو حشيش - فى التقاط امرأة ضالة نعبث بها حتى الصباح مع لفائف الحشيش وزجاجات النبيذ التى يشتريها فخرالدين ، فيما عدا ذلك من الليالى لم أنجح فى المبيت ليلة واحدة ، لأنه مثل فرقع لوز ، دائما فى حالة تحليق خفاشى على مناطق الضوء ، يتحرى عن السهرات التى تضم مشاهير الكتاب وكبار الصحفيين وأعظم الشعراء والنقاد من أولئك الذين زودته بمعلومات كافية عنهم لم يكن من قبل يعرف شيئا منها على الإطلاق ، ثم يتحرى عن يعرف فلان ، ومن هو صديق فلان ، ومن الذى يملك التأثير على فلان ، أو له الدلال على فلان ، لكى يتعرف عليه ، يعزمه على الغداء فى نادى الضباط ، يوصله بالسيارة إلى حيث يشاء ، ليكون هو فى المساء التالى ساهرا بالفعل مع فلان الفلانى الشهير . فى ظرف شهور قليلة جدا أصبحت أقرأ قصائده فى أكبر جريدة فى البلاد، قصائد لاعلاقة لها بمحاولاته القديمة الساذجة ، فإذا به قد فهم اللعبة جيدا ، وألم بالقاموس الذى يستخدمه شعراء العصر مثل شاكر السياب والبياتى وعبد الصبور وحجازى والفيتورى وأدونيس و خليل حاوى ، صار يحاكيهم بقدرة فائقة ، يصنع قصائد تشبه قصائدهم الخالق الناطق بدون أى فوارق لقد أقتحم الحياة الأدبية بتكتيك حربى ماهر. لم أستفد منه بغير هذا الملف الجلدى الأنيق، المطاط ، الذى يستوعب الكثير من الأوراق والكتب دون عناء ، ويمكن حمله تحت

الإبط أو براحة اليد فيبدو أنيقا عريقا متينا ، جاء به فخر الدين من روسيا . حيث أخذ هناك إجازة تدريبية قصيرة ؛ ولو لم يكن قد أحضر مثله اثنين أو ثلاثة ماتنازل لى عنه ، لأضع فيه كل أوراقى وكتبى التى طالما حيرتني وتهرأت بفعل العرق ..

سحبت الملف من الأرض ، أمسكته ، فتحته ؛ انتزعت منه كتابا أدفن فيه نفسى كما تعودت فى مثل هذه اللحظات الحرجة ، تبينت أنه كتاب : الثورة والأدب للدكتور لويس عوض . لأمر ما وجدتنى أعيده وأنزع كتابا آخر ، فإذا هو كتاب : فى أزمة الثقافة المصرية لكل من عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم . ولم أكن أعرف لماذا هذين الكتابين بالذات أحملهما بين أوراقى . فتحت الكتاب وشرعت أفتح عيني ظنا منى أننى أستطيع القراءة أو أننى أستطيع أن أهرب من الصخب الذى بدأ يتزايد أمام الأبواب . وكان ضوء الصباح قد بدأ يتسلق الجدران ويتسلل من تحت الباب ، والأصوات الصاخبة المحتجة قد بدأت ترتفع بصورة مزعجة ، فعرفت أننى قد غبت عن الوعى ساعات لا بأس بها ولكننى مع ذلك مصدوع وفى حالة من « الدوخة » عظيمة ، مفصول عما يحدث كأنه يحدث لشخص غيرى أغلب الظن أنه موجود فى أيضا . تبينت بين الأصوات صوت بيومى خفير المبولة يقبل نحو الباب :

- « القفل زرجن مرة واحدة ماأعرفش جرى له إيه ؟ ! ياإما القفل ياإما الخزنة ! على كل حال أنا بعث أصحى ولد بتاع مفاتيح قريب من هنا ! » .

أخذنى الروع ، بكل هدوء أعدت الكتاب إلى الملف دون أن يصدر أى خرخشة ، ثم أعتدلت واجف القلب أطلب من الله الستر العاجل . ثم شملتنى الدهشة : كيف توصلت أنا إذن إلى هذا المرحاض طالما أنه مغلق ؟ سرعان ماتبينت أننى قد أعددت لذلك خطة شديدة الغرابة والدقة ، حيث وقفت

منذ وقت طويل مضى أترصد هذا المرحاض التنظيف وأدرس وضعه ، فلما لاحظت أنه مغلق على الدوام ظننته مهجورا ، فرأيت أنه مكان يصلح لإيوائي بضع ساعات بعيدا عن البرد وبدرجات الشرطة التي لا تتشطر إلا على أبناء السبيل أمثالي ، فجعلت أترصد المرحاض المجاور له حتى يحين وقت تخلو فيه دورة المياه من الزحام ، بحيث يكون المرحاض المجاور والذي يليه خاليين تماما ، وألا يكون ثمة من يرانى أدخل . فلما جاءت الفرصة المناسبة دخلت المرحاض المجاور وأغلقت الباب خلفي ، ثم تسلقت الجدار القصير القائمة بواسطة ماسورة المياه ، وهبطت بسرعة وسلامة إلى هذا المرحاض المغلق ، لأجلس هذه الجلسة ، وأغفو بضع ساعات ، على أن أتحين الفرصة للخروج بنفس الطريقة بعد وقت يقصر أو يطول ..

ثم كفت الأصوات كلها فجأة كأن الكون كله قد مات ، فعرفت أنه السكون الذي يسبق العاصفة والذي قرأت عنه طويلا دون أن أراه رؤية العين . ثم ارتج الكون فجأة بهدير عنيف يتقدمه صفير حاد ، فعرفت أن قطارا قد وصل الآن إلى المحطة ، سرعان ما امتلأ الفضاء المنداح خارج المرحاض بضجيج غامض مكتوم يدلق الهدير إلى بعيد فبعيد . وكنت قد أسندت رأسي بين يدي خوف أن يفادرني إلى غير رجعة ، ورأيتني صبيا يافعا بين أنفار نقاوة اللودة نجرى في نزق على صفير قطار الظهر الذي لولا قدمه لما خرجنا إلى الغداء ، وكنا نغنى بمرح كبير فيما نجرى نحو أشجار الجزورين والكافور على الطريق الزراعي : « أبونا الحنين أهوه .. و .. ه .. يلا بينا نسلم عليه » . ثم رأيتني أسف مسحوق العيش المقدد بعد أن فركته ببدي ، ثم أندفع إلى شاطئ الترعة فأنام على بطني وأمد بوزي في الماء الراكد لأعب منه حتى أرتوى ، مستشعرا طعم الطين والطمى في حلقى كأنه الحلاوة الطحينية . ثم رأيتني طفلا أتربع على شاطئ بركة بحر السبيل القريبة من دارنا القديمة وقد أمسكت بقطعة من

طين البركة الأزرق رحت أكلها بلذة فائقة ؛ إذ أننى سمعت الأولاد ذات يوم يقولون ان أكل الطين يقوى الجسد ويطيل العمر ، وكنت أستلذ مذاق الطين وأشعر أنه قريب الشبه بأطعمه كثيرة ناكلها مطبوخة ومقلية ثم رأيتني أمشى مساقا بعصا الخولى ، والحرقيظ يصب النار على جسدى النحيف الرهيف ؛ وكتل من الطين تعلق بقدمى وملتصق بجلد ساقى لاتريد أن تنفصل حتى مياه الترعة لم تفلح فى تليينها ؛ كنت أبكى بحرقة ، وأشعر أن أحدا فى الكون لا يسمعونى ولا يعنيه أمرى ، لن يغيثنى أحد . كان الخولى يلاحقنى بالخيزرانة كأنه مسلط على وحدى ، إذ لم يكن ثمة من أحد سواى ، والذي طلع عليه عفريت من الجن يقول : « مد يا ابن الكلب ! » ؛ فيما أنا أوصل الجرى صارخا موحوا من لسع الخيزرانة على مؤخرتى وجنبى ورقبتى ورأسى ، أتعثر أنكفى أعتمد قبل الركوع على الأرض ، فمهمتى هى الهروب من العصا . أحرقت الدموع خدى ، غلقت عيني ، صرت أجرى فوق الأشواك والطفاء أغوص فى أعواد التيل والبوص ؛ إلى أن غاصت قدمى فى الأرض فتهاويت غاطسا غاطا تحت كتل من الروبة والنيلة الزرقاء العطنة راحت تتخلل حلقى وخياشيمى .. حينئذ كفت عن الصراخ والعويل واستسلمت لراحة أبدية ..

كنت أسمع صوت أنفاسى المتعبة اللاهثة كخزير المياه فى جداول المصرف . وكنت أعرف أننى قد سكنت أخيرا تحت طين المصرف العتيق المتلبد . بريشت بعينى رافعا رأسى ، ربما لأبحث عن شبح الخولى ؛ لكننى رأيت أمى واقفة بعين مرمدة منتوفة الرموش لكنها واسعة كقوهة البندقية تطق شررا ؛ وكانت تضرب صدرها مولولة فى حرقة : « قلب أمك ! » وشمرت ساقها وخوضت فى النيلة الزرقاء حتى حاذتني فمدت يديها وانتشلتني ، ورأيتني أسئل من قلب الروبة كقرموط شيطاني التكوين يخر حبرا متجمدا . حملتني على صدرها وراحت تزيل بيديها عن جسدى ورأسى مركزة على عيني وحلقى ، وقلبتني

جاعلة رأسى قرب الأرض وساقى قرب السماء تهزنى بقوة ، وفمى يدلق أطنانا من العناء الأزرق القاتم ، روحى مع ذلك كلما خرجت من الحلق إرتدت عائدة ككساحة كهربية تعود لتمتلىء بالطين كى تخرج زائحة . مالبثت أمى حتى أقلت بى فى قلب التربة القريبة ثم انتشلتنى ، ثم غطستنى وانتشلتنى ، لا أدرى كم مرة شهقت من الفزع وتنفست الصعداء من زوال الجبال ؛ لكن ملامحى ما كادت تظهر على حقيقتها بعض الشيء حتى أوقفتنى على الشاطئ ونزعت عنى كل الخرق ، وخلعت ثوبها الأسود وراحت تجفبنى . وكنت أنتفض وأشهق ؛ فلما انطرحت على صدرها أرحت رأسى على كتفها مصعدا وجهى نحو السماء فاتحا فمى منتظرا أن تستقر روحى فى صدرى ؛ وكنت أشعر أن أمى قد بدأت تمشى ، فشعرت بأننى أتلاشى ، لكن أمى ما كادت تضعنى فوق الأرض حتى رأيته أنتفض فى الحال واقفا ؛ لدهشتى لم أجد أحدا حولى على الإطلاق . خرجت من الغرفة مرتعدا أجري ، رأيت الحوش فارغا حتى من جدتى أم العز ، صحت مناديا ؛ إرتد صوته مكررا النداء ؛ إرتعدت ؛ عرفت أن مصيبة لا بد قد حلت ببهيمة فحقوا جميعا لتداركها قبل الغطس النهائى . خفت ، فتحت باب الدار بالسقاطة ، خرجت أهول فى الطريق ، كان الطريق بدوره خاليا ، فقلت لا بد أن أهل القرية كلهم قد هرعوا إلى مكان الحادث فى الحقول البعيدة . مشيت ، لعلنى أصطدم بمن يعطينى جلية الخبر . كنت أظن أن الوقت مغربا فإذا هو غبشة الصباح الباكر وهامى ذى الشمس قد بدأت تطلع وتصبغ السماء والأشجار وشواشى القش والحب على أسطح الدور بلون الذهب الأحمر . وكنت أظننى وحدى ؛ ولكننى حينما استدرت عقوا رأيت الخيزرانة ممتدة فى محيط جسدى كله ، من خلفها خفير نظامى طيب الوجه طويل الشاربين المتدليين على حنكه ؛ فعرفت أنه يقتادنى إلى مدرسة البلد ، حيث

ينتشر الخفاء لجلب الأولاد من الدور والحقول رغما عن أنوف أهاليهم بالقوة الجبرية لكى ينفذوا قولة طه حسين بأن التعليم إلزامى كالماء والهواء لكل طفل . وكانت طبقة الطين لاتزال متكلسة فوق قدمى وساقى ؛ فجاعنى شعور يشبه الخزى ، تبعه مشهد أولاد الناس لابسى الأحذية والصنادل والمرابيل البيضاء ووجوههم كالورد الصابح وبأيديهم حقائب ولقائف أطعمة . على أننى اندمجت بينهم ، وكان الطين قد خف ثقله عن قدمى لكننى مازلت حافيا ، تنبتهت إلى أننى أحمل مخللة كانت فى الأصل رجل سروال قديم ، قد حشوتها بالكتب والكراريس ؛ وكانت كرايسى هى مصدر فخري الوحيد ؛ لولاها ماحق الجلوس بينهم فى الفصل جنبا إلى جنب حيث كانت هى أنظف من شكلى بكثير ، إذ هى مرتبة وخطها جيد منظم أنيق ولا مجال لكثرة الأخطاء فيها ، وكلها عشرات من عشرات وعبارات جيد وممتاز . غير أننى كنت نافرا أشد النفور من صحبة هؤلاء الأولاد ، ولهذا دأبت على الانزواء وحدى للقراءة وعمل الواجب ، ها أنذا أنتحى ركننا فى غرفة الأشغال لأصنع التماثيل من الصلصال ، ها هى ذى صورتى - لأول مرة فى حياتى - قد ألصقت باستمارة الشهادة الابتدائية ، ها هى ذى مطبوعة على ورق جرنان ، ها أنذا أهبط من قطار العصر أكاد أرقص كالبلهوان ، وقد انتشيت بطول قامتى ورجولتى وشعورى بأننى من هذه اللحظة صرت شيئا مستقلا فى البلد ، صرت كيانا ، أستطيع قبض راتب شهرى ، أستطيع خطوبة البنت رقيقة حبيبة القلب من أبيها تاجر الأخشاب الثرى . برهة وجيزة رأيته بعدا ارتدى فى حضن أمى ، كانت نائمة على سرير أبيض فى أبيض ، لا بد أنه فى مستشفى ، وكانت معصوبة العينين ، فلا بد أنها أجرت عملية جديدة من عشرات العمليات التى تقلقنا مدى الحياة . قلت لها : « اليوم نلت الشهادة الكبيرة ! وسأذهب إلى مصر لأتوظف فى العمل الذى أحببته ! » .

من فرحتها حاولت أن ترفع العصاية عن عينيها لترانى ، لكن صوتا كالنذير انبعث من الغرفة شاخطا فيها محذرا إيها ، فارتدت يدها ، صارت تتحسنى ، تضع رأسى فوق صدرها وتضحك بدلا من البكاء حيث أن الطيب حذرنا من البكاء ، وكنت بدورى أبالغ فى الضحك لأغضى دموعى المنهمرة . وكان صفير القطار قد راح يجلجل فى البعيد البعيد ، وكان يبين أننى على موعد ما ، فجعلت أقبل أسمى فى كل مكان ، ثم هرولت خارجا ، وكنت فى هذه المرة أحمل حقيبة شديدة الأناقة كحقائب البكوات القدامى ، وأرتدى حلة فاخرة لفقتها بأعجوبة ، وأنتعل حذاء من فتارين شارع فواد ، لكن قدمى كانتا تحتفظان بمذاق الطين داخل الجورب . إن هى إلا برهة وجيزة حتى رأيتنى أهرول مسرعا لاهثا على الطريق الزراعى ، وفى الأفق البعيد قطار وهمى يوشك أن يصل إلى المحطة ولا يظهر منه إلا سحب غامقة اللون لانهاية لها .. تعثرت فوقعت ..

رفعت رأسى عن أرض المرحاض متحسسا مكان البطحة ، فإذا بى أسمع الضجيج أمام الباب وصوت الأسطى بتاع المفاتيح يعكرش بالة حادة ويهزهز الباب بعنف . حينئذ أعدت نفسى إلى الوقعة من جديد ، رأيت أنها اتفقت مع ماكنت انتويته : أن أقع مغشيا على ، وأن أتقن الدور جيدا حتى ألهمهم فى مشكلتى الصحية إلى أن أفكر فى مخرج منطقى معقول ، كأن أزعم أننى عالجت الباب فانفتح فلما دخلت وأغلقت زرجن ثانية ورفض أن ينفتح ، وأننى مصاب بالدوخة أو التنعية أو التشنج العصبى أو ماشاكل ذلك من العلل . لدهشتى كان التمثيل أقوى من الحقيقة ، إذ أننى ارتيمت على الأرض فعلا فاقد الحركة ، لكننى سمعتهم يلغطون يتعجبون يتصايحون فى طلب الإسعاف ،

وسمعت عم عبده الجرسون يقول بإشفاق أنه يعرفنى وأننى ابن ناس طيبين وأننى راحت على نومة فى المرحاض إذ أننى كما يعرفنى مصاب بداء النوم فور جلوسى فى أى مكان . هنا قاومت بعنف حتى لا أبتسم ، ولأظننى كنت قادرا على الإبتسام . غير أننى استنمت للراحة القصوى حين رأيتنى قد حملت إلى كنية مريحة جدا فى سيارة فهمت أنها ملاكى ، وأن صاحبها تطوع بنقلى إلى أقرب مستشفى : ثم انقطعت صلتى بكل شىء لوقت طويل ، ثم انتبهت قليلا على لغظ من حولى وقد كفت الحركة تحت جسدى تماما ، فعرفت أننى على سرير فى مستشفى ، فازددت تشنجا وتصلبا فى رقدتى ، ومرة وقت طويل خيل لى فيه أننى قد وضعت بالفعل داخل تابوت خشبى صلب يحيط بجسدى إحاطة السوار بالمعصم . بعدها بقليل سمعت جلبة تدخل من الباب وسمعت صوتا غليظا أعرف أنه صوت ضابط التحريات ، ينطلق مجلجلا فى ضحكة ساخرة صافية منطلقة كادت تدفعنى دفعا إلى مشاركته البهجة مشاركتى له فى سر خفى نعرفه معا ، على أنه اندفع نحوى قائلا فى مرح عظيم :

- « تانى ؟! أذفع عمرى كله وأعرف حكاية الجدة ده إيه ؟ ! » .

انعتاق القمر

رأيتنى أتسلق سلما حلزونيا رقيقا ضيق الدرج ، ذا درابزين من الحديد
الأسطوانى المجوف ، وأما درجاته فمن الصاج الثقيل ذات سطح ملىء
بالحبيبات المنتفخة كوجه مريض بالبثور وحب الشاب . البسطات متعاكسة
متقابلة فى آن ، والدرايزين يتكسر إلى اليمين تارة ، لينحرف بعدها مباشرة
إلى أقصى اليسار ، كتعبان خرافى بلى جثمانه وبقيت أضلاعه واقفة فى قلب
هذا البئر المظلم ..

لست أذكر متى بدأت صعود هذا السلم ، لست أعرف لإمتداده نهاية ،
إذ كلما نظرت إلى أعلى ، جوبهت بشبكة حديدية من الأضلاع والخطوط
والدوائر والكتل السوداء تحاول أن تخطب ود قمر خائف يترقب مذعورا بين كتل
من السحاب المظلم كقباب من الجهل والعنجهية كأقدام دكتاتور خرافى
غشوم ..

قمر نذل جبان ، وسلم شعبانى رعديد ، وقلب بانئس مضطرب تتصاعد
دقاته من أسفل البئر إلى تخوم القمر ، أغلب الظن أنه قلبى ..

لست أعرف إن كنت على صعود أو على هبوط ، إنما كنت على بسطة
عالية جدا ، حتى لا أرى الأرض من تحتى ، فلا بد إذن أننى كنت على صعود
قبل برهة وجيزة . وكان القمر من فوقى يبدو غائرا فى البعد ، خنيسا ، فلا بد
إذن أننى كنت على هبوط منه إلى قرار مكين ..

كنت واقفا على أطراف قدمي ، أحاول من قرط الخوف والرعدة أن احتفظ بتوازني قدر الإمكان ، أغلب اليقين لأمسك بقلبي ذاك النافر ككرة القدم ما إن يلامس صدرى حتى ينط في الهواء يكاد يبتعد يتلاطم بالشبكة الحديدية . إنجابت طاقة من السحب عن وجه القمر فانتسعت قبة الضوء قليلا فانسكبت في البئر فتضاعفت أضلاع الشبكة الحديدية فأرسلت على برق الضوء الفضي الصدى صوراً عديدة من خطوطها ودوائرها وكتلها وبسطاتها على حوائط البئر وعلى الشبكة نفسها ، فتقاطعت رأسى مع ظلال الخطوط الشبكية فصرت لا أستطيع التفرقة بين الظل وأصله الحديدى ، أكاد أمسك ظل الدرابزين متساندا عليه ، تكاد الدرجات العليا تلامس أنفى وهى تلتف حولي . رائحة التراب تخترق خياشيمي . إستطرد التراب فتابعنى بروائح القمامة المنبعثة من أماكن غير معلومة ..

تقصد الضوء فى عيني قليلا كأنه عرق الظلمة المجهدة من مشوار طويل حافل بالمشقة المؤسية والأوجاع الأليمة . الدرجة التى رأيتنى واقفا عليها كانت تعلو بثلاث درجات عن بسطة معينة أحس أننى أعرفها جيدا ، مستطيلة ، تمتد من اسطوانة السلم إلى ممر لصيق بالحائط ممتد على جانبي السلم بدرابزين منفصل ، وفوق بثلاث درجات بسطة مشابهة تماما . على الممر ، فى مواجهة البسطة مباشرة ، باب مغلق ، من الواضح أنه لم يفتح فى يوم من الأيام ، يتراكم على أعقابها ظلام كالح وتراب زنج ، بجواره شبك مغلق هو الآخر . فى نهاية الممر فوهة مفتوحة مستطيلة فى قامة رجل عملاق ، كشاروقة الفرن ملائمة بالرماد الأسود . كانت روائح القمامة ترق أحيانا فتتشف عن رائحة ثقيلة حديثة القلى ورائحة لحم بلدى أنضج الإستواء فى سبائك من الخضراوات ، ورائحة بن محروق ، ورائحة سمن بلدى ، وزيت ويصل وفوم ..

سرعان ما تبينت أننى مأسوء فى سلم الخدم فى عمارة سكنية كبيرة شاهقة . تبينت قليلا قليلا : كنت أرتدى - دلا من الكاوتشوك قديما جدا من

صنع باتا ، وسروالا من الكتان رمادى اللون غير متسق ، وقميصا نصف كم كحلى اللون ، ولم يكن معى أى شىء ، سوى أن إبلى كان ينطوى بحرص شديد على شىء أذكر أنه يمثل أهمية جد خطيرة ، سرعان ما تبينت أنه جرنان قديم ذو صفحات كثيرة طويته على نفسه منذ وقت ما ، ونسيت ماذا كنت أبغى من الاحتفاظ به طوال كل هذا الوقت ..

رغم خوفى وذعرى بدا أننى على صلة وثيقة بهذا السلم على وجه التحديد ، وبهذه العمارة كلها .. بدا كأن القمر اختفى خلف أسوار السحب المالية ، ثم بدا كأنه انعتق ، أو لعله قفز هاربا من فوق الأسوار ، بدا كأنه قد استدعى طلائع الفجر الكاذب ليطلعها على ما يحدث فوق هذا السلم فى هذه اللحظة التى لفظها من الزمن فراحت تتسلق الهوامش تحاول الإندساس فى السياق ولو برقم بين قوسين يشير إليها ..

ثم بدا كأننى على علاقة - تبدو مشبوهة - بهذه البسطة التى تركتها تحتى بثلاث درجات ، وأننى تركتها لسبب ما ، وأننى ربما هدفت إلى هذه البسطة التى أقف عليها لسبب ما ، وأن هذا السبب يدخل فيه كون هذه الفوهة المستطيلة الشبيهة بشاروقة الفرن ، المماثلة لفوهة البسطة التحتية ، مغلقة على الدوام بباب صدى ، مما يؤكد أن هذه البسطة ليست مطروقة من سكان هذا الطابق . وبدا كأننى أعرف كل ما وراء هذه الفوهة المستطيلة الشبيهة بشاروقة الفرن المفتوحة على البسطة التحتية على الدوام ، أعرف أننى لو تركت السلم ومشيت على الممر المتصل بالبسطة ودخلت من هذه الفوهة فسأجد نفسى فى قلب العمارة من الداخل ، أغلب الظن فى الطابق السابع أو الثامن ...

رأيتنى أهبط من مصعد العمارة ، أذكر أثناء الصعود أن كان معى ثلاثة ركاب لابد أنهم كانوا من أصدقائى ، خيل إلى أننى ميزت بينهم « شكرى

الخضري أمين » ، سكرتير الكاتب الصحفي الكبير « عبدالقوى السعدوى » ، دائما أبدا شكرى الخضري أمين ، شكرى الخضري أمين دائما أبدا . هو أعجب من أستاذه وإن يكن صورة طبق الأصل منه ، يتكلم مثله بلباقة بالفاظ رنانة فحمة تخرج من حنكه الفلاحي ذى الأصل المدقع ، يشوح بيده عند الكلام فى رصانة الجهابذة وهدوء الحكماء ، يكاد سامعه ينخدع فيه ، يتصوره فيلسوفا كبيرا جدا على ثقافة موسوعية عالية المقام متينة البنيان عميقة الجنور، لكنه بعد دقائق يكتشف أن هذه العبارات الرنانة اللامعة المصكوكة العميقة ليست إلا صكوكا بدون رصيد من الثقافة على الإطلاق ، ليست إلا أصداء ما يتركه حديث أستاذه فيه طول النهار والليل . إلا أن كل من يكتشفه سرعان ما يزداد له حبا وإعجابا ، نظرا لحقيقة أصله كفلاح يعرف بالكاد فك الخط ، جاء به الأستاذ عبد القوى فى الأصل كخادم مشاويرجى ، فاكشف فيه إمكانات تطويرية فطرية ترشحه لأن يكون أعلى قليلا من درجة الخادم ، فبات يستخدمه كخادم وسكرتير ومندوب وقواد ومتحدث رسمى باسمه ومتصد لجحافل الدائنين الذين يبحثون دائما عن الأستاذ . حقيقة هذه سرعان ما تدهش المرء فيستلطفه ويستحسن ذكاهه ، يرى فيه صورة أستاذه بكل حذافيرها ، إذ أنه يسلك نفس السلوك يفكر نفس الأفكار يتحدث نفس العبارات ، لا ينقصه ليكون الأستاذ نفسه إلا أن يضاجع حريمه بالمرّة ، لولا أن حريم الأستاذ طهقانيين من شراهة الأستاذ وشبقه الذى لا ينطفئ . مثله مثل أستاذه له محلات بقالة ومحلات خمور وخضرجية وفكهانية وأكشاك سجائر يتعامل معها بالأجل ، على النوتة . ومثل أستاذه فإن أى صاحب محل لن يكسفه إذا تقدم بقلب جامد وثقة هائلة وطلب كذا وكيت وطلب لفها جيدا ثم بكل بساطة وثقة يقول له : سأمر عليك غدا لأحاسبك ! سيوافق صاحب المحل فى الحال ، لأن فى شكرى الخضري أمين كما فى أستاذه نبرة توحى بالثقة والهيبة التى لا يصح خدشها . الشيء الوحيد

الذى فاق فيه أستاذه هو كيفية الزوغان من الدائنين ، فإذا كان أستاذه يتذكر المحل فجأة وهو يمشى فى الشارع نشوان سرحان فيستدير عائدا فى الحال أو يحود متسللا من حارة جانبية ، فإن شكرى الخضري أمين لا يفعل هذا بل يجابه الدائن بكل ثقة ، ولربما مر على البائع الذى يكون منشغلا عنه غير منتبه إليه فينبهه بنفسه إلى نفسه كأن يلقى عليه التحية بصوت عال أو يقتحمه وسط زحام الزبائن مسلما بحرارة ، ودائما لسانه زرب ، جاهز بالحجة المنطقية والعذر الذى لا بد أن يقبل ، أليس هو الذى يخلص أستاذه من مآزق الدائنين ومن المواقف الصعبة ؟ ! .. بيت أستاذه حافل على الدوام ، إذ هو شاعر وموسيقى وممثل ومؤلف ومخرج سينمائى وصاحب فرقة مسرحية ، لذا فشكرى الخضري أمين شخصية معروفة لجميع الأوساط الفنية والثقافية ، تكاد تكون ألمع من شخصية أستاذه فى بعض الأماكن ، وقد استطاع أن ينقل من كل هذه النماذج الزائرة الساهرة المقامرة المتبذلة المتناقشة فى جدية كثيرا من السهر والمقامرة والتبذل والنقاش الجاد حتى ولو كان أجوف ، فهو جاهز دائما للتحدث فى أخطر القضايا السياسية والأدبية والفنية بنفس بساطة أستاذه وسيولته ، لكنها جدية تستوى عنده والإيقاع بفتاة ضالة أو النصب على ولد من الكومبارس معه بعض النقود . اللهجة الخطابية الزاعقة الجادة المهيبة يتكلم بها فى السياسة والفن ويخاطب بها المؤتمرات وبيعة الخضراوات والجزارين ونوادل المقاهى وماسحى الأحذية . هو متوسط القامة ربعة ، ليس سمينا ، لكنه صلب القوام ناشف الملامح والأطراف من شغل الفأس والمحراث ونقاوة اللطع ، مستطيل الوجه كنمس البطيخ الكحيان ، حاد الملامح غليظ الشفتين قد احترقتا من فرط التدخين المتواصل بشراهة ، بعينين ضيقتين قليلا لكن بريقهما يقط نشط مشع لا يهدأ ، فى تقاطيعه سماعة رصينة وقورة لا تتناسب مع سن الثانية والعشرين من عمره ، فيما بين عينيه وكربى خديه حركة استعداد دائمة

للمزاح الثقيل الفجوى الضاحك حتى الجنون الأجش ، لا يتنازل عن لبس البذلة الكاملة صيفا وشتاء ، فصلها له ترزى أستاذة ، مع رباط عنق فخم من مخلفات أستاذة ، وأزرار مفضضة ، وعطر الياسمين عند حلاقة الذقن التي يحلقها يوميا حتى باتت صفحة وجهه يشوبها الإخضرار .. لست أذكر متى عرفته ، أغلب الظن أنني عرفته مثلما عرفه الجميع ، فلو سألت أحدا ممن يعرفونه كيف عرفه فإنه سيحار ، مع أنهما أصدقاء خلص ، لن يعثر مطلقا على المناسبة الخاصة التي تعرف فيها على شكرى الخضرى أمين ، سيذكر عشرات بل مئات المناسبات الخاصة والعامة التي التقى فيها شكرى الخضرى أمين واجتمعا كأصدقاء ، لكن متى بدأت معرفته أول مرة وكيف ومن الذى عرفهما ببعضهما فذلك ساقط من ذاكرة كل من عرفوا شكرى الخضرى أمين وصادقوه مثلما هو ساقط من ذاكرتى ، لأنك من المألوف أن تلتقى شكرى الخضرى أمين فى أى مكان ، ومن المعروف أن تألفه فى الحال دون وسيط ، وأن يصطحبك أو تصطحبه لشرب كأسين أو طرقة حجرين أو اصطياذ مومس أو لتمثيل خناقة حامية فى موقف يدبره هو لصاحب البيت أو لأحد الدائنين ..

كنت متأكدا أنه ركب معى نفس المصعد ، بل أذكر أننا ربما نكون قد جئنا معا لركوب المصعد . تذكرت أن كلانا تعود أن يمويه على الآخر كلما دخلنا هذه العمارة أو ركبنا هذا المصعد ! مع يقين كل منا أن الآخر ذاهب إلى نفس المكان ! غير أن كلانا يفضل دائما أن يفاجأ بالآخر بعد وصول أحدهما قبل أو بعد الآخر . لابد إذن أنه اختفى فجأة فى مكان ما حتى لا نطرق معا نفس الباب فى لحظة واحدة ، لاجدوى من محاولتى معرفة أين اختفى ، فشكرى الخضرى أمين سرعان ما يظهر وسرعان ما يختفى ، تنشق الأرض فتظهره ، وتنشق فتبتلعه ، فعلى الرغم من البذلة الأنيقة التي يرتديها ، والقاموس المستنير الجارى على لسانه ، فإنه لا يزال يحمل الكثير من مواهب الحشرات الضئيلة

التي تجيد الاختباء فى الشقوق الضيقة . ورغم أنني فلاح مثله ولى علاقة وثيقة بالأرض فإننى أحاول دائما أن أتعلم منه سر هذه الموهبة ولكن دون جدوى .. صرت واقفا فى الردهة العريضة أمام باب المصعد ، أمامى أربعة أبواب متباعدة ، أحدها فى كوة منزوية بجوار هذه الفوهة المستطيلة الشبيهة بشاروقة الفرن والتي توصل إلى سلم الخدم . لم يكن ثمة أثر لمن خيل لى أنهم كانوا معى فى المصعد ، عاودنى الإحساس بالتطفل السمج ، لشعورى بأنهم قد هربوا منى ودلقونى فى المصعد وحدى واختفوا بصنعة لطافة . لم أتبين لماذا هربوا منى ، كان من الواضح أنني جئت أطلب هدفا فى هذه الردهة ، أغلب ظنى أنني مشغول بأحد هذه الأبواب المغلقة يخيم عليها السكون المخيف ، فليس ثمة من حركة أو صوت أنفاس تتردد خلف هذه الأبواب . إنها ليست شققا سكنية ، فكما هو واضح لى الآن يوجد على كل باب لوحة نحاسية ، بعضها تتضاف إليه لافتات كبيرة باللون الخافت : فلان الفلانى محاسب قانونى .. فلان الفلانى المحامى لدى محكمة النقض ومجلس الدولة .. شركة النيل للكيماويات .. شركة نفرتيتى للإعلان والتصوير والخدمات الإعلامية ، تلك هى الشقة التى يبنى أنني جئت أقصدها . هاأنذا أقترب من بابها على أطراف أصابع قدمى . حاولت النظر من العين السحرية فى الباب ، تبينت استحالة النظر فيها من الخارج . ألصقت أذننى بالباب ، ليس ثمة من صوت على الإطلاق . ركعت على ركبتي ، ملت برأسى ناظرا تحت عقب الباب بحثا عن ضوء بداخلها ، لم أجد سوى الظلام ، اعتدلت واقفا ، مضيت نحو باب المصعد من جديد ، ربما لكى أهبط خارجا من العمارة . كان باب المصعد مغلقا ، وبئر المصعد فارغا يفج منه الظلام والصدأ . ألصقت عيني بحديد باب المصعد ، نظرت فى أسفل البئر ، رأيت سطح المصعد فى القاع البعيد البعيد ، ضغطت على الزر ، لم يحدث أى شئ ، تبينت أن الكهرباء مسحويه عن المصعد ، تذكرت أن ذلك يحدث دائما بعد الثامنة أو التاسعة مساء ، وأن باب العمارة هو الآخر مغلق الآن بالقفل والجنزير من الداخل ، وأن البواب مستغرق فى النوم مع زوجته وأولاده فى

حجرته الكائنة تحت سلم العمارة بجوار باب سلم الخدم ، تذكرت أن العمارة كلها مكاتب وشركات ، فيما عدا القليل من الطوابق العلوية والسفلية ، البواب ليس كأى بواب ، إن فيه لعجرفة وكبرياء قد لا يتوافر فى عمدة البلاد ، أصله نوبى ، طويل القامة ، أسود اللون ، فى عينيه قرشان من الفضة اللامعة بخرمين فى وسطهما ، ضيق الجبهة تحت عمامة كبيرة بشال حريرى أبيض ، ضيق الخلق أيضا ، غليظ الكبد ، غليظ الصوت ، إن وقع فى يديه تائه أو عابر سبيل فياويله يا سواد ليله ، أما إن وقع فى يديه لص أو متسلل ليليل فالخنجر فى جيب الصديرى يقفز من تلقاء نفسه ليندب فى جنب الضحية أولا قبل أى تفاهم ، له فى كل شهر ثلاث أو أربعة محاضر فى قسم الشرطة ، كل محضر بجريح ، كل جريح لابد أن يتضح فى النهاية أنه برئ وله عذره فى محاولة صعود العمارة ليلا . لكن « محجوب » البواب لابد أن يخرج بضمان صاحب العمارة ، التى كانت لأحد أفراد عائلة البدراوى قبل أن توضع تحت الحراسة لتتول ملكيتها بطريقة سحرية غامضة إلى واحد من كبار الضباط الأحرار ...

تحسست ساعة يدى العتيقة ، الوحيدة التى حرصت على ألا أبيعها أو أرهنها مثلما فعلت مع أشياء كثيرة سرعان ما ضاعت وانتهت من حياتى إلى الأبد . كانت الساعة تشير إلى قرب منتصف الليل ، فلا بد إذن أننى صعدت إلى هنا منذ وقت مبكر ، وبدا لى أننى كنت أعرف حقيقة الباب المغلق والكهرباء المنسحبة وأننى اندسست بين الصاعدين فى زحمة العمل فى فترة ما بعد الظهر القصيرة غير أننى لم أعرف أين اختبأت طوال كل هذه المدة ..

أفقت فجأة على حقيقة أننى وحدى فى هذه العمارة كلها بجميع أدوارها العليا ، فشعرت براحة كبيرة جدا لأن عينا لا ترانى ، صار بوسعى أن أتربع جالسا على الأرض ، فلربما سكنت هذا اللهب المتلظى فى قدمى وساقى من طول ما مشيت ووقفت . شرعت أفعل ، سمعت طقطقة خياطة السروال فاعتدلت فى الحال مذعورا وجعلت أتحنس مواضع الخياطة بين ساقى ، غاصت أصابعى

فى فتق طويل تحت المؤخرة ، شعرت بندم وغيظ عميقين ، داهمتنى الكآبة ، كدت أخبط دماغى فى الحائط لأفنته وأستريح من توريطاته التى يوقعنى فيها دائما . أخذت أروح وأجئ فى الردهة . صافحت عيني درجات السلم الرخامى اللامعة بجوار باب المصعد مباشرة ، إحلوت الفكرة فى نظرى ، جلست على إحدى الدرجات ، أسندت جانب رأسى إلى الحاجز الأسمنتى ، حاولت الغطس فى الفراغ اللانهائى ، لكن بارقة ضوء لمعت فجأة كومض الرعد مصحوبة بتكة سريعة خفيفة ، إهتز قلبى كاد يندلق من حلقى ، ظل يدق بعنف حتى بعد أن تبين أن البواب قد أشعل نور بئر سلم الخدم ، سمعت خطواته فى الفناء وصوت باب المرحاض تحت السلم مباشرة يفتح ويغلق ، مضت برهة طويلة ، سمعت باب المرحاض يزيق مرتين ، وصوت الخطوات والهمهمة ، وصوت التكة ينسحب معها شبخ الضوء عن أرض الردهة ..

ظل بصرى معلقا بلافتة : شركة نفرتيتى للتصوير والإعلان والخدمات الإعلامية لصاحبها عبد العليم العشرى ، فى علية من البلاستيك بداخلها لمبة صغيرة جدا حمراء اللون لا تضى سوى الحروف فحسب ...

رأيتنى أحترق ردهة مستطيلة حافلة بالمكاتب ، ودواليب الأوراق ، أغلب الظن أنها مقر مجلة (البوليس) كنت أتأبط ملفا جديدا كالحا أعرف أن به أوراقا كثيرة من ورق الدشت الذى أختلسه من دور الصحف التى أتردد عليها ، سطرت عليه بعض موضوعات أعرف مقدما أن الصحيفة لن تقبل نشرها لسبب أو لآخر ؛ لكننى مع ذلك أصر على مقابلة مدير التحرير وتقديمها له ، على الأقل ليقرا ولو صفحة منها ، فلربما اقتنع من طريقتى فى الكتابة أننى أصلح للعمل محررا فيكلفنى بشئ أكتبه أو يلحقنى بالعمل بالقطعة . مررت فى طريقي

بمكتب عبد العليم العشرى ، الذى يعمل كبيراً لمصورى هذه المجلة رغم أنه شاب لا يتعدى الثلاثين من عمره ؛ لا هو بالطويل ولا بالقصير ، لكنه يصلح نجماً سينمائياً لفرط أناقته رغم بساطة ملبسه الذى قد لا يتعدى أحياناً مجرد قميص وسروال وحذاء من أثمان وأغلى الأنواع . القميص دائماً مفتوح الأزرار حتى منتصف الصدر ، حيث تظهر غابة من الشعر الأسود المتكور تصل حتى منابت الرقبة الممتلئة بالعضلات المكسوة باللحم كأنها منحوتة من البازلت ذات لون نحاسى ، تحمل رأساً محدقاً ، مثلث الوجه كقمر تختفى نصف دائرته العلوية تحت قبة من الشعر الأسود اللامع المصفف فيما يشبه الفوضى المنظمة، مفلوق من الجانب الأيمن لكن الخصلات النافرة من الجانبين غطت الفلق من أعلى فبدا كمر مندر في قلب غابة فقدت بكارتها الخشنة . فى أسفل وجهه المثلث طابع الحسن كحبة الجوافة ؛ وفى خديه غمازتان خفيتان تلوحان كلما افتر ثغره عن مشروع ابتسامة ؛ فكل ابتساماته مجرد مشاريع ما تكاد تكتمل حتى تتفجر فى ضحكة عنيفة مكتومة صافية ، يهتز لها كتفاه العريضان النحيلان الأنيقان ، حيث يهف القميص عليهما بشفافية تنطبع من خلالها خطوط الفائلة بطوقها وحملتيها ، حيث تتألق فى عينيه السوداوين الطيبتين نظرة إشفاق رحيمة لوعتها الأيام وصبغتها بمشاعر الحزن والألم والحكمة . ذلك أنه ولد حلو بكل معنى الكلمة ، غاية فى الرقة والعذوبة والأدب والحياء . تظنه ابن ذوات من أولئك الذين يقال إنهم ولدوا والمعلقة الذهبية فى أفواههم ، ولذلك تكون دهشتك عظيمة حين يألفك - وسرعان ما يألفك - فيحكى لك شيئاً من قصة حياته ، كتلميذ فقير من بلدة البدرشين ، لفظه مجتمع المدارس لضيق ذات اليد ، فتعلم التصوير وكافح حتى اشتغل مصوراً صحفياً ، وعن طريق الصحافة لمع كمصور للحفلات والأفراح والليالى الملاح ، فكسب الكثير حتى استأجر هذه

الشقة فى أكبر عمارة فى شارع فؤاد بقلب المدينة ليفتحها محلاً للتصوير الخاص . وعن طريق الصحافة أيضاً عشق التصوير السينمائى فالتحق مساعداً لأحد كبار المصورين ، ثم صار مساعداً أول ، ثم أصبح مصوراً مستقلاً : « كاميرامان » كما يطلق عليه الوسط السينمائى ، أو رجل الكاميرا كما يطلق على نفسه باعتباره من أهل الكلمة . وحينما افتتح التلفزيون العربى فى البلاد التحق به مصوراً ، وحول شقته تلك إلى شركة للإعلانات التلفزيونية والسينمائية واختراع النشرات الإعلامية للشركات الكبرى ، وبات من ركاب السيارات الخاصة ، وصاحب رصيد فى بنك مصر ، وزوجة حسناء فى شقة أخرى يحدثها بالتليفون كل دقائق لينهى إليها أخبار تحركاته أولاً بأول ..

بدا لى أن هذه أول زيارة أقوم بها لمجلة البوليس . ها هو ذا يتابعنى بنظراته . كنت متهيئاً ، حذراً ، غريباً ، أتوقف بجوار كل مكتب لأسأل محرره عن مكان مدير التحرير . لا أحد يرفع بصره إلیّ ، إذ يبدو أنهم جميعاً ينكرون علىّ جرأتى فى اقتحام عرينهم وصفافتى فى محاولة فرض نفسى ، لم يجبنى أحد بغير عبارة : إسأل الساعى بتاعه . فلما يئست شعرت بالبواخ واستدرت لأنصرف مجرراً أذياناً والخجل ، لكن صوتاً ذا نبرة فلاحية مغموسة فى رقة بندرية صاح بى كالنجدة كالأم الرعوم قائلاً : تعالى يا حبيبى ! .. وإن استدرت إليه وجدته يقف نصف وقفه مادايده ليسلم على . عندما احتوت يده يدي شعرت بصدق شديد وحنو أشد كأنه يعتذرلى عن سوء ما قوبلت به . بحركة نصف دائرية جذبتنى يده فأجلستنى على كرسى بجواره ، ثم سحب يده وتناول علبة السجائر الأمريكية فقدمها لى : سيجارة ، كانت أمراً ، فنزعت واحدة ، فبسرعة تكت القداحة الـ « دنهل » رافعة شعلتها الجميلة تحت طرف سيجارتى ، فاشعلتها . ثم ضغط على زر جرس فجاء الساعى متجهماً الوجه ينظر لى فى

استنكار كمن يتوقع اللوم على تركى أدخل دون استئذان ، إلا أن عبد العليم العشرى همس له برقة : هات شأى هنا للأستاذ . أحببت هذه الكلمة وهى تخرج من بين شفثيه إذ شعرت أنه ينطقها بكل جدية وصدق وبلا مجاملة . فى الحال جاء الشأى . إنعوج عبد العليم فى جلسته نصف عوجة ليوأجهنى قائلاً بكل رقة : « حضرتك عايز مدير التحرير ليه ؟ أى خدمة نستطيع القيام بها ؟ » كنت قد قرأت اسمه وشغلته على لافتة خشبية هرمية الشكل فوق مكتبه ، وعرفت أنه لن يكون صاحب فتوى فى أمر الكتابة والتحرير الصحفى ، لكنه فى النهاية من هيئة تحرير المجلة ، أى أنه ليس أى مصوراتى على الرصيف ، ثم إن وده الجميل قد أضعفنى ، فقلت له على الفور دون لف أو دوران : « معى موضوعات صحفية أريد نشرها فى مجلتكم » . تخاليت الإبتسامة فوق الغمازتين كخيال الظل ، وقال : « أهلا بيك ! » ، كانت صديقة ودودة ، أتبعها بقوله : « تعرف طبعاً أننا مجلة خاصة إسمها البوليس ! يعنى لنا موضوعات صحفية خاصة بنا كصحافة نوعية أوقل صحافة مهنية ! أنت من أهل الكلمة وتستطيع اختيار التعبير المناسب أفضل منى ! فانت لاشك تفهم قصدى ! » . قلت : « نعم ! أعرف ! وهذه موضوعات كتبها عن أساليب الجريمة فى القرية المصرية ! وأسبابها ودوافعها الملعنة والخفية على السواء ! وأنواعها وألوانها ! » . كانت الغمازتان كسنارة خفية توشك على النجاح فى اصطياذ الإبتسامة وللوصول بها إلى شاطئ غره مع كل عبارة نطقت بها ، إلا أن الإبتسامة سرعان ماكانت تنفلت مختبئة فى بريق الإعجاب فى عينيه الشبيهتين بلوزة القطن المتفتحة ، ثم هتف بصوت متهدج : « جميل ! هايل ! ورينى كده ! » . فتحت الملف بكل حماس ، نزعت الأوراق مكتوبة بخط أنيق ومزينة بعناوين كبيرة داخل مربعات وكورسوداء ، ومانشتات مثيرة ، ومقدمات بحروف كبيرة

تحتها خطوط سوداء أخذ يقلب فيها بإعجاب شديد ، يقرأ بعض السطور ، ثم حملها ونهض واقفا قائلاً : « عن إذلك ! » ، ومضى نحو الداخل مشيعاً بنقرات قلبى كالدريكة تحتاط بإيقاع مؤخرته داخل السروال الأنيق من صوف الفائلة الرمادى الفاتح ، حتى اختفى داخل إحدى الغرف ، مكث بها مدة طويلة ، ثم عاد متهلل الوجه كمحض خيال فى خيال ، يقول : « إيسط يا عم ! مدير التحرير قرأها بنفسه كلها ووافق على نشرها بعد عدد أو عديدين ! » ثم جلس وهو يستدرك فى شئ من الأسف : « بس ! .. » وبدا أن ما سيقوله صعب عليه ، فتردد قليلاً ثم أردف : « بس مع الأسف ! المجلة لا تدفع أجراً ! » ثم صمت ناظراً فى عيني بعق كأنه يختبر وقع المصيبة على ، وبدا فى الحال كأنه أدرك عمق الفاجعة فى عيني ، فإذا به يقول دفعة واحدة : « على فكرة ! أنت معك نقود ؟ ! » فوجئت ، أجمتتى الدهشة ، حرت فى الجواب ، لكن يده كانت أسرع من جوابى ، إندبت يده فى جيب سرواله الخلفى فأخرجت محفظة جلدية ثمينة متخمة ، فتحتها ، نزع منها ورقة خضراء من فئة الجنيه ، يتألق فيها وجه أبى الهول مصبوغاً بحمرة الأصيل ، طواه بسرعة ودسه فى جيب قميصى على الصدر ، كل ذلك فى لمح البصر دون أن يشعر أحد . كانت فى عينيه نظرة حانية ترجونى ألا أعترض ؛ وكانت فى أعطافى فرحة شاملة تحملنى على ألا أعترض ؛ إذ بمجرد أن لامست ورقة الجنيه صدرى تفتحت كل أبواب المدينة فى وجهى ، وامتلأ أنفى برائحة الشواء ، ودغدغت أضلاعى حشيات الأسرة فى الفنادق الرخيصة ، واتسع صدرى للهواء ، وأشرقت فى ذهنى كتابات كثيرة ، وأطلت نواص كثيرة لمقاه حميمة بمقاعد ومناضد مرصوفة على الأرصفة فى ساعات العصارى ، حيث الحياة قلم وأوراق وأفكار تجرى إلى مستقر لها ، وعلبة سجانر كاملة ، وفنجان قهوة ، وشارع يتدفق بالحصان والألوان

والعطور؛ فلم أنبس بحرف ، بل نكست وجهي الى الأرض فى محاولة فاشلة للإدعاء بأننى لم أر شيئا مما حدث . أفقت على صوت عبد العليم العشرى يقول فى دفاء هامس : « إعتبرنى أذا لك بمعنى الكلمة ! كلما احتجت لشيء تعال واطلبه منى بقلب جامد ! على فكرة ! أنا لى مكتب آخر يمكن أن تزورنى فيه متى شئت بعد الظهر ! » ؛ وسحب ورقة من نتيجة أمامه ، فكتب عليها عنوان مقر شركته فى شارع فؤاد ...

صراخ حاد وكركبة ومطارادات هزتنى من الأعماق . كنت متقرفصا على درجة السلم الرخامية ؛ رفعت رأسى عن ركبتى ، عرفت أن معركة القطط تدور رحاها على سلم الخدم فى الخلف حول صفائح القمامة المتناثرة أمام أبواب المطابخ فى الطابق الأخير الذى يشغله مالك العمارة ورهط من عائلته ..

عدت أنظر فى باب الشقة التى تحمل إسم عبد العليم العشرى ؛ لاحظت أن النور يتسرب من تحت عقب الباب ، مما يؤكد أن فى داخلها أحدا ، هو على وجه التحديد « عاطف سنبل » الذى يعتمد عليه عبد العليم فى إدارة هذه الشركة رغم أنه ليس على شيء من الكفاءة ..

رأيتنى أدخل هذه الشقة ساعة الأصيل . كان من الواضح أننى أدخلها لأول مرة ، وأننى منبهر بنظامها ونظافتها وأثاثها الرشيق الهادئ السمات . الردهة مربعة على مساحة كبيرة تساوى أربعة فى أربعة أمتار مربع ، مفروشة بسجادة فستقية اللون عليها رسوم مزركشة ؛ الحوائط مغلقة بورق الحائط المشجر القريب هو الآخر من اللون الفستقى ؛ يوجد مكتب مستطيل على شكل مودرن ، دائرى ، أصفر اللون ، عليه لوح زجاجى تحته كرنفال من الصور الفوتوغرافية الملونة لمناظر عديدة ، وبطاقات متعددة الأشكال بأسماء شركات وناس مشهورين ؛ أمام المكتب بضعة مقاعد جلدية وثيرة . يتفرع من هذه

الردهة ممر يتسع لشخصين متجاورين ؛ يؤدى إلى ثلاث غرف تطل على شارعين عموميين بشرفات كبيرة ونوافذ مستطيلة ؛ وعلى اليمين دورة مياه ومطبخ كبير يصلح غرفة للمعيشة ؛ لكن عبد العليم العشرى إقتطع منه جزءا حوله إلى غرفة ظلماء لتحميم الأفلام المصورة ؛ وجعل الغرفة المطلة على شارع فؤاد مكتبا له ، أين منه مكاتب الوزراء والكبراء ؛ وجعل من الغرفة المجاورة مقرا للسكرتارية الفنية التى تقوم بوضع التصميمات والماكينات والرسوم الإعلانية وصياغة المواد والأفكار وتخليقها فى تجسيديات فنية تخدم غرضا إعلانيا أو إعلاميا أو ما شاكل ذلك من الأغراض الداخلة فى اختصاص الشركة ؛ وليس فى هذه السكرتارية موظف واحد تلتزم الشركة تجاهه بأى التزامات ؛ إنما هم جميعا من العاملين فى الحقل الفنى والصحفى من أنصاف الموهوبين أو الموهوبين المضروبين فى حظوظهم ؛ يؤمون هذه الغرفة مساء كل يوم على فيض الكريم ؛ إن جاءهم شغل نفثوه وقبضوا عليه أجرا هامشيا ؛ وإن لم يجئ شغل فإنهم يقضون مع بعضهم وقتا طيبا يشربون القهوة والشاي ويدخنون السجائر ويستخدمون الهاتف على نفقة عبد العليم كإغراء لهم على الحضور المستمر . كما أنه جعل من الغرفة الثالثة مقرا للإدارة ؛ وفيها عدة دواليب تحوى الأوراق والمستندات وكافة المواد المكتبية ، وفيها أربع مكاتب ماركة إيديال ، يجلس إليها أربعة من الشبان الموظفين فى جرائد ومؤسسات أخرى لكنهم يعملون لدى عبد العليم فى فترة المساء نظير مرتب ثابت ؛ إذ هم يقومون بأعمال جوهرية : مقابلة العملاء والإتفاق معهم وكتابة العقود والإشراف الإدارى على التنفيذ والإنتاج ؛ كما يقومون بتنظيم دفاتر الحسابات وترتيب كل شيء وتجهيزه لأى مراجعة مفاجئة . هؤلاء وأولئك جميعا من الشبان الباسمين سمحى الوجوه مهذبين على درجة كبيرة من الرقة .. مرت بهم فى الغرف قبل

أن أختار أحدهم لأسأله عن الأستاذ عبد العليم . على أننى اقتحمت الغرفة المواجهة المطلة على شارع فؤاد . كانت مواربة لا يظهر من بداخلها . قبل أن أطرق الباب خرج من خلف خوان شاب طويل القامة أبيض اللون أزرق العينين مستطيل الوجه غزير الشعر مجعده، فى عينيه بريق يشبه جدية النبلاء ويقرب من توعد قطاع الطرق ، رفيع الشفتين طويل الأنف بارز الخدين ، تنكمش شفاته من الجنب على بسمة فيها قليل من الخبث وكثير من الشقاوة . قال دون أن أسأله : « أنا خدامك عاطف سنبل ! نائب رئيس الشركة ! أى خدمات ؟ » . قلت : « أريد مقابلة صديقى الأستاذ عبد العليم العشرى ! » . قال بأريحية فلاحية شهمة : « أهلا وسهلا ! اتفضل استريح ! زمانه جاى » ، ثم تقدمنى إلى شرفة الغرفة المطلة على شارع فؤاد ، وأشار على مقعد من الجريد ، فجلست عليه ، جلس هو قبالتى على مقعد آخر من الجريد أيضا - قدمت له نفسى بالشكل الذى أحب أن يعرفنى به . فوجئت بأنه يعرفنى من قبل ، كما فوجئت بأننى سبق أن رأيته كثيرا فى أماكن كثيرة ولم أكن أعرف ما هى شغلته على وجه التحديد . الآن وضح أننى قد عرفت حق المعرفة . إنه من السنبلالوين ، من قرية مجاورة لقرية الأديب الكبير عبد القوى بك ، وقد جاء إلى القاهرة على حسه ، إذ هو فى الأصل يعيش فى التمثيل السينمائى ، والأستاذ عبد القوى يعرف ذلك عنه ، ويتمنى لو يساعده ، وكثيرون غير الأستاذ يحبون مساعدته ، لكنه يتقاعس وهم يتقاعسون حتى تجيء الفرصة المناسبة التى يتقنون أنها تستأمله ، فلو كان الأمر أمر تمثيل فحسب للأدب الدنيا تمثيلا وكسب آلاف الجنيهات ، إنما المشكلة أنه لا يقبل بغير دور الفتى الأول ، إذ أنه يملك كل مواصفات الفتى الأول فى السينما المصرية على الأقل .. وإلا فقل لى من هو أفضل منى فيهم ؟! عماد حمدي ؟ كمال الشناوى ؟ رشدى أباطه ؟ شكرى

سرحان ؟ كل هؤلاء مجرد نجوم، لكنهم فى التمثيل أجهل من دابة ! كلهم تنقصهم موهبة التمثيل المتوافرة فيه ، كما ينقصهم عنصر مهم جدا هو عنصر الثقافة الذى يرى أنه متوافر فيه أيضا ، الأمر فى نظره لا يحتاج أكثر من منتج جرىء مثل رمسيس نجيب يقدر على المغامرة بتقديم الوجوه الجديدة ، لكن يبدو أن العصر لا يقدم إلا رمسيسا واحدا فقط ..

هكذا قال وهو يقدم لى سيجارة من علبة متكورة متلوية ، ثم قال كلاما كثيرا جدا ، فهمت منه أن شكرى الخضرى أمين هو حلقة الوصل بينه وبين الأستاذ ، وأنهما أصدقاء طفولة ، وأن شكرى يقضى سهراته كل ليلة فى هذه الشقة وأنهما كثيرا ما يبيتان معا ها هنا حتى الصباح مع زجاجة خمر أو قطعة خشيش للفسجائر ، أو حتى مع بضعة أكواب من الشاي القريدىجى ، ثم قال لى : « ليتك تنتهز أى فرصة وتجيء لتسهر معنا حتى الصباح لو أردت! » وكان من الواضح أنه يعرف قيمة المكان بالنسبة لى ، وأن شقة كهذه يمكن أن تكون مأوى عظيما يستحق أن أشكره عليه . واضح أنه قرأ الفرحة والحماس على وجهى ، وأنه قد سر بذلك سرورا كبيرا ، قلت له : « سوف أجيء فى أقرب وقت تتصوره ! » . قال كأنه يساعدنى على اجتياز الخطوة الحرجة : « تعال من الليلة إن أردت ! من الآن ! فبعد ساعات قليلة جدا ينصرف كل هؤلاء ويجيىء شكرى فنسهر سويا نتكلم فى الأدب والفن ! على فكرة ! أنا لى فى الأدب ! أكتب بعض الخواطر الشعرية والقصصية وبعض الآراء ! نشر لى الأستاذ كثيرا فى بريد القراء ! غير أننى مشغول هذه الأيام عن الكتابة وأشعر أن وجودنا معا سيسجعنى على معاودة الكتابة سمعت أنك تكتب التمثيليات الإذاعية ! قرأت خبرا أنك تعد بعض القصص الأدبية للإذاعة فى صوت العرب ! أنا يمكن أن أنفعك فى هذه العملية ! إن أردت أن تكلم المخرجين لكى

يستعينوا بى فى بعض الأدوار فسأوافق من أجل خاطرك فحسب ! إنه مجرد تدريب على الصوت لا بأس به ! ثم إن الإذاعة ميدان فسيح ومهم بالنسبة للممثل ! »

وكان الليل قد تقدم بصورة لم أشهدها من قبل ، إذ فوجئت بأننى فى الهزيع الأخير من الليل بدون قميص ، وبدون حذاء ، وبالسروال الداخلى والفانلة أم حمالات فحسب ، أضطجع على السجادة القטיפية متكئا على حشية كرسى ، وبيدى سيجارة حشيش مشتعلة ، وأمامى كوب شاي بارد ، وعاطف سنبل على نفس الوضع على مقربة ، وشكرى الخضرى أمين على نفس الوضع أيضا ولكن فوق كنية استديو . كان من الواضح أننا مسطولين جدا ، حيث أهلكنا كومة هائلة من السجائر الملفوفة بالحشيش من قطعة أتى بها شكرى الخضرى أمين من حى معروف الذى يسكن فى إحدى حاراته الجانبية الضيقة . وكان خيط الحديث قد انقطع بيننا منذ وقت بعيد لم أتبينه ، وبدا أننا تنهنا من بعضنا ، فأنفرد كل واحد بنفسه يضرب فى مجاهل غامضة مبهجة ..

وكان يلوح لى أن هذه القعدة راسخة متكررة ، كما كان يلوح لى أننى مهموم بمشكلة خطيرة قابعة فى جيب سروالى الخلفى فى محفظة تضم البطاقة الشخصية والفكرة ، تلك هى خمسة جنيهات كاملة قبضتها اليوم من الإذاعة عن حلقة كتبها لبرنامج «من الحياة» إخراج ديمترى لوقا . ورقة خضراء شكلها محترم جدا ، حرصت على إخفائها فى جيب سحرى للمفكرة ، وانتويت أن أقتطع منها بضعة ملاليم كل يوم لزوم الأكل فحسب ، لكى تكفينى أطول مدة ممكنة ، حيث أنى لا أعرف متى تجيء نقود ولا من أين ، كما أنى لم أعد مستعدا لتجربة الجوع فى هذه المدينة أكثر من ثلاثة أيام . كنت أعرف أن سروالى معلق على ظهر الكرسي من خلفى ، وكنت قلقا بعض الشيء ، فرغم

أنتمائى لهذين الصديقين فإننى كنت أخشى ضياع الورقة المالية الخمسية التى أحس الآن أنها كل مستقبلى . مع ذلك كنت أشعر أننى لا مانع لدى من أن أعزم الصديقين على عشوة أو فطور أو قطعة حشيش بخمسين قرشا ، على أن يتم ذلك دون أن تظهر الورقة الخمسية ، وإلا فأنا مضطر لإنفاقها كلها على ثلاثتنا ، ولن أستطيع التذرع بأى حجة تبرر تقاعسى عن القيام بواجب طالما أن معى نقودا كهذه ، مثلما يفعل كل منهما بالقروش القليلة التى معه . فكرت أن أفعل ذلك فى الغد ، أن أفك الورقة فأخفى معظمها وأبرز ما أنتوى صرفه موحيا إليهما بأن هذا المبلغ هو كل مامعى ...

ثم رأيتنى أتجول فى شارع فؤاد وحواريه الجانبية ، أتوقف عند كل مقهى ، أتلكأ عند مقهى الكومبارس . كان من الواضح أننى فرح فرحة غامرة ، وأن سبب هذه الفرحة وجود قطعة الحشيش فى جيبى ، وأننى أبحث عن عاطف سنبل لكى نعود معا إلى الشقة ونشرع فى تدخينها مع شكرى الخضرى أمين ، الذى لا بد أن يكون هو الآخر قد تصرف فى بضعة كنوس يجمعها من بقايا قعدة الأستاذ كما يفعل دائما ...

ثم رأيتنى أطرق باب الشقة ولا من مجيب . وكانت أصوات مهمة ومقارعة كنوس تبلغنى من خلف الباب فأعاود الطرق بشدة . كان يخيل لى أن قطعة الحشيش لا تزال فى جيبى أدخرها منذ وقت طويل ، حيث أعطانيها ممثل كبير فى مقابل إرشادى له إلى بائع لديه صنف جيد . وكنت على ما يشبه الثقة من أن أحدا لن يفتح لى الباب . تذكرت بقلب منتفض أن شكرى الخضرى أمين قد رانى.. منذ أيام بعيدة أقف أمام شباك الصرف الفورى فى الإذاعة ، وقد تلكأ حتى رانى أصرف الجنيهات الخمسة ، ولا بد أنه أخبر عاطف سنبل بأن

معى نقودا كبيرة أخفيها عنهما . كنت واثقا أن شكرى الخضرى أمين لن يغفر لى هذه « التثانة » أبدا ، ولن يقبل أى شرح أو تفسير . تذكرت أننى وقفت أمام هذا الباب نفس هذه الوقفة لىالى كثيرة جدا ولم يفتح لى أحد ، ومع ذلك لأدري لماذا أعاود المجيء والطرق رغم يقينى بأن عاطف سنبل وشكرى الخضرى أمين قد لفظانى إلى الأبد ..

ثم رأيتنى أجرى بأقصى سرعة ولهاث داخل نفق مظلم رحيب وقد قر فى ذهنى أن ثمة فتحة قريبة توصل إلى سلم للخروج . ثم رأيتنى مشرفا على حالة إغماء ، ثم تهاويت جالسا ، ثم رأيتنى ألثت فى جلستى بجوار عبد العليم العشرى فى مكتبه بمجلة البوليس ، وكان يحاول استدراجى لمعرفة سبب حضورى المفاجئ على هذا النحو العصبى المنفعل . لم أكن أعرف لماذا جئت ، ولكن بدا لى أننى أحاول النهوض والانصراف قبل أن ينزلق لسانى بالدس فى حق عاطف سنبل وشكرى الخضرى أمين ، وإبلاغ عبد العليم العشرى بأنهما يبيتان فى شقته ويمارسان فيها السكر والعريضة . كان من الواضح أننى مضطرب جدا ، وأننى أؤنب نفسى على إقدامى على هذه المحاولة الخسيسة التى لاشك تصغرنى فى عين عبد العليم ، وتصمنى بالنذالة . وقفت مستعدا للإنصراف . إستبقانى ، أصر على معرفة السبب وراء زيارتى : عايز فلوس ؟ لا ! فيه حاجة حصلت ؟ ! فيه حد متخايق معاك ؟ لا ! لا .. فما الأمر إذن ؟ ! مجرد زيارة فحسب .. إذن فاجلس لتشرب الشاى . جلست على مضض وقد شعرت كأن حبل المشنقة ملتف حول رقبتى ، وثمة مجهول فى مكان خفى يشيع لى بصقة ساخنة تستقر على جبتهى ملتصقة بها ليتناثر منها رذاذ إلى عيني . شعرت بالتقرزز فانتفضت فى غضب أثلقت حوالى باحثا عن فعل بى هذه الفعلة الحقيرة ..

مرت دقائق طويلة كنت أنتفض خلالها ، ثم تبينت أننى قد تفرصت فوق بسطة فى سلم الخدم ، حيث كانت البصقة لا تزال عالقة بجبتهى ، فمددت يدى لأمسحها ، وكانت فردة حمام قد وقفت على حديد الدرابزين فوق رأسى مباشرة ، وألقت فوق جبتهى بصقتها الثانية ، فمسحتها هى الأخرى بقرق . وكان ضوء الصباح قد دهن السماء والسلم والبئر بلون تريكوازى رائق ، فتبينت أننى كنت - منذ ساعات طويلة مضت - قد فرشت الجرنان على هذه البسطة وتمددت مستغرقا فى النوم بعد يأس من فتح باب الشقة ، مثلما تعودت أن أفعل كلما تعبت من اللف ويشت من فتح الأبواب ..

ظللت متفرصا لدقائق أخرى طويلة خيل لى خلالها أننى لن أستطيع فرد جسدى . ثم تبينت أننى يجب أن أراقب حركة الباب ، فانتظر حتى يجيء كعادته كل يوم ليدخل المرحاض تحت بئر السلم مباشرة ويغلق على نفسه الباب من الداخل ، لكى أئسل على أطراف أصابعى فأهبط إلى بئر السلم ، وأتجه إلى الباب الخلفى للعمارة ، فأزيع الترابس برفق وهدوء ، لأفتح الباب وأئسل خارجا ثم أجذبه ثانية ، وأسرب يدى من خلال شبكته الحديدية لأغلقه من الداخل كما كان . وهكذا لمت الجرنان وطويته بعناية تحت إبطى ، ووقفت منزويا على إحدى الدرجات مداريا نفسى فى شبكة الحديد . وكان القمر قد انعتق تماما ، وانفرجت فى وجهه أسارير السحاب ، وصفا الأديم وحين ظهر الباب يكح ويضطرط ويهمهم دق قلبى بعنف شديد . فلما دخل المرحاض وأغلق الباب من الداخل هدأت دقات قلبى وانتقلت الرعشة إلى ساقى ، فشرعت أهبط فى هدوء وحذر ، وقد راح القمر يرقبنى بفضول شديد ، ويميل نحوى فى نزق ونشاط ، ثم يهبط معى إلى البئر درجة فدرجة .

عرق الحلاوة

كنت واثقا من أنني لست نائما بالفعل ، إنما أنا - فحسب - أجرب النوم على هذا النحو الذى لم يكن ليخطر ببال أى إنسان بالمرة ، وإن خطر بباله فإنه لا يمكن أن يقدم على تنفيذه إلا أن يكون شخصا غريب الأطوار ، أو فرض عليه أن يكون غريب الأطوار مثلى . وكنت واعيا بأننى يجب أن أكون واعيا بهذه الحقيقة وألا أغفل عنها برهة واحدة مهما استغرقت فى النوم الفعلى، كان على أن أترك جانبا منى يستغرق فى النوم ، ولهذا الجانب أن يتعاضم شيئا فشيئا حسب طبيعة اللحظة وظروفها ، لكنه مهما تعاضم فلا بد أن يبقى منى جزء متيقظ ينبهنى إلى أننى لم أتحول بعد إلى حقيقة من بين عشرات الحقائق المتراسة على هذا الرصيف أو ذاك ، هذا المخزن أو ذاك ..

وهكذا فقد انتهت الآن إلى ما صار يحدث حولى من ضجيج هائل وعنف ورجة وهزات متكررة تكاد تفتتنى : زغد وشد وهيد ورزع وزحزحة قاسية ، مما جعلنى أزداد انكماشاً داخل الحقيقة لعلى أزداد ثقلا أو أكتسب ثقل الرمل وإن استطعت فالحديد أو الصخر ، خوف أن أودحرج فترتض عظامى أو أهوى من عل فتتكسر . وكنت قد تنبهت إلى أننى متكور داخل الحقيقة فوق رف قطار قشاش من قطارات الصعيد ، وأننى ألقى بى على هذا الرف من

محطة الجيزة ، وفى مخططى أن أستفيد بالوقت الذى سيقطعه القطار من الجيزة إلى أسوان فى النوم دون أن أضطر إلى دفع أجرة أو قطع تذكرة أو تطويق يقتادنى مفضوحا إلى مخفر الشرطة ، وهى مسافة طيبة تستغرق ما يقرب من ثمانية وأربعين ساعة قد تتضاعف وتتضاعف ما بين رواح ومجىء القطار على نفس الخط إلى أن يمل جسدى ويتعب فلا يفكر فى النوم إلا بعد دهر طويل ، مع أن الشوق العظيم إلى النوم شوق مقيم بالنسبة لى على الدوام لا يفتر ولا يهدأ . كان لابد أن أختفى لتبقى الحقيقة ، لأتحول إلى مجرد شىء لا تصح محاكمته أو لومه ، غاية ما هنالك أن تظل الحقيقة فى حالها على الرف إلى أن يأخذها صاحبها أو تأخذ هى نفسها وتنصرف .

ذات لحظة بائسة عبقرية طرأت الفكرة على رأسى فنفذتها فى الحال دون تردد ، على سبيل التجربة المازحة . أهى عبقرية البؤس أم بؤس العبقرية؟! لست أدرى ، لكننى لحظتها كنت فى قمة اليأس والرغبة الشديدة فى الموت والتلاشى نهائيا من الوجود بدون أن أترك أى ذكرى أو أى إشارة تتعلق بى . كان البرد قارسا ، فى عز شهر طوبة ، فى بداية النصف الثانى من الليل ، إذ أحمل هذه الحقيقة الكبيرة ، المحشوة بالخرق البالية ، فى يدى ، وأمضى متنفضا من شدة البرد ، تصطك أعضائى فى بعضها تكاد أسنانى تنغرز فى لسانى ، وأهمهم وأدمدم فى هذيان غير مفهوم ، ملتزما جانب الحوائط من الأرصفة ، متجنباً برك المطر ووحلها فى نهر الشارع ، شارع الجمهورية المؤدى إلى ميدان رمسيس . ذلك الميدان هو الملاذ الأبدى ، فيما أننى أحمل حقيقة ملابس كبيرة فإننى تبعاً لذلك يجب أن أكون على سفر ، هكذا ينبغى أن يفهم من يقابلنى سواء من الشرطة أو من المعارف ، كما أن السير فى ميدان رمسيس يمكن أن يغينى عن مطلب التبرير أو الهدف من السير الآن فى الشارع حيث يكمن

الجميع فى مأمن يتوافر حتى لصغار الحشرات ، أما التواجد فى قلب محطة مصر ، بين جمهرة المسافرين والعائدين من السفر ، يمكن أن يصرف عنى كل عين ولو إلى حين . أشعر إلى ذلك أن سببا آخر يكمن فى محاولتى الدائمة أن ألوذ بباب الحديد ، ربما كان شعورى بأنه الباب الذى يمكن أن يعيدنى إلى قريتى فى أية لحظة . ذلك أننى رغم كونى أكاد أكون مقيما فيه أؤوب إليه مساء كل يوم لامحالة ، أرانى كلما أقبلت عليه ينتابنى فرح عظيم مفعم بالأمل القريب فى رؤية الأهل والأصدقاء وذكريات الصبا والطفولة ..

كان ميدان المحطة خاليا تماما ، أما مدخل المحطة نفسه فقد كان على درجة عظيمة من الهدوء والسكينة ، قطرات المطر تلمع فوق بلاطات الأرض العريضة الأنيقة الملونة ، ولبات الكهرباء الخافتة وأعمدة النيون ذات اللون الفزدقى تنعكس خيالاتها فى الأرض ، فكأنك تمشى فى بحر من الضوء البهيج ، بوفيه المحطة يبدو خاليا من الرواد ، فالمقاعد المنجدة بالجلد ذات المساند المعدنية المنكدة تصطف أمامه حول مناضد عليها مفارش منقوشة بالكاروهات فوقها طفايات سجاثر ، وليس من جالس إليها ، لكنك تلمح من خلال النوافذ الكبيرة كثيرا من الرواد يجلسون فرادى فى الداخل يشربون القهوة والشاي ويدخنون ، وبعضهم يقرأ الجرائد منهمكا ، والبعض الآخر يتثأب ويتمطع وينظر فى ساعة يده . أمام البوفية - لصق سياج رصيف القطار ، المتكرر بجوار بعضه البعض - يقف كشك الجرائد والسجائر وثلاجة المياه الغازية ، حيث الجرائد والمجلات والكتب مفروشة على الأرض ومشكوك فى حوامل معدنية ، وصاحب الكشك متلفع بتلفيفة صوفية كبيرة فوق معطف من الكاكي الثقيل وعمامة صعيدية غليظة . قد قبع فى ركن داخل الكشك الضيق لا يظهر منه سوى رأس كبير يطل منه عيان كابيتان وشارب مصفر من التدخين

كشراية كوز الذرة الأخضر . أما بوابات الأرصفة فمغلقة بأبوابها الحديدية الرمزية الفقيرة ، وليس من أحد أمامها ..

دخلت الساحة فى بحر الضوء ممسكا الحقيبة بيسراى ، وبيمينائى رفعت جريدة قديمة فوق رأسى أتقى بها قطرات المطر التى تعنف حينا وترق أحيانا . الحقيبة كانت ثمينة حقا لدرجة استكثرتها على نفسى ، أذكر أننى استعرتها من أحد الأصدقاء منذ مدة طويلة ، على ذمة أن أسافر بها إلى البلدة وأعود فأردها له ، غير أننى لم أره بعدها ، واستوليت على الحقيبة التى لم تفارقنى من لحظتها إلى الآن ، إذ هى من نوع نادر المثال ، أصلها من مشمع ثقيل جدا ناعم كالقطيفة ، قيل إنها من قماش يسمى الشمواه . أعدت لاستيعاب حوائج أسرة بأكملها لرحلة طويلة ، تتميز بأنها يمكن تجميعها وضغطها فى بعضها بطريقة فنية متقنة الصنع لتصير حقيبة صغيرة تكفى لاحتياجات فرد واحد ، فإذا ما أراد صاحبها توسيعها فك بعض أزرارها العديدة لتصير فى طول الزكبية ولكن على نسق شديد الرقى فى الصنعة والجمال الشكلى ، بأضلاع عريضة متينة ورعوس معدنية تصلح كأكفاد تقف عليها ، فإذا ما امتلأت عن آخرها بما يملأ عديدا من الحقائق ، فعند ذلك يمكن إغلاقها بسوستتين متقابلتين ، تنشد كل منهما من طرفها ، لتتقابلا فى المنتصف ، بحيث يمكن ضم يديهما معا بقفل صغير ينفذ فى الخرمين ، وفوق ذلك يمكن تحزيمها بحزامين لكل منهما أبزين صغير ..

كانت منكمشة فى يدى بحجم حقيبة صغيرة تتسع للملبسى القليلة الوسخة الخلقة ، مضيت بها متجولا على الرصيف العريض فى الساحة الضوئية متخذا سمت من هو على سفر ينتظر موعد القطار . لحظتها لم يكن فى نيتى أى شىء آخر ، ولم تكن أية فكرة قد طرأت على ذهنى بعد ، لكننى حين انحرفت

فى سيرى نحو سقف يستظللنى فى مبنى المحطة وجدتنى أدخل باب قبو يفتح على ممر مسقوف مقبب ، وينتهى بممر على الجانبين . لم يكن ثمة من أحد ، فيما عدا واحدا رجحت من بدلته الصفراء المترهلة أنه ربما يكون أحد السعاة أو أحد أمناء المخازن أو ما أشبه ، كان أتيا فى مواجهتى يجزر ساقيه الهزيلتين ويطوح فى يده بسلسلة بها بعض المفاتيح ، وتتطوح اليد الأخرى بلقافة تبغ مشتعلة تتصاعد منها خيوط الدخان . وصلت إلى الممر المواجه ، نظرت شمالا فوجدت حجرة صغيرة بها مكتب وكرسى ورجل عجوز يسند رأسه على ذراعيه فوق المكتب ويستغرق فى نوم عميق ، وعلى باب الحجرة لافتة نحاسية مكتوب عليها كلمة : تشهيلات . أمام الباب مساحة فارغة . نظرت يمينا فرأيت ما يشبه الرصيف الضيق ، أمامه بضع عربات منفصلة من قطار البضائع ، متباعدة فوق القضبان . يوجد على الرصيف بابان وأربعة شبابيك مدهونة باللون الأخضر الميرى ، ومغلقة ، كما يوجد حوالى ثلاث دك خشبية مستطيلة بمساند للظهر والزراعين . على إحدى الدك يرقد رجلان يلبسان الثوب الأزرق وعلى صدر كل منهما نحاسة منقوشة عليها رقم ، فهمت أنهما من الشياطين . الرصيف مسقوف بسقف جملون ، ولكن مياه المطر كانت تاتى مع هبات الريح ومن خلال شرائح خشب السقف المتباعدة ، فتغسل الرصيف وتبلل الدك ، وقد عجبت كيف تسنى لهذين الشياطين الإسـتغراق فى النوم رغم البرد ..

ليس فى استطاعتى رؤية مقعد بالمجان ولا أجلس عليه ولو لدقائق معدودة ألين فيها ساقى . وهكذا جلست على أول دكة قابلتنى ، واضعا الحقيبة بجوارى . منذ سنوات عديدة ما بين ربوع الإسكندرية والقاهرة تعودت أن يدهمنى النوم فجأة بمجرد استوائى على أى مقعد فى أى مكان فى أية لحظة ،

ما أن تلوح لجسدى فرصة متكأ حتى يتهاوى تحت ثقل من الهديم كأنما انهارت فوقى الرواسى ، حتى وأنا أجلس أمام المديرين ومسئولى الجهات التى أتردد عليها للبحث عن عمل ، أشعر بزحف الثقل ، إذ تغيم الدنيا فى ناظرى شيئاً فشيئاً ويمتلئ الفراغ بغبار ترابى رمادى اللون كأنها ظلال الجبال تقبل داهمة لترتد فى الحال عائدة ، وفيما بين إقبالها وإدبارها تنجاب البهمة عن وجه محدثى لبرهة وجيزة يغيب بعدها فلا يبقى منه سوى صوته الرتيب الذى سرعان ما يترامى فى الأفق البعيد ليرتد هو الآخر عائداً ، لأفتح عينى بصعوبة هائلة مركزاً البصر على وجه محدثى ، لأستبين من ملامحه أى علامة تشير إلى انتهاء الحديث ، أما جوهر الحديث نفسه فلست أظن أنه بات يهمنى استماعه فلست أندم على ضياعه لأنه أصبح معروفاً لى من قبل أن أسمعته دون أن أسمعته ، إذ النتيجة النهائية هى الإعتذار بطرائق متعددة تلف حول العمالة الزائدة وضعف الميزانية وما إلى ذلك ، كل ما بات يعينى هو هذه اللمحة التى تشى بأن محدثى قد أنهى حديثه ، حينئذ أكتفى بما نلت من قسط راحة ونوم مقداره ثلاث أو أربع دقائق ، فإن كان محدثى كريماً واكتشفت أنه طلب لى واحد شأى أو حاجة صاقعة على سبيل التحية أو المواساة أو جبران خاطر فإننى ألتكأ قليلاً فى الشرب ، لإظهار القناعة وامتلاء العين من ناحية ، وإطالة فرصة الراحة على مقعد جلدى وثير من ناحية أخرى . فى العادة كان محدثى يمهلىنى دون ضجر أو استياء ، يكفيه أننى لم أوجع دماغه ولم أُلح عليه أو أجادله فى شىء بل تقبلت الأمر بكل بساطة وأريحية بما فى ذلك الكلمات الجارحة التى ربما يكون قد تفوه بها فى حديثه الذى لم أشرف بالإستماع إلى حرف واحد منه ..

لسعنتى قطرات المطر التى بدت كأن مجهولاً ينشئ بها على عيني مباشرة لتتفرش على عدستى المنظار الطبي وتعوقنى عن الرؤية . برب...شت بعينى تحت المنظار ، فرأيت العربات السائبة من قطار البضائع فبدت كملاجئ حصينة ؛ لكننى استتقلت النهوض ثم الهبوط من الرصيف إلى القضبان لأتسلق إحدى العربات وأنمى بداخلها . توقفت عيني وهى عائدة على جثة أحد الحمالين النائمى على الدكة المقابلة ، لاحظت أن أحدهما يرتدى فوق الجلباب الأزرق سترة من المشمع الثقيل جداً كقماش الخيم ، يشبه إلى حد كبير جداً قماش حقيبتى ، حينئذ تمنيت أن لو كانت هذه الحقيبة سترة أذن لكنت أعظم شىء أحتاجه فى هذه اللحظة ، ثم تمنيت لو أن هذا الحمال قايضنى بسترته مقابل حقيبتى . نفيت هذا خاطر باشمئناط ؛ حاولت مد ساقى على الأرض لئيتخذ جسدى وضعاً مريحاً . كان من الواضح أن أحداً لن يشعر بى ولن يطردنى من هذا المكان قبل ثلاث أو أربع ساعات على الأقل ؛ فاعتدلت تمددت على راحتى فوق الدكة المستطيلة واضعاً الحقيبة تحت رأسى . غير أن البرد القارس كان ينفضنى مهما تفرقت دافنا ذقنى بين ركبتى ، وقطرات المطر تنقش فوق جسدى لوحة من طين السقف لاهية لاسعة مزعجة ، فاستحال على النوم ، فانتفضت جالساً يعقد اليأس رأسى وأعصابى بحبال من الغيظ والغضب ، وقلت إن المشى أرحم ، وأجلب للدفع ؛ فنزعت الحقيبة وهممت بالإنصراف . إنبثقت فى رأسى صورتها وهى مفرودة عن آخرها ؛ فأحسست بشىء فى داخلى يبتسم ابتسامة عريضة مشرقة ، فجلست من جديد وجعلت أفرد الحقيبة فإذا هى فى حجم جوال كبير ؛ فتحتها عن آخرها ، قاصداً أن أفرداها على ظهري ؛ شرعت أفعل ، خطر لى أننى لو ألبستها ظهري من الخلف يكون أفضل ، فسربت رأسى بداخلها وسربت كتفى برفق ، واحداً وراء الآخر ؛ فإذا هى تتسع وتستطيل . ثم جربت النوم هكذا فتبينت أن بإمكانى إدخال

مؤخرتى هى الأخرى ؛ وإذا بساقى ينزلقان داخل الحقيبة وإذا بى غارقا تماما فيها بل وأستطيع تحريك رأسى وذراعى بداخلها بل أستطيع عدل نفسى على أى جنب أشاء بداخل الحقيبة دون أن تتحرك الحقيبة نفسها ؛ بل تمكنت من سحب الثياب التى كانت بها من تحت قدمى ، وتكويرها ، ووضعها تحت رأسى فيما يشبه الوسادة ، ثم خلعت الحذاء وصلبت به الوسادة ودفرت أصبع قدمى اليسرى فى عقدة السوستة سائدا بالقدم الأخرى ، وجعلت أدفع ظفر الأصبع الكبيرة بعقدة السوستة وهى تنزلق فوق قضبانها الرقيقة بسلاسة تضم طرفى الحقيبة ؛ فلما اقتربت عقدة السوستة قليلا وصارت فى متناول يدى مددت أصبعى فقبضت على عقدة السوستة من الخارج والداخل ثم صرت أسحبها ؛ فانغلقت الحقيبة حتى بداية صدرى ، وصار بإمكانى أن أمد يدى لأجىء بعقدة السوستة الأخرى المقابلة من تحت رأسى مباشرة ، لكننى لم أجد لذلك ضرورة، إذ أن طرفى الحقيبة كانا مضمومين تماما حتى لكأننى فى التابوت المحكم الذى رقد فيه أوزير فى حفل الخيانة التاريخية ؛ ولم يعد المطر قادرا على النفاذ وإن كان الهواء يجد لنفسه شرجا فوق رأسى مباشرة ؛ ثم استكن كل شىء . وكان الضوء العليل يتسرب من شرج الطرفين المشرشرين فيرسم على صدرى خطوطا متعرجة كفك التمساح يستقطب طائرا من الطيور التى تنظف له أسنانه من بقايا لحم الفريسة ..

كنت أتصور أن الدفء يجلب النوم العميق ؛ لكن يبدو أن النوم الذى كان يداهمنى منذ دقائق قد رواغنى ولم يدخل معى إلى الحقيبة ؛ ولابد أن دماغى يقف الآن حائما حول الدكة مع الجزء المتيقظ من عقلى يحاول حراستى يتأهب لتنبيهى قبل أن تدهمنى يد العدوان . شعرت بالإمتهان الشديد لهذه الحقيبة العظيمة . تذكرت بكثير من الحنق أننى طوال السنوات الفائتة طالما تمردت على الحقائق وكرهتها . كانت أكبر عبء يثقل كاهلى . أول أمنية كانت تراودنى عند

وصولى إلى أى مكان آمن هى محاولة التخلص من الحقيبة لأمشى بعدها خاليا متحرراً من كل عبء آخر سوى عبء جسدى نفسه . وأول شىء أفكر فيه عند وصولى إلى أى مكان هو خلع جوربى المذنت وغسله بالماء وغسل قدمى المتهاأتى الأصابع



رأيتنى أنظر فى مرآة عريضة أنيقة ، لأرى فى مواجهتى رجلا كهلا قد خط الشيب رأسه وتغضنت ملامحه وغاضت الدماء فى صفحة وجهه ذى الخدين الغائرين ؛ تعرفت فيه على الكثير من ملامحى المخزونة فى رأسى منذ وقت بعيد ؛ وقد بدا لى كأننى صاحب زوج وعيال مع أننى لست أذكر أى شىء عنهم أو ملامحهم أو أسماءهم ؛ كما بدا لى أننى استقر بى المطاف أخيرا فى عمل ثابت لعله عمل كتابى فى شركة من شركات القطاع العام ؛ أغلب الظن أنها شركة تشبه أن تكون شركة الغزل والنسيج الرفيع بالمحلة الكبرى أو كفر الدوار، الشركتان اللتان طالما حلمت بالإلتحاق بواحدة منهما طوال سنوات الصبا . ثم إن المرأة اتسعت فجأة ، فبدا لى أن حقية جلدية أنيقة تتدلى من كتفى الأيسر ؛ وكنت أرتدى بدلة مفرطة فى الأناقة لها جيب على الصدر يطل على حافته منديل ملون على شكل الأهرامات الثلاثة ؛ ومشبوك فى أسفله قلمان من الحبر الباركار أحدهما سائل والآخر جاف . فلما رأيت ذلك تذكرت أننى متوجه إلى موعد يبدو أنه شديد الأهمية . سرعان ما استبان أننى ذاهب لمقابلة شخص لعله أحد الوزراء أو الكبراء ؛ ثم سرعان ما استبان أننى أعمل محررا فى إحدى الجرائد السيارة المرموقة ، وأننى منتسب لهذا العمل منذ سنوات بعيدة جدا لا أذكر الآن بدايتها ، وأننى ربما أكون ذاهبا لإجراء تحقيق صحفى مع أحد كبار المسؤولين ، وأن الشىء الذى يقلقنى الآن هو أننى لم أحدد بعد طبيعة الحوار ولا النقاط التى سأحاول منها ؛ وأننى أكاد الآن أنفجر غضبا وعصبية

ربما لهذا السبب . رحت أحاول تحت ثقل الغضب والعصبية أن أفكر بسرعة فى بعض النقاط العامة أو حتى مجرد مداخل أبدأ بها الحديث تاركا الباقي كالعادة لما يتمخض عنه الحديث من مفاجآت كثيرا ما تجيء سارة : غير أنني لم أكن عرفت بعد مع من سأحدث ، فكاد رأسى يتفتت . رحت أنفر من ذلك الوجه الذى يواجهنى فى المرآة يكاد يطعننى بسكين مع كل رمشة عين بملامح ملتوية مشحونة بالكآبة والقرف ؛ وكانت ذقنه نابذة كثيفة الشعر تخترقها شرائط من البياض ولطع من الشقرة واللون الرمادى . شعرت بذقنى تأكلنى ، فجعلت أهرشها وراحة يدى تتأذى من شعرها الشائك المهوش . كان ثمة اعتقاد كاليقين فى أعماقى البعيدة بأن هذه المرآة التى أرانى فيها الآن إنما هى فى دولا ب ملابس تمنيت كثيرا أن يكون لى بيت يحوى مثله ؛ صار أنفى يعبق برائحة عطرية منعشة ؛ ورأيت أنني يتعين على أن أنصرف الآن منجذبا بنداءات كثيرة وغامضة لكنها ملحة . تراجعت عن المرآة بضع خطوات قصيرة ، فانسعت المرآة أكثر ويدا أنها عريضة جدا تكاد تغطى حائطها بأكملها . ثم سرعان ما ظهر فى المرآة أكثر من شخص ؛ فمن خلف ذلك الذى يواجهنى ناس يجلسون على مقاعد من الخيزران ودكة خشبية منجدة من الجلد ؛ بجواره رجل يجلس على مقعد بمسند ظهر عال ، يتكىء بمرفقيه على مسندى المقعد الجانبيين ، على صدره فوطة بيضاء كبيرة يلتف طرفها حول رقبته ، ووجهه كله مغطى برغوة الصابون ، وثمة رجل آخر يقف خلفه مرتديا معطفا أبيض فوق القميص والسروال وشعره لامع مصفف ناعم ، أحمر الخدين باسم الثغر ، يمسك بشفرة الحلاقة يمررها على وجهه الجالس فتكتسح الصابون مخلقة وراءها شرائح من بشرة بيضاء لامعة نضرة ؛ وكان الرجل الجالس تحت شفرة الحلاق يحدجنى بنظرات ثاقبة فيها كثير من الود وقليل من الإرتياب الغامض ؛ ثم إذا به يقول بلهجة ذات معنى فيها غمز ولمز ومزاح فى منتهى الشقاوة والغلظة لكنه غير سخيف غير ممجوج ، موجها الكلام للحلاق :

- « قال أهل زمان : مصير الحى يتلاقى ! وقد صدق هذا المثل ! »

قال الحلاق منفضا الغبار عن ابتسامته المعلقة على شفثيه :

- « طبعاً ! طبعاً ! بعد أهل زمان لا أقوال هناك ألبتة ! لم يعد سوى العتبة قزاز والسلم نايلو فى نايلو ! وشنبو فى المصيدة ! والسبت بنبه ! »

قال الجالس تحت شفرة الحلاق :

- « أى والله صدقت يا أسطى ! جاؤا لنا بالهزيمة ! ومهمتهم الآن التخليص علينا ! على البقية من عقولنا ! »

قال الحلاق بلهجة ذات معنى :

- « الدور والباقي على الاستنزاف ! هع ! هع ! إستنزاف ! حرب استنزاف ! لابد أنهم يقصدون استنزافنا نحن طبعاً ! »

ضحك الجالس تحت شفرة الحلاقة :

- « المقصود استنزاف جيش العدو وذخيرته وتدمير قواه حتى لا يقوى على خوض المعركة الفاصلة ! »

- « فاصلة إيه ووصلة إيه ياسعادة البيه ! »

المعركة انتهت والسلام ! نحن الآن فى عصر الضباب ولا مؤاخذه ! »

ضحكنا كلنا ، فدفن الحلاق رأسه فى كتفيه بشكل مسرحى علامة الإرتعاد ، وعلق أحدهم :

- « مات الذى نكسنا وجاء الذى سيخوزقنا ! »

وعلق آخر :

- « الضباب الآن يسمونه الرخاء أحيانا ! الرئيس السادات يؤكد فى كل

عام أنه عام الرخاء مع أنه يشكو من الضباب ! أصله كان سائق عربية كاميون !
لهذا يشكو دائما من الضباب ! »

- « ضباب زويله ! ها .. ا .. ا .. ي ! »

هكذا علق الحلاق ! فعقب عليه رجل بدا أنه صاحب عربية فول مدمس :

- « مسكين من يبحث عن شعر فى رأس الأقرع !

لا تنتظروا خيرا بعد اليوم ! الأقرع لا يجىء من ورائه سوى الزن ! »

ضحكنا بعمق صاعق ، وعلق شيخ ضريع بجواره :

- « مسكين من يطبخ الفأس ويريد مرقا من حديدته ! هكذا قال ابن

عروس ! »

صاح الحلاق كأنه يشجعهم على الاسترسال :

- « كفى يا جماعة ! لا تلقوا بنا إلى السجون ! »

فرد من بدا أنه صاحب عربية فول مدمس :

- « إطمئن ! فقد هدم السجن ! إنه الآن يعتمد على القمر ! من يقف

أمامه يفرمه ! فما حاجة البلاد للسجون ووجع الدماغ ؟ ! »

ضحكنا بصوت مكتوم ؛ واندمج الحلاق فى تنعيم ذقن الرجل ونتف شعر

الأذنين بالفتلة ؛ وحط علينا صمت مفاجىء ذو طنين ، استمر لدقائق طويلة جدا ،

كان الرجل خلالها لا يزال يحدجنى بنظراته الثاقبة وقد بدأ يعبئها بشحنات من

الأسى والغضب الساخر ..

لم أكن أظن أننى أعرفه أو رأيت من قبل . كذلك لم يكن يبدو أننى أعرف

هذا الحلاق أو ارتدت هذا الصالون من قبل . نجعلت أشحد الذاكرة وأستدر

المعلومات أكاد أخطفها من الهواء أستنبطها أستقبطها أحاول أن أفهمها كما
يقولون وهى طائفة . ثم غاب عن عيني ..

رجعت أننى ربما جئت ها هنا لكى أتخلص من لحيتى وزوائد شعر

رأسى وفودى بسوالفهما الطويلة الواصلة حتى نهاية الصدغين تمشيا مع

الموضة السائدة كما ظهر لى على وجوه الجالسين . كان ثمة مقعدا خاليا بدا أنه

ينتظرنى بين الجالسين ، فتراجعت بظهرى نحوه ؛ فلما استويت جالسا عليه

وضح لى أننى كنت جالسا عليه منذ برهة وجيزة وأننى قمت إلى المرأة لألقى

نظرة على وجهى ؛ ثم تبين لى أننى ربما جئت إلى هذا الصالون الأنيق لأتزين

لمناسبة بد أنها شديدة الأهمية ؛ سرعان ما تبينت أننى بعد هذه الحلاقة

سأتوجه إلى قريتى لأخطب فتاة لم أرها من قبل ولكن قيل لى إنها تصلح

عروسا محترمة . وكان الرجل الجالس على مقعد الحلاقة قد أنهيت حلاقته وأقبل

نحوى يملس على ذقنه ومن خلفه ثلاثة صبيان يمسحون له قفاه بالفرشاة . مد

يده للسلام على . نهضت واقفا للسلام عليه . قال :

- « إزيك يا فلان ! أنت فلان الفلانى أليس كذلك ؟ ! »

كان واضحا أنه مهذب جدا ، وأنه حميم بالنسبة لى ؛

قلت :

- « نعم أنا هو ! وتحت أمرك ! »

أعاد السلام على بحرارة :

- « واضح أنك نستينى ! »

قلت بخجل وارتياح وتوجس :

- « العتب على النظر ! فاعذرني ! إنها قسوة الزمان ! »

بدا أنه يبحث عن شيء قوى يذكرنى به على الحقيقة :

- « ألسنت تحب أن تستعيد حقيبتك ؟ ! »

تمشى الصقيع فى مفاصلى ، مع ذلك شعرت بعرق غزير يتفصد من جبتهى . ضحك هو فيما يشير إلى كرسى الحلاقة :

- « خذ دورك ! سأتنتظرك على هذه المقهى فى مواجهة الصالون ! سنشرب الشاي معا وحجرين على الشيشة ! والله زمان ! »

ثم غمز الحلاق والصبيان بقروش مجهولة وخطا نحو الباب وخطوت نحو الكرسى ؛ وشكلت حبال الستارة المعدنية وهو يمرق من بينها

☆☆☆

.. رأيتنى اتدحرج متهاويا فى شارع حافل أغلب اليقين أنه شارع البستان بحى عابدين . نعم هو ؛ الدليل على ذلك هذه الكوعة السحرية التى تنسلت من الشارع خلصة ببروز لطيف لتصنع حارة جانبية ضيقة كشريحة بالطول بين خرطتين من العمائر القديمة العالية التى لا تزال تحتفظ بشيء من رهبتها البائدة ، بأفاريز ونوافذ وشرفات رصينة برحة شرحة بشغل دق محكم لا نظير له عصر ذاك . من المؤكد أن هذه الكوعة سوف تستغفلك ، إذ ترى نفسك ماضيا تخترقها وفى ظنك أنك لا تزال تمشى فى شارع البستان ؛ لولا أنك تكتشف أن الهدوء الشامل قد حل فجأة ؛ ويقدره قادر تباعدت أصوات الضجيج واختفت السيارات واضمحل نداء الباعة ولغط المشاة ودقات شواكيش الورش ؛ وبدلا من التراب والقمامة وطفح المجارى تفاجأ بأرض نظيفة كأرض المسجد ببلاطات عريضة متقاطعة تشبه أن تكون من الرخام أو ما يعادل ، حيث تطل أبواب العمائر ؛ وتطل من الشرفات أنسات وسيدات يتكئ على الأفاريز بمرافقهن المتخخة كثمار فاكهة المانجو والكمثرى والتفاح والمشمش فوق أفرع

بعيدة المنال ؛ يتبادلن الحديث الودئ الهامس الرنين مع جارتهن المقابلات لهن على الناجية الأخرى ؛ ولربما امتدت بين الأفاريز حبال ملونة تجرى فوقها السلال وصناديق الكرتون حاملة رسائل وأغراضا وإعارات ؛ وحبال الغسيل ممتدة بطول الحارة على الجانبين طبقات فوق طبقات مزينة بكرانيش الثياب من كل الأنواع والألوان والأحجام تهفف كأعلام المودة والسلام تنتشر فى جو الحارة رائحة الصابون المعطر . خلف أفاريز الشرفات أبواب مستطيلة ونوافذ مواربة الشيش أو منفرجة قليلا ، عن شرائح من جوانب ستائر مخملية ثقيلة وأخرى بيضاء خفيفة ، فإذا تنزاح المخملية الثقيلة عن البيضاء الخفيفة قليلا بدت كأن الهواء طوح بثوب العذراء فانكشف طرف لباسها الداخلى الجميل الساحر الشفاف . صوت أم كلثوم ينتقل من شرفة إلى شباك إلى رف فى محل ، يصدر بهلت ليالى القمر وأروح لمن والحب كده ..

هذه الحارة الطويلة كالجيب أعرفها حق المعرفة بل أعشقها عشقا ، لا أمنية لى فى الحياة تعادل حلمى بالسكنى فيها ، أو حتى بالتربع فوق أى دكة أو على البلاط أمام أحد أبوابها بين مجموعة من أصدقاء الصبا والطفولة . من فرط ما تمنيت صرت لا أعرف إن كنت أسكن فيها بالفعل أم أن علاقتى بها مجرد أمنية من الأمنيات . لا أعرف متى اكتشفتها أول مرة ؛ أغلب اليقين أنها هى التى سحبتنى وجاءت بى إليها فكأننى حين دخلتها دخلت فى رحم الأمنيات ، كأنما رحلة تطوافى وعذاباتى قد أذنت أخيرا بالإياب النهائى ؛ كأن إخوة يطلون من هذه الشرفات فى قلق انتظارى أو فرحة رؤيتى فى الحارة مقبلا؛ كأن أمأ لى تنام على سرير طرى حميم، لا شك أنه ممدود خلف باب واحدة من هذه الشرفات مستظلا بهذه الستائر السخية ؛ وأن صياح فرحة إخوتى لن يلبث حتى يرتفع فيستفزها ويحملها على المجدى إلى الشرفة هى الأخرى لتتأكد من أننى أخيرا عدت حتى ولو بدون خفى حنين ؛ لابد أنها ستكون سميئة بعض

الشيء ، مدملجة ، مقببة العجيزة من فرط الجلوس الدائم فوق الشلت ؛ لا بد أن يكون شبهها منتشرا على وجوه إخوتي ؛ إن بناتا فهن إلى السنايير الشقراوات أقرب ؛ وإن صبيانا فهم فى شرح الصبا ومطلع الشباب لهم فى الحارة شنة ورنه ؛ ولا بد أن يستقبلونى جميعا بمهرجان جميل ، وأن نختلى ببعضنا البعض فى الشرفة الكبيرة تحت لفح الهواء الطيب الأليف وفوق الضوء الخافت المنبعث من فوانيس الحارة تحجبها أسقف الشرفات كالقبعات ، ولا بد أن يستدرجونى لكى أحكى لهم عن سهر الليالى ، والتشرد الطويل فى الغربة الظلماء ، ولا بد أنهم جميعا سيتأثرون وبخاصة إخوتى البنات ، وسيبكين مما حل بى من عناء فوق مائلته من فشل ، وسوف يغلبنى البكاء أنا الآخر ، وسوف أسرع بإزالة الدموع قبل وصول أُمى من المطبخ حاملة الشاى الذى صنعته لى بنفسها ؛ وسوف أبتسم كأنتى فى منتهى البهجة ؛ وسوف أغمز بعينى لمن سمعنى بأن يكفأوا فوق الخير ماجورا كأنهم لم يسمعوا شيئا ؛ وسوف أكون فى أعماقى سعيدا لأننى تخلصت من همومى مؤقتا ، لأننى وجدت من يحمل بعضها عنى ويشفق على ؛ أه ما أجمل أن يحس بك شخص ما فيظهر الإهتمام بأمرك ؛ ذلك هو الأخ الحقيقى الذى قيل أنه ربما لم تلده أمك ..

كل الأمنيات وإن علا قدرها واستحال تحقيقها لا بد وأن تنيل صاحبها هامشا من رحابها قد يتسع بمعجزة وقد يؤوب إلى خيط رفيع يزداد متانة ومنعة على مر الزمان ؛ هذا ما كنت أردده لنفسى دائما عند تجوالى فى هذه الحارة رائحا جائيا بغير هدف ظاهرى ، كطفل تائه يبحث عن أهله الضائعين منه ؛ أحمل حقيبة سفر لا يزال منظرها يحتفظ ببقايا عز قديم ، سليمة الأقفال لامعتها ، متينة اليد ، تتسع لكل ملابسى وغياراتى وعدة حلاقتى وأوراقى وفوطه متاكلة الأطراف حائلة ؛ هى بقايا ثياب جئت بها من الإسكندرية أيام كنت ذا عمل أقبض منه راتبا وعمولة قبل أن أتمرده عليه وأتركه بحمق شديد سعيا وراء وهم الإشتغال بالصحافة والأدب ؛ الحقيبة هى الأخرى من بقايا خير

الإسكندرية وقد صار منظرها الآن يتناسب مع من أدركتهم حرفة الأدب ؛ ليست ثقيلة ، لكنها ليست خفيفة ؛ أنقلها من اليمنى إلى اليسرى كل بضع خطوات ؛ أمنيته أن أطوح بها فى أى ملقف ، أن أتخلص منها بأى شكل ، فقد تعبت منها ، تعبت ، تعبت ، وكيف للجسد الذى حرم النوم أياما طويلة قضائها شريدا فى الشوارع أن يقوى على حمل نفسه به أن يحمل حقيبة ويتجول بها ليل نهار بحثا عن مكان يأويهما . الدّوار يدركنى فجأة ، أتماك نفسى بصعوبة حتى لا أتهوى على الرصيف مغشيا على ؛ فى العادة أقفز إلى رصيف أقرب مقهى ، رغم العياء الشديد أنشن على كرسى فى مكان بعيد عن عيون النادل ، يا حيدا لو كان فى بقعة محايدة بينى المقهى ودكان مجاور لها ؛ إذ أرتمى عليه فأسند رأسى بكفى محاولا النقاط أنفاسى ، ألوى ساقى بقسوة تحت الكرسى لكى تحتبس الدماء فى عروقهما فيكف النقع والنشر والفوران ، تتسلل إلى أنفى رائحة الجورب الكريهة ، أروح أقرأ الفاتحة فى سرى لكى يستجيب الله لرجائى فى أن يبعد أنظار النادل عنى أطول فترة ممكنة ؛ ولربما مر من أمامى وراجعنى بنظرة فأحاول تضليله بنظرات شاردة للإيحاء إليه بأننى شربت مشروبيا ودفعت ثمنه وها أنذا أتأهب للنهوض والانصراف ، فإن هو تجاوزنى تلكأت فى النهوض واختلقت أسبابا تعطلنى كأن أفك رباط الحذاء وأعيد ربطه أو أفتح الحقيبة وأعبث فيها بانشغال مصطنع أو أسند رأسى على حافة مسند الكرسى ، أو ربما أصطنع الكبرياء ، فبعين قوية أستوقف النادل ، وبأدب ورقة أطلب منه كوب ماء ؛ فإذا ما أعطانى ظهره وانصرف نهضت متسللا مختفيا فى زحمة الجماهير ..

المشكلة الآن ليست هى التعب والإشتياق لأرض أتمدد فوقها ؛ إنما المشكلة إلى ذلك أننى أريد أن أغير ثيابى ، إذ لو تمهلت فى ذلك حتى المساء قلن أنجو من قبضة الشرطى لا محالة ؛ هذا منظر لا يتميز كثيرا عن أى

سبرسجى أو صبى ورشة حدادة ؛ لعل أهم وأقيم شئ فى الآن هو المنظار الطبى ذو العدسات الخضراء . ثم إن رائحة الثياب لم تعد تطاق ، فضلا عن سوء منظرها ، فلقد نمت بها فوق تراب الحقول المتاخمة للمدينة وعلى أجولة البضائع فى شوارع البطيخ وعلى أرصفة المقاهى ، واندلقت فوقها مشاريب وأطعمة ، ولطختها عفاريت عمال الألونيوم والفحاميين ؛ صرت أشعر كأنها من جلد سميك صلب . أعرف أن ليس فى الحقبة ثيابا نظيفة على الإطلاق ؛ إلا أننى سأخلع الوسخة وألبس الأقل وساخة ؛ ولكن أين يتم هذا ؟ على إذن أن أبحث عن بورة مياه عمومية لأدخل أحد محلاتها بالحقبة لأخرج بعد قليل بثياب أخرى ، مثلما أفعل فى كل مرة .. لحظتذاك كانت هذه الحارة قد جذبتنى دون أن أدري فكأنها تستمهلنى ربما يكون قلب الله موجودا فى ركن ما هاهنا ..

فى الحارة ثلاثة دكاكين ، أولها على اليمين ، وهو ذو شكل خارجى يحكى عزا بأثدا ؛ على واجهته لافتة مكتوب عليها بالخط الثلث الكبير : مكوى الأمراء لصاحبه الحاج فيظى العزازى . الواجهة كلها مدهونة بالزيت الأخضر الباهت منذ سنوات طويلة . فى مدخل الباب على الجانب الأيسر معرض زجاجى برفوف زجاجية كمعارض الترتيزية لكنه لا يعرض شيئا إنما تنحشر فى أرضيته بقبح الملابس المتكورة بعضها نظيف وبعضها متسخ ؛ أما فى الداخل فيوجد فى المواجهة بنك مستطيل يشبه سرير العمليات النقالى فى المستشفيات ؛ يقف خلفه رجل طويل القامة محنى الظهر بما يشبه القتب ، أسمر اللون بمسحة رمادية كلون قراميط السمك ، مستطيل الوجه مسحوب الذقن مثل شكل الطاجن ، خداه مليئان بالتجاعيد الكثيرة المتجاورة بالطول كملاءة سرير بعد موقعة حافلة ؛ غليظ الشفتين . شفته السفلى أضخم كثيرا من العليا وأكثر امتلاءً ، ومتدللية بصورة لافتة للنظر ؛ خرب الفم إلا من نابين فى الفك العلوى على جانبيين متباعدين ، وحوالى أربع أسنان فى مقدمة الفك السفلى مصبوغة بلون الشاى والدخان ، حيث أن كوب الشاى بجوار المكواة على يمينه لا ينفد ،

والسيجارة الهوليد التخينة حفرت لنفسها بقعا كثيرة على أطراف البنك رغم أنه يضعها دائما بحرص على حافة الجندرة لكنه حين يأخذها ليشد نفسا لا يجدها إلا تحت الجندرة فوق الخشب . الدكان واسع ؛ فيه بنك آخر فى الركن الأيمن يشغل عليه صنايعى شاب ؛ وفى الركن الأيسر خلف البنك الأول دورة مبنية على نصف طوبة لها باب تتسدل عليه ستارة من الكتان الأصفر ، بداخلها الوابور ذو الماكينة الساكنة التى تمتد بماسورة طويلة معقوفة بعيدا عن خزان الجاز ذو المحبس الكبير ويد للكبس خشبية . النار ألسنة خضراء حمراء تهتف بالفحيح والوشيش تحت شبكة سلكية موضوع فوقها أربع كوايات ..

أما الدكان الثانى فإنه يقال أفرنجى نظيف جدا ، بابه يشبه باب البيت ، ليس له أى مظهر من مظاهر الدكاكين ، لكن العين إن وقعت عليه من الداخل ارتفعت من نظامه الدقيق ونظافته ورفوفه المتجددة ذات الأبواب الزجاجية بجرارات كرفوف الصيدليات ، ومن أنواع البضائع التى لا حصر لها .. على واجهته لافتة نحاسية صغيرة مكتوب عليها : الدانوب الأزرق ، تحتها بضعة سطور بالخط اليونانى والإنجليزى . يقول منظر الدكان قبل ألسنة أهل الحارة أنه كان ملكا لبقال يونانى تم ترحيله مع الأجانب فتنازل عن ملكيته للعامل الذى كان عنده ، الذى يحتمل أن يكون هو بعينه ذلك الأفندى الوقور المحترم الجالس دائما كرئيس الوزراء على مكتب كبير فى مدخل الدكان يقبض ويعطى بونات صغيرة ويعدل المنظار الذهبى على أنفه كل برهة ليلمع الخاتم الذهبى الكبير ذو الفص العقيق الأحمر ، ويرطن مع الزبائن بكل اللغات بجدية هائلة فلا يبتسم أبدا ولا يمزح قط . منظر الدكان من الخارج رغم عدم البهرجة فى الإعلان يغريك بأن تدخله ، لهذا كثيرا ما رأيت الناس يدخلونه منبهرين ، فيلفون بداخله لفة أو لفتين كالمخدرين التائهين الحائرين بين أصناف لم تكن لتخطر لهم على بال . نظرت أول مرة فى وجه الأفندى الوقور فأيقنت أن علاقة « شكك » لا يمكن

أن تقوم معه على الإطلاق ، فاكثفت بالفرجة على المحل دائما ثم الإنصراف .
أطرف ما فى الأمر أن الرجل الوقور اعتاد ذلك منى فبات ينظر لى فأحبيه فيرد
التحية بكل وقار وجدية يكاد يقف بنصف انحناء ..

أما الدكان الثالث والأخير فى هذه الحارة الساحرة فإنه دكان ألبان ،
لافتته : من خير بلدنا ، ورسم لبقرة وجاموسة تحت شجرة فى حقل أخضر
مطل على ترعة . تشم رائحة اللبن الطازج والزبادى والجبن والعسل النحل من
أول الحارة بفضلها . يملكه أخوان توأم ، كل منهما يقف وردية فيما الآخر
يستريح أو يتسوق فى . داخل الدكان بنك زجاجى كبير هو فى نفس الوقت
ثلاجة كبيرة جدا ، فيها تشكيلة من كل ما فى المحل . بجوار البنك منضدتان
بمفرشين نظيفين جدا ، لمن يرغب فى شرب كوب من اللبن الساخن مع قليل من
البقسماط ..

هذان أول توأم أراه فى حياتى لا يتشابهان فى شىء على الإطلاق
اللهم إلا فى نوع المهنة الواحدة . فيما عدا ذلك فأحدهما جميل الصورة جدا
والآخر دميم كوجه القرد لكنه أطيب قلبا بكثير جدا من أخيه ؛ ثم إنه طويل
نحيف والأول قصير تخين ، هو رفيع الصوت والأول غليظه ، هو يعشق الغناء
ويدندن أحيانا مع نفسه بأغنيات محمد قنديل وعبد المطلب . أما الأول فلا يجيد
سوى الهلزمة وتبادل النكات الغليظة السمجة مع الزبائن المتحفظين فيسخرون
منه بدلا من الصدام معه ؛ إسمه « حسن » ، أما النحيف الطويل فاسمه «
حسين » ؛ الإسمان المكتوبان على اللافتة : حسن وحسين ، بطريقة تتخذها
الحارة كلها مثارا للتريقة الجميلة ، فحسن وحسين يتقابلان مع رسم البقرة
والجاموسة ، فكثير ما كان بعض الزبائن ذوى العشم يسألون حسن نفس
السؤال الأزلى : أيهما البقرة وأيهما الجاموسة ؟ وقد اعتاد حسن أن يرد مع
ضحكته الغليظة المجلجلة : بس يا طور . ويوم يصبح فى جيبي عشرة قروش

من باب الله أرانى أدبر لزيارة حسين فى المساء الجوانى لأحظى بكوب ملأ من
آخره وفوقه لهطة قشدة إكرامية من حسين ، أما البقصات فلا حساب له عند
حسين إلا ما تقوله أنت ؛ على العكس من حسن الذى يحسبها بالفتقونة ..

حومت حول دكان الكواء وقتا طويلا ؛ ثم وقفت أمام المعرض الزجاجى
على الباب ، لأقرأ نقشا باللون الأحمر على لوح الزجاج العمودى فاذا هى
كلمات صغيرة تحت بعضها : غسيل ، تنظيف بالبخار ، مصبغة ، مستعد
لتوصيل الطلبات إلى المنازل . رقص قلبى من الفرح حين قرأت كلمة : غسيل ،
بعدها اقتحمت الباب فى الحال : سلام عليكم .. عليكم السلام ..

« من فضلك ! عندى هدم أود غسلها ! »

« وما له ! إحنا خدامين ! »

هكذا قال الرجل العجوز ، ثم أردف :

« شوف البيه يا ولد ! »

ثم نظر فى مظهرى نظرة متأنية كأنه ينبهنى إلى أنه من ذوقه وكرمه
منحنى لقبا لست أستحقه على الإطلاق ، لكن الطيبة فى عينيه العسليتين
الكابيتين قالت لى إنه يريد أن يرفع من روحى المعنوية ، فابتسمت . وكان الولد
الصناعى قد رد قائلا : حاضر يا حاج ؛ لكنه لم يتحرك من مكانه ؛ فزهرة
الرجل صائحا :

« ياد انت شوف البيه ! »

كان الولد يعالج نفخ الماء المتكور بين شذقيه ، فقال من خلال بقللة الماء
فى فمه :

- « حاضري يا حاج فيظلى ! حاضري اسطى ! »

يبدو أن الحاج فيظلى قد أعجبت لهجة الولد فقرر إعفاءه من المهمة ، فترك المكواة على الجندرة مشيراً بأصابعه السريحة المشوية إلى الحقيبة فى يدي قائلا :

- « ورينى سعادتك ! »

وضعت الحقيبة بحذر على حافة البنك وشرعت أفتحها وهو يركز البصر على الملابس التى أرتهبها كأنه يود أن يقول بالفم المليان : أنت نفسك فى حاجة إلى غسيل ، الأمر الذى جعلنى أنتهز الفرصة قائلاً بشيء من الأسف فيما أشير إلى ملابسى :

- « كان نفسى أغسل ده كله ! »

قال بأريحية :

- « ما المانع ؟ الهدوم لن تقول لا ! ونحن أيضا لن نقول لا ! »

قلت فى شىء من التردد :

- « المشكلة الآن أن أجد مكانا أغير فيه ملابسى هذه ! »

أشار بكوعه وراء ظهره إلى دورة الوابور قائلا :

- « إدخال غير هدمك على كيف كيفك إنزل الستاره عليك وخذ راحتك

على أقل من مهلك ! »

فبلا تردد سحبت الحقيبة واتجهت إلى الدورة فدخلتها وأنزلت الستارة ثم فتحت الحقيبة فوجدت القميصين منكرين بصورة قبيحة جدا ، أحدهما شتوى من الصوف الشائط أما الآخر فصيفى بنصف كُم من قماش يسمى لينوه الشوربجى . القميص الشتوى هو الأقل وساخة لأنى خلعت منذ انتهى الشتاء ،

ولأنه غامق اللون فإن الوسخ لم يكن يظهر فيه ، فكان لابد من ارتدائه هو رغم ما فى الجو من حرارة ورطوبة لا تطاق . يوجد ثلاث فانات وثلاث سراويل داخلية تفوح منها رائحة العفن ، فتجاهلتها . يوجد سروالان خارجيان ، أحدهما من الصوف القاتلة الرمادى للشتاء ، والآخر من الكتان الأصفر الغامق ، مترهلان منبعجان عند الركبة صلبهما زيت العرق اللامع . إقتنعت بعدم جدوى تغيير الملابس أغلقت الحقيبة واكتفيت بالخلاص منها . وقال الحاج فيظلى :

- « متى تجيء سيادتك ؟ »

قلت :

- « وقتما تحدد ! »

قال :

- « على الأسبوع القادم إن شاء الله ! »

قلت :

- « على أقل من مهلك ! أنا لست متعجلا ! »

نظر فى بشىء من الإرتياب :

- « كله على الله ! »

أحسست أنه يحرك لسانه فى فمه يحاول إذابة شىء فيه مع رشقات الشاى : أيقنت أنه أفيونجى قرارى ؛ ثم قلت له :

- « على فكرة ! سأترك لك الحقيبة كلها لكى تضع فيها الملابس بعد كويها ! »

بُحُ الماء على المنضدة المجاورة وصل إلى وجهي ، فنظر المعلم للولد بغضب واعتذر لى نيابة عنه : لمؤاخذه ..

لأحد لفرحتى وأنا أخرج من المحل ثم من الحارة بدون الحقيبة . أخيرا تخلصت منها ، وجدت لها مأوى ، فالتقي لى يارب ..

الأسبوع القادم جر أسبوعا آخر ، فأسبوعا ثالثا ؛ أوشك الشهر أن ينصرم دون أن أعود إلى الحقيبة ؛ ولابد أن الحاج فيظى يلعننى . فى نهاية الشهر داعبتنى السماء بمعجزتين : أذاعت إحدى المجلات الإذعية بإذاعة ركن السودان ، لعلها مجلة البريد الطائر لحررها ومصدرها مأمون النجار ، أقصوصة من تأليف مهورة بتوقيعى لمدة خمس دقائق ؛ ودفعت لى فوق ذلك أربع جنيهات كانت ثروة كبيرة بحبت حبال القحط حول رقبتى فابتعت قميصا جديدا ، وتوجهت من فوري إلى مكوجى الأمراء ، فقابلنى الحاج فيظى بحرارة ودهشة ، فنقحته أجره ، ونفحت الصنایعى بقشيشا مجزيا ، واشترت شايًا وسكرا فخرطنا زردة على وابور المكواة ، وسجائر دخناها معا ؛ وقمت بزيارة لألبان حسن وحسين فتغديت باللبن والزبادى والجبن الحلوم ودفعت عن سعة ؛ ومررت على الأفندى المحترم فى بقالة الدانوب الأزرق فحييته فرد تحيتى بنصف وقفة مع نصف انحناء ؛ وكان يوما مشهودا ..

بعدها جفت الحليبة والرائبة تماما ، مضت أسابيع طويلة نسيت عددها لم أعرف خلالها وجه النقود من قفاها ، فزرت الشاعر صلاح جاهين فى مكتبه فى جريدة الأهرام بشارع الساحة ، بعد انقطاع طويل ؛ وكالعادة تحسست شعرى المهوش متبسما ، ففهم أننى أريد أن أحلق شعرى وذقنى ؛ فمرر يده الصغيرة التى يرسم بها روائع النكت الكاريكاتورية ، سربها تحت بطنه الكبيرة فى جيب السروال ، سحبها بورقة من فئة الخمسين قرشا ، فأخذتها وانطلقت أرقص من الفرح ، قصصت شعرى على عجل بخمسة قروش ثم اتجهت من

فوري الى مكوجى الأمراء ، وقد ألهمنى الله فكرة طيبة ، فاشترت فسيخا وسردينا بحوالى عشرة قروش ، وتلا من الأرغفة ، والليمون والبصل ، وأقمت فى الدكان وليمة ممتعة يومها قال الحاج فيظى بصدق وهو يشرب الشاي :

- « لماذا تغيب ؟ تعال فى أى وقت لتغير ملابسك !

سواء معك نقود أو ليس معك ! رقتى سداة !

كلنا إخوة والحياة ليس لها كبير ! »

صدقته وفعلت ؛ صرت أزوره كل عشرة أيام أو أقل ، فأغير ملابسى وأترك له الملابس الوسخة ليغسلها ويكويها ثم أنصرف دون أن أحاسبه ؛ فكان يبالغ فى إزالة أثر الإفلاس بأن يدعونى للشاي أو يقدم لى سيجارة مكرمشة ، وأحيانا يعرض الطعام فأعتر بشدة . تراكت الديون على ، حتى باتت الحقيبة كلها بما تحويه من ملابس لاتقى بما فى ذمتى للحاج فيظى . تهرأت ملابسى ، فاستعرت ثيابا من صديقى محمود سالم ، متغاضيا عن اتساعها وطولها على جسدى ؛ ثم إنه اشترى لى ثيابا داخلية ، وعرفنى على ثلاثة من الطلبة الدمايطة بليدياته ، ورجاهم أن أبيت معهم فى مسكنهم المتواضع بحى أمبابة ، فرحبوا بذلك . وهكذا ألم أعد محتاجا للحقيبة بملابسها ؛ ولم يكن معى نقودا أدفعها للحاج فيظى ، فنسيته تماما ، إلى أن انتهت أيام الدراسة فسافر الطلبة إلى بلدتهم ، فإذا بى أعود من جديد لأخبط جبهتى فى صخرة الليل البارد حاملا حقيبة هاندباج من المشمع الرخيص تنازل عنها أحد الطلاب نفورا من شكلها القبيح ، حشرت فيها ملابسى وانطلقت أعود نحو المجهول المظلم ، فكأن قدماى مربوطتان بعرق حلوة الروح يمتط إذا ما تباعدتا ويلتم إذا تقاربنا ليمتط من جديد ، كنت كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ..

شعرت بالأرض تنور بى دورانا ، وبريق ضوء ينجاب ليواجهنى ستار

معدنى يتسلل من خصاصه ضوء الشارع ، وكان ثمة لسع حارق فى صدغى
تبينت أن الحلاق أدار الكرسي نحو فراغ الباب إيدانا لى بالنزول عنه . فنزلت
محاو لا استعادة رأسى التى خيل لى أنها غير موجودة على الإطلاق مع أننى
كنت ألاحظ فى ركن من المرأة شخصا يشبهنى يتحسس جوانب ما خيل لى أنه
رأسى . ثم انتبعت إلى يد الحلاق تناولنى منظارى الطبى ، فوضعتة على عيني
فأحسست أن الضوء قد بدأ يحل فبدأ المكان يتسع ..

قال الرجل الذى كان جالسا تحت شفرة الحلاق وهو يقلب لى الشاى
على المقهى المتواجه لصالون الحلاقة مباشرة :

- « والله زمان ! حقيقتك صارت معلما بارزا فى

منزلى ! تصور أنها لا تزال موجودة فوق

الصندرة بين الكراكيب ؟ »

رأيتنى أمشى فى شارع الكورنيش بمدينة الإسكندرية أحمل فى يدى
حقيبة أثقل من وزن جسدى كله ، حيث كنت صيبا صغيرا بينما الحقيبة تحوى
خمسين باكو من الزهرة تزن ما يزيد عن خمسين كيلو جراما من زهرة
الفسيل ، مطلوب منى أن أبيعها لمحات البقالة والبازارات ، ولو أكرمنى الله
ببيعها كلها لحظيت بخمسين قرشا مكسبا . وكان يبدو أننى أحمل هذه الحقيبة
منذ سنوات طويلة مضت دون أن أبيع منها شيئا يخفف ثقلها الراسخ الكريه ،
حتى تمنيت أن لو كان لها عجلات لكى أتمكن من جرها على الأرض . كان
العرق يتصب من جميع أنحاء جسدى التحيل الضامر ، والجوع يفرى معدتى ،
والعطش يجفف حلقى كلما رأيت الناس والمصيفين يفرغون زجاجات المياه
الغازية ويجرعونها فى شغف واستمتاع ثم يتجشأون بصوت عال كقرقعة
السحاب ، وأملى فى رغيث القول والطعمية مرهون بأن أبيع أول باكو لاكسب

- ١٢٤ -

قرشا ، أتوقف أمام كل محل لأسأله فى خجل فلاحى « عاوز زهرة ؟ » ،
فيقول : « عندى ! » ، فأجر الحقيبة إلى المحل الآخر وأنا موقن مقدما من أن
الرد سيكون : « عندى » تهاويت من الجوع والتعب أمام محل كنت ألفه ويألفنى ،
وكنت أشعر أنه يشفق على كلما رأنى غير أنه مع ذلك لا يشتري منى ، ويصرح
لى بالسبب فى ذلك بأنه يشتري نفس هذه الزهرة من بائع قومسيونجى يبيع له
بجوارها أصنافا أخرى مطلوبة . تركنى أستريح بجوار بابه ، فوضعت
الحقيبة على الأرض وركبتها . غير أنه فاجأنى بصوته : « وله ! .. وادانت
يا بتاع الزهره .. معاك فكة جنيه ؟ ! » . قلت : « لا ! » . قال : طب خد فك
الجنيه ده من بتاع الكازوزه ! هات شنطتك احسن حد يلفها من الشارع ! » .
أحسست أنه يطلبها كرهينة ، قلت : « حاضر يا عم ! » وزحزحت الحقيبة
فأدخلتها عتبة الدكان ، وأخذت الجنيه ومضيت إلى بائع الكازوزه فى نهاية
الشارع . غير أننى أفقت بعد مشوار طويل فكتبت أننى تجاوزت الشارع كله
وامتلكت طريق الكورنيش أكاد أنطلق محلقا من الفرحة بالخلاص من ثقل
الحقيبة . وكنت أعرف أن البقال يعرف أصحاب مصنع الزهرة ، وكنت موقنا أنه
سيطلبهم فى التليفون ليحكى لهم الخبر ، لكننى كنت كالسجين الذى انعتق
فجأة على غير انتظار ، فشعرت أن المسافة بينى وبين أهلى فى قريتى قد
صارت قريبة وسهلة ..

- « إشرب الشاى يا رجل ! مالك ! لقد كبرت وعجزت على غير أوان !

هذه أول مرة أراك فيها بغير حقيبة فى يدك !! »

رأيتنى أتسلل بين جمع من المسافرين من محطة الجيزة فى قطار
الصعيد ، كنت أحمل الحقيبة الشمواه الكبيرة وقد فردتها عن آخرها واندسست
بين رهط من النساء فبدوت كشيال أحمل حقيبتهم ، ولهدا شيعنى موظف البوابة
قائلا : « ترجع بسرعة ! » ، فهززت رأسى دون أن أستدير بوجهى ، ومضيت

بحذاء جمع النساء الذى بدا أنه وفد تعليمى من المدرسات والناظرات . دخلت معهن من باب القطار ، ثم تركتهن وتوغلت فى القطار حتى عربات الدرجة الثانية التى لم تكن قد ازدحمت تماما ، وضعت الحقيبة على الرف المستطيل ، ثم تسلقت الرف جالسا فوقها ، بعدها بدقائق نسينى كل من شاهدى واستغرق كل فى واديه الخاص ، وبدأت العربة تزداد ازدحاما بشكل مذهل كيوم الحشر ، فيما كنت أتململ فى جلستى بطريقة فنية لأخفى أعضائى فى فتحة الحقيبة جزءا بعد جزء حتى اختفيت بداخلها تماما وبأصبع يدي جذبت السوستة حتى نهاية رأسى .. -

« ولع ! »

أمسكت مبسم النارجيلة وأخذت أجذب أنفاس الدخان فى شرود . إنطلقت « سارينة » سيارة النجدة من مكان مجهول لكنه قريب ، فأخذت أتلقت حولى فى زعر . وقال الرجل :

« مالك ؟ ! »

وكنت لحظتها ممددا داخل الحقيبة أئن من الألم والهلع ، وكان واضحا أننى انتزعت من قرار عميق جدا فى بحر نوم استمر دهرًا طويلا حتى تصلب العماص على رموش عيني ، وقد فهمت مما يدور حولى من حديث أن أحد عمال النظافة فى الورديّة المسائية الأخيرة فى محطة الجيزة لاحظ وجود هذه الحقيبة فوق الرف ، فقرر تسليمها إلى الأمانات ، فجذبها بخطاف ، فتهاوت فوق مائدة المقاعد ليصطك جسدى ورأسى فى أجسام صلبة . فوجيء عامل النظافة بصراخ يرتفع من داخل الحقيبة ، فتركها واندفع يجرى صائحا من الذعر والدهشة ، وقبل أن أتمكن من فهم أى شىء رأيت الدنيا كلها قد انقلبت ، وسمعت « سارينة » سيارة النجدة من بعيد . بعدها بقليل شعرت بأيد تفتح

الحقيبة ، وعيون لا حصر لها تنقضُ ناظرة فى قلب عيني ، ويد الضابط تتحسنى فى دهشة بالغة ، فإذا بى أنهض جالسا ، ثم أعتدل واقفا لأقوى على الكلام من فرط الذهول . إستسلمت ليد ضابط النجدة ، الذى سحبى وسحب الحقيقة إلى سيارة النجدة ، ومنها إلى قسم شرطة الجيزة ، ثم إلى رئيس المباحث ، الذى فتح لى محضرا للتحري والتحقق ، حيث قدمت له بطاقتى الشخصية ، وأسماء ناس مرموقين وأرقام تليفوناتهم ، فحدثهم أمامى واستقى منهم بيانات كافية عن شخصيتى وظروفى التعبانة وحظى التعس . وبعد أربع وعشرين ساعة فى تخشيبية الحجز أطلق سراحى منها على بعدم اللجوء إلى هذه الحيل مرة أخرى وإلا فأنا الجانى على نفسى . الطريف أنه قد صادر الحقيبة ، وأغلب ظنى أنه استولى عليها ..

« أفق لى قليلا فى عرض النبى ! ما كنت أظن أنك أصبحت ثقيل الدم هكذا ! باى عليك ! ماذا جرى لك ؟ هل تزوجت أم لا ؟ ! »

إنفجرت ضاحكا ، قلت ربما قصد أن يكون مرحا :

« إدع لى ! فأنا الآن متوجه لأخطب عروسا من بلدتنا ! »

ضحك فى مرح شديد ، إحمزت وجنتاه من شدة البهجة ، تدفقت الدماء فى وجهه الغليظ المكبظ . بدا كأننى قد بدأت آلف هذه الملامح المتنفخة وهذا الصوت الجمهورى المنطلق :

« عال ! عال ! إذن فالحالة على ما يرام ! والله لقد كنت أحمل همك طوال السنين الماضية ! يا لها من أيام ! واضح أنك نسيت العيش والملح ! أما أنا فلم أنسك لحظة واحدة ! ليس لمسمار حجا الذى تركته عندي منذ ما يزيد على عشر سنوات ! لكن لأننا صغايده لا ننسى العشرة !! »

- « .. نعم ! »

قلت مبتهجا :

- « وفى هيئة الآثار ؟ ! »

قال :

- « نعم ! غير أنني سافرت من وقت مبكر جدا ! فمكثت فى ليبيا سبع سنوات ! ثم عدت ! وسافرت ثانية ! فمكثت فى الكويت حوالى سنتين ! ثم عدت ! وسافرت ثالثة ! فمكثت فى السعودية عاما ونصفا ! ثم عدت ! وليس لى من سفر بعد ذلك !وقد تزوجت من زميلتى المحاسبة ناهد الشوربجى أظنك تعرفها ! تلك التى كانت تجلس إلى مكتب لصق مكاتبى ! تلك السمراء النحيفة التى كان جدها لأمها رفقى باشا طلعت ! واشترينا شقة فى قصر جدها الباشا بحكم أحقيتها فى جزء من ميراثه ! كان لابد أن أهوى لها بيتا يناسب البيت الذى نشأت فيه ! ولهذا سافرنا معا ! بعون الله تنام هى الآن فى بيت أفخم بكثير من قصر جدها الباشا عليه السلام ! جدها الباشا لم يكن يعرف التلاجة الكهربائية الكبيرة والغسالة الفول أوتوماتيك أو الفيديو كاست أو جهاز التكيف المركزى أو لموكيت والسجاجيد التى اشتريناها رأسا من شيران بأنفسنا فى رحلة سياحية لم يكن يعرف السيارة المرسيدس !! ترى ماذا وراءك الآن ؟ ! »

- « السفر فى الحال بعد مغادرتك »

- « كنت أود أن أفرجك ! فضلك من السفر وتعالى أعزمك على الغداء

!! »

- « دعها ليوم آخر ! »

- « لن تندم إذا جئت معى ! أما سفرك الآن فربما تندم عليه طول عمرك

فيما بعد !! »

كنت واثقا أنه صادق تمام الصدق فى كلامه ، صرت واثقا أنني أحبه جدا ، وصرت أشعر بالغيط والندالة لأننى نسيت اسميه ، ربما لأن شكله تغير واكتسب مسحة من الرفاهية كالباشوات القدامى من ذوى الكروش الملائنة بكل ما لذ وطاب . قدم لى علبة سجائره الأجنبية ، أخذت واحدة ونحيت مبسم النارجيلة . أشعل لى ولفنفسه بقداحة ذهبية . إنبثق فى داخلى عطر ذكريات قديمة عزيزة تقول لى أن هذا الشخص حميم ، وأنه طول عمره هكذا مستريح من الناحية المادية ، وأنه ينتمى إلى قوم ذوى خصوصية ما فى بلاد الصعيد . سرعان ما تذكرت أنه من قبيلة تحمل لقباً فيه سمو ، حصلت عليه بالوراثة نظرا لحسن سمعة العائلة واشتجارها بالكرم وسلامة الطوية ، لعلها أسرة ذات صبغة دينية .. الأشراف ، نعم ، لقبها هكذا : الأشراف ، وللعائلة كبير يدعى نقيب الأشراف . إنبثقت فى داخلى لحظة بهيجة مدوية ، زلزلتنى من القاع إلى النخاع . كدت أبكى بحرقة ، بل لقد طفرت الدموع من عيني ساخنة منهمة كالطر ، وشع من خلل الدموع إسم صديقى القديم مقرونا بلقب عائلته ، إسمه فلان الشريف ، إسمه على ما أذكر فيه حلاوة وطلاوة وإشراف ، كمال الشريف أو جلال الشرف .. أه .. لا .. ا .. ا .. ن .. الواد هلال الشريف ؟ ! يا .. ه !! هلال الشرف ! . وخبطت جبهتى براحة يدي فى قوة ، فيما راح صوتى يتهدج زاعقا تكاد تخنقه حرارة العاطفة الجياشة :

- « إزيك يا هلال ! والله زمان ! »

وقمت فاحتضنته بقوة وقبلته فى وجنتيه :

- « ألأزلت تعمل محاسباً ؟ ! »

كانت الضحكة قد كورت وجهه وضغطت أشداقه فى غبطة وسرور ، فظهرت أسنانه الكبيرة البيضاء النظيفة جدا ، المزركة بطيف خفيف من دخان السجائر . قال من خلال الضحك :

- ضحكت لانفجاره فى الضحك المبالغت :

- « كله على الله ! نحن ويختنا »

إتسعت ضحكته وجعل يتفتت :

- « أنا مُصر على عزومتك اليوم ! الآن ! سافر بعد الغداء ! إسمع ! سأرافك بسيارتى المرسيدس حتى محطة القطار ! لن يستغرق الغداء أكثر من نصف ساعة ! فكل شىء جاهز على الدوام ! وناهد ستسر غاية السرور حين تراك ! وبعالى أيضا ! إنهم يعرفونك جيدا ! وإسمك يتردد فى بيتنا على الدوام ! أنسيت أنك تركت عندى مسمار جحا ؟ حتى اليوم لانزال نقول فى بيتنا ضع الشىء الفلانى بجوار حقيبة فلان ! أو هات الشىء الفلانى من خلف حقيبة فلان ! أو احذروا أن تمسوا حقيبة عمكم فلان ! تخيل أنت فرحة البيت كله الآن حينما يرون فلان بنفسه قد حضر ! لن ندعك تأخذ الحقيبة فهى باتت من ملامح البيت ! مع أنى أعرف أن فيها أوراقا تحوى مشاريع قصص وروايات وسيناريوهات ومقالات ! لابد أنك الآن استغنيت عنها كلها ! وأظن أنك لو قلبت فيها فقد تشعر بمتعة فائقة ! خذ الأوراق لو أردت ! هيا ! هيا ! » .

عشته تماما ، أجبته ، قمت معه ، وفى يقينى أنه لن يتردد فى توصيلى إلى البلدة نفسها لو سايسته بالحيلة ، ذلك هو صديقى هلال الشريف الذى عشقته ذات يوم ، المنطلق فى صفاء ، المصر دائما على تنفيذ ما يراه ولو بالقوة أو لوى البوز ، الذى عودنا على ألا نؤخر له طلبا أو نؤجل له حاجة ، الذى طالما عزمنا على الغداء الشهى فى لحظات إفلاسنا الكنيبة ، الذى طالما أقرضنا خمسينات قرش وأرباع جنيهات لا حصر لها ولا رد ، الذى أغرقنا بالفطير المشلتل والعسل النحل والجبن القديم ، ويخطر لنا الشاى بيده التخينة المظلظة ، ويشوح باليد الأخرى فى وجوهنا بعصيبة محببة قائلا للواحد منا : « بس

بس بلاش كلام فارغ ! ماتبقاش عيبط أmaal ! ثورة إيه وبتساع إيه يا راجل تف من بلك ! الشعب المصرى انضرب بالجزمة وخلص ! كلها وسكت يابوى ! » ..

كنا نسكن سويا فى بنسيون يسمى فندق فلوريدا فى شارع رمسيس ، حيث كانت تجيئنى بعض جنيهاات من كتابة مسلسلات إذاعية وتليفزيونية تذاع بأسماء ناس آخرين لامعين ، فأول شىء أفكر فيه عندئذ - بنصيحة من هلال - هو أن أدفع مقدما شهرا أو شهرين أو ما استطعت ، أدفع النقود التى معى كلها أحيانا ، وأعيش على فيض الكريم ، ويعتبر هلال الشريف بعض هذا الفيض . كثيرا ما كان صاحب الفندق يمهلنى شهرا أو شهرين بعد انتهاء حسابى المدفوع مقدما . فإذا يئست من وصول نقود قريبة انسحبت من الفندق فى هدوء حتى تقع فى يدى نقود ، فأخرج إلى العراحملا حقيبة سفر صغيرة فيها كل ملابسى ومتعلقاتى وأوراقى ، لأبحث كل مساء عن سقف يأوينى . كان هلال الشريف يسكن الغرفة المطلة على الشارع الكبير ، أجمل وأهم غرفة فى الجناح بحكم أنه مقيم على الدوام والغرفة على حسابه حتى أيام الإجازات الطويلة يفلقها ويأخذ مفتاحها . وكنت أسكن الغرفة المجاورة له مباشرة ، وفى الغرفة المجاورة لغرفتى يسكن ولد يعمل ملاحظا فى مصنع سجاد شهير ، كان لزجا سمجا فارغ الذهن فحج العواطف تافه الحديث ، فلم تقم بينى وبينه أية علاقة غير علاقة الجيرة . إنما قامت العلاقة بينى وبين هلال الشريف ، وشلة أصدقائه من زملائه فى الشغل يجيئون للسهر معنا كل ليلة ، نجلس طول الليل فى شرفة غرفته نتسامر ونحكى آخر النكت السياسية ، ألخص لهم آخر كتاب قرأته وآخر رواية ، يحكى أحدهم عن فيلم أجنبى شاهده ، يحكى آخر عن نوادر زملائه ، عن مباريات الأهلى والزمالك ، عن أهلنا فى الصعيد وما فيهم من براءة يهتز القلب ضحكا من طرافتها ، عن أهلنا فى الوجه البحرى وما فيهم من سذاجة وطيبة . هلال يشتري قطعة الحشيش من شارع

الصحافة فى بولاق ، ليخفيها تحت المخدة بعد أن ينتزع منها قطعة صغيرة يزعم أنها آخر ما معه ، لنلفها فى سيجارتين تدوران على القعدة ، فإذا ما شعشت السيجارة الثانية دحلب يده تحت المخدة ثم يخرج مدعيا أنه واصل إلى دورة المياه ، ليعود بعد برهة وجيزة فيدحلب يده تحت المخدة ، ويحمر وجهه ويتكور بفعل الضحكة العريضة البريئة وهو يقول أنه عثر على قطعة تائهة تصلح سيجارتين أخريين . وهكذا إلى أن ينتهى الربع قرش ، ولربما نزلنا فى الجزء الأخير من الليل مرتدين المنامات والشبابشب الزنوبه لنعبر شارع رمسيس الى شارع الجلاء فشارع الصحافة لنشترى تمناية من أية غرزة ساهرة ، لنعود فنلحقها بدماغنا حتى مطلع الفجر ليمدد الجميع فى أماكنهم حتى موعد العمل فى العادة يصحو هلال بعد قليل جدا ، ليشتري جرائد الصباح وهى طرية ، من بائع نسقط له السلة بحبل فيضعها فيها فنجذبها . قد نبقى وقتا طويلا نمزح مع بائع الصحف حول النقود هل أخذها أم سقطت من السلة ؟ لنضحك عليه إذ ينحنى ليقلب فى الأرض بحثا عنها ، أو نسقط له السلة بالنقود فإذا هى سيجارة ملفوفة نصالحه بها . أحيانا كان يتركنا ويجرى مؤجلا نقوده حتى يفيق لمزاحنا الثقيل ، فيصعد إلينا الغرفة ليجادلنا ، حيث يتمادى هلال حينئذ فى المزاح ، فيحمله مسئولية الأخبار السيئة التى تنشرها الجرائد ، ويمتنع عن دفع ثمنها مالم يأت لنا بجرائد تحمل أخبارا طيبة ، والولد يحتمل ذلك فى ود ويقول : « من أين يابيك الأخبار الطيبة ؟ ! » فيقول هلال : « صدقت والله يا ولدى ! » ، ثم يزفر فى أسى حقيقى شديد ، ثم يعطيه حقه زائدا قرش تعريفة أو سيجارة . كان جميلا جميلا جميلا ، كريما جوادا . فى سبيل ألا تفارقه صحبتى دفع لى ستة أشهر على ثلاث دفع ، على أمل أن تنصلح الأحوال . فلما أذنت الأحوال بغير انصلاح لمدى ثلاثة أشهر أخرى كان لابد من الإنسحاب فى هدوء وفى السر حتى لا أسبب له أى حرج . إتفقت مع صاحب الفندق على موعد قريب للسداد ، ثم جمعت حوائجى فى الحقيبة وأغلقتها ،

وقلت لهلال الشريف :

- « دع هذه أمانة عندك حتى أسافر البلد وأعود بعد حوالى أسبوع على

الأكثر »

قال فى الحال :

- « معك أجرة السفر ؟ ! »

تلعثمت :

- « .. سأصرف ! »

- « ولماذا تتصرف وأنا موجود ؟ ! »

واتجه إلى المشجب الواقف فى ركن الغرفة وسحب من جيب السروال

رزمة من ورق البنكنوت خفيفة ، نزع منها جنيهين قدمهما لى :

- « سلم لى على الجماعة ! »

لم أجد معنى للإعتذار :

- « شكرا ! شكرا ! »

أخذت الجنيهين فدسستهما فى جيب سروالى ومضيت أعانقه ، ثم انصرفت مغالبا دموعى . أذكر أننى مكثت أياما لا أجد حماسة لصرف الجنيهين ، لكن الأيام كانت تمضى بى من سيئ إلى أسوأ ، وكلما توغلت فى الغياب إزددت خجلا من رؤية هلال ، وخوفا من صاحب الفندق . وكنت أتوقع أن يكون هلال قد دفع له المبلغ . لهذا رأيتنى أمعن فى البعد ، وأتجنب الظهور فى منطقة الفندق برمتها . وكان الشوق إلى هلال وقعدة الشرفة المطلة على الشارع يدفعنى فى عز الليل إلى التجول خفية أمام الفندق والتطلع إلى الشرفة لأرى شيخ هلال جالسا وحده يدخن بعمق وشرهة ويستمتع إلى أم كلثوم من

راديو كاست : أكاد أناديه أكاد أصعد إليه ؛ لكننى أغلق قمى وأستدير عائدا بقلب مكلوم ؛ إلى أن جاء يوم سألت فيه عن هلال عبر الهاتف بصوت مستعار ، فقيل لى أنه غادر الفندق نهائيا إلى حيث لا يعرف أحد ؛ فسألت عنه فى الشغل بالهاتف أيضا فقيل لى إنه فى إجازة بدون مرتب

صرنا نخوض فى وهر السجاد الثمين المزدان بالألوان والأبهة ونحن ننقل من غرفة إلى غرفة ، خلفنا زوجة حسناء جدا كأنها مصنوعة من الزبد ، تضحك بصوت رنان بهيج ، وأطفال على درجة كبيرة من الظرف وخفة الظل يحملقون فى بانبهار وغموض

ها أنذا أمضى فى شارع قاحل يبدو كأنه فى مدينة دمرها العدو منذ وقت وجيز فارتحل جميع من كان فيها من الأحياء . كانت بقايا الحياة فوق أكوام القمامة وبين انفاق الهديم تبدو على شىء من الطزاجة . وكان يبدو لى كأننى قادم من مشوار شديد الأهمية شديد الإرهاق ماصدقت أن أنجزته . ولم أكن أعرف بعد إلى أين أنا متجه . لم يكن فى ذاكرتى سوى بعض ملامح مضيئة من وجه حسناء صبور ، وركن فى صندرة فى مطبخ أحد القصور حافل بكثير من الكراكيب والمتروكات وبطرمانات الطرشى وخزين التموين ، حيث يظهر من نهاية الركن وجه حقيبة جرباء صدئة الأقفال ، ورجل لطيف أغلب الظن أنه صديقى القديم هلال الشريف يشير إليها قائلا : تلك حقيبتك الأزلية سوف تعود إليها فى يوم من الأيام .

- ١١ - المشأؤون

دائما أبدا هناك فى عمق الليل مأوى احتياطى ، قد ينساه الإنسان إلى حد فقدان الأمل فيه تماما ، فلا يتذكره مطلقا ، بل قد ينمحي من ذاكرته وهو على مبعدة خطوات قليلة منه بينما هو يبحث عن غيره . غير أن الليل كلما أوغل فى البهمة ، واليأس كلما اتسعت صحراؤه وأظلمت آفاقه ، يقوى الإحساس بوجود هذا المأوى المجهول المختبئ فى عباءة الليل كثقب ضئيل يتخفى بين طيات العباءة فلا تدركه إلا الكائنات المفرطة فى الضالة .. فكل ضئيل لا يشعر مطلقا بفقدان المأوى ..

قعدة الإمبابى كانت واحدة من هذه الثقوب . نمضى إليها عبر مجموعة من الحواري الضيقة المتلوية التى يغلقها الليل ببوابات من الظلام الحديدى ، مع أنها تقبع خلف شارع سليمان الغارق فى الضوء النيونى المبهر ليل نهار ، ويخترقها من القلب شارعا عبد الخالق ثروت والأنتيكخانة ، ويخترقها بالعرض شارع شامبليون الذى ينتهى بدار القضاء العالى ونقابة الصحفيين ، فكأن هذه الشوارع الثلاثة قد قسمت حى معروف المظلم المتهاك بشرائع من الجير المخلوط بالرمل ..

ولقد يشعر الماشى فى هذه الشوارع الثلاثة بأنه ما يزال يعيش فى قلب المدينة العامرة بالوهج . فإذا كان مثلى يقصد ثقبا فى عباءة ليل القاهرة فإنه يضرب فى حواري تتسع بالكاد لجسد واحد يمر فإن صادفه مقبل فلا بد أن

يجتنب كلاهما الآخر ملتصقا بالحائط حتى يمر أحدهما أو كلاهما ، بين بيوت
حاصلة على أمر بالإزالة منذ أكثر من خمسين عاما ، ومع ذلك لم تُزل ولم
يفارقها أحد ، بل إن شاغلها أجروها لناس جدد وانتقلوا إلى أماكن أخرى
خصصتها لهم الحكومة بموجب إزالة بيوتهم . وهى بيوت واطئة أزيلت أدوارها
العليا ، بعضها بقى على طوابقه الأربع أو الخمس ، بيلكونات حديدية منبعجة
ذات أفارين ودرابزينات صدئة ، ومشربيات كالحة فى لون التراب ومفعصة
ومخلوعة الأضلاع ، وشبابيك مقفلة بورق الكرتون بدلا من الزجاج ، وشرفات
كالدامل فى جسد موبوء بالجروح والقروح ، وأبواب عتيقة لا تفتح إلا نصف
فتحة لما خلفها من أرض غير مستوية بفعل ماتراكم عليها من هديم سابق
وبقايا طوب قد ينفع فى أى غرض . لابس إن حوى الهديم ثعابين وعقارب
منجذبة برائحة الرطوبة والبلل والقمامة وفضلات الغائط الذى يدلف من البطون
فى فتحة فى الأرض ، لابس طالما كل منهم فى حاله ..

عادة العين اعتياد الظلام ، فإن هى إلا دقائق معدودة بين هذه الحارات
حتى ترى نفسك قد بدأت تبصر بعض ألوان شاحبة تبقع العبادة فى أكثر من
موضع ، إنها لمبات الجاز السهارية ذات الفتيل المدخن ، ينبعث ضوءها العليل
من فتحات متباعدة ، من طاقة فى جدار ، من باب صغير كباب خن الدجاج ،
من فتحة خص قائم وحده كالضريح فى ساحة تخلفت عن إزالة بيت ولا يزال
الهديم يحيطها . ويتوسطها . لو كنت من دود الأزقة مثلى فإن عينك خبيرة
بالتلصص فى هذه الفتحات واختلاس النظر . فى أى فتحة من هذه الفتحات
يمكنك أن تميل برأسك وتطل دونما صفاقة أو تبجح ، بل يمكنك أن تنحنى
داخلا ، ملقيا بالسلام عليكم ، أو مساء الخير يا جدهان ، أو حتى بدون أن تفتح
فمك . هذا إذا كنت معروفا لديهم ، وإن لم تكن فيمكنك الإيحاء لأهل المكان أنك
معروف لهم ، يكفى أن تذكر إسم واحد من المترددين على المكان ، أو من جيرانه
ستجد أطفالا تتكلم على مقربة منك تحت بطانية أو خيشة أو جلاليب قديمة
، فى حضن امرأة ، أو تراهم متناثرين . ستجد من يرحب بك ، يفسح لك

لك رقعة تتربع فيها ، أو يزغد النيام يأمرهم بإفساح المكان ، أو بالخروج إلى
الخلاء ، حسب ما يوحيه سمك ومظهرك من خير متوقع . سيجيك بائع
الحشيش والأفيون ليفرجك على ما معه من الصنف . سيعد لك صاحب المكان
حجارة الدخان المعسل ، أما النار فمشتعلة على الدوام ، يسقيك عشرين حجرا ،
خمسین ، مائة ، الحجر بقرشين تعريفة . تخرج بعدها وأنت آخر تمام ، تخبط
فى ظلام الحارة تدوس فوق كلاب وقطط وأكوام زباله . بعد خطوات تصير فى
شارع شامبليون ، ومنه إلى شارع سليمان ، أو شارع الأنتيكخانة أو شارع
عبد الخالق ثروت ، فترى الشوارع والأشياء وقد تغير لونها واصطبغت بالصفاء
وظهرت ملامحها الدقيقة ، وشملك هوء نفسى منقطع النظير . على أن
الوصول إلى هذه الحالة الرائعة التى تستقبل بها الليل تقتضى وجود خمسين
قرشا معك على الأقل إن كنت تشرب الحشيش الشعبى الكبس ، وجنيها كاملا
إن كنت تشرب الهبو البريمو ، لتصير ليلتك آخر فل . بمبلغ كهذا قد تستطيع
المكوث فى الوكر حتى مطلع الفجر فتقطع فرط الليل وتتكيف بنقود واحدة ..

بعضهم كان ميسوار ، يستطيع دفع نقود للمزاج ، ونقود للمبيت ، ونقود
للتسكع فى كل خطوة . « فائق » مثلا ، رسام الكاريكاتير الشاب ، ذو الجسد
النحيل ، لا بالطويل ولا بالقصير ، أحمر الوجه رقيق الصدغين بارز الخدين
شفاف البشرة البيضاء ، إذا ما انفعل بالغضب أو بالمرح بدا كأن شايأ أحمرأ
قانيا يندلق فى كوب من الحليب . هو منفعل على الدوام لكنه إلى المرح أقرب
وعن الظرف والسخرية لا يحيد . يشع الذكاء فيه من عينين طفلتين وادعتين
متحفظتين كعصفورتين لم تتعلما الطيران بعد . غليظ الشفتين ، يطبقهما على
الدوام فوق ابتسامة أزلية أكبر حجما من فيه . غزير الشعر أسوده ، يحلقه
دائما على طريقة عيال الفلاحين المؤبدین ، حيث لا طول فى السوالف ولا إعتناء

فى التصفيف ، إلا أن خصلاته الأمامية مهما قصرت فإنها تلقى بظلمها على الجبهة التى لا تزيد عن حجم تفاحة كبيرة . أما رقة الإحساس والشعور فليس لهما مثيل فى شلته كلها ولا حتى فى أبناء المدينة ، لذا فالبشر لا يملكون إلا أن يحبوه بكل ما فى قلوبهم من مدد ، وأما خطوطه وفنه فحدث ولا حرج ، كأنها خطوط إلهية تخرج من يده مرسومة جاهزة وكأن وحيا خفيا عليهما يحرك الريشة فى يده إلى هدف معلوم سلفا ، حركة الخط فى ريشته هى نفس الحركة التى نراها أثناء تفتح أوراق الورد فى صور الأفلام العلمية ، فإذا هذه الخطوط العفوية قد صارت نساء فانتات مصريات ينافسن القمر ، وعمالا مكودين وفلاحين يستلثون العرق وسماسرة بكروش بارزة وحلل أنيقة ثمينة والإحتيال فى عيونهم . ملامح مصر كلها فى خطوطه تلتقط المفارقات الناعمة وتكشف المستور من التناقضات الفادحة ..

وقد من الزقازيق منذ وقت قليل ، فلقى حظا عظيما ، وحظيت رسومه بتقدير منقطع النظير ، خدمته الظروف لأن مجلة شهيرة كانت تحت التأسيس عند قدومه فاخطفته فبات بين عشية وضحاها أشهر نجم بين رساميها المتخرجين فى كليات الفنون الجميلة رغم أنه لم يدخل الجامعة ولم يدرس الفن فى كلية ..

جرت النقود فى يديه بكثرة ، فاستأجر شقة فى وسط البلد لا أظن أنه يراها ليلا أبدا ، إذ هو يعدل مزاجه بالحشيش الهبو فى أول المساء ، وينتقل إلى إحدى الحانات أو إلى شقة أحد أصدقائه لقضاء السهرة فى لعب الورق ، وفى الهزيع الأخير من الليل يبحث عن الأماكن التى تمتد ساهرة حت الصباح ليجلس بين رهط من الأصدقاء يتكلمون فى كل شئ حتى تجيء الجرائد فيقرأوها . قعدة الإمبابى هى التى تصادفه فى معظم الليالى إن كان على مقربة

منها . فور طلوع النهار يتوجه الى المجلة ، ليفتح حجرة مكتبه ويظل يرسم حتى الحادية عشرة ظهرا ، فإذا يكون المحررون قد بدأوا يتوافدون إلى المجلة يكون هو انتهى من عمله ، فينصرف ، لينام حتى مدخل المساء ، حيث يبدأ برنامجه اليومى ، وحيث ينتظر الجميع مقدمه بفارغ الصبر ، إذ هو بلسم حقيقى ، يوضع فوق الجرح فيطيب الجرح ، كريم إلى أقصى الحدود ، خفيف الظل وابن نكتة ، صاحب قفشة ، ما فى جيبه فى يديه ، ومن يديه إلى يدى الأصدقاء وأقواهم ..

شلته معروفة محدودة ، لكنه يستوعب الكثيرين من الذين يفرضون أنفسهم عليه فيقبلهم من الزاوية الإنسانية فحسب ولكنه قادر على ردهم وصددهم عند اللزوم . « حنفى قمر » مثلا ، المحرر الفنى فى نفس الدار التى تصدر هذه المجلة . هو من دفعة رئيس تحرير المجلة ، إذ تخرجوا معا فى كلية الحقوق ، لكن الفرق بينهما فرق السماء عن الأرض . فرئيس التحرير كاتب مشهور جدا ، له ثقل جماهيرى كبير ، وتأثير خطير فى رأى العام ، وعلاقات واسعة بجميع رئاسات المنطقة العربية وبعض رؤساء العالم ، ونو مكانة خاصة فى نظر رجال ثورة يوليو ، وقد لعب دورا كبيرا مؤثرا فى مستقبل بعض أبناء جيله . أما « حنفى قمر » فقد بقى طول عمره هذا المحرر الفنى الكحيان ، لا تتجاوز قدراته كتابة خبر فنى يجلبه خلال التصعلك فى الأوساط الفنية وأوكر الليل الحاوية لصغار الفنانين . يقولون إن الحشيش هو الذى دمره ، إستغرق كل وقته فانصرف عن القراءة والمتابعة إلا أنه لم يكن فى الأصل مبنيا بناء سليما كما أنه لم يكن على موهبة أو ثقافة ، فبات مجرد شاب نحيل القوام ، صغيرالوجه ك رأس الهدد ، تبرق عيناه ببريق مخيف كأنهما معدتان على الدوام لالتقاط عدسة الكاميرا ، بخصلة شعر رومانسية نافرة على الدوام . سر

اشتغاله محررا فنيا حلمه بأن يكون ممثلا مرموقا ، وشيئا فشيئا ضؤل هذا الحلم ، وأب إلى قناعة بأدوار الكومبارس ولو لدقيقة واحدة على الشاشة ، على حسها يتكئ جالسا فوق سور الرصيف أمام محل البن البرازيلى فى شارع سليمان ، فلربما تنبه إليه المارة فأشاروا وتغامزوا وتهامسوا وبعثوا بالتحية - وهو مالم يحدث أبدا . وعلى حس هذه اللقطة قد يبيعه تاجر الحشيش ربع قرش على الحساب الشكك ، ويمهله بائع السجائر أيا ما أخرى فى دفع ماكان عليه ، ويحترمه نوادل البن البرازيلى عند تقديم القهوة كما يحترمون أنيس منصور ونبيل الالكفى وصلاح سرحان وغيرهم من نجوم رواد البن البرازيلى ..

هو الوحيد من شلة « فايق » تراه فى قعدة الإمبابى كل ليلة . وهو الوحيد أيضا الذى جعله « فايق » يهجر هذه القعدة بعد أن كانت مقدسة لديه . لم يكن يزججه سوى سخافات « حنفى قمر » ومحاولاته جر « فايق » إلى الإدلاء بأراء فى السياسيين والكتاب والفنانين ، فكان ينفر منه نفورا شديدا ، ويحتج بكل ظرف وخفة ظل قائلا له : « لقد ودعتك داخل الحارة فالمفروض أنك الآن لست موجودا والمفروض أننى انصرفت عنك ! » وليت الأمر يتوقف على هذا الإزعاج فحسب ، بل كثيرا ما يطلب « حنفى قمر » شايات وحاجات ساقعة وقهاوى عديدة وعلبة سجائر كبيرة وقد يلمع الحذاء ويأكل بعض السندويشات ويتورط « فايق » فى دفع الحساب ، فكيف عن المجيء إلا فى اللحظات الأخيرة من الليل أو اللحظات الأولى من الفجر كى يتأهب لالتقاط عربة أجرة توصله إلى مكتبه بالمجلة فى نهاية شارع عماد الدين ..

« حنفى قمر » يعرف أنه لن يجد فى هذه القهوة سوى أخبار السياسة التى لا تهمه فى كثير أو قليل ، وبعض أخبار الأدب الذى ينظر لأهله باعتبارهم أنصاف مجانيين يهرقون دماغهم على أوراق لا يقرأها أحد ، فضلا أنها لا تجد

من ينشرها بسهولة ، وقد تودى بأصحابها ونويهم إلى السجن . إلا أن « حنفى قمر » لا يمكن أن يجد مكانا ساهرا ولا يحود عليه ويجلس فيه بعض الوقت ، خاصة إذا كان مكانا يؤمه بعض المعروفين له ، ولا يكلف الجالس فيه أى نقود ، وبالأخص اذا كانت قعدة الإمبابى المتاخمة لكل جحور الليل فى قلب وسط المدينة .

هى عبارة عن دكانة صغيرة كانت فى الأصل فراغا فاصلا بين جدارين أشبه بمنور مفتوح على الشارع يستفيد به بيتان متجاوران . ومن الواضح أن الإمبابى قد استولى على هذا المنور ، وصنع له سقفا وبابا خشبيا وبئكا صغيرا، وملأه بالرفوف الخاوية ، وحوله إلى دكانة لبيع السجائر والدخان المعسل والأسبرين والفحم المعبأ فى أكياس من النايلون ، ووضع بجواره ثلاثية من الثلاثيات التى توزعها شركة الكوكاكولا ، شبتها فى الأرض وشغلها أيا ما ثم هجرها وصنع لبابها قفلا بجنزير واتخذها مخزنا لبعض الحاجيات ، ذلك أن الدكانة ليس فيها متسعا لتخزين صناديق الكوكاكولا . يمر عليه مندوبو شركات السجائر كل يوم بالتروسيكلات ، فيتروكون له طلبيات الأسس ويأخذون ما جمعه من نقود . لا أحد يعرف كم يكسب من هذه الشغلة ، ولكن الجميع يعرف أنه ليس ينتظر منها مكسبا، إنما هذه الدكانة الصغيرة هى مركز يضيّع فيه وقته ، حيث قد كان موظفا بمصلحة البريد قبل أن يحال الى المعاش منذ مايربو على عشر سنوات . يكفيه معاشه الذى يقبضه كل شهر ، بثمنه يدخن السجائر ، أما الماكل والملبس والمأوى فإن أولاده قد بارك الله فيهم ، أكبرهم محام شهير نو مكتب فى وسط المدينة وبيت فى عمارة حديثة بشارع شامبليون نفسه ، على مقربة من دكانة أبيه . من قعدته فوق الرصيف يستطيع رؤية السلة المدلاة بحبل من شباك الطابق الخامس فى العمارة المواجهة على الرصيف المقابل ، فيعرف

أنها تحوى عشاءه ، فينفض نفسه واقفا ويهرول ليأخذ عامود الطعام من السلة ويدفع بها إلى أعلى حيث تشدها إبنة ابنه العروس ، فى حين يعود هو ليأكل على عجل ، يلوك الطعام فى فمه الأهم فتتحرك جميع التجاعيد فى وجهه فوق شفثيه الغليظتين ويبدو وجهه كطفاية سجائر مطبقة فى بعضها بلونه الفخارى الغامق ، ومن حين لآخر يرفع يده الملوثة بالطعام ليزيح الطاقية الصوف براحة يده عن رأسه الأصلع كالكرة الشراب ، ويهرش تحت الطاقة ثم يعدلها فوق جبينه ويواصل الطعام ، فإذا ما جاء زبون من المقهى المجاور له يطلب علبة سجائر أو كيس فحم أو باكو دخان معسل فإنه يأخذ الثمن ويشير له إلى مكان الشئ فيذهب الزبون ويأخذه ..

الأستاذ « جمعه الإمبابى » المحامى - الإبن الأكبر للإمبابى - من هواة السياسة وإن لم يشتغل بها فى يوم من الأيام ، ذو ميول وفدية ، ومؤيد للثورة ، لكنه متوجس على النوام من جنوح رجالها إلى العنف وممارسة حياة الباشوات، ويشفق على الرئيس عبد الناصر من غيلان الداخل قبل غيلان الخارج ، خاصة عملاء المخابرات المركزية الأمريكية التى دأبت على محاربة الثورة فى الداخل والفصل بينها وبين الجماهير وهن ثقة الناس فى الرئيس وفى نواياه . ودائما يدعو الله بأن يكون فى عون الرئيس ويساعده على أولاد القحايب من أعوانه الذين ينفذون تعليمات المخابرات الأمريكية بإحالة البلد إلى سجن كبير نصفه حكام ونصفه محكومين ونصف الحكام والمحكومين مخبرون سريون على بعضهم البعض ؛ مثلما احتالوا على مقدرات البلاد فافقروها وضيعو كل ثرواتها على ملذاتهم ..

قعدته المفضلة هى رصيف دكانة أبيه ، ابتداء من الحادية عشرة مساء ، حيث يكون هدير الحركة فى شارع شامبليون قد خمد . يسحب كرسيا من

المقهى ، يلتحق بالدكانة ، ليحى النادل خلفه بعد برهة بفنجان القهوة على صينية ، وبعدها الشيشة النادية . يستوى على الكرسي جالسا بجسده الضخم وكرشه الكبير غير المنفر ، والروب دى شامبر الكاروهات الأحمر يلف جسده بالحزام ، تحته تبرز البيجاما الحريرية من الصدر والساقين ، ياقة الروب تحيط رقبتة القصيرة التخينة فتبدو رأسه الكبيرة المستديرة كبطيخة مزروعة فى أضيص مزركش ، ويبدو وجهه المنتفخ بالصحة والدماء حليقا على الدوام ..

يجلس معظم الوقت صامتا يشد أنفاس الشيشة ، فإذا طلب رأيه فى أمر أو قضية لوى ملامحه ونطق بكلمة أو كلمتين فى مرارة وقرق يخيل إليك معهما أنه غير راض عن أى شئ على الإطلاق . أما إن اتسعت القعدة وحفلت بوجوه مهمة معروفة له أو من أصدقائه فإن صوته الرنان الواثق ينطلق فى لهجة بين الخطابة والتمثيل ، مرددا عبارات فخمة مثيرة لافتة للأذن ، تحوى دقيق المعانى عميق الآراء ، عن مصر وبور مصر المقدور ، الذى هياتها الطبيعة له ، كى تقود المنطقة والعالم إلى بر الأمان ؛ عن فجر الضمير الذى لابد أن يعاود شروقه من ضفة الوادى الخصيب ؛ عن خطر إسرائيل المائل المالحق ؛ عن القومية العربية وأعدائها الأوغاد من ورثة عهود الظلام ؛ عن دور الجماهير العربية العريض وكيف ينبغى على المثقفين سياسته ؛ عن حتمية انهيار العالم القديم من داخله ؛ عن وعن وعن ، إلى مالانهاية ..

تكتمل نشوته بحضور صديقه زميله « أسعد حامد » المحامى ، السياسى المحترف ، عضو اللجنة المركزية بالإتحاد الاشتراكى العربى ، وعضو سابق بمجلس الأمة ، أبوه ثرى من أثرياء القاهرة ، صاحب توكيلات عديدة للمحارث والهندسة والأدوات الكهربائية والصحية بجميع أنواعها . محلاته الكبرى فى وسط المدينة ذات أفرع فى بقية الأحياء والمدن الصغيرة . غير أن الأستاذ

«أسعد حامد» المحامى - رغم حبه للثراء ونبرة التفاخر الخفيفة فى حديثه بما عند أبيه - يقف فى صفوف الفقراء ويتكلم دائما باسم العمال والكادحين من أبناء الفلاحين العظماء بناه مصر ، فإن كانت مصر فى نظر المؤرخ اليونانى القديم « هيرودوت » هبة النيل فإنها فى حقيقة الأمر هبة الفلاحين ، بل إن النيل نفسه هو هبة الفلاحين المصريين الذين امتطوه من قديم الأزل ولجموه وجعلوه يمضى حيثما أرادوا ..

طويل القامة بصورة لافتة للنظر ، نحيف البدن ، أبيض الوجه كالأتراك اليونانيين ، مضغوط الصدغين أحمر الخدين بجبهة ضيقة وشعر خفيف على جنبى رأسه الصغير ، وسالفين طويلين بجوار أذنيه ، أما الرأس فيخترقه شريط عريض من الصلع يبدأ بالجبين المقلوظ حتى مشارف القفا ، متحرر من كل عادات الأرستقراطية التى لا يزال ينتمى إليها شاء أم أبى ، حتى وهو يمارس التحرر من عاداتها بالجلوس على هذا الرصيف الترايبى بين هؤلاء القوم المعدمين ..

متزوج من ممثلة فى فرق التليفزيون المسرحية أنشئ بكل معنى الكلمة ، ممثلة الجسد قليلا ، بارزة العجيزة والردفين رفيعة الخصر جدا يمكن أن تحيطه بقبضتيك ، مزهرة الوجه ، تراها فتعتقد أنها ست بيت من الطراز البلدى الذى يؤكل بحق . وآخر شئ تتوقعه بالنسبة لها أن تكون ممثلة ، أن يخطر هذا الجسد المهرجان فوق خشبة مسرح ، ليتخرج هكذا فى كل خطوة على إيقاع الردفين كأنه ذاهب للإيقاع بفحولة كل رجال الكرة الأرضية ، مع ذلك فهي ممثلة لا بأس بها ، تستطيع إقناعك بكل حق ومهارة ، لولا أن جسدها الفتى لابد أن يخرجك عن اندماجك ، يقودك إلى تمنعه كأنك تستعد لاعتلائها بعد خروجها من هذا المشهد رأسا ..

العجيب الطريف أن تكون هي الأخرى مصدر تفاخر خفى عند زوجها الأستاذ « أسعد حامد » المحامى السياسى الشهير . دائما أبدا يذكرها فى حديثه كأنما بشكل عابر : « سهير أوصلتني الليلة بسيارتها لأن سيارتى عطلانه ! .. سهير طبخت لى بنفسها طبق كشك أفقدنى صوابى ! .. سهير نبهت على بعدم الإفراط فى السهر خوفا على صحتى ! .. سهير لم تنم ليلة الأسس بسبب هذا التعليق الغبى غير المسئول الذى كتبه ذلك المحرر الفنى الأحقق !! » ..

بعض الجالسين قد لا يعرفون سوى أن سهير هذه هي السيدة الفاضلة حرمة المصون ، وعدد كبير منهم هم الذين يعرفون أنها « سهير شعبان » الممثلة بفرق التليفزيون المسرحية . غير أن الأستاذ « أسعد حامد » المحامى يفترض أن كل الناس يعرفون أنها زوجته ، فيلمع الشعور بالإستمتاع فى عينيه الضيقتين الصافيتين لشعوره بأن الجميع يحسدونه على اقتنائها لهذا الجسد المتفجر الساحر ، شعور قوى واثق مدعوم بسمعة جيدة ، إذ يتناقل الجميع أخبار غزواته النسائية وفلوسه الكثيرة التى أنفقها على عضوه النشيط الذى لا يهدم والذى لم تستطع « سهير شعبان » بكل سيولتها أن تستنفد قواه الدليل على ذلك أن روعسا كبيرة من الحكام ورجال المخابرات والفنانين والتجار والعسكر والأمراء العرب حاولوا الإيقاع بها بكل الطرق ، تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب ، لكنها فلاحه ناشفة الدماغ سليطة اللسان حادة قارصة مفحمة ، رادحة عند اللزوم ، أجزأ واحد فى الوسط الفنى كله لا يقدر على مغازلتها حتى ولو كان بيده مستقبلها السينمائى . وأكبر كلمة غزل قيلت لها هي : يا أرض احفظى ما عليك . لهذا فإنها قليلا ما تظهر على خشبة المسرح ، ونادرا ماتشارك فى تمثيلية تليفزيونية ، أما السينما فقد أغلق بابها دونها تماما رغم أنها كانت مستعدة بكل كيائها لتمثيل أدوار الإغراء بشرط أن يتم ذلك فى إطار

التمثيل فحسب ، إلا أن كل المخرجين والمنتجين قد أساءوا الظن بها وتصوروها سهلة ، فردتهم على أعقابهم خائبين مقضوحين ، فباتت الفضيحة تهدد كل من يفكر فى الإستعانة بها حتى ولو كان شريف القصد والنية ..

حق للأستاذ « أسعد حامد » المحامى أن يفخر بها ، إذ هو يعلم عن يقين أن القعدة - قبل مجيئه - كانت تتكلم فى سيرتها من خلال الإشاعات الكثيرة المتجددة التى تدور حول محاولة المخابرات العامة تجنيدها ..

بمجرد جلوسه يضع ساقا على ساقا ، فيبدو الكرسي من تحته مجرد زاوية صغيرة تسند نخلة منكسرة الجذع فى رشاقة ، تنهدل سترة البذلة ذات الياقة أم صفين ، السوداء فوق سروال رمادى فاتح من صوف الفاتلة ، والقميص الحرير السمى ، ورباط العنق الثمين ماركة سولكا ، المعوج ، وقد انفك زرار الياقة من تحته واتسعت دائرة الرباط حول الرقبة حول العنق ، والرباط مشبوك فى القميص بدبوس من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة ..

بعد دقائق معدودة يجيء الكابجى الملاصق لدكانة الإمبابى ، فيسحب منضدة من محله ، يضعها أمام الأستاذ أسعد المحامى ، يفرشها بالمفرش المزركش الأنيق يوفد صبيه بعيد من أطباق السلطنة المتنوعة : الطماطم بالخضروات ، الطحينة ، الباذنجان ، الطرشى ، مع أرغفة الخبز الطازج . يشرع هو فى الحال فيتسلى بغمس اللقيمات الصغيرة فى هذه الأطباق وتطويحها فى فمه ، فلا يبدو على وجهه أنه يلوك شيئا أو يبذل أى جهد ؛ لكنها دقائق معدودة تخلو بعدها كافة الأطباق ولا يزل نصف الرغيف باقيا أمامه ، حتى إذا ما وفدت رائحة الشواء واستعمرت الأنوف وحضرت فى الأطباق بمهرجان كبير من الدخان والنكهة ، شمر هو أسورة القميص عن رسغ يمناه وحشرها فى سمانة الساعد وانبرى يقطع الكباب بالسكين تحت ضغط الشوكة فى أناقة بالغة ، من فرط أناقتها وتمهله فيها لا تكاد ترى اللقيمات وهى تصل

إلى فمه ، إذ أن يديه على الدوام فى حالة تقطيع وتسوية . حين يبدأ الصبى فى رفع الأطباق نفاجا بأن على المنضدة أكثر من زجاجة كوكاكولا شربها هو أثناء الأكل ..

تنزاح الترابيزة من أمامه ، لتحل محلها طقوطة المقهى ، النحاسية الصغيرة ، عليها صينية القهوة . ثم يبدأ ذراعه الطويل يرسم الخرائط فى الهواء مع حديثه ، وأصابعه السريحة تحتجز بينها سيجارة « لاك سترايك » طويلة ناعمة ، أستماتت علبتها بجوار صينية القهوة ومن فوقها الولاة « الدنهل » الذهب . إذا نجح المستمع فى الإنصراف عن أناقته المفرطة وثيابه الثمينة وحذائه الذى خلق للفرجة بالجورب الحرير المزركش بالنقوش ؛ فانه سيكتشف عند الإصغاء أن الأستاذ أسعد حامد المحامى يتكلم كلاما مهما جدا ، عن ثورة الفقراء فى الإسلام ، عن اشتراكية أبى ذر الغفارى ، عدالة عمر بن الخطاب ، غشومية رأس المال الحر وعماء بصيرته الإنسانية ، حمورية الإتحاد السوفييتى فى السياسة الخارجية ، إضطهاد العرب لأنفسهم وشعورهم بالدونية والنقص تجاه كل ما هو أوروبى ، الثورة المضادة التى تهدد الثورة المباركة ، ثقافة اللامعقول العدمية التى بدأت تتسرب إلى مسارحنا وأدبنا لتشكّل خطرا على النشء تصيبه باليأس والتشاؤم تملأه بالعنف والدمار ؛ يقول هذا فى رقة بالغة ، مع نبرة رجولية وثاقة راسخة ، واعتداد بالنفس يمنحه احتراما للآخرين ، إذ يعاملهم بكل تقدير ، بصرف النظر عن مستوياتهم الإجتماعية أو الثقافية ، فكل هاورٍ للادب يزور القعدة ولو لأول مرة يصير على لسانه الأديب الأستاذ فلان ، وإن خاطبه فكأنه يخاطب توفيق الحكيم أو سارتر ، مستخدما الكثير من المصطلحات الأكاديمية والصيغ الفكرية المصكوكة فى الغرب الأوروبى : الوجود يسبق الماهية ، وأنت لا تنزل النهر الواحد مرتين ، وأنا أفكر إذن فانا موجود ..

إلخ إلخ ، غير ملق بالا إلى المفارقات الضاحكة حين يمعن فى مخاطبة شاب يعرف بالكاد قواعد لغة الكتابة على أنه سارتر أو سلامه موسى ؛ أو حين يسخن فى مجادلة فتى طاهر النية من المبهوتين بالفكر المادى فيخاطبه كائنه كارل ماركس شخصيا ، ويحملة ويلات الحروب كلها والكوارث التى ألت بالبشرية المسكينة البلهاء .. ناهيك عن مخاطبته للجراييع الكحيانين من هواة الزجل والأغانى ، حين يقولى للواحد منهم : حضرتك وسعادتك ولو تكرمت على وشرفتنى تأخذ سيجاره وتشرب قهوة ..

الواقع أنه - رغم مظهره الثرى الذى يمكن أن يقيم حاجزا بينه وبين الفقراء من زوار القعدة كما يطبعه بطابع الأرستقراطية الكبيرة القديمة - يخفى تحت هذه الثياب ابن بلد حقيقى صرف ، كأنما تحت هذه الثياب الأجنبية الفاخرة سروال بدكة وحجر ، وصديرى بأزرار صدفية كثيرة ، وفانله بكم طويل، ومندبل محللوى يلف رأسه هذا الأصلع صلعا طريفا كأن طريقا مرصوفا قد اخترق رأسه من الوسط . يمكن عند الإنبساط آخر الليل حين تصفصف القعدة على القدامى من الأكيفين ، أن يهز معك بنكات ذات طابع بلدى عتيق ، يمكن أيضا أن يميل عليك هامسا : تتعشى معايه ؟ وقبل أن تجيب يكون هو قد طلب العشاء بالفعل ؛ فمجرد تردك فى الإجابة - فى نظره - يعنى الموافقة ، ويعنى أنك تبحث عن مبرر مناسب للإعتذار ؛ وهو يعلن مقدما رفضه لاعتذار لا يقوم على موقف صحيح صادق . يمكن أيضا أن يقرضك جنيتها كاملا أو نصف جنيتها أو بريزة ولا يقبل أن ترددها ..

يعتبر نفسه مسئولا عن مزاج شاعر العامية « سراج الجمل » الاسكندراني ، الذى جاء القاهرة حديثا ليلتحق بعمل تحريرى صورى فى مجلة (نور الصباح) التى يعمل فيها « فايق » الرسام ؛ عن طريق رسام كبير فى

المجلة يقرض الشعر هو الآخر من باب العشق الصوفى للصورة المرسومة ، ويعتبر نفسه ناظرا على مدرسة شعر العامية المصرية . على أن « فايق » الرسام وجد فى « سراج الجمل » صديقا حميما فضمه إلى شلته ، وبات يرسم له قصائده ، ويشاركه فى رحلات فنية شعنونة .

صلة « سراج الجمل » بشارع شامبليون ليست ناتجة ، فحسب ، عن غرز الحشيش المتراكمة فى أحشاء حوارى حى معروف وهى كلها حميمة لفايق وسراج معا باعتبارهما من أشد الناس عشقا للنفس الهوى العظيم ، الذى يحرك خيالهما ككرس جموح يقتحم بهما آفاق النكتة النكتية واللقطة البارعة .

إنما هناك سبب آخر يربط الشاعر بشارع شامبليون ..

فقد حدث أن الشاعر منذ قدومه إلى القاهرة وانتسابه لهذه الدار العريقة المشهورة بالجرأة والمكانة ، دأب على دعوة زملائه من المحررين والفنيين لزيارته فى بيته بالإسكندرية ، ليعرفهم على أهله البسطاء الذين يفخر بهم وبأصالتهم وتجذر فن الشعر فيهم أبا عن جد ، وأخا عن أم ؛ ويفسحهم فى حوارى الإسكندرية المخيفة ويذيقهم نكهة طبيخ أمه ذى الطابع الإسكندراني . وكان لابد أن يعجب أحدهم بأخته ، إذ وقع فى غرامها موظف فنى فى السكرتارية الفنية فاخترها عروسا له .. وكانت نعم العروس ، ست بيت ممتازة . إستأجر لها شقة فى شارع شامبليون ، أمام قعدة الامبابى مباشرة ، فى بيت ذى ثلاثة طوابق ، مطل على الشارع بشرفات مستطيلة على الطراز الفرنسى السائد فى وسط المدينة ، وبابه يفتح على ممر جانبي واسع نوعا ، تحتل مدخله معلمة تخينه سمراء الوجه بسن ذهبية ضاحكة على الدوام ، بصوت مبجوح ملهى بشهامة الرجال وحنان النساء فهو جاذب للثقة والإطمئنان بكل قوة . تضع على الرصيف فى مدخل الممر ثلاثة كبيرة جدا تمتلئ بزجاجات المياه الغازية تحت ألواح الثلج الذى تبنيه باللوح وبالقطعة ، وتملا بقية الممر بصناديق المياه الغازية

تلا لا ، تلا لا . ولأن زجاجاتها مثلجة على طول الخط فإن المارة لا ينقطعون عن التوقف أمامها لشرب الزجاجات باستمتاع ونشوة ، طوائف طوائف من الجنسين من جميع الأعمار . تصنع المعلمة « نوال » وحدها مهرجانا حلوا متميزا بين عربات الخضار والفاكهة المتناثرة حولها يحتشد بها الشارع على الجانبين . الخارجون من الجحور مسطولين فى الظهيرة أو فى صبا الليل يتوقفون على الرصيف بجوار الثلجة لترطيب الصدور وسط ضحكات عميقة مكتومة أو منقلبة على موضوعات لا يعرفها أحد غيرهم فكأنهم عالم قائم بذاته وسط هذا العالم الحافل المتدفق على الثلجة . والمعلمة « نوال » تعرف أخبار جميع سكان هذه البيوت حتى ما خفى منها ..

بالطبع جاء الشاعر فأقام فى شقة زوج شقيقته ، حيث أفرغت له حجرة خاصة مطلة على الشارع زودت بسرير سفرى ومكتب وكرسى . من حسن حظى أن كنت صديقا للشاعر فى الإسكندرية ، مما كان يعطينى الحق فى زيارته من حين لآخر على عشم أن أدركه لحظة تناوله للفظور أو الغداء ، الأمر الذى لم يتحقق لى أبدا مع أننى زرته فى أوقات عديدة متقاربة ..

كان مقلسا دائما ، فراتبه الضئيل لا يكفى بالكاد لطعامه وملبسه ؛ تبقى مصاريق يده وسجائره ؛ أما حشيشه فيتكفل به « فايق » عن طيب خاطر وأريحية ؛ فلم يكن أمامه من مفر إذن غير الشكك يشترى السجائر على الحساب . ما أسهل أن يطل من الشبابك مناديا الإمبابى بعلبة بلمونت كبيرة يرسلها مع أى طفل يضعها فى السلة المدلاة . دفتر الإمبابى نوتة صغيرة إذ أن الشاعر هو الزبون الوحيد الذى يسحب عنده بالأجل ، وكل رسماله لا يحتمل شهرا واحدا يتأخره الشاعر فى دفع ما عليه من الحساب . فإن طالت غيبة المكافات والحوافز والمنح عن الشاعر فإن زيارته الليلية للقعدة تبدأ فى الاختفاء التدريجى .

حينئذ يترك له الأستاذ « أسعد حامد » المحامى رسالة شقوية مع المعلمة « نوال » ملخصها أن الذى حصل قد وصل ، عبارة يفهم الشاعر منها أن الأستاذ « أسعد » قد دفع عنه الحساب . فإن هى إلا ليلة أو بعض ليلة حتى نرى « سراج الجمل » يستأنف عادته الليلية ، إذ يعود من سهرة « فايق » فى آخر الليل ، فبدلا من أن يتسلل على الرصيف المقابل مارقا من الممر بسرعة إلى بيته ؛ يعرج قادما نحو القعدة ، ليجلس ساعة أو ساعتين معنا ، ولابد أن يلقي آخر قصائده ، التى تجر عديدا من قديم قصائده . يلقيها باستمتاع شديد وأناقة أشد ، ونبرة تمثيلية مرعوشة متوجدنة ، مسبلا جفته على عينيه الملونتين بما لا يتناسب مع بشرة وجهه القمى حتى ليبدو كأنه استعار هاتين العينين من رجل أجنبى أشقر ، وترتعش شفاته الغليظتان الشهوانيتان ارتعاشات بائسة ممرورة ، ويحرك ذراعيه وأصابعه يحدد بها ضرب الإيقاع ووحداته .

لا يصير شاعر العامية « سراج الجمل » فى قمة وهجه إلا إذا خلت القعدة من أى شاعر آخر محترف . وينطفئ تماما إذا فوجئ بوجود ، أو بحضور الشاعر الصعيدى العجوز السواح الدرويش « عثمان الأسوانى » ، بائع الدنيا والآخرة معا ، المتسربل بثوب فضفاض رث ، على كتفيه بطانية قديمة هى فرشاه وغطاؤه ، فى أى مكان فى أية لحظة يدركه النوم يفرش وينام ، على أى رصيف على أى شاطئ ، فى القطار فى السيارة فى الطريق . هو فى الأصل لا يعترف بالموصلات الصناعية إلا بحكم الشدائد القوي : المرض أو بُعد المزار . فيما عدا ذلك فقدماه أعظم راحلة يمتطيها إلى أى مكان . طويل هو كعرق الخشب ، رمادى اللون صلب الملامح قاسيها ، مغبر العينين بتراب الطريق ووعثاء السفر الدائم ، شعره أسود مجعد كفرو الغنم ، طاقيته حائلة ..

تظنه للوهلة الأولى سائلا أو من مجاذيب أم هاشم . أنت حر تظن

ماتشاء ولكن ذنبك على جنبك إن بدرت منك بادرة احتقار أو استهانة أو استعلاء ، ستلقن درسا قاسيا فى الأدب لم تسمعه طول عمرك ، وبالأدب الجم ، يسلكك حتى لتكاد تقوم منحنيا على قدميه تقبلهما طلبا لغفرانه البعيد . وحتى إن غفر لك فغفرانه لا يمحو من نفسك الشعور بالآلم بعد ذلك أبدا . أما إن كنت كئيسا طويل البال تحسن فن الإصغاء والتعرف على الناس فإنك سترى نفسك قد حصلت فجأة على فرصة نادرة إذ جلست مع واحد من شوامخ التراث المعاصرين ، لعله المتنبى مثلا أو المعرى أو البحرى أو أبو نواس ، الشعر سليقته العظمى ، مطيته فى قلبه غيطان القوافى ، فى صدره إيقاعات الإبل مع هدير القطارات والبواخر وأزيز الطائرات . فى جوانحه براكين الغضب : إخضع ، إركع ، أولى بك أن تخضع ، إنظر قدامك خلفك فوقك من تحتك مدفع ، لا ترفع رأسك لاترفع ، يقطع !!

يتلوى جسده كله إذ يلقى أبياتا كهذه . كل عضلة من جسده وكل ملمح من ملامحه يشارك فى الإلقاء ، فكأنه يمارس طقسا من الصلوات ، بل كأنه يمارس طقس الموت والميلاد وآلام المخاض وحرارة السعير كل ذلك فى آن معا . مباحث أمن الدولة العليا إنتبهت إلى القعدة بسببه . بعض الشبان كانوا يحضرون إلى القعدة من أجله ، حيث ينتشر خبر وجوده على كل المقاهى ، من مقهى ريش إلى زهرة البستان إلى سفنكس إلى لباس إلى مقهى الحرية إلى مستودع بيرة ستلا . فإذا ما دخل الليل فى نصفه الثانى ترى القعدة اتسعت وشغلت رصيف المقهى كله ، حتى ليترك صاحب المقهى كراسيه فى عهدة الإمبابى حين يغلق مقهاه فى منتصف الليل ..

مثل هؤلاء الشبان كانوا يعانون الأمرين كى يصبحوا من رواد القعدة الدائمين ، خاصة إذا كانوا من غير المعروفين ؛ إذ لابد أن يتحفظ الأستاذ

« أسعد حامد » فى حديثه بعض الشيء ناظرا فى اتجاه بعض الشبان نوى الوجوه الغامضة . فإن لاحظ أنها غير منبهة بشئ أمامها يغير فى الحال مجرى الحديث معرجا إلى شئ آخر ، أو يكتفى بالإستماع . وليس من بأس فى أن يستأنف الحديث مرة أخرى إذا انصرفت الوجوه الغامضة التى كانت تقلقه . وغالبا ما يشيعهم بغمغة وبرطمة يلعن بها المخبرين وشغل المباحث والمعيلة الفارغة . حينئذ يرمقه « عثمان الأسوانى » بنظرة لوزية ثابتة سابعة فى بحر من السخرية العميقة ، ثم يهجم عليه فى الحال - من خلال صوته المبحوح - بغمز خبيث لطيف باسم الثغر ، ولا مانع من أن يقول له بكل صراحة ووضوح : « هذه الخصلة فيك تؤكد لى أنك كنت شيوعيا سابقا ! » . فيبتسم الأستاذ « أسعد » فى كثير من التفاخر كأنه يؤكد ما ذهب إليه الأسوانى وأن كان يضيف قائلا : « يا عم ماتوديناش فى داهية امال ! » . ففى الحال يدرك الجالسون أن الأستاذ « أسعد حامد » المحامى قد دوعب غروره السياسى أحلى مداعبة . فى نفس الوقت لا يخفى « عثمان الأسوانى » ضيقه بما حدث ، بل لا مانع لديه من استيقاف القائمين ، يتشبث ببقائهم قائلا : « بدرى يا أسيادنا ! نحن نرحب ببقائكم وبالأخص المخبرين منكم !! » . أما الأستاذ « جمعه » الإمبابى « المحامى فإنه يكتفى بالنظر فى بلاهة صامته . وفى معظم الليالى يكون هو أول المنصرفين ، كأن مهمته الرسمية هى الجلوس حتى يتجمع الرواد لينصرف .

حسنا ما يفعل ، إذ هو ما يكاد ينصرف حتى يجى « سليم شحيير » ، أسخف من حملته الكرة الأرضية على الإطلاق مثلما يصفه « فايق » ويؤيده الأستاذ « أسعد » فيتخرج من ذلك الأستاذ « جمعه » باعتباره السبب فى جلبه . يتأفف الأستاذ « أسعد » وينثر طوقه علامة أنه سيخرج من ثيابه إذا جاءت

سيرة « سليم شحيير » ، فيضحك الجميع علامة على أنهم يشاركونه نفس الشعور ..

لا يعرف الكثيرون أن « سليم شحيير » هو الذى تسبب فى قيام هذه القعدة . هو شاب على مشارف الثلاثين من العمر ، أحمر اللون ، ربه ، نحيف الجسد ، طويل الرقبة برأس مستطيل كالشمامة ، ممسوح الملامح ، ليس فى وجهه النحاسى سوى عينان وأنف وفم واسع غليظ الشفتين معوج الفتحة فى وضع ابتسامة مشمزة قرفانة . فى لسانه لدغة بسيطة ، يحلو له التكلم بلكنة أجنبية ، وبعبارات مصكوكة مليئة بالشعارات الرنانة ، وفى لهجته استنكار دائم واستعلاء بارز . الكلمة تنعجن فى حلقه وتنبطش ، فتخرج من فمه مببطة ممطولة لها ذيل يرن رنيناً أجوف كصوت غطيان الحلل . صوته عريض منطلق يحتوى فى أعماقه نبرة نويبة حادة الرنين لولا أن رنينها يذوب فى عرض صوته ، فيبدو هو دائماً كأنه سعادة الباشا الأرستقراطى يكلم خدمه ورجال حاشيته . يبدو فوق العشرين بقليل ، وتدل صفحة وجهه المسوحة على أن السنين سوف تنزلق فوقها فلا تترك فيها أى أثر يدل عليها ..

المعروف السائد أنه صعيدى من الأقصر ، أباً عن جد ، لكن ذلك لا يمنعه من أن يكشف عن جنوره الحقيقية بأنه فى الواقع من أصل سودانى وأم مصرية صعيدية ، وأحياناً يقول العكس . حتى ذلك نفسه لا يمنعه من إعلان أصل ثالث ، إذ يتضح ذات لحظة أنه فى الأصل من المنوفية وله أخوال فى البلد الفلانية وأعمام فى البلد العلانية . وكلما ذكر أصلاً من هذه الأصول يكون واثقاً أن المستمع ربما يعرف أصوله السابقة التى ذكرها بنفسه من قبل ؛ غير أن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ..

نفس الظاهرة بالنسبة لمسكنه . فمن المعروف أنه يسكن فى حجرة بمناقعها فوق سطح منزل قديم فى حى الخليفة . ومن المعروف أيضاً أنه نزىل بنسيون على ناصية شارع التوفيقية إذ يستأجر حجرة فيه مع بعض الوجوه المعروفة وكثيراً ما يلتقيهم على مائدة الإفطار فى البنسيون . ومن المعروف كذلك أنه يسكن فى شقة صغيرة أنيقة فى حى الزمالك ؛ هكذا شهد الكثيرون ممن عزمهم على الشئ فيها . وحقيقة الأمر - كما يهمس البعض فى غمز خبيث - أنه يستعير بعض الشقق المفروشة من مستأجرها الأجانب ليوم أو يومين يزعم بهما أنها شقته !..

يعمل محرراً فى جريدة الأخبار فى القسم الخارجى ، إذ يترجم عن الفرنسية التى أشاع أنه درسها فى كلية الآداب قسم الأدب الفرنسى ، وأشاع أنه درسها جيداً فى معهد خاص ، ثم أشاع أنه درسها بالإحتكاك المباشر مع الفرنسيين أثناء بعثة دراسية له فى باريس . وفى بعض الإشاعات يتضح أنها لم تكن بعثة دراسية بل كانت سفيرة عشوائية للبحث عن عمل . وفى شائعة أخرى يتضح أنها كانت نوعاً من الهروب أيام كانت مخابرات عبد الناصر تقبض على الشيوعيين ، وقيل الإخوان ؛ ذلك أن الأخ « سليم شحيير » من المعروف أنه كان شيوعياً ، ومن المعروف أيضاً أنه إخوانجى ، ومن المعروف كذلك أنه ناصرى مؤمن بتحالف قوى الشعب العاملة ..

يجب الأنشطة الإجتماعية حبا شديداً ، بشرط أن يحصل منها على منصب رئاسى مهم . يخترع الأنشطة اختراعاً ، لا ليديرها بحق ، بل ليكون رئيساً عليها والسلام . فى نقابة الصحفيين قاعات كثيرة فسيحة ؛ لا بأس من استغلالها لمصلحة الأعضاء . دائماً أبداً مصلحة الأعضاء هى الإسم الحركى لمصلحته هو الشخصية . بمناسبة القاعات الكثيرة يفكر فى إقامة ناد للسينما ،

يعرض فيه كل أسبوع فيلما عالميا كبيرا . يبدأ فى عرض الفكرة على الأعضاء، يلتقطهم فى ردهة المطعم ، أو فى الحديقة ، أو على السطح . يجمع الإشتراكات من الأعضاء على أساس أنه سيدفع إيجارا كبيرا للأفلام باعتبارها أفلاما عالمية مرموقة . يذهب إلى مكاتب الشركات الموزعة ، يقنعها بعرض الفيلم بالمجان فى قاعة نقابة الصحفيين على سبيل الهدية باعتبارها دعاية مجانية للفيلم ، حيث أن الصحفيين الذين سيشاهدون الفيلم سيقروونه فى مقالاتهم . هو يعرف كل أسماء شركات التوزيع ، وأساليب تعاملهم . لاغزو ، فإنه بعد الظهريعمل مترجما فى وكالة أنباء تاس السوفيتية ، وكثيرا ما يقوم بنشاط ثقافى فى مركز الثقافة السوفيتية ، ومركز جوته الإيطالى ، والمركز الثقافى الفرنسى . وكثيرا ما يحمل صحفا ومجلات مطوقة بخاتم البريد جاعته من مراكز وور نشر فى أمريكا ولندن . ومن المألوف أن تراه يمشى فى وسط المدينة بصحبة وفد من الأجانب يزعم أنهم أصدقاؤه وفى ضيافته ، لكن بعض الخبثاء ممن يعرفونه يؤكدون أنه يشتغل مرشدا سياحيا لهم ، وأنه يورطهم فى شراء أشياء كثيرة بنقود كبيرة ، بعدها ينزوى مختليا بصاحب البازار ليأخذ منه عمولة مجزية . أحيانا تجد معه فتاة أجنبية يتردد بها على بعض الأماكن الشاذة . إنه لا يضارع فى سرعة التعرف على الناس واقتحامهم بجرأة مدهشة ..

فجأة تراه جالسا بجوارك ، مرتديا ذلك المعطف القصير الذى يقوم مقام السترة ، بياقة كبيرة محرودة تحته فائلة صوف برقبة من أجود الأصناف الشهيرة المستوردة لكنها قديمة ناضجة برائحة عرق عتيق متراكم . المعطف دائما مشبوك الأزرار ، وياقته مغطاه بتلفيحة صوفية رفيعة . يده فى جيب المعطف باستمرار ، كالذى يخفى سريقة غامضة . عندما يجلس يخرج يده

ممسكة بعلبة السجائر العشرين ، البلمونت ، وربما المستوردة : يستخرج منها واحدة ، يشعلها ، يضع العلبة والولاعة فوقها أمامه على حافة المنضدة حتى لا يتسرب إليك الوهم بأن علبة سجائره صارت مباحة لك . يشد النفس بعمق شديد ، ينظر إليك فى خبث باسم وهو يتوقع أنك خرمان لا بد ، وإنك تنتظر أن يعزم عليك ، وأن الحركة التى فعلها قد أثارت غيظك . يعرف هذا ، وقد يتمادى فى السخف قائلا لك : « تأخذ سيجاره ؟ » ، دون أن يحرك العلبة من مكانها . إن كنت تعرفه جيدا فإنك ستلكزه فى كتفه وتسحب العلبة وتشتعل لنفسك واحدة . لهذا فإن « فايق » الرسام يعامله المعاملة اللائقة بنتانته ، ما أن يرى العلبة على المنضدة حتى يسحبها بصنعة لطافة وعشم موحيا أنه سيشعل لنفسه واحدة ، فإن انتبه « سليم شحيير » فإنه ينظر إليه ببلاهة باسمه ولا يستطيع فعل أى شئ حتى لا يثير « فايق » فيتمادى فى عبثه ، يخفق قلبه بعنف وهو يرى « فايق » قد فتح العلبة ونزع ورقتها الداخلية وأزاح السجائر فأبرز صفها ثم قدما للجالسين على حدة ، كل يأخذ واحدة قائلا : متشكر ! ، حتى الذين لا يدخنون يعزم عليهم فيأخذون ، وإن انتبهوا إلى أن العلبة علبة « سليم شحيير » فإنهم يصرون على الأخذ باستمتاع ..

تراه جالسا بجوارك فجأة ، ثم يندمج فى الكلام مباشرة بمداخل متعددة يجيدها بحذق ومهارة بحيث تنتبه بعد فترة فتكتشف أنك قد تورطت فى حديث حرج حساس دون أن يكون لك ناقة فيه ولا جمل ، بل قد يصيبك منه ضرر كبير يسالك فجأة : « إيه رأيك فى كذا ؟ » ويشعرك أنه يسالك من وجهة نظرك أنت . هو يعرف أنك مرور من الوضع الفلانى ، ويعرف كل صغيرة وكبيرة حدثت فى الأمر ، يجمعها بمهارة صحفى مطبوع لكنه فارغ من المحتوى الجاد ، إذ يجيد التصنت فى الأماكن العامة ، وطبع الأحاديث الدائرة من حوله على شرائط فى

ذهنه لا تسمح أبدا . يجيد قراءة الأخبار والمقالات ليلتقط منها معلومات معينة قد لا تخطر على بال كاتبها كما أنها ليست من صلب الموضوع فى شئ ؛ إلا أنه يقوم بتركيبها فى ذهنه بشكل متقن ليحصل على معلومات قد تفيد : فبما أن رئيس الوزراء قد سافر اليوم إلى البلد الفلانى فلأبد أن يكون فلان الفلانى قد سافر هو الآخر بالضرورة ولأبد بالتالى أن يكون المكتب الفلانى مؤهلا لفعل كذا وكيت . قد يفاجئك باسم أمك التى لم يرها فى حياته ، ذلك الإسم الذى لم تلفظ به أنت فى أى مكان أمام أى أحد ، ولن يخطر ببالك مطلقا أنه قرأه فى شهادة ميلادك ، إذ كان بالصدفة واقفا فى الإدارة الفلانية عندما كان الموظف يضع ورقة فى ملفك فتمكن هو من التقاط إسم الأم فى سرعة مذهلة ، إسمها بالكامل . معرفته الإسم وحده قد تتيح له أن يبني حكاية وهمية يرددها بين الأوساط للنيل منك أو مضايقتك أو إضحاك الأصدقاء عليك ..

إستطاع إيهام الأوساط الصحفية والفنية والأدبية كلها أنه عاش فى باريس أحلى سنوات عمره ، يحكى لهم مغامراته فى الحى الفلانى مع فلانة وفلانة حيث حدث كذا وكذا . فمن عاشوا فى باريس حقا يقتنعون أنه عاش بالفعل فى باريس ، لأنه يذكر أسماء المطاعم والملاهى يصفها بدقة ويذكر أسماء بعض النوادل وبعض الموظفين فيها ، وقد يقنع أحدهم أنهما تزاملا معا فى الظرف الفلانى أو الموقف الفلانى أو الأزمة الفلانية ، إذ هو يذكر لك تفاصيل ذلك الظرف ومضمون ذاك الموقف ومحتوى تلك الأزمة ، وكيف علق فلان الفلانى بقوله كذا ، ويوم أن وقف البروفيسور فلان الفلانى وانفعل وفعل كذا وكذا . أعرف ناسا عاشوا فى باريس معظم عمرهم كانوا يدافعون عن صدقه فى غيبته، بل كان بعضهم يتخذ مرجعا يستذكره تاريخ حادثة أو عنوان هيئة أو رقم تليفون الأكاديمية الفلانية ..

إكتشفت سره مبكرا ، وعرفت أنه يستقى كل هذه المعلومات والتفاصيل الدقيقة من خلال إدمانه قراءة كبريات الجرائد والمجلات الفرنسية بانتظام ومثابرة يحسد عليهما يتمناها رجل جاد محترم . ضبطته مجموعة من الفلسطينيين كانوا يترددون على مقهى « ريش » ومقهى « لابس » . كانوا مثقفين يعملون فى إذاعة صوت الثورة الفلسطينية التى تحتل دورا فى مبنى الإذاعة المصرية القديمة فى شارع الشرفين . جميعهم كانوا يجيدون الفرنسية إجادة تامة ، إذ أنهم يعملون فى تحرير الأخبار والنشرات والتعليقات السياسية : « بسام أبو غربية » و « حسناء الصابر » و « هيفاء بحدون » و « عمار الحسينى » و « قاسم الشواف » و « عمرانه عمران » ، تلك العجوز المتشبثة بالشباب على جدارة وألمعية وحيوية ، ذات قوام صلب . تبو بنت بلد مصرية صرفرة رغم لكتنها الشامية والأجنبية . تركت « سليم شحير » يسرح بها كيف يشاء ، والواقع أنها هى التى تسرح به وإن بقيت صامته معظم الوقت فى حين ينبرى هو متكلم طول الوقت . فبما أن « حسناء الصابر » و « هيفاء بحدون » مخطوبتان لـ « بسام » و « عمار » فليس سوى « عمرانه » ينصب حولها شراكه معتمدا على أنها عجوز ولأبد أنها تعاني من إعراض الشبان عنها ؛ هكذا تصور ، فدأب على فرض نفسه على المجموعة كلما رآها فى مقهى ريش أو مقهى إيزافيتش ؛ يأمر بطاقم شاي أو حاجة ساقعة على حسابه للإخوة ؛ يتزحزح منتقلا إليهم أو يدعوهم للإقتراب منه . قد يتحول طاقم الشاي إلى بيرة مثلجة أو كنوس المارتين ، حتى يفرفش الجميع ويتاح له الإنفراد بعمرانه ..

هى لم تكن محتاجة لأى خطط ، إنها مستعدة للإستماع ، لطيفة المعشر لبقة ذكية مؤدبة أروية ، تشجعه على الاسترسال فى الحديث لكى تجيد فهمك على الحقيقة . منتهى نشوتها كلما تعمقت درجة فى فهمك أن تطلق ضحكة

بريئة صافية مليئة بالمرح ، فيسقط فى يدك ، وتأخذ من الضحكة جانبها المثير ويومذاك كنت أنا جالسا فى داخل المقهى وهم يجلسون لصقى مباشرة ولكن خارج المقهى ، حيث يفصل بين منضدتى ومنضدتهم حاجز خشبى لا يكاد يرتفع إلى مستوى ارتفاع المنضدة ، فأنا وبسام الجالس بجوارى خارج المقهى نتبادل ركن الذراع على هذا الحاجز ، أريح كوعى عليه فأصطدم بكوعه فأعتدل معتذرا ، أو يفعل هو العكس . كنت أشرب الشاى فى انتظار صديق سيعطينى ثلاثة جنيهات مقدم أتعاب عن مسلسل إذاعى أقوم بكتابته ليذاع باسمه فى البرنامج العام . وكان « سليم شحيير » مندمجا فى نشوة البيرة الثلجة يحكى لعمرانة عن مغامراته النسائية فى الحى اللاتينى فى باريس حيث حدث كذا وكذا فى اليوم الفلانى . حينئذ استوقفته عمرانة قائلة بكل بساطة فيما تبتسم : « عفوا أخ شحيير ! أنت لم تر هذا الحادث فى باريس ! لسبب بسيط هو أنه لم يحدث أصلا ! إنما أنت قرأته فى مجلة البارى ماتش التى نشرت تفاصيل برنامج الحفل غير أن الحفل نفسه لم يرقم لظروف معينة ! » . أسقط فى يد « سليم شحيير » واصفر وجهه ؛ لذكائه لم يكابر ، وعرج على مغامرة أخرى حدثت له فى الشانزلزيه ، فقاطعت عمرانة مرة أخرى ونبهته إلى أنه يصف مكانا آخر غير الشانزلزيه ؛ ثم إنها اعتدت فى جلستها ضاحكة ، وضعت ساقا رشيقا على ساق رشيق ، فتكورت عجيزتها من تحت جذعها وبان رفع خصرها ، وشبكت زرار البلوزة فوق قناة صدرها النافر ، وشربت رشقة بيرة ، وجعلت تسأل سليم شحيير عن أحياء باريس التى يزعم أنه عاش فيها ، عن معالم لا يمكن تجاهلها أو نسيانها ، عن معنى الأسماء التى سميت بها بعض الأماكن ، بعض المناسبات ، بعض الحوادث ؛ فإذا هو يشعل من السجائر ويكرع من البيرة أضعاف أضعاف ما نطقه من كلمات ؛ وعصر جبهته بين أصابعه عشرات المرات دون جدوى . ويعد أن كان منطلقا فى الحديث كالصنوبر السائب صار

يبحث عن الكلمة الواحدة بشق النفس ، فإذا كل كلمة تثير الضحك ، وإذا كل المجموعة قد انتهت وتركت أحاديثها الجانبية وراح كل منهم يلقي على « سليم شحيير » بالأسئلة تلو الأسئلة كالسهم القاتلة ، فكانت المعلومات تسعفه إذا كانت إجابة السؤال نظرية ، إذ تصيبه اللبابة فجأة فيرص أرتالا من المعلومات والأوصاف المتزايدة مما يكون قد قرأه فى الصحف . أما إن كانت الإجابة تقتضى خبرة عملية ورؤية عيان فإنه يضل ضلالا مبينا ، ويشرد إلى موضوعات جانبية ، حتى تحول سيل الأسئلة إلى طوفان من الضحك الصادق العميق ، فصار منظرهم فرجة للجالسين فى مقهى ريش فى الشريحة الخارجية المأخوذة من الشارع الجانبى والمظلة بأقمشة السراذقات . « سليم شحيير » من فرط الخجل تتفصد الأضواء والظلال على جبينه ومع ذلك راح يشاركهم الضحك بنفس الإستمتاع كأنه هو الآخر - ومن قبلهم - قد اكتشف شخصية هذا الدعى النصاب الذى فيه . بعدها بدقائق معدودة كانت عمرانة تجفف دموع الضحك الغزيرة والغزير حينما نادى على « ملك » النادل صائحة : « هيا .. لي .. ك » . فجاءها النادل « فلفل » بوجهه الأسمر فجاء مثل كتكوت شاردي ، فقالت : « حيا .. سا .. ب من فضلك » فجاء « ملك » يطلع فى مشيته مجررا ساقيه مرتديا زى مقهى ريش : الجلباب الأزرق المشغول بالقصب المذهب ، وطاقيه من نفس الطراز ونفس القماش ، فيبدو أن هذا الزى غير مستقر على جسده وأنه مجرد رسم بالورق الكريشة على جسده سوف يزيله بعد خروجه من هذا المشهد مباشرة . قال فى لهجة مهذبة كصبيان الحانوتية : « خلى ياست هانم ! طب دلوقت نزل هنا إتناشر بيرة وستة سخن ومزه ياسيدى ملاً هو انت نزلت مزه إيه يا فلفل ؟ » . فمن وقفته المائلة قليلا واضعا ذراعيه خلف ظهره كتخلة مائلة يجىء صوت « فلفل » خافتا من أغوار بعيدة : نزلت خمسه سلطة أوطه واتتين

بطاطس وست سكالوب بانيه وعلبتين سجائر للأستاذ سليم ! » . فقاطعه « سليم » بسرعة شديدة وهو يكتم غضبه لا إرادية تتشبث بابتسامة شاحبة هزيلة : « عليه واحده ! اللعبة الثانية للمدام ! » فتبسّم «فلفل» وتبسّمت « عمرانة » قائلة فى سماحة : «إى ! إى ! زين ! زين ! » ثم رفعت رأسها نحو « ملك » ، فتدهور شعرها الأشقر الغزير فوق كتفها وظهرها ، وارتخى البريق فى عيني « سليم شحير » ، فنكس رأسه وجعل يعصر جبينه بأصابعه : قال « ملك » : « الحساب ياست هانم خمسة وعشرين جنيه ونص وأربعة ساغ ! » . فهزت عمرانة رأسها قائلة : « زين ! زين ! نقسم على ستة ! نحن ستة متسامرين ! » تشبث « سليم شحير » بأخر رmq فى كبريائه المزعوم فقال بصوت خافت جدا : « لا ! لا ! يا مدام ! أنا عازمكم ! » وأتبع ذلك بتقليب بطنه فى جيوب المعطف حتى اضطر أخيرا إلى فك أزراره والبحث فى جيوب البنطلون . وحينما اطمأن إلى أن الجميع قد انتهوا من رص أنصبتهم من النقود على المنضدة ، أخرج المحفظة من جيبه وسحب منها ورقة بخمسة جنيهات قدمها لـ « ملك » بحركة من سـيـوالى التطلع والدفع . تناول « ملك » الورقة بسرعة ولهفه ثم ضمها إلى الجنيهات الأخرى التى رفعها عن المنضدة وصار يعدها . تجاهله « سليم شحير » واتضح أنه سيخرج بقية الحساب ، لكن « ملك » سرعان ما غادرهم وقد دس النقود فى سيالته ومضى يطلع نحو باب الشارع كأن ثمة من يناديه هناك بالراح ، مما جعل « سليم شحير » يلتفت إليه بنظرة تتشبث به ، أغلب الظن أنه يوشك أن يصيح قائلا فى استنكار غاضب : « فين الباقي ؟ ! » ، لكنه لم يقلها ، بل انتظر حتى نهضت « عمرانة » واقفة ، فنهض هو الآخر متثاقلا مع بقية الإخوة . سلمت عليه ولكزته فى كتفه ضاحكة : « على فكره يا أخ شحير ! أنت لم تر باريس فى حياتك ! » ثم مالت على صدره ضاحكة بعمق

فيما بقى هو ساهما فى شرود أبله قائلا : « هه ؟ ! » فلكرته مرة أخرى ، وانصرفت تجفف دموعها فى منديل ورقي . إنحط هو جالسا فى مكانه ، واندمج فى شرود أسيف لبرهة ، ثم رفع رأسه فالتقى وجهى وسقطت عينه فى عيني ، فضم شفقيه الغليظتين وانزوت الإبتسامة فى ركن من فمه ، واعتبر أنه بذلك قد حيانى بما فيه الكفاية . مد يده على لعبة السجائر ثم أمسكها فhezها فوجدها فارغة فأمعن فى هزها لعل سيجارة شريرة تكون مختبئة فى أصلاب اللعبة ، لكنه كورها فى قبضته ورمى بها الأرض ، ثم اعتدل فى جلسته واضعا ساقا على ساق فى تعاضم لا حدود له ؛ ومثلما ينادى سعادة الباشا على أحد الخدم فى معيته نادى على صائحا : « يا فؤاد ! فؤاد ! » . نظرت نحوه عاوجا رأسى قليلا نحو الخارج ، فقال بعظمة يشوبها التأفف والإشمئط ، ومن قاع القرار العريض : « إحدف سيجاره ! » . ولم يكن معى سواها ، والرجل الذى أنتظره لم يحضر بعد ، ومع ذلك رميت إليه بالعبة كلها ؛ فتلقفها بدربة هائلة . وكان واثقا من أننى لا أملك مليما واحدا أشتري به ولو نفسا واحدا من سيجاره ، فى حين أن محفظته تبدو منتفخة بالنقود . مع ذلك أشعل السيجارة دون أن يبالي ، وصار ينفخ الدخان بقوة ليرتد على . وكنت من الإشمئزاز فى حالة مضنية فبدأت أنشغل بقدم الرجل الذى أنتظره منذ الصباح ، بدأت أستغيبه ، أشعر بالقلق المروع ، والأوراق التى كتبت عليها الحلقات الثلاث الأولى تقبع أمامى على المنضدة داخل مظلوف أصفر مكتوب عليه بالخط الثلث : الحكومة المصرية ؛ إستعمرته من صديق ، وتأبطته كثيراً حتى هراه العرق وهده . بدت هذه الأورق بلا قيمة بعد أن كانت من دقائق شيئا نفسيا . بعد برهة طويلة نظرت أمامى فلم أجد « سليم شحير » ؛ وكان موعد الرجل المنتظر فات بحوالى ثلاث ساعات ، مما اضطررنى إلى الإنصراف هربا من نظرات «فلفل»

أعرف حين أرى « سليم شحيير » هنا أو هاهنا أنه يرتبط بشخص ما ،
سائح أو سائحة طلبت شرب الهشيش أو أغراها هو بشربه ، منه انسطال
وفرفشة ومنه رؤية للقاع المصرى فى مصارين معدة المدينة التاريخية العتيقة .
فى معظم الحالات هو الذى يدفع الحساب ، يأخذ الغرزجى على جنب ، يحاسبه
من محفظته بالقرش والمليم والسحتوت ، باعتبار أنه هو المضيف ويجب على
الغرزجى أن يعامله كإبن بلد فيترفق به . والغرزجى لا يترفق به أبدا ، لا يتنازل
عن مليم واحد ، لكنه مع ذلك يقول له « عيني ! أنا خدامك ! خلى عنك خالص !
إنت وضيفوك ضيوفى ! طب على كل حال هات كذا ! » ، ويطلب نفس القدر
الذى كان سيطلبه ، بل قد يزيد عليه قليلا ، ويظهر على وجه الغرزجى غمز خفى
يكاد يصرح لـ « سليم شحيير » قائلا : تحاسبنى على جنب لأنك سوف تذبج
السياح على حسى ! على جنب أيضا ! .. لكنه يصيح بالعبارة المكملية : « إدفع
بقشيش للعيال بالصلا ع النبى ! » ..

« سليم شحيير » مرفوض من كل من قابلتهم ، لكنهم مع ذلك يحتملونه
وقد يبالبغون فى الترحيب به ، فلا بد أن فيه شيئا ما يمنعك من غلق الباب فى
وجهه إلى الأبد ، لأنك فى الواقع لا تملك هذا بل أن تنوى فعله ، إذ أنك معرض
فى أية لحظة من اللحظات أن يطب عليك « سليم شحيير » ، مجرد تذكره حلول
له ، ولقد تكون نائما فى فراشك بين أولادك ولكن رأسك عامرة بلاسة حريرية
تلتف حول رقبة مستطيلة كأبى قردان ، تحت ياقة المعطف المرفوعة ، ولأن
اليدان فى جيبي المعطف يبدو المعطف كأنه معلق فى مشجب على واجهة محل
بييع الروبايكيا والملبوسات القديمة ، لولا أن سيجارة مشتعلة ومستقرة كأصبع
فى ركن خبيث من شفثيه الغليظتين فوق ذقن مدببة كفك الحوت كريشة المروحة
وقد علاها الغبار والتراب والصدأ . ما إن يستعمر رأسك حتى يدخل فيحييك
فيما هو واقف إلى بعيد فى رصانة وعجرفة وغطرسة مع أنه لم يفعل أكثر من

ومرواحه ومجيئه الدائم بجوارى يستحثنى على طلب أى شىء يعطينى الحق فى
الجلوس كل هذا الوقت الطويل . عند خروجى من باب الشارع لمحت «سليم
شحيير» قد انتحى بـ « ملك » جانبا وراحا يتجادلان بعنف حول قيمة الحساب .
ليس حشاشا ولكنى أراه دائما فى غرز حى معروف ، هو أيضا ، نعم
هو وحتى النهاية ، « سليم شحيير » ، الذى أحاول دائما أن أهرب منه ، أن
أنفيه عن عالمى ولكنه يأبى إلا أن يطلع لى فى كل خرم إبرة أحاول النفاذ منه
إلى أى خلاء ، هو أمامى أينما اتجهت وحيثما حللت ، وكلما خيل لى أننى قد
خلصت منه أرانى فى طريقه أو أراه فى طريقى ، حتى بت أشك بأننى لن أدفن
معه فى قبر واحد ذات يوم لعله قريب ، وحتى صرت على يقين من أننى جزء
صغير من عالمه الخرافى العريض الغامض المجنون ..

أما غرز حى بولاق وشارع الصحافة - وكلها متاخمة لوسط المدينة -
فنادرا ما كنت أراه فيها ، حين تكون الحكومة قد كثفت نشاطها فى حى
معروف، فينحسر مد الزبائن متحولا إلى بولاق القريبة ، خطفة رجل ، تعبر
شارع الجلاء فشارع رمسيس . غير أننى كلما فوجئت به - سليم طبعا - فى
إحدى غرز حى بولاق فى الندرة كنت أفاجأ بأن علاقته بالغرزجية تبدو حميمة
جدا ، بل وأعمق مما أتخيل ، ربما أعمق من علاقات بعضهم بى على الرغم من
أننى زبون عريق ، لا أحمل سوى همين اثنين فوق هموم المستقبل هما : هم
الرغيف وهم المبيت ، وكل الأصدقاء الذين جئت أحشش معهم فى هذه الغرز
كان الهدف الأصيل الكامن هو أن أعود آخر الليل مع أحدهم إلى بيته ، أو على
الأقل تقطع فرط الليل ، فكل ساعة أقضيها فى مكان شبه آمن بين ناس شبه
أصدقاء إنما هى مخصصة من تشردى بقية الليل ، وإذا كانت الشوارع تتسع
دائما للمسير فإن البدن لا يقوى على المواصلة ..

هن الرأس وتحريك الشفتين بغمغمة غامضة ، ثم يخلع قفازه ويضع الفردتين فوق بعضهما ثم يضعهما على المنضدة أو يحشرهما فى جيب العطف بشكل يبرزهما للعيان ؛ وبصدغيه السراوين المستطيلين المسوحين من أى ملامح أو تعبير يتلفت حواليه لبرهة طويلة فى خيلاء غاضب العينين ؛ قالشئ الوحيد الذى يدل عليه هو هاتين العينين الصغيرتين كعيني جرو صغير منكسرة تتوقع الألم قبل أن تشهده تبعث الصرخة قبل حدوث الركلة بوقت طويل . هذه البرهة الطويلة يقضيها فى انتظار النادل الذى يجب أن يخف إليه ماسحا الكرسى بقوطته مطوقا المنضدة ، مقدما فروض التحية والإستبشار ، لكى يجلس هو واضعا ساقا على ساق ، نازعا الحقيبة الجلدية المعلقة فى كتفه مخفية تحت إبطه ، ناطقا من بين أسنانه الخشنة : « قهوه شاده » ! ذلك أن الحروف تصفر فى أسنانه دائما فتجئ ذات وقع طريف وأحيانا ذات نغم لافت جذاب ، كما أن عدم وضوح الحروف يساعده أحيانا على الإقناع ، حيث ينطقها بحدة توحى بالحسم الباتر ، مما قد يهزك ويلقى الروح فى نفسك . فى الحال يفتح الحقيبة – التى تبدو دائما أنيقة ثمينة قادمة لتوها من سوق المطار والتى تبدو أنظف مافيه – ويستخرج منها جرائد أجنبية ذات ورق ملون ، يروح يتفحصها باهتمام شديد وقد زوى ما بين حاجبيه وزر على عينيه كأنه يشد الكلمات من بئر سحيق ..

يفعل هذا حتى فى الغرزة التى ليس فيها نوادل أو كراسى ، والتى لن يحشش فيها مع ذلك ، ولا فى غيرها . إنما هى عنطزة لا يتمتع بها زبائن سيدفع الواحد منهم عند الإنصراف بضع جنيهات . غير أن هذا أمر إن آثار دهشة الرائي فإنه لا يثير دهشة الغرزجى ، لأنه هكذا عرف هذا الشخص وحفظ خصاله وحركاته عن ظهر قلب ، لذا يتركه يتصرف كيف يشاء بكل راحة ،

أما هو فإنه هو الآخر سيتصرف كيف يشاء بكل راحة وهدوء وطول بال ، سيليى نداءه وقتما يحلو له ، سيقدم له المقعد الذى لديه سواء كان صخرة متحركة أو برميلا مقلوبا أو صندوق مياه غازية أو لوح خشب فوق طوبتين أو ربما قطعة حصير مهترأة على الأرض ؛ كلمة : حاصر تريح الملهوف كما أنها تهد صخور الجبل ، وصحيح أن « سليم شحبير » لن يحشش فى الغرزة ، إلا أنه واسطة خير لا يليق بالغرزجى أن يخسرهما ، من يدري ؟ ربما جاءه فى الحال وفد من السياح ينتفع المطرح من ورائهم شغلا وسمرة . « سليم شحبير » فوق ذلك مغرم بالمنظرة ، وهذا ما يعود بالفائدة على الغرزجى . فكثيرا ما يميل عليه أحد الذين لهم عليه الدال : « ممكن جنيه سلف لحد الصبح ؟ » حينئذ يرد عليه فى استهوال : « إنت مفترى ! إحنا فى خمسة واربعين من الشهر ! أنا قبضت مرتين من وكالة تاس وأنفقته كله أول أمس ! وكانت ناقصة هذا الشهر ! لكن مع ذلك أستطيع أن أقرضك ربع جنيه ! أنت عزيز علىّ وعمرى ما قصدتنى ! هاك آخر جنيه معى ! فكه خذ ربعه ورد لى الباقي أدعبل به نفسى بقية الشهر ! » . بعضهم قد يكتفى بربع الجنيه منتويا معاقبته بعدم رده . بعضهم الآخر يأخذ الجنيه ليفكه فيسلمه للغرزجى وينصرف ، تاركا « سليم شحبير » يسب ويلعن أبو خاش التخين فى القعدة ، وقد يهب مهرولا خلف المنصرف رافعا صوته بفاحش السباب وغريب الأوصاف وقد يكتفى بهذا ، وقد يندفع وراءه فنسمع دب الأقدام فى أرض الحارة يزلزل الجدران الهشة يحرك الشبابيك وغطيان الحلل بالنقرزان ؛ لكنه بعد قليل لابد أن يعود فيجلس لاهثا ، مهذا بأنه من غد سيذهب إلى فلان هذا فى مقر عمله يجرسه بين زملائه وسيدخل لمديره شخصيا . يضحك الغرزجى ويضحك الجميع ، ويضحك الذى انصرف ليقينه من أن كلاما كهذا سيقال عليه الآن .

لكن الجميع واثقين أن « سليم شحبير » لن يفعل شيئا من هذا ، إنما الذي سيفعله هو أن يتوقف عند كل قعدة فى أماكن تجمعات المثقفين ، ليحكى لهم عن بلطجة فلان الذى اختطف منه بالأمس جنيتها كاملا وانطلق يجرى وكيف أنه سيبلغ البوليس عنه ؛ أو يحكى لهم عن طرمخة فلان وتلامته حيث اقترض منه جنيتها منذ أسابيع ولم يرده ؛ أو يحكى لهم كيف أنه كان ماشيا يوم كذا فى المكان الفلانى فقوجىء بفلان الفلانى مقبوضا عليه من جرسون المطعم يطالبه بفلوس أكل بها .

هو الآخر رغم سريان النقود فى جيبه باستمرار ، ورغم تعدد الشقق التى يشاع أنه يسكنها ، من الزمالك إلى الجمالية إلى بنسبونات وسط المدينة ، كان يبدو لى فى كثير من الليالى بأنه يبحث عن مأوى . نعم ، فليس كل من ها هنا ، أو فى قعدة الإمبابى على ناصية الحارة فى شارع شامبليون ، بلا بيت يأويه؛ إنما هو قد يكون الآن ، أو فى هذه الليلة فحسب ، بلا مأوى وخير مأوى مؤقت هو ما أويت إليه بسبب آخر غير الإيواء ، بغرض السهر مثلا ، أو التسامر مع الأصدقاء ، لكن الغرض الأصيل الكامن وراء كل هذه الأقتعة هو انقضاء الليل ، الخروج من اللباس الأسود ، لاستئناف الإنتشار فى ضوء المعاش .

قليلون بين هؤلاء الذين يجلسون على الرصيف أمام دكانة الإمبابى ، سواء القادمين إليها عن قصد مغرمين بهواها ، أو الطالعين من غرز الحشيش فى الحوارى الجانبية فرأوا فيها محطة لالتقاط الأنفاس وبعض أخبار النميمة .. قليلون بين هؤلاء وأولئك هم الذين لهم بيوت قريبة أو فى متناول المواصلات الميسورة ، لكنهم جاؤا يمارسون طقس الحب فى هذه القعدة وفيما يدور فيها من حوارات. أما الباقون فإن القعدة بالنسبة لهم جزيرة ترسو عليها قواربهم الضالة فى حلقة الليل بين العسس والمخبرين وشرطة التحريات التى لا تنتهى

كل واحد منهم حريص على إعلان سبب مجيئه فور جلوسه ، بشكل أو بآخر ، ممهدا لنفسه بمبرر للبقاء حتى النفس الأخير من الليل ، درءا لظنون بعض من قد يتصورونه لا سمح الله شريدا أو بلا بيت : فانتنى آخر قطار للمعادي .. آخر عربة أتوبيس إلى الزيتون قابلتني وأنا فى الطريق إلى المحطة .. أولادى سافروا إلى المصيف أو ذهبوا للولادة فى البلد .. ضقت الليلة بالفراش فخرجت أتتهوى وأرى الأصدقاء .. سمعت أن شاعرنا الكبير الأسوانى قد حضر فجئت أأتنس به بعد وحشة .. إشتقت والله لعم الإمبابى .. إلخ إلخ ..

الوحيد الذى لم يكن يعطى مبررا لوجوده فى القعدة حتى الشروق هو « سليم شحبير » ، وأنا . كان هو يكتفى بالمبرر الأكبر الذى يعتقد أن الجميع لابد يعرفه ، وهو أنه المنشئ الحقيقى لهذه القعدة . وهى حكاية يحلو له أن يحكيها كلما جاء القعدة ورأها عامرة بالزوار الجدد : حود ذات ليلة ليشتري علبة سجائر من دكانة الإمبابى ، بالصدفة كان الأستاذ جمعه هو الواقف فى المحل بدلا من أبيه الذى ذهب يقضى حاجة ، فامتد حبل الحديث والتعليقات بين « سليم » و « المحامى » ، الذى كان يتعشم فى مقابلة محرر صحفى يستفيد من ورائه بنشر أخبار قضاياء التى يكسبها خاصة أن نسبة كبيرة منها تخص أهل الفن ؛ فلما علم أن « سليم شحبير » محرر صحفى - وهذه بطاقة تعارف جارية على لسانه باستمرار - أصر أن يشرب القهوة ؛ فاحلوت القعدة فى صخب الشارع وروائح الشهية ونسائه اللائى يخطرن رائحات غاديات ؛ وعند انصراف « سليم شحبير » فى تلك الليلة كان على موعد فى الغد لاستكمال الحديث ؛ غير أن الحديث لم يستكمل أبدا على امتداد الليالى المنسربة وراء بعضها ؛ إذ كانت القعدة تكتسب كل يوم زائرا جديدا يفتح موضوعا جديدا . وشيئا فشيئا بدأ « سليم » يعطى مواعيده على هذا

المكان ، وتجيئ الناس تسأل عنه ، فيرد عليهم الإمبابى بكل ثقة : « زمانه جاي حالا ! » ..

معظم أولئك الذين كانوا يجيئون للسؤال عن « سليم شحيير » فى غيبته كنت أثق - دون أن يكون لى بهم معرفة سابقة - أنهم هم الآخرين بلامأوى ، وأن انتظار « سليم » فى هذا المكان فى هذا الوقت ليس إلا كفاحا ضد سواد الليل ..

حتى أنا الآخر - وإن لم تربطنى بسليم شحيير علاقة حب على الإطلاق ، ولا علاقة من أى نوع - جئت هاهنا أول ما جئت للسؤال عن « سليم شحيير » ؛ وبقيت أنتظره ، ثم بت أشارك فى الحديث الدائر بين الجالسين وصرت معروفا لهم بالإسم وبكثير من المعلومات ، ثم بت من الرواد الدائمين ؛ أحيانا أجد «سليم شحيير» ، وأحيانا لا أجده ، ولكنه لم يعرف أبدا أننى قد جئت فى الأصل إلى هذه القعدة للسؤال عنه بغير سبب إلا كمبرر للسماح لى بالجلوس فى هذا المكان ، ليس حبا فى المكان وإن أحببته ، ولا عشقا لرواده وإن عشقت بعضهم ، ولكن لأنه - فحسب - مكان تمتد فيه القعدة حتى طلوع النهار . ربما جئت ليلة بعد ليلة ، وربما تعمدت الغياب بضع ليال حتى لا أكون ثقيلا . وأحيانا كثيرة جدا كنت أنسى المكان بالفعل ويضيع من ذاكرتى تماما . وكنت كلما خيل لى أن صلتى انقطعت نهائيا بقعدة الإمبابى لا ألبث حتى أرانى ذات ليلة متجها إليها برغمى ، لتوفير بضع قروش ..

ظلت القعدة ترحب بى كلما عدت إليها ، ولكن لم يكن يولبنى شىء قدر انصراف الرواد واحدا بعد الآخر كلما أوغل الليل فى العتمة .. لأرانى فى مطلع الفجر قد بدأت أنكفىء على صدرى كل لحظات لأفيق فزعا ؛ فأجندى وحدى على الرصيف أصارع النوم الداهم ؛ أحاول إلهاء نفسى بالفرجة على الحياة

وهى تستيقظ فى الشارع ؛ عربات الفول والخضروات والكشوى وهى تقف فى ماضية فى طرحة الفجر الشفافة المبللة بالضوء المغبر ، والدراجات تمرق حاملة كتلا من الأجساد محنية ، وبعض الأبواب قد انفتحت ، وبعض الكراسى قد رصت ووقف من يرش المياه ، وعم الإمبابى خلف البنك مرتكزا عليه بكوعيه مندمجا فى تدخين سيجارة ينظر لى بكثير من الإشفاق وقليل من الدهشة مشوبة بالإستغراب . وحين ينكفىء رأسى على صدرى فجأة فأرفع رأسى كانت عينى تتجه تلقائيا إلى عيني الإمبابى لتعرف هل رآنى أم لا ؟ فأرى الإشفاق فى عينيه ، فأرد بابتسامة بلهاء شاحبة متعبة ؛ فيما التثاؤب والبرد والصداع والزهمق .

المـديـم

كنت فى وضع شديد الغرابة : أتمطرق على مقعد بدا أنه من الطراز المسمى بالأسيوطى ، بحيث كانت مؤخرتى كلها خارج حافة المقعد ، فيما يستند ظهرى على شلثة مسند الظهر التى انسحبت عن مكانها قليلا لتحتوى نصف ظهرى وكامل رقبتى ؛ وقد رفعت ساقى وأسندتهما بزاوية حادة على مسند ظهر المقعد المواجه ، الذى تزحزح قليلا عن الحائط ليحتوى ساقى وقدمى . كنت كالذبيحة المعلقة من عرقوبيها .

أصابنى رعب عظيم : من لى بهذه الحجرة ومنذ متى وأنا على هذا الوضع ؟ ! حاولت الإعتدال مذعورا لكننى لم أستطع . كان العماص يغلق عيني كالصمغ الناشف لن تزيله إلا مياه ساخنة ، مما اضطرنى إلى مد أصابعى والفصل بهما بين جفونى عنوة ، فكان الصمغ ينزع شعر الرموش ويملاً بحر عيني بالرمل . وكانت الأرض من تحتى ترتج فى صرير وتكتكة غامضين ؛ وظلام شاحب يشمل الحجرة . بدأت عيني تغسل نفسها بنفسها قليل بقليل من الدمع ، فرأيت بجوار المقعد الذى أسند على ظهره ساقى مقعدا آخر لكنه من الخيزران ؛ مسند ظهره يرتدى قميصا كالعامل نوع الكاروهات الخفيف . ونظرت فى جسدى فرأيتنى بالفائلة التى بلا أكمام ؛ وحزام سروالى مفتوح ؛ فتيقنت أن هذا القميص لابد قميصى . تمكنت أخيرا من تحريك رأسى قليلا ،

وساحت نظراتى فى الأرض ؛ فرأيت تحت المقعد حذاءً مفرطح الوجه مفتوح الفم منتفخ الأوداج كالعبيط الذى أعتقه صاحبه مؤقتاً فظن أنه العتق الأبدى ؛ ومن فتحتيه تبدو أطراف الجورب المتكور ، الذى بدأت تفوح منه رائحة كرائحة البوتاجاز ..

الحجرة مستطيلة كنزة كأنها التابوت . فى مواجهتى شبك مستطيل باذخ ؛ يحاذيه فى الركن مكتب كبير فخيم جدا ، منبعج الأرجل فوقه لوح من الزجاج السميك فوق بطانة من القטיפه الخضراء ، عليه مصباح على هيئة امرأة ممسكة بشمعدان محاط بناموسية حريرية وردية اللون ؛ وسماط من الجلد ومحبرة ونشافة وكوبه من الخزف ملأته بحزمة من الأقلام المتنوعة ، ورزمة من الورق الدشت ، ونتيجة بحامل من الخشب ؛ وخلف المكتب مقعد جلدى أشد فخامة وأبهة ؛ فوقه ، على الحائط ، صورة للرئيس جمال عبد الناصر فى برواز كبير مذهب . يوجد مقعد جلدى كبير من النوع المسمى بالفوتى ، وأمام المكتب مقعدان مماثلان متواجهان تفصل بينهما طقطوقة خشبية مشغولة بالأصداغ وعليها مفرش وطفاية سجائر بلورية ثمينة ، وتمثال نحاس للكاتب المصرى الجالس القرفصاء . وكان كل ذلك يظهر فى ظل ضوء عليل آت من شراعة زجاجية فى أعلى الباب مقتبس من مصباح من النيون متمد فى مكان بعيد لعله ردهة خلفية ..

حاولت الاعتدال ؛ فترحزح المقعد من تحتى فاصطدم بالجدار الخلفى فحدثت ضجة هائلة أزعجتنى . تبينت أن الجدار عبارة عن قاطوع من الخشب ، ثم تبينت أن الحجرة فى الأصل شرفة خارجية أحيطت بالخشب وانفصلت عن الغرفة التى هى متفرعة عنها . ثم تبينت أنها حجرة الأستاذ « مسعود جوده » رئيس قسم الأخبار فى جريدة (القطر) اليومية ، التى لاحق لى فى دخولها

مطلقا ، بل أن أفعل فيها ما أنا فاعل . فى الحال اقتحمتنى تكتكة صوت المطابع كأن أذننى قد انفتحت فجأة على صوت لم يكن قد اختفى من قبل مطلقا . من سخونة صوت المطابع عرفت أن الطبع النهائى على قدم وساق ، وأكدت لى أصوات عربات الدار ولغطها فى الأسفل عند الباب العمومى أن الطبعة الأولى فى طريقها الآن إلى قطار الصحافة نحو الأقاليم . صوت دقات قلبى صار أعلى من صوت تكتكة المطابع : الكارثة لو رآنى أحد فى هذه اللحظة هنا على هذا الوضع ! ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ كيف تسملت إلى هذا العرين ؟! كيف غافلت معاون الدار ومكتبه فى نفس الجناح فى نفس الدور فى أول غرفة على اليسار ! فى حين أن معاون صعيدى جلف متنكر فى زى الأفندية الأنقاء حملة الشهادات المتوسطة ذو صوت جهورى مخيف وعين حمراء قانية ولسان حاد ولهجة متأثرة على طول الخط كأن الصحافة كلها مسئولة منه! وكيف استغفلت عبد العظيم البرديسى رئيس السعاة بجسمه الممتلىء الريبة وشورابه الصقرية ؛ الذى لا يثق فى نهم أحد باستثناء رئيس مجلس الإدارة الذى هو فى نفس الوقت أحد رؤساء التحرير ؛ باعتباره الساعى الخصوصى له ؛ والذى لا يعجبه تنظيف السعاة ولا أمانتهم ، فيقوم بجولة نهائية يتم فيها على جميع الغرف ومحتوياتها بعد انصراف المحررين ؛ يفلق كل حجرة بمفتاحها ويضعه فى لوحة المفاتيح على الحائط بجوار غرفة معاون المواجهة لغرفة رئيس مجلس الإدارة ؛ ثم يبقى ساهرا بعد انصراف رئيس التحرير المسئول فى تمام العاشرة مساء ، ليراقب مدير التحرير النوبتجى ، الذى لا ينصرف قبل منتصف الليل بعد مراجعة أول نسخة من الطبعة الثانية ؛ حينئذ يقوم عبد العظيم بمراجعة الغرف من جديد والتأكد من أنها جميعا مغلقة ومنفضة من الأتربة : غرفة قسم الترجمة بمكاتبها ؛ غرفة المراجعة - المطبخ -

بمكاتبها الخمس ومكتب رئيسها فى الصدر ؛ غرفة التحرير بمكاتبها الخمسين أو الستين وقد تراصت متلاصقة فى خطوط أفقية متقابلة ؛ غرفة رئيس مجلس الإدارة وغرف رؤساء التحرير بأثاثها الفاخر ومقاعد الوثيرة وجهاز الراديو والثلاجة السبعة قدم فى كل غرفة وكذلك السجاجيد الثمينة ؛ غرفة التيكزز المواجهة لغرفة الترجمة بالآلات البرقية التى لا تكف عن التكتكة والصرير وقذف أكوام الأشرطة الورقية المنقوشة التى تنتظر من يجىء فى الصباح ليقطعها إربا ويرجمها ليعرف ماذا حل بالعالم هنا وهناك ؛ غرفة قسم الأخبار هذه المستطيلة الحافلة بستة مكاتب صغيرة لمنوبى الأخبار فى اللوزرات والهيئات يشاركونهم فى احتلالها المنوبون العاملون بالقطعة مقابل عشرة قروش لكل خبر بعنوان وصورة وسبعة قروش لكل خبر عادى ؛ تلك هى الغرفة التى تتفرع عنها هذه الحجرة الصغيرة التى أرانى فيها الآن ؛ حيث قام الأستاذ مسعود جودة بإقامة هذا القاطوع الخشبي ليعزل نفسه عن بقية محرريه تمييزا لنفسه عن بقية رؤساء الأقسام ؟! كيف يخطر ببال عبد العظيم البرديسى أننى يمكن أن أستغفله عن عمد ؟ بأن أتسلل فى مدخل المساء والحجرات كلها مفتوحة ، لأختفى داخل حجرة مسعود جودة هذه بالذات اعتمادا على أن عبد العظيم أو غيره حينما يفتح الباب فإن الباب يحجبني تماما ، إذ اكتشفت مرات عديدة أنه يفتح الباب فينظر أمامه فيجد الحجرة خالية تماما فيعيد إغلاق الباب من جديد! كما اكتشفت أنه لا يدقق فى هذه الحجرة بالذات ليقينه أن صاحبها ينظفها بنفسه على الدوام وأنها لفرط هيبة صاحبها وفظاظته تركت طول عمرها بدون مفتاح ..

إنشقت الأرض عن الأستاذ مسعود جودة وقد دخل فجأة كعادته دائما : كان ذلك فى ظهيرة يوم بعيد ، حين دفع باب هذه الحجرة ودخل ففوجئ بكبير

محررية « أمين الهجين » مستغرقا فى النوم على هذا الكرسي بالذات ، الذى يبدو أنه جلاب للنوم العميق بمجرد احتوائه لجسد الجالس عليه . إرتد « مسعود جودة » خارجا بكل بساطة ولكن الشرر يتطاير من عينيه ؛ مضى فى الممر كأحد فرسان الكاويوى بجسده الضخم وقميصه المشجر وشعره الغزير المصنف المنسدل بعضه على بعض جبينه العريض المهيّب . قبض بذراع قوية على كتف أحمد الساعى وصار يدفعه أمامه كأنه المجرم العتيد ؛ حتى جاء به الحجرة ، فزغده فى جنبه زغدة قاسية فيما يشير إلى النائم قائلا : « إيه ده ؟ إيه ده ؟ » ، ويده لا تكف عن زغد الساعى ورجه ؛ ثم اندفع فى الصباح الغاضب يسب الفوضى وقلة الذوق ، يلقي محاضرة فى أصول الشغل وهيبة مكانه واحترام الإنسان لنفسه فى عمله وكيف ينبغى عليه أن ينام فى بيته ؛ فى الحال أمر بفتح الشباك وتنفيض المقاعد وكس الحجرة ورشها بالغاز المعطر . وقد تم ذلك بالفعل وسط حشد كبير من المحررين والسعاة والمصورين الذين راحو جميعا يطيبون خاطر الأستاذ يرجونه العفو عن الساعى والتماس العذر لكبير محرريه ، الذى قام يتخبط ويترنح مغمض العينين سائل اللعاب كالدرويش المعتوه ، مما دفع بأحد السعاة إلى الإمساك بيده والذهاب به إلى دورة المياه لغسل وجهه ، فيما يشيعه صوت الأستاذ مسعود جودة باللوم والتقريع . إنتهى المشهد بقرار حاسم بخصم خمسة أيام من مرتب أحمد الساعى وخمسة أيام من مرتب أمين الهجين ؛ ولم يسترح إلا بعد أن دخل بنفسه فوقعه من رئيس مجلس الإدارة وبعثه إلى مدير شئون العاملين ؛ ونبه على الجميع بعدم الإقتراب من حجرتة أثناء غيابه ، وأمر بكتابة نشرة بالخبر وتعليقها فى لوحة الإعلانات ..

جاعى شعور براحة اليأس من الخلاص ؛ فمنذ دخل مسعود جودة منذ برهة بمشهد الحافل لم يخرج ، ظل ماثلا أمامى جالسا إلى مكتبة يرقبني فى

دهشة غير مصدق ما يرى . منظره هذا يسمرنى فى مكانى بنظرة كنظرة قط شرس أحاطت بفأر تعيس ؛ فبقيت متيسا فى رققتى وقد خيل لى أننى أسمع هدير أنفاسه فى الحجرة ؛ فأصابنى الرعب ، وحولت وجهى عن المكتب الخالى وركزت بصرى فى الشباك المغلق والستارة القطيفة المنسدلة على شريحة منه ؛ لكن عيني رغم أنفى كانت تغافلنى فتختلس نظرة سريعة إلى ركن المكتب لتتأكد من خلوه تماما من البشر ؛ إلا أن هيكلا مسعود جوده يتخايل لى جالسا وداخل وماشيا فى الحجرة الخارجية ؛ أرحت نفسى وأغمضت عيني . ثم مالبثت حتى عدلت نفسى من جديد على الوضع الذى كنت عليه موليا وجهى نحو السقف فاردا ذراعى ، مؤجلا البحث فى كيفية وجودى هاهنا فى هذه اللحظة لأشغل نفسى بالتفكير فى مخرج آمن ، وإلا فأنا متهم بالسطو على مكاتب الدار ، ولا بد أن وراء تواجدى هاهنا الآن غرض جنائى مؤكد ؛ ولربما أمثل أمام النيابة بعد ساعات قليلة ، لا أمل هناك فى عفو من أحد ؛ رئيس مجلس الإدارة لن يغفرها لكبير السعاة وقد يخصم منه شهرا كاملا أو يعين بدلا منه ساعيا آخر ؛ إلا أن كبير السعاة سيجد فى النهاية شقيعا خطيرا هو الأستاذ الكبير « جمال الهلباوى » ، الصحفى الضخم المخضرم ، الشاعر الكبير فى نفس الوقت ، الغريب الشخصية كأبى النواس وجحا ؛ حيث لا تخلو الصحف اليومية والأسبوعية والدوريات الثقافية والكتب الرائجة من أخباره ونوادره وطرائفه وفصولاته المضحكة ومقالبه الساخرة بقسوة ، التى يدبرها لصغار المحررين والكتاب الأغبياء ، ويتردد اسمه ليل نهار عبر الأثير مقرونا بقصائد من الشعر الجميل العذب يغنيها كبار المطربين والمطربات أو يلقيها هو نفسه بصوت جهورى خشن غليظ لكنه مسيطر قوى بارع الأداء مشحون بالإنفعالات والأحاسيس الصادقة فكأنه جبل يتحرك فى بطانة من الموسيقى . وهو ضخم

الجثة كفيلا ، بعقل شيطان وقلب طفل برىء عابث ، وخيال شديد الخصوبة وثقافة تراثية مدهشة ، وأسلوب جزل رصين ملىء بالحدائث والأفكار المعاصرة . يقولون أنه ابن شيخ يعمل مأثونا فى بلدته ميت غمر ، وأنه هو نفسه تخرج فى المعاهد الدينية لكنه التحق بالجامعة وإن لم يكمل دراسته فيها لأنه كان قد اشتهر كشاعر وكاتب صحفى منذ وقت مبكر حافل بالرجال الكبار الحريصين على احتضان المواهب الجديدة . وقد كانت هذه خصاله هو الآخر ؛ إذ كان « جمال الهلباوى » مغرما باكتشاف المواهب الجديدة فى عالم الشعر والصحافة والغناء والتمثيل ، واحتضانها وتقديم الفرص لها بكافة الأشكال . وكان يقضى الليل كله فى سميراميس يلعب الورق أو يتحدث مع الرفاق فى قعدته الدائمة المتجددة أبدا . هو أحد رؤساء جريدة (القطر) ، يكتب مقالة أسبوعية فى يومياتها ؛ حيث يتعين على عبد العظيم كبير السعاة أن يتولى تذكيره تليفونيا بموعد تسليم المقال ؛ وفى يوم التسليم يظل يواليه بالمكالمات كل حين ابتداء من وقت الوصول لأن جمال الهلباوى كائن ليلى لا يعرف النهار أبداً ؛ حتى إذا ما تقدم الليل هرول عبد العظيم إلى الخارج فاستقل واحدة من سيارات الجرنال وانطلق بها إلى سميراميس ، ليجد الأستاذ الهلباوى مندمجا فى الحديث أو التنكيت أو الشرب أو الاستماع لمطرب جديد ، ملحن جديد ، شاعر جديد ؛ فما يكاد يرى عبد العظيم مقبلا حتى يأمر له بالشأى وربما بعشاء سريع هدفه إلهاء عبد العظيم حتى يتمكن هو من كتابة صفحة هلى هامش القعدة ، ليقوم عبد العظيم بحملها إلى الجرنال ليتم جمعها ، ثم يعود إلى سميراميس فيجد أن الأستاذ الهلباوى قد أنجز صفحة أخرى ؛ وهكذا إلى أن ينتهى المقال قبل صدور الطبعة الأولى بأقل من ساعة ..

من المؤكد أنه سيسفح لعبد العظيم فى هذه المصيبة التى ستحل عليه بسببى . أما أنا فالوحيد الذى يمكن أن يتشفع لى هو رئيس القسم وصاحب هذه الحجرة ؛ فهل تراه يفعل ؟ .. ها هو ذا يعود من جديد فيظهر تحت جفونى المسدلة ، بوجهه الغليظ الملامح وقامته المديدة الملائنة باللحم الرشيق ، أنفه المستطيل ، فمه الواسع ، أسنانه اللؤلؤية النظيفة ، ذقنه الحليقة ، عيناه القويتان المقتحمتان ، صوته المسلوخ المتسربل بخشونة . إنه لا يحمل أية شهادات مدرسية ؛ ويشك بعضهم فى أن يكون قد دخل المدارس أصلا ؛ ويتهامس بعض الخبثاء بأنه قد دخل الصحافة من باب التوزيع ؛ حيث كان فى الأصل بياعا متجولا للجرائد على محطات المركبات ، وأنه اشتغل ساعيا فى جريدة الزمان المسائية ، ثم احتك بالمحررين والكتاب ، فاستوعب منهم قواعد اللعبة وأصولها وفنونها ، واكتسب درية على كتابة الجملة المفيدة ، وقرأ الكتب الموجودة فى مكتبات رؤساء التحرير حيث يحلو لكل منهم وضع مكتبة خلف ظهره يضع فيها ما يتلقاه من هدايا الكتب . ثم بدأ يجرب حظّه فى جلب الأخبار الصحفية ببراعة حريف وصعلكة صايع أصيل متسلل أصيل ، وظل يتدحلب إلى أن عين محررا فى إحدى الصحف الحزبية . لبراعته فى استقطاب الأخبار ما لبث حتى انتقل إلى مجلة جديدة من المجالات التى أنشأتها ثورة يوليو ، ثم استقر به المقام فى جريدة (القطر) ، ليصبح رئيسا لقسم الأخبار فيها ، ويحرر أنجح أبوابها ، باب : حديث المدينة ؛ الذى تمكن من خلاله أن يكون مشهورا شهرة كبيرة ، وأن يقيم علاقات متينة مع كافة المسؤولين والمهمين وذوى المناصب والمواقع الحساسة فى البلاد ، وأن يكون له هيل وهيلمان ، وكلمة مسموعة ؛ بل .. وأن يتزوج نجمة سينمائية كبيرة من أصل سورى ، كانت تعيش فى القاهرة منذ وقت طويل ، إسمها « عبله السروجى » ، تميزت بأفلامها

عن البادية . وقد استطاع هو أن يحكمها ويضفى على شخصيتها الكثير من الهيبة والسلوك الحسن ، ويحقق لها حماية واحتراما كبيرين ؛ صحيح أنه قلل من فرص عملها لكنه احتفظ لها بذكر طيب ومستوى فنى لا تقى لا تحيد عنه . من أجلها ظل جميلا رشيقا أنيقا على النوام يلبس من أفخر المحلات العالمية ، فبات شخصية مقنعة بوجه متجهم على طول الخط كأن ملامحه الغليظة تعرف أن وجهه يزداد جمالا واحمرارا طالما هو متجهم مشدود الملامح والسمات ، حيث تطل - من فوق جبهة كبيرة عريضة - عينان كعيني قاطع طريق ، لولا أن مسحة من هيبة الأناقة المفرطة الفواحة بالعمور توهمك أنه قيصر الروم . لم أكن لأجرو على اقتحامه أبدا ؛ ولم أكن لأقبل العمل معه ؛ أنا الذى جئت من بلدتي حالما بأن أصبح كاتبا كبيرا من طراز العقاد والمازنى وطه حسن وتوفيق الحكيم ، أحمل بادئ ذى بدء بذرة التعالى على الكتابة الصحفية باعتبارها قاتلة لمواهب الأدباء موصلتهم إلى احتراف الزيف والتلفيق والفبركة ؛ لم أكن لأقبل العمل محررا صحفيا ، بل أن أقبل العمل مخبرا بالقطعة تحت رئاسة عملاق أجوف كهذا لايعرف الفرق بين حرف الزين وحرف الذال ...

رأيتنى جالسا فى غرفة المراجعة منزويا بحذاء مكّتب صديقى « فهمى أبو الفتح » ، الذى يكتب عن القرية قصصا مشابهة لقصص يوسف إدريس ؛ عمله الرئيسى نائب رئيس المطبخ فى هذا الجرنان . كنت أعرفه عن طريق المراسلة وكان معجبا بقصصى ويتوقع لى النجاح ويتمنى أن يخدمنى بأى شكل ، لكنه لا يملك سوى الرقة والأريحية وبياض القلب الريفى . يستقبلنى كل يوم فيفسح لى مكانا بجواره ، يلقانى بابتسامة كبيرة تضئ وجهه النحيف البالغ الأناقة بشارب صغير كالخنافس ومنظار على العينين فكأنه صورة فى إعلانات النظارات . أنيق بصورة عامة فى كل شئ ، قوامه المبروم الربعة ؛ خصلات

شعره المتهدلة على جبينه فى غير ابتذال ؛ البذلة الكاملة التى يخلع سترتها ويلعقها على مشجب خلفه ويبقى بالقميص الحريري الثمين ؛ القلم الأبنوس العتيق ؛ علبة السجائر الجلدية الملائنة ؛ الولاة الرونسون فوقها ؛ المنظار الشمسى ماركة بيرسول معلق فى جيب الصدر يرتديه مجرد خروجه حيث يخلع منظار القراءة ويلعقه بدلا منه ؛ رزمة الورق الدشت أمامه تختلف عن مثيلاتها أمام زملائه بكونها مضمومة بالصمغ مجلدة على هيئة نوتة ممسوكة بمشبك ؛ من الخشب المزدان ؛ طريقتة فى الكتابة إذ يمسك القلم بأطراف أصابعه ويتركه يتراقص فوق الصفحة برشاقة بالغة فتخرج الحروف دقيقة سوداء واضحة جميلة والسطر معدول مستقيم ، والنقط والفواصل بارزة ، وبين السطور مساحات عريضة لتعديل ما قد يراه صالحا للتعديل من كلمات مع أنه نادرا ما يشطب ؛ فنجان القهوة على يساره فوق لوح جرار يبيت داخل المكتب، يمسكه بأطراف يسراه فتلمع دبلة الزواج الذهبية ويحوارها - فى خنصره - خاتم ذهبى رقيق بفص من العقيق الحر ؛ يأخذ الرشفة بشفتين رقيقتين مطبقتين ثم يضع الفنجان ويمسك بالسيجارة من فوق الطفاية فيشد منها نفسا ثم يعيدها إلى مكانها ويستأنف الكتابة فكان الرشفة وجذبة النفس هما الفرصة الوحيدة للتفكير فى السطور القادمة ؛ ولقد يملأ الصفحة أو الصفحتين أو الثلاثة ثم ينزعها فجأة بكل هدوء ، وينفس الهدوء يكوها فى قبضته النحيلة النابضة بالدم ثم يلقي بها فى سلة المهملات ويشرع فى الكتابة من جديد بعد أن يلقي نظرة سريعة على وريقات الموضوع الذى يقوم بإعادة صياغته والذى يضعه دائما على يساره تحت ثنية ذراعه فلا ينظر فيه إلا عند التأكد من رقم أو معلومة . ولأنه يستهدف تدريبى على المراجعة بإخلاص فكثيرا ما يسمح لى بقراءة الورق الذى كوره ورماه ؛ فإذا بى أجدها كعقود من سلاسل الذهب بأسلوب غاية فى الأناقة والرصانة والأدب الخالص ؛ فأنقل إليه انطباعى هذا

فيقول : « لهذا مزقتها ! إن الجرنان يقرأه من يفك الخط بالكاد ! والموضوع لا يحتمل هذا الأسلوب ! فإن أسلوب الخبر غير أسلوب التحقيق الصحفى غير أسلوب المقال الأدبى غير أسلوب عامود الرأى غير أسلوب القصة بالطبع ! لكل مقام مقال ! هذه أول حقيقة مهنية ينبغى أن تعرفها ! » . كان يريد أن يخدمنى وأن يلحقنى فى أى قسم بالجريدة ، لكن لإدراكه أن ذلك مستحيل لأن ظروف الجرنان الإقتصادية غير مواتية ، فكان يعرضنى عن الصدمة بإعطائى كل ماله من خبرات . كان شديد الكرم شديد العطف على ، يطلب لى الصانوتشات من البوفيه ، والشاى ، ويترك علبة سجائره مباحة لى ؛ وكل بضعة أيام يعزمنى على سهرة فى مكان خفى فى حى زينهم ، حيث نشرب الحشيش المعتبر ؛ ويغدق هو على صاحب المطرح بقشيشا مغريا قبل انصرافه لى يتوصى بى ، أن يجعلنى أبقى فى المطرح معززا مكرما حتى الصباح ؛ وأحيانا يعزمنى على الغداء فى منزله حيث يقرأ لى قصة جديدة كتبها بعد طول توقف ، أو يقرأ لى بعض أشاعر كمال عبد الحليم وفؤاد حداد وكلاهما كان خلف قضبان السجن . الجميع فى الجرنان وفى الأوساط الثقافية يعاملونه بكل احترام وتقدير ، لكفائه البارزة ، ولأن خاله محمود بك أبو رواش كان صاحب هذه الجريدة قبل أن تؤمها الثورة وتغير اسمها ؛ أنشأها للدعاية لشركاته التجارية والصناعية العديدة ثم وضعها تحت تصرف حزب الوفد لتعبر عن وجهة نظره . ولم يكن صديقى يذكر هذه المعلومة أبدا ، ولا يتباهى بأى شىء سوى بقصة يكتبها فتعجب القارئ ، ولا يفخر بأى شىء سوى بالأيام المجيدة التى قضاه ضمن المقاومة الشعبية فى بورسعيد والإسماعيلية مع الفدائيين فى الكيد لجنود الاحتلال الإنجليزى وتكبيده الخسائر الفادحة ، وفى بورسعيد فى حرب السادس والخمسين ؛ أكبر أمانيه أن يتمكن ذات يوم من كتابة ذكريات

تلك الأيام الحميمة المجيدة . لفرط حبه لى وإيمانه بموهبتي الفطرية كما يقول وبأحقيتي فى العمل كان يقدمنى لكل زملائه وأصدقائه ، حيث يضطر دائما أبدا للنهوض واقفا كلما أراد أن يسلم على أحد حتى لو كان من الساعة ؛ ويخلع على الكثير من الأوصاف المبهرة المثيرة كأتنى الطفل المعجزة ، خاصة إذا كان يقدمنى لأحد رؤساء الأقسام طمعا فى إغرائه بضمى إلى كوكبة محرريه ؛ حتى صرت مشهورا بين المحررين ، وصار إسمى ينطق فى سهولة وحيوية ؛ فإن قيل على سبيل الإستعلام : من هو فلان الفلانى ؟ قيل : صديق فهمى أبو الفتوح . ولكى يعرض كفايتى على رئيس قسم المراجعة جعلنى أعيد صياغة بعض الموضوعات البسيطة ثم المركبة ثم الكبيرة ، وأختار لها العناوين الفرعية والمائشطات الجذابة البليغة الملفتة ؛ فكان رئيس المراجعة يعجب بها ويهز رأسه قائلا : « يا سلام ! يا سلام ! الله يفتح عليك يا ابنى ! خسارة لو كنت جئتنا قبل ذلك بأشهر قليلة ! على كل حال أنت معنا تحت التمرين إلى أن يحلها الحل ! ولكن ليس بإمكانى - وفهمى يعلم - تخصيص مكافأة لك ! إنما أستطيع أن أقرضك من جيبى لحين ميسرة ! » . هنا يغتاظ صديقى فهمى ويحمر وجهه وينبرى موجها الشكر للرجل ثم يغمزنى من تحت لتحت هامسا بالأقبل الإحسان من أحد ؛ وينتهز فرصة خروج رئيس القسم - الذى يلتصق مكتبه بمكتبه - فيهمس لى قائلا إننى لو قبلت قرضه فسوف يستغلنى أبشع استغلال فى كتابة باب الشكاوى الذى يوقعه باسمه ، وهذه بداية النزول ، متى قبلها الإنسان فإنه لا يندesh بعد ذلك إن رأى سلم النزول قد أوصله إلى مستوى الخدم . حينئذ يدب الخجل فى أوصالى ، وأحس بحصيرة من العرق الغزير تلف جسدى تبعث فيه الشعور بالتقرز بلزوجة العار ؛ إذ أن صديقى العزيز فهمى أبو الفتوح لا يعرف أتنى طوال الشهور الماضية قد أسلمت نفسى

لاستغلال كل من هب ودب ، من كتاب اليوميات إلى الأبواب والأركان والعواميد الخدمية ؛ أعيد كتابتها بصياغات سلسلة دافئة مقابل صاندوتش وواحد شأى وعلبة سجائر ، وأحيانا بكلمة : برافو ، أو متشكر . أشد ما يقلقنى الآن هو خوفى من أن يعلم صديقى فهمى أبو الفتوح أننى قد امتهنت نفسى ورخصتها للذى يساوى وللذى لا يساوى ؛ إذ أن صديقى فهمى لا يحتقر شيئا فى الدنيا قدر احتقاره لمن يرخص مواهبه ؛ إن امتهان الموهبة هو السقطة العظمى فى حياة البشر ؛ قد لا يغفرها لى ؛ لأكون أكبر الخاسرين ؛ فهذه الروح نفسها هى التى تقربنى منه لتلقنى به تجعله يحتل من نفسى موقعا فريدا كأنه أذى الذى تمنته لى أمة ذات عشية فى الغربية وظلت طول عمرها تدعو الله أن يلقي به فى طريقى من أجل الحبيب النبى ...

النوم أقوى من الرعب دائما ، يبدو لى الآن - النوم - كأنه ملاء من الرعب . جبال الوحش تسحق صدرى تبطط رأسى تكتم أنفاسى . لست أعرف الآن إن كنت نائما يقظا أم متيقظا فى النوم ؟ أناائم أنا ؟ أم مستسلم للموت للعرى للفضيحة الزاحفة بعد ساعات قليلة ؟ ما الذى سيفعله عبد العظيم البرديسى حين يجرى فى تمام الساعة صباحا ليفتح الغرف ويهيئها لاستقبال أهلها ؟ إن وقعت فى عرضه وطوله فأشفق على حالى وتركنى فإنه لا بد أن يستصدر أمرا بعدم دخولى الجرنان ثانية ، حتى لو لم يفعل فبإمكانى الإتفاق معه - وديا - على ألا أريهم وجهى بعد اليوم ؛ ولكن أى حرج سأسببه لصديقى الحبيب حينما يعلم بما حدث ؟ ..

رأيتنى جالسا على نفس هذا الكرسي فى ظهيرة يوم قريب بعيد ، مندما فى صياغة خبر مطول عن ملحن كبير مخضرم ، كان مطربا شهيرا ذات يوم بعيسد ثم لفضله العصر فانزوى فى بيت متواضع بحى شبرا ، يلحن

بعض مختارات الإذاعة لبعض المطربين ويغنى التواشيح والإبتهالات الدينية فى شهر رمضان قبيل الفجر ؛ ذلك هو الملحن المطرب إبراهيم عبد المتجلى . كان أبى من عشاقه ؛ وكانت أغانيه كلها مسجلة على اسطوانات كثيرة ضمن صناديق عديدة من الإسطوانات فى منزلنا بالقرية ؛ إذ كان لدينا ماكينة للغناء - جرامفون - بنفير كبير ؛ وكان صوت إبراهيم عبد المتجلى يصدح عبر النفير رفيعا كصوت أم كلثوم بالضبط ، من ألحان السنباطى أيضا . كنت أنا مغرما بكتابة الأغنيات ، أتنهز فرصة أية مناسبة قومية فادبج فيها الأغنيات وأرسلها للإذاعة من ثلاث صور ؛ فلما جاء التليفزيون نقلت مراسلاتى إليه ، لدهشتى العظمى وافقت لجنة نصوصه برياسة الشاعر سعد درويش على أغنية من أغنياتى ، عن أم تذاكر لابنها ، تمشيا مع ظاهرة انتشار أغنيات الأم والأخ والعائلة ؛ دهشتى كانت أعظم حين علمت أن أغنيتى وزعت على الأستاذ إبراهيم عبد المتجلى لتلحينها للمطربة الشهيرة سعاد مكاوى ؛ فكان هذا مبررا كافيا لأن أسأل عن بيت الأستاذ وأزوره مقدما نفسى له بأبنى الصحفى فلان مؤلف أغنية : «إبنى حفظ درسه إسم النبى حارسه» . إستقبلنى الرجل استقبالا حافلا؛ وجدت فيه ضالتي ؛ حيث كان متربعا فوق شلثة على الأرض ومن خلفه مسند ؛ يرتدى جلبابا حريريا أبيض ، يبريش بعينيه العجزتين المحمرتين اللتين ساح أحمرارهما فى ابيضاضهما فى اسودادهما فبدتا كبحيرتين من الملح أو كحبتى أم الخلول . هو لا بالطويل ولا بالقصير ، لا بالنعيف ولا بالسمين ؛ تكسوه مهابة وهىء وأريحية ، فيبدو دائما كشخ الطريفة بين مريديه ، يشرد طويلا ملعبا شفتيه كأنه يقرأ الورد أو ختام الصلاة ؛ وإن هى ألا برهة حتى يرفع رأسه ؛ فنرى بحيرتى عينيه قد هاجتا فجأة وصارت الحبة السوداء المبرطشة تروح وتجىء فيهما فى قلق وحذر وحيرة ؛ ثم ما يلبث حتى يزر عينيه

كأنه يشد حبلا ثقيلًا من أعماق بعيدة ؛ ثم إذا به يلقى قفشة أو نكتة أو قافية ترن فى القعدة كأنها الصاعقة ، فتنفجر القنبلة الكبرى ، إذ ينطرح الجميع على أقتيتهم من فرط الضحك . يده على الدوام ممسكة بقطعة الحشيش بين أصابعه ، أجود حشيش ؛ يوقع منها طاقم الحجارة المرصوص أمامه بجوار منقد النار ؛ حيث جلس ابنه عبد المتجلى - أصغر أبنائه - متوليا النار والرص والخدمة . أما الضيوف فتشكيلة عجيبه من البشر : تاجر فراخ من الجيران ويتذوق الموسيقى ؛ مدير عام كبير يعمل فى إدارة عقود الإذاعة ؛ رئيس الكورس؛ عازف كمان عجوز ، مطرب قديم اعتزل الغناء منذ أصيب بخلل فى توازنه النفسى بسبب تغير الأنواق . وجهالات الأجيال .. ذلكم أهم أعضاء القعدة الدائمين ؛ ولابد فى كل ليلة من زائر مفاجئ من أهل الفن المخضرمين ؛ الشيخ زكريا أحمد ورفاقه ؛ مطرب لبنانى فى زيارة للقاهرة ؛ مطرب شاب جاء « يمنجه » مخرجًا تليفزيونيا خدمه بتقديم أغنية له فى أحد البرامج .. حينئذ كان الأستاذ يضطر إلى القيام ملييا ندهة جاءت من الحرملك - يعنى المطبخ كما يسميه - فيعرف ما المطلوب منه ، فيتم على المفاتيح فى جيبه ، ويعبر الجالسين على الأرض مشمرا ذيل جلبابه ، متوجها مباشرة إلى حجرة نومه ، ليفتح قفل الصندوق العتيق الذى يستخدم سطحه كمقعد عند اللزوم ، ليستخرج منه علبة الشاى وبرطمان السكر ؛ ويذهب إلى المطبخ فيضع التليمة فى البراد والسكر فى الأكواب ، ويرجع فيعيد السكر والشاى إلى الصندوق ثم يغلقه بالقفل من جديد ؛ إذ أن هذا هو تموينه الخاص غير تموين البيت وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يضمن بها عدم الحرج أمام ضيوفه فى لحظات تشج فيها النقود . قد يفعل هذه الفعلة أربع مرات أو خمس مرات على امتداد القعدة دون سأم ؛ لا بأس عنده أن يعود للجالسين بقفشة صارخة يسخر بها من نفسه ثم يتخذ

مجلسه وسط الضحكات الصاعقة العميقة : غالبا ما يمسك آلة العود ، فيروح يوزن الأوتار ، معطيا بيانا سريعا بأنه انتهى من مذهب لأغنية جديدة لمختارات التليفزيون ؛ ثم يغنيه بصوت رائق عذب مشبع بالحزن والشجن والبهجة ؛ ثم ينهال عليه الجميع فى طلب الأغنيات القديمة ويذكرونه بأنغامها فيؤيدها بقوة يحسد عليها رغم اقتراب سنه من العام الخامس والستين . منذ دخلت منزله بت مدمنا له ؛ أزوره كثيرا ؛ إذ كثيرا ما كنت ألتقى بالأستاذ فى طرقات مبنى الإذاعة يستحث لجان النصوص والإستماع ، يذكر المخرجين بنفسه ؛ مرتديا بذلة متواضعة ، كموظف بسيط فى الأرياف باعتباره يعمل مفتشا للتربية الموسيقية فى وزارة التربية والتعليم ؛ متأبطا حافظة أوراق منتقخة ، ومن خلفه إبنه عبد المتجلى بآلة العود إن كان عنده تسجيل فى الاستديو ؛ فما أن يقابلنى حتى يستبقنى معه ؛ فنعود معا إلى بيته ؛ لأحظى بغنوة طرية دسمة ، وقعدة على حشية مريحة ، وكنبة قد أسند فوقها رأسى لأختلس نصف ساعة نوم . كان كريما جدا معى ؛ كثيرا ما احجزنى يوما بليلة ، فيأمرنى بخلع ثيابى التى باتت من الوسخ فى حالة يرثى لها ؛ فيلقبها لأولاده لغسلها ؛ يفعل ذلك بإيعاز من زوجه الكريمة التى تعاطفت معى كابنها الغريب ؛ تبعث لى بجلباب من جلابيب ابنها المغترب فى بلاد البترول والرسول . لم يكن يضمنينى سوى الخروج من البيت فى آخر السهرة ، تنفوح من جسدى وثيابى رائحة صابون الإستحمام والغسيل ؛ لأضرب فى شوارع القاهرة المظلمة الغارقة فى نتن المجارى ، بغير هدى أو دليل . الخجل وحده كان يدفعنى إلى التغيب عن منزل الأستاذ أسابيع طويلة ، إلى أن يلتقينى صدفة ، فيحملنى على مرافقته . جمائله كثرت على ؛ وفى الشهور الأخيرة إخترع هو طريقة موسيقية تساهم فى تعليم الأبجدية العربية للاميين بسهولة فائقة ؛ ونشر خبر عن هذا المشروع « القومى » فى

جريدة يومية سيارة مع صورة للأستاذ ، يعنى أننى سأستأنف زياراتى لمنزله برأس مرفوع بقرينة تثبت أننى صحفى بالفعل وأننى قادرعلى الخدمة . لهذا رحلت أثبت الخبر الأهمية ما استطعت ، وأسوى له مقدمة وعنوانا مثيرين ، وأخلع على الأستاذ ألقابا ترضى كبرياه الجريح ، وأبحث عن كلمات أوهم بها مسعود جودة أننى أعطيه هدية كبيرة بالمجان ، خبطة صحفية تستحق أن تكون الخبر الرئيسى فى بابيه غدا ..

لدهشتى لم يعارض ، لم يتمحك ؛ إنما أمسك بالورقة ورفعها بذراع بضعة غليظة الساعد غاطسة فى فروة من الشعر الكثيف الأسود ؛ أسند راحة يده اليمنى على سمانة ذراعه اليسرى تحت نصف الكم المشجر الشفاف ؛ روى ما بين حاجبيه ؛ قرأ الخبر بإمعان ؛ ثم ارتفع حاجباه إلى أعلى الصفحة من جديد ، وأعاد قراءة الخبر ببطء شديد ؛ ليتأكد - فيما بدالى - أن ليس بين السطور من شبهة على الإطلاق ؛ لا شىء سوى طرافة الخبر وما فيه من طابع صحفى مجرد . فوجئت به يبتسم فى إعجاب ؛ فإذا هو عند الإبتسام شخص آخر تماما ، طفل شديد الهبل والبراءة لا تملك إلا أن تحبه وترتبت على رأسه . صار يمتدح بلاغتى وحلاوة أسلوبى ونبوغى المبكر المبشر فى عالم الصحافة ؛ ثم وضع الخبر فوق كومة الأخبار - المعتمدة منه ؛ ثم رفع الرزمة كلها وقدمها لى قائلا :

- « ألق نظرة على صياغة هذه الأخبار ! ما لا يعجبك فيها غيرَه بأسلوبك الجميل ! أنا لست ملما بكل العلاقات التى بين الفنانين وبعضهم ! أو بينهم وبين بعض المحررين ! فإن اشتممت فى خبر رائحة الرشوة أو المجاملة أو الإعلان المقنّع صلّب عليه ! إن وجدت علاقة تعرفها بين محرر الخبر وبين أحد الواردين ضمن الخبر صلّب عليه كذلك ! يا حبيذا لو كتبت لى على هامشه ملاحظة بما

رأيت فيه من وجوه اشتباه أنا أعرف أن الأولاد يستغلوننى ! خاصة العاملين بالقطعة ! لا ضمير لهم على الإطلاق ! ولست أستطيع عقابهم بما يشفى الغليل سوى حرمانهم من العمل ! لاحظ أننى لست عبيطاً ! أنا أيضاً صايغ وابن قحباء أكثر منهم ! لا يغررك منظر البكويه ! أعرف أن الوسط الفنى داعر ! يستطيع إفساد الأنبياء ! من هنا فأنا أدقق فى قراءة الأخبار ما أمكن ! فليس أنا الذى ينطبخ الطبخ على رأسه ! هلفوت يكتب خبرا يكسب من ورائه مكسبا تافها وتبقى تهمة الكسب الأكبر لصيقة بى معلقة فى رقبتى ماحييت ! المحرر لا يكون مرتشيا فحسب ! إنما يمكن أن يكون خائبا ينضك عليه ! وكلاهما : المرتشى والخائب يدمغانى بالوصمة فى جميع المصادر ! أنا الآخر أفهم الخبر من عنوانه ! من صيغته أعرف بالضبط من هو المستفيد الذى أملاه على المحرر ! يدي على التليفون باستمرار ! أسأل هنا وهناك عن مدى صحة الخبر ! ربما كان المقصود بنشره الإساءة إلى طرف خفى ! أو ترويح فكرة ! أو مغازلة منتج ! إن جهالة المحررين الجدد واتساع ذممهم جعلت بعض الفنانين يردون على بعضهم ويكيّدون لبعضهم البعض ويردحون لبعضهم البعض عن طريق الأخبار الفنية فى الصحف والمجلات ! من حسن الحظ أن هذا منتشر بصورة بعيدا عنا فى الصحافة البيروتية الصفراء التى تقوم فى الأصل على الإبتزاز وافتعال الفضائح لقبض ثمن التستر والسكوت ! على مستوى السياسيين وعلى مستوى أهل الفن ! لم أكن متعتأ طلبت من رئيس التحرير ترحيل الأخبار الفنية الصرفة إلى صفحة الفن بعيدا عن مسئوليتى ! يغور الفن بأهله وأخباره فالعياذ بالله منه ! لست أنشر فى بابى من أخبار الفن إلا ما كان خبرا حقيقيا مهماً يتعلق بمصلحة المجتمع كله ! هاك الآن أصول الأخبار بخط المحررين لكى تعرف صاحب كل خبر من توقيعه عليه فى الهامش ! على فكرة ! أنا الوحيد فى

هذه الدار الذى يمكن أن يعينك ! كله بعون الله طبعاً ! ولكن أعلم أن بابى مرصود له أكبر ميزانية فى الجرنان لكثرة محررية وتعدد مصادره ولأنه باب حيوى يهتم بأخبار المدينة كلها من عاليها لسافلها ! ولقد علمت أنك تكتب القصة والشعر وما إلى ذلك من كلام فارغ لا يسمن ولا يغنى من جوع ! وأنا أقول لك : دعك من وجع الدماغ فإن الذين أدركتهم حرفة الأدب فى بلادنا كثيرون وليست المسألة ناقصة ! هم فى النهاية يعيشون عالة علينا ! نحن نتسبب فى توزيع الجرنان بأخبارنا الحيوية وتحقيقاتنا ومتابعاتنا وهم يأخذون الصفحات على الجاهز ليملاؤها بلاسيما ويبد أن والجحفل المتجحفل البراق العينين ! هل فهمت شيئا ؟ ولا أنا ! مات الأدب وانتهى عصره ونحن الآن فى عصر الصحافة عصر الخبر والصورة المؤثرة ! فلو عاهدتني على أن تغسل مخك من هذه الأوهام فأنى أسعى فى تعيينك بعد فترة اختبار قليلة ! أنظر إلى صديقك الحميم فهمى أبو الفتوح ! لقد كان أديبا لامعا وقصاصا مبدعا لكنه لم ينفع فى الصحافة إلا بعد أن طلق الأدب بالثلاثة ! وانظر إلى رائدك يوسف إدريس إنه الآن يكتب تحقيقات عن أزمة الإسكان ! وانظر إلى نعمان عاشور وعبد الرحمن الشرقاوى والخميسى وسعد مكاوى ولويس عوض ومحمد مندور وتوفيق الحكيم وطه حسين وكامل الشناوى من المرموقين ! وحتى العمالقة من أمثال العقاد والمازنى وهيكلا ! لولا الصحافة لماتوا جوعا وتشردوا فى ظلام النسيان ! فاسمع لكلامى لأننى كواحد من رؤساء الأقسام لن أستطيع تشغيل واحد تحت رئاستى يعمل لى أديب فيها ! إنى أريد محررا بمعنى الكلمة يكتب وقتما يشاء الجرنان أسلوبا بسيطا يفهمه عامة القراء ! هكذا كل رؤساء الأقسام ! وربما كان السبب فى عدم إقبالهم عليك توجسهم من كونك أديبا قد تظن نفسك أفضل منهم ! فإن كنت هكذا فعلا فأبنى أنبهك وأنصحك نصيحة أخوية أننا كمهنيين نعزّز بالمهنة

ولا نقبل أن يتميز علينا أحد ! إننى أستخسر في الأوهام فاسمع نصيحتي
وضع يدك في يدي !! » ..

- « أحاول ! » ..

قلتها وأنا أكتُم غيظي من هذه المحاضرة التي لم أكن في حاجة إليها
مطلقا ، والتي لن أعمل بحرف واحد منها . كنت أهم بأن أقول له أنه لولا الأدباء
وكبار الكتاب لانقرضت الصحافة في بلادنا من زمن بعيد ، خاصة بعد ظهور
الراديو والتلفزيون اللذين جعلتا من الخبر المنشور طعاما حامضا ، وأن الكتاب
هم الذين يزينون الجرائد ويشقفون وجدان القوم ويعيدون كتابة ما يدبجه
المحرون الأعياء العاطلين من المواهب ، وأن الخدمة الصحفية وحدها لا تكفى
لنجاح الجرنان . كنت أود أن أصرح له بهذا وبرأيي الحقيقي فيه وفي أمثاله
ممن أفادوا من الصحافة دون أن تستفيد منهم الصحافة ؛ لكننى لم أكن في
وضع يسمح لى بقول شيء من هذا ؛ فاكثفت بهز رأسى فى ابتسامة غامضة ؛
فيما رحت أعيد صياغة الأخبار بمزاج رائق معتدل كائننى أعيد صياغة الإلياذة ،
وذلك من فرط حبى لما أفعل ...

ثم رأيتنى ساهرا فى ساحة الجرنان والأضواء منثورة فى تتابع مبهج .
وكان من الواضح أننى مسرور ؛ فيما يبينو لأن مدير التحرير إيتنس بى ورحب
بخدمائى ؛ وهما أنذا أعمل سكرتيرا خاصا له منذ عدة ساعات مضت . كان من
الواضح كذلك أننى أنتظر شيئا ما على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لى ؛
وكننت أتعجل صدور الطبعة الأولى من الجرنان بشغف هائل . حين دخل
عبد العظيم البرديسى حاملا نسخة طرية رطبة تفوح بحبر المطابع إعتقلت
لهفتى ؛ أغلب الظن حتى لا يلحظها مدير التحرير . ثم بدا لى أننى من ورائى
شيء لا أحب أن يلحظه مدير التحرير صاحب الوجه الجهم الغليظ والجدية

الخطيرة ؛ سرعان ما تبين لى أننى لا أحب أن يلاحظ مدير التحرير أن ثمة
شيء فى الجرنان يهمنى نشره ؛ وإلا فسيبدأ يشك فى أننى غير مستفيد من
ترددى على الجرنان . مدير التحرير رجل أرقم ، إسمه « أكرم فخر الدين » ؛
كان فى الأصل كونوستبلا فى البوليس ؛ إلا أن طموحه الأدبى والثقافى كان
أكبر من حدود العمل الشرطوى فحسم الأمر بشجاعة واستقال والتحق ببلاط
صاحبة الجلالة محررا لمجلة أسبوعية تصدرها إحدى الهيئات الرسمية ؛ فلقبت
نجاحا كبيرا . وكان « أكرم فخر الدين » على علاقة ببعض الضباط الأحرار
عند قيام الثورة ؛ وكانت سمعته الصحفية جيدة بين أوساط اليمين واليسار معا ؛
إذ أنه فى الواقع يتمتع بموهبة ورغبة صادقة فى عمل شيء كبير يعتد به .
وهكذا التحق بجريدة القطر مديرا لتحريرها ؛ فى نفس الوقت كان يصدر مجلة
أدبية شهرية اسمها (القمر) ، قدمت جيلا جديدا من الأدباء والشعراء والنقاد
وكانت نسخها تنفذ فى أيام قليلة ؛ كنت أنشر فيها الكثير من خواطرى الأدبية
فى باب : رسائل القراء . أشعر أننى أحببت أكرم فخر الدين لجرأته فى نشر ما
يكتبه شبان مجهولون ؛ لمساهمته فى تدعيم حركة الشعر الحديث بنشر قصائد
لكافة الشعراء الجدد ؛ لفتحه الباب أمام آراء كتاب الأقاليم ووجهات نظرهم
بنشرها باحترام ويكتب أسماءهم بالخط الكبير . أحبه على الأرجح لأنه لا يكشر
فى وجهى كغيره من المسئولين ، ولا ينظر لى بتأفف من منظرى المتواضع جداً
وشكلى الهزيل غير المصقول ، ويسلم على باسمى كلما بادرت به بالتحية ؛ إزيك يا
فلان ...

إذا بى أرانى على رصيف محطة مصر فى مدينة لعلها الإسكندرية ؛
معى اثنان يبدو أنهما من أصدقائى ، يبدو كذلك أنهما جاءا من أجل توديعى ،
حيث من الواضح أننى على سفر ، بدليل وجود حقيبة ملابسى على الرصيف

نحت أقدامنا . تبينت بين الصديقين صديقى بدر صفوان الطالب بآداب الإسكندرية بقسم الفلسفة والإجتماع ، الذى أشاركه المسكن مع زميلين له فى نفس الكلية ؛ هى شقة حقيرة بحى محرم بك . تبينت فى الآخر زميله عبد المغيث الحوفى طالب قسم اللغة العربية واللغات الشرقية . فجأة ظهر الزميل الثالث عزت اللقانى طالب قسم التاريخ . لا بد إذن أننا نقوم بإحدى جولتنا اليومية فى حدائق الشلالات ومقاعد الكورنيش حيث نمارس ذلك الطقس الرائع : المذاكرة الجماعية . تذكرت أننى لست طالبا معهم فى الكلية بل لست طالبا على الإطلاق؛ تذكرت أننى مجرد بائع سريع فى الصباح ، وفى المساء أقوم بدور المذاكرة الحية بالنسبة لكل منهم على حدة ؛ إذ يتعين على أمسك بكتاب الفلسفة مثلا أو كتاب الأدب أو كتاب التاريخ ، ليستظهر صاحبه ما قد فهمه من الصفحات التى أشبعها تأشيرات بالقلم وتمتمة بالشفاه ، يتكلم وأنا أراجع كلامه على الصفحات ، لأرده إن نسى عنصرا أو خلط فكرة بفكرة أو حادثا بحادث أو التبس عليه عنوان بعنوان أو نسى المصطلح . شعور كهريبى يتمشى فى أوصالى؛ لست أعرف إن كان غضبا مريرا أم سعادة فائقة ؛ تذكرت أننى إلى السعادة أقرب ؛ فأمتع لحظة عندى هى هذه اللحظة التى أمسك فيها بالكتاب الذى لن أمتحن فيه ، لكى أراجع عليه لصديق سوف يمتحن فيه ؛ المتعة الحقبة أننى كثيرا ما أغلق الكتاب لأستظهر للصديق من ذاكرتى وأراجع فيه فيما يكون قد نسيه ؛ المُمضُ حقا أنه لاحق لى فى الإمتحان لأننى أهملت منذ الصغر فلم أحصل على شهادة التوجيهية ولم يعد عندى صبر على التفكير فى الحصول عليها بنظام الثلاث السنوات . لم يحدث قط أن جئنا نذاكر على رصيف محطة القطار . وإذا بالقطار يصل بالفعل ؛ وإذا بصديقى بدر صفوان هو الذى سيسافر ؛ ها هو ذا يتقدم مسرعا فيمسك بحديد باب القطار ، وعبد المغيث

الحوفى يجرى بجوار الشباك ممسكا بالحقيبة التى اتضح أنها تابعة لبدر فى هذه المرة ؛ إذ أننا جميعا نستخدم هذه الحقيبة نفسها عند السفر لأن واحدا منا فقط هو الذى يسافر نيابة عنا إلى بلدتيها المتجاورتين ، فى أول كل شهر ومنتصفه ، ليحى لنا بالزودة والمصروف من أهاليها ، توفيراً لمصاريف السفر . تمكن عبد المغيث من دفع الحقيبة من الشباك ؛ ليلحق بها بدر وقد دخل بالفعل وصار يعدلها فوق الرف ؛ وصار عبد المغيث يزود بدرا برسالة شفوية طويلة حاقة بأولاً وثانياً وثالثاً وعاشراً ، سرعان ماتبينت أنها رسالة للأستاذ أكرم فخر الدين مدير تحرير جريدة (القطر) وصاحب ورئيس تحرير مجلة (القمر) الأدبية ؛ سرعان ماتبينت أن ثمة علاقة قربة تربط بين أكرم فخر الدين وعبد المغيث الحوفى عن طريق المصاهرة ، وأن أكرم فخر الدين رغم شهرته الكبيرة هذه فإنه طالب منتسب بكلية آداب الإسكندرية فى نفس القسم مع عبدالمغيث سنة بسنة ؛ وعبدالمغيث يرسل إليه المحاضرات أولاً بأول مع كل مسافر من زملائه أو أساتذته ؛ يرسل له أيضا بكل صغيرة وكبيرة . تذكرت أننى قمت أكثر من مرة بتوصيل مثل هذه الرسالة لأكرم فخر الدين ومعها بعض محاولات القصصية وقصص وأشعار بعض الأصدقاء من أدباء الإسكندرية . ألهذا يتعاطف هو مع موقفى ؟ هو على أية حال شخص ليس من السهل معرفة مكنونه ؛ وجه سلطوى صرف رغم ما فى أعماق صاحبه من رقة حاشية وظرف وخفة ظل خفية ؛ جهم على النوام ، مطبق الشفتين ؛ كل شىء فى جسده ضخم متين البنيان ؛ قوام فارغ عملاق ، رأس كبيرة شقراء اللون بشعر غزير مقصوص لا يزيد طوله عن سنتيمتر واحد ؛ أنيق جدا ، يرتدى البذلة الكاملة صيفا وشتاء ؛ يمشى من باب المصعد إلى مكتبه فى خطوة عسكرية مهيبية ، مستمتعا بمنظر الساعى وهو يجرى أمامه ليفتح الباب ويرتب الأشياء ويسرع

بإحضار فنجان القهوة . بمجرد جلوسه يشرع فى قراءة الصحف بتركيز وأناقة شديدين . لم أعد أعرف بالضبط إن كان يحبنى أم يكرهنى ، أشعر أنه ييش فى وجهى . وإن كان لا يرحب بأن أعمل معهم فى الجرنان ؛ فهو دائم الحديث عن الدخلاء وأنصاف الموهوبين الذين يتسللون إلى المهنة من غير حملة المؤهلات العليا ؛ وكلما غضب من شئ لعن المهنة ووصفها بأنها مهنة من لا مهنة له ؛ وكنت أفهم أنه يقصد أشخاصا معينين فى الجرنان لكن هذه العبارة بالذات كانت تقبض على قلبى بقبضة من حديد .

ها هو ذا يقلب فى نسخة من الجرنان أغلب الظن أنها الطبعة الأولى ، ممسكا بالقلم الأحمر . ضبطت نفسى متلبسا باللهفة الشديدة ، حيث تعلق نظراتى بالصفحة الأخيرة وقد تلاحقت دقائق قلبى وأنا ألهث مسرعا قبل أن تنطوى الصفحة تحت يد أكرم فخر الدين . تبين لى أننى كنت مهموما بالبحث عن خبر الأستاذ إبراهيم عبد المتجلى ، الذى كنت واثقا من نشره بعنوان وصورة للرجل ؛ وقد انبثقت فى مؤخرة رأسى ليلة جميلة عظيمة الشأن حين أتشعبط فى الأتوبيس الآن إلى شبرا ، لأدخل على الأستاذ بالجرنان لتكون مفاجأة السهرة وعدة سهرات أخرى قادمة . لهثت عيني أكثر من مرة فوق جميع أخبار حديث المدينة حتى أخباره السريعة ، لم أجد الخبر ؛ عرفت أن مسعود جودة قد طواه ووضعه فى جيبه وهو خارج بالأخبار إلى مدير التحرير ؛ عرفت خلته ؛ إنه يشك فى أى خبر يتلفه المحرر على نشره ، فيتعهد عدم نشره حتى لو كان خبرا صحيحا مهما . شعرت بالحق الشديد تجاهه ...

رأيتنى طفلا غريرا يجرى بكل قواه نحو باب دارنا التى فى بلدتنا . كنت قد تجاوزت خالى معاطى وصحبته الذين كانوا أخذونى للسهر معهم فى دار بعيدة غربى البلد ، حيث دخنا الحشيش ونفخوا دخانه فى وجهى وأنفى

ضاحكين حتى انسلطت وصرت أفعل، حركات وأقول كلمات تضحكهم ؛ نحن الآن فى طريق عودتنا ؛ أحسست أنهم يتكئون فى السير كلما أسرع ؛ فيما بدالى لى يتفرجوا على منظرى وأنا أتطوح من الدوخة ؛ كنت أعرف هذا ؛ لكنهم حين انفجروا فى ضحك مكتوم متقطع هيات لى السطل أنه بكاء حاد عنيف ؛ حتى هذا كان من الواضح أننى أعرفه سلفا ؛ مع ذلك طرأ على بالى أول ما طرأ أن أمى التى تركناها مريضة فى الدار لابد قد ماتت ووصل الخبر إلى خالى ؛ فإذابى أندفع فى الجرى هكذا ؛ وهكذا دخلت دارنا أكاد أنكفىء من السرعة والإضطراب . صعدت السلم الخشبى ذا الدرابزين ، وكنت متكورا على نفسى كما ينكمش راكب الحصان المنطلق ؛ كان لابد أن أعود عند البسطة فى الطابق الثانى حيث توجد الغرفة التى تنام فيها أمى ؛ ولم أكن أرى شيئا فى الظلام ؛ فدفعت رأسى بكل قواى ثقة فى خلو الطريق أمامها ، فإذا هى تتحشر بين حليتين من خشب الدرابزين ؛ وإذا بصرختى تضيق فى جعجة الخشب وصياح خالى ورفاقه الذين اقتفوا أثرى ...

كنت لا أزال أحاول تخليص رقبتى من بين خشب الدرابزين والتقاط النفس، حين وجدتنى قد انتفضت جالساً على الكرسي وسط ضجة هائلة انقبض لها قلبى ، إذ أن الكرسي الذى اتخذته مسندا لساقى قد مال فوق الكرسي المجاور فوق كلاهما على الأرض فى ضجة . ظللت لدقائق طويلة أضع يدي على قلبى محاولا ضبط دقاته اللاهثة ، متوجسا مما حدث . بالفعل تناهى إلى سمعى وقع خطوات فى الدور السفلى حيث توجد المطابع ، ثم صوت رجال يتبادلون الصيحات المتسائلة ؛ ميزت فيها صوت « حربى » خفير الدار ؛ ثم إن وقع الخطوات صار يتضح صاعدا السلم حتى اقترب تماما ؛ فشعرت بالخطوات تتوقف أمام الجناح الذى فيه هذه الغرفة ؛ وشعرت بيد « حربى »

تهزم الباب تتأكد من أنه مغلق بقلعه ؛ ثم انطلق صوته فى برطمة ميزت فيها بعض كلمات عن القلط الضالة التى تختبئ تحت الكراسى لتوقع بالاشياء وتكسرهما ، وعن البوفيه الذى وسخ الدار ببقايا مطبوخاته وماكولاته ؛ ثم أخذ صوت الخطوات يتباعد هابطا ...

لا بد أن مئات النبائيت كانت تنهال على جسدى ، فكل عظامى متكسرة ، رقبتي متصلبة ملتتهبة كأنها كانت بالفعل محشورة فى الدرابزين . تاكدت أن إعادة وضعها على مسند الكرسي مرة أخرى قد يفجر عروقها ويفجر رأسى . نظرت حوالى فى الحجرة بحثا عن فكرة ما من أجل رقبتي ؛ ثم راغما وضعتها من جديد على المسند ؛ وراغما رفعت ساقي لأسندهما على مسند الكرسي المقابل مثلما كنت منذ برهة . فى الحال سمعت أصوات قلقة ورعد مخيفين ؛ أفقت ؛ تبين لى أن الأصوات المرعبة تصدر عن أنفى وفمى ؛ فتحت عيني وعدلت رأسى ؛ كان اللعاب قد سال وأغرق مسند الكرسي مع كتفى . فكرت فى شد ورقة من رزمة الدشت أمسح بها كتفى ومسند الكرسي ، لكننى شعرت كأنى غارق فى حفرة فى الأرض ملتصق بها التصاقا ، وأنتى غير قادر على تحريك أى جزء من جسدى . داهمنى فى الحال شعور بالخطر : حتى متى سأظل مستسلما لهذا التعب ؟ حتى يدخل مسعود جوده نفسه فيجدينى على هذا الوضع فتكون الفضيحة عظيمة ؟! إن الجميع بما فيهم أكرم فخر الدين ينتظرون سببا وجيها كهذا يقطعون به رجلى عن الدار ويمنعوننى من دخولها بتاتا . صرت أقلب عيني فى جميع أنحاء الغرفة ، فكرت فى الشباك المطل على الشارع ، وما يحيط به من مواسير ؛ ثم تذكرت أنه ليس يطل على الشارع إنما يطل على باحة فى مدخل الدار . وقعت عيني على آلتى التليفون فوق مكتب مسعود جوده ؛ تذكرت أن إحدى الآلتين متصلة بالسويتش الداخلى للدار ،

والأخرى متصلة بخط خارجى مباشر ، شأن جميع رוסاء الأقسام . طقت الفكرة فى رأسى كحل عبقرى لمشكلة البشرية كلها ؛ نفضت نفسى بحكمة حتى اعتدلت جالسا ؛ ثم تسحبت فى هدوء على أطراف أصابع قدمى حتى وصلت إلى المكتب ؛ رفعت سماعة الخط الخارجى المباشر ووضعتها على أذننى ؛ جاعنى ونين الخط قويا داهما ملحاحا . أبقيت السماعة فى يدي لبرهة تلبستنى فيها الحيرة بين أرقام تليفونات الدار كلها . بإلهام إلهى تذكرت أن رقما مكتوبا على قرص هذه الآلة . تسللت إلى قميصى ، فنزعت من جيبه علبة ثقاب ؛ بيد مرتعشة أشعلت عودا ؛ قربته من الرقم المدون على القرص ؛ صرت أردده ؛ ثم أشعلت عودا آخر وصرت أدير القرص فى طلب بوليس النجدة : (١٢١) ؛ جاعنى الصوت من الطرف الآخر هدوء وروية وود ؛ تحت أمرك ؟ تتحننت بحثا عن صوتى ، فلما وجدته قلت : « من فضلك والله ! ممكن أطلب خدمة من النجدة ؟ » . قال : « إأمرك ! » ؛ قلت بامتمان : « إذا تكرمت تبقى تطلبنى فى الرقم دا الساعة ستة صباحا ! » وأمليته الرقم المدون على القرص ، قال : « مسافر إن شاء الله ؟ » ؛ قلت فى فرح « بإذن الله ! وده ميعاد الطيارة ! » . قال : « إطمئن ! حتى لو أنا مشيت حاسيب نوته للزميل القادم ! » شكرته ووضعت السماعة ؛ وعدت إلى الكرسي من جديد ، حيث اتخذت وضعى السابق وقد شعرت بقليل من الإطمئنان ...

طرقت باب غرفة رئيس التحرير طريقة خفيفة سريعة ثم فتحت بابها واندفعت داخلا والطهمة الفرحة تكاد تعمينى ؛ كان صديقى فهمى أبو الفتوح قد أراد أن يجعل وجهى مألوفاً لدى رؤساء التحرير ، فبعثنى بورقة أطلب تأشيرته الدورية عليه . كلانا لم يكن يتوقع أن الهلأوى بك هو الموجود الآن فى هذه الغرفة ؛ وقد سرنى أن الساعى الخاص به لم يكن لحظتها فى موقعه المرابط

أمام الباب ، ولابد أنه ذهب ليضع القهوة للرئيس بنفسه معتمدا على أن اللبنة الحمراء المضاعة على الباب فيها ردع كاف . إلا أنني لم ألاحظها بالطبع ؛ فإذا بى أقف مصعوقا أمام منظر الهلباوى بيك بجسده الضخم كالقيل ، يجلس على الكتبة الجلدية الوثيرة كالهرم المتكوم تبرز منه منطقة حية كثعبان ضخم نصفه طليق ونصفه الآخر محتجز فى الشق ؛ سرعان ما تبينت أنها المطربة الكبيرة الشهيرة بـ « بنت النغم » ؛ التى غنت من كلماته كثيرا من الأغنيات ؛ كانت جالسة فوق حجره ؛ وقد طوق خصرها بذراعيه وجعل يحاول تقبيلها فى كل مكان وهى تتلوى فى دلال بجسدها النحيل الطرى المشع ، وهمماتها المكتومة فى احتجاج كأنه الإغراء . صوتت حين رأيتنى داخلأ أهول فى حماسة كالعبيط . فزع البيك وفك أسرها فاعتدلت واقفة تعدل هندامها وتسوى جدائل شعرها النشوان . ركز بصره المخيف فى عيني ؛ فيما وقفت مكاني مسمرا أنتفض من الخوف والحرص . شعرت أنه رغم هذا الغضب الهائل يخفى مزاحا وحرما هائلين ، بل هو يكتم ضحكة كبيرة مما حدث ؛ ثم شرع يستجوبنى : إنت اسمك ايه يا ولد ؟! ويتشتغل فى أنهو قسم ؟ مع مين ؟ ؛ رأيتنى أندفع فى الإجابة بكل صدق وانطلاق حتى ما لم يسألنى عنه أجبت عليه ؛ فإذا به يشير إلى بأصابعه فى حركة رهيبة قائلا بصوته العريض الضخم الأجش : « تعالى هنا ! » ؛ فذهبت إليه والأوراق تنتفض فى يدي متوقعا أن يسعنى بالقلم على صدغى . فعلا شرع يفعل هذا ؛ لكنه تمهل برهة ثم أمسكنى من أذنى بقسوة شديدة ، فجال بذهنى خاطر كدت أضحك له ، إذ أيقنت من تربيته الكتاتيبية وأن مسكة الفقيه للأذن هكذا لا تزال تؤرقه . وعاد يسألنى : « معاك شهادة إيه ؟ تربيت فين ؟ » ، لكنه فى النهاية أفلتني قائلا : « تانى مرة تبقى تتخبط على الباب كويس ! واوعى تورينى وشك هنا تانى ! » قلت : « حاضر يا فندم ! » ، واستدردت خارجا . صاح : « خد » ، فاستدردت عائدا ؛ فأشتر على الأوراق

وأعطاها لى قائلا : « جاك عمى فى عينك ! » فأحسست أنه يصلحنى وأن ثمة ود فى نبرات صوته هذه المرة تكاد توصينى بأن أكون رجلا فلا أذيع خبر ما رأيت لأحد . وحين فتحت الباب لأخرج كان عبد العظيم البرديسى جالسا فى موقعه ، فشيعنى بنظرة استنكار فزعة حاقدة حانقة وصار يتقلب فى قعدته كالمسوع بالنار ؛ ومضيت أسبح فى غزير العرق حاملا الأوراق ؛ فما أن وصلت إلى صديقى فهمى أبو الفتوح ، حتى رأيته لاوبوزه لأول مرة فى حياته ، وبدا كأنه لا يعرفنى على الإطلاق ؛ ولما قدمت له الورق الذى كان قد أعطانيه نظر لى فى استنكار وأزاح الورق بيده كأنه يبعد عن نفسه تهمة خطيرة ؛ فوقفت حائرا ؛ فدخل أحد السعاة لم أتين شخصه ، وربت على كفتى ثم سحبنى خارج الحجرة ، وأشار إلى الردهة ؛ فامتثلت لإشارته ومضيت بالأوراق لكننى شعرت بخطر غامض غير مفهوم ، فاستدردت ماذا يدى بالأوراق لمن يأخذها ؛ وكانت الردهة خالية تماما ؛ وحين اقتربت من غرفة المراجعة منتويا وضع الأوراق على أول مكتب فيها فوجئت بأنها ظلماء تماما وليس فيها ثمة من أحد فصرت أروح وأغدو فى الردهة كالفأر الحبيس ؛ وأخبط بيدي على باب الردهة صارخا : يا عبد العظيم ! يا أحمد ! يا عم وليم ! يا عم حربى ! « ولا من مجيب ؛ فظلللت أهن الباب بغيظ فيما أنخرط فى بكاء حارق يائس ؛ حتى وقعت على الأرض وسط بحيرة من الدم والدموع ...

فتحت عيني فزعا ؛ كانت رأسى قد انزلقت إلى الفراغ وغاصت فى كومة من اللعاب ؛ تذكرت فى الحال أن حادث دخولى على الهلباوى بك لم يسمع به أحد على الإطلاق ، ولا حتى الهلباوى بك رآه أو سمع به ؛ إذ أننى ماكدت أفتح الباب وأخطو بداخله حتى رأيت ذلك المشهد فتسللت خارجا دون أن يشعر بى أحد ؛ وقلت لصديقى فهمى يومها أن اللبنة الحمراء مضاعة على الباب . عجت كثيرا مما رأيته الآن ؛ وشعرت بقرف شديد ؛ لكننى عدلت

رأسى على حافة الحشية مريحا صدغى على الجانب الذى لم يتلوث
باللعب...

أغلب الظن أنها كانت ردهة الجناح المقابل ، حيث يوجد على اليمين
للداخل مكتب صغير تجلس فيه فتاة عجوز لعلها الأنسة « سوسن » سكرتيرة
الأستاذ « سمير لطفى » أحد رؤساء تحرير جريدة (القطر) ، القبطى الذى
تربى فى مدرسة صحفية شهيرة متمثلة فى جريدة سيارة كبرى معروفة بولائها
الأمريكى فضلا عن طابعها الأمريكى الخالص ؛ مدرسة صحفية درجت على أن
تكون مجرد موظفة فى خدمة أية قوة مهيمنة سواء كانت قوة رأس المال
الأمريكى أو قوة النفوذ العسكرى ؛ كل أبنائها حرفاء فى الإثارة وبعث
الضجيج والصخب والسرع بعقول العامة والبلهاء كى تزيدهم عامية وبلاهة ،
متوسلة بكل أساليب التضليل وظواهر المخترعات الأمريكية الحديثة التى تفرد
لها الصفحات لتلقى فى روع العامة أن الأمل كله بات معقودا على شدة ولائنا
لهذه الأمة الحديثة ذات القوة والنفوذ مالكة كل منافذ المستقبل بالنسبة للبشرية
جمعاء . ولأنها صحافة بلا مضمون حقيقى وبلا هموم شعبية واضحة وبلا روح
إنسانية على الإطلاق ، فإنها تجعل من الحبة قبة ومن الفأر جملا ؛ إذا وقع
تاجر المخدرات أو السفاح الكبير فى تلبس دامغ فإنها تنشر القضية ممسكة
عن ذكر اسمه ، أو تنشر صورته معصوبة العينين ؛ أما إذا تعرض شخص
عادى فقير لتهمة باطلة فإن الدقة فى نشر الخبر تكون نبراسها ، وفى الصفحة
الأولى ؛ تكتب الخبر ملخصا بالبنط الكبير الأسود فى أول صفحة ، ثم تعيده
بالتفصيل الممل فى صفحة داخلية لا تقدم أى جديد على الخبر السابق ؛ وغالبا
ما يكون خبرا مكنويا فى تسعين بالمائة من جوهره . يقود هذه الجريدة -
واسمها الأنباء - رجل تربى فى أمريكا ورضع من ثديها لبن الولاء ؛ فبين عشية

وضحاها بات يمتلك هذه الجريدة الكبرى ، إبتنى لها دارا كبيرة فى وسط
المدينة استند على اعتمادات ضخمة فى البنوك . بكل هذه المعلومات يتهامس
المحررون الكبار فى جريدة القطر ، ويعلنها الكثيرون من الكتاب والصحفيين فى
جميع أنحاء البلاد ..

سمير لطفى تخرج فى كلية الحقوق ؛ وهو فى الأصل من أسبوط لكنه
قاهرى صرف يعرف كل صغيرة وكبيرة عن الحياة الخفية للقاهرة ؛ يصادق
جميع طبقات الفنانين وتربطه بمعظمهم علاقات شخصية حميمة وزيارات عائلية
غير مقطوعة ولا ممنوعة ؛ كثيرا ما يستخدمها فى حل مشاكله وأزماته . يعرف
كيف يصوغ كل العلاقات والظواهر فى مقالات وعواميد وتحقيقات وقصص
وروايات صحفية ملفقة ؛ وقد أظهر نجاحا كبيرا بحكم مرونته الهائلة ؛ إذ هو
سريع البديهة مسالم فى ذكاء شيطانى ناعم . يعرف متى يتمسك بأقوال المسيح
الحى ، ومتى يستغيث بشفاعه سيدنا محمد صلوات الله عليه ، ولمن ينبغى أن
يدير له خده الأيسر إذا ما لطمه على خده الأيمن . يعرف كيف يرضى الحاكم
ويدلك له فى مواطن اللذة والمتعة . يعرف كيف يتقمص رأى السلطة الموجهة
حتى لكأنه رأيه الخاص من بنات أفكاره . يعرف كيف يسحق شخصيته فى
الوقت المناسب تحت أحذية اللحظات الحرجة المنذرة بالدمار . يعرف كيف ينجو
من كل المؤمرات والمكائد كما تخرج الشعرة من العجين . يعرف كيف يكتب فى
أية لحظة تحت أى ظروف فى ظل أى مناخ متاح . يعرف كيف يضع أسلاكه فى
الأقطاب الكهربائية ليصير فى الحال ذى قوة تصعق من يلمسها تطيره فى الهواء
بددا . يعرف كيف يعتقل أحاسيسه ومشاعره الخاصة . يعرف كيف يتأمر
وكيف يحسم الأمور كيف يستقطب ولاء المحررين والعمال بمكافآت مجزية .
يعرف كيف يرسم الأهمية على وجهه الكروى كعبة البطاطس الكبيرة ، بفروة

ثقيلة من الشعر الصارم الحليق ، وحاجبين كثيفين معقودين على الدوام على هيئة رقم ١١١ ، فوق حافة منظار طبى سميك بنى اللون إطارا وعدسات ، يستقر على أنف دقيق معقوف ذى منخرين واسعين كبوابتى خندق وسط شارب كثيف كالعشب الحائل ، وشفتين رفيعتين مطبقتين بشفرتين سوداويتين على سيجارة مغروزة بعوجة متحذقة تنصاعد منها خيوط الدخان . يكتب بقلم من الذهب ماركة « باركار » بطاقة خرافية ، يكتب مئات الصفحات كل يوم فى ساعات قليلة دون سأم ، لدرجة أنه فى بعض الأحيان يكتب افتتاحية الجرنان مرتين وربما ثلاثة ؛ كل مرة بوجهة نظر تناقض السابقة وتختلف معها ، لا يجمع بينهما سوى قدرته على الإقناع فى كل مرة بأن هذه هى وجهة نظره الحقيقية فى الموضوع ؛ يقدم منها ما يتوسم أنه مسابير للريح فى هذا اليوم ؛ فإن اعترض عليها الرقيب ذو المكتب المنعزل فوق المطابع إستردها وقدم الأخرى؛ وهكذا يضمن أن الجرنان لن يتعطل دقيقة واحدة . من هنا بات مكسبا كبيرا للضباط الأحرار حين أممو الصحافة ؛ أيامها كان رئيسا لتحرير مجلة أسبوعية تعنى بشئون وقضايا الشباب تصدرها الدار التى تربي فيها ؛ وكان فى نفس الوقت نائبا لرئيس تحرير جريدة الأنباء اليومية . فلما جىء به رئيسا لتحرير جريدة القطر أثار زوبعة خطيرة فى الجرنان ؛ قوبل بازورار شديد ، حتى اضطر إلى الإتيان بسكرتيرته سوسن ومدير مكتبه سماح شعبان من الدار التى كان يعمل بها قبلا . فى الدار ثلاثة رؤساء للتحرير تكتب أسماؤهم جميعا على الترويسة فى صدر الصفحة الأولى ؛ صار هو رابعهم ، صار أهمهم جميعا ، صار الرئيس الفعلى الذى يدير ماكينة العمل . كل واحد منهم مسئول عن شىء بعينه ؛ لكنه المسئول عن كل شىء فى النهاية ، عن كل كلمة ينشرها الجرنان ؛ ولذلك حشد قسم المراجعة برجال من لدنه يسهرون على

قراءة كل شىء وشطب كل ما يرون أنه لا يتفق مع وجهة النظر التى يمثلها أو يتبناها ؛ كما حشد قسم التحقيقات بشباب جدد من الخريجين المحدثين أغراهم بوضع أسمائهم بالخط فوق الموضوعات وصار يوجههم بنفسه إلى الموضوعات التى يجب السعى وراءها والزوايا التى يتناولونها من خلالها ؛ كذلك انتخب ساعيا خاصا من سعاة شركة الإعلانات التى تصرف على الجرنان ، إسمه «ميكال زكى» ؛ وجاء من جريدته السابقة برجل ضخم الجثة ذى مؤخرة كبيرة جدا ، يتحرك فى بطء كالمحمل ، ويفتى فى كل شىء بعلمنة ولباقة وبلكنة أجنبية مستغلظة وخبرة حرفية هائلة ؛ جعله مديرا للتحرير مع الأستاذ أكرم فخر الدين وزميله فكان ثالث مدير للتحرير فى الدار . غير أن المدير الفعلى أيضا ، القائم على تنفيذ الطبع فى النهاية بإشراف دقيق وإعادة نظر وصياغة بقلمه السلس المدرب فوق رخام المطبعة حتى أن أصحاب هذه المقالات والموضوعات لا يلحظون أنه اختصر أو أضاف أو أعاد الصياغة . إسمه باهت كشخصيته ، لارنين ولا قابلية للشهرة ، إسمه « محيى أحمد » ؛ يتكلم بسرعة ، بصوت لم يتعود فى الأصل على الإنطلاق لكنه يجبره على الإنطلاق ؛ وهو من أصل بلدى لكنه يتبرأ منه بسلوك مفتعل ، محاولا الإيهام بأنه من أصل أرستقراطى ، فى حين أنه فى الأصل فقير كادح وأبوه - كما يقول أبناء حيه - عربجى حنطور فى حى باكوس بالإسكندرية ، ولهذا فإنه يتصرف دائما مع الناس مثلما كان البكوات يتصرفون مع أبيه . على أنه موهوب ما فى ذلك شك ، ومحرك نشط لمن حوله ؛ مغرم هو باستقراء الأوراق القديمة ، والبحث عما تنطوى عليه من فضائح قد تخدم السلطات القائمة ، أو معلومات قد تفيد فى خلق معين لقرارات سلطوية معينة . يستطيع تسويد آلاف الصفحات فى لحظات دون أن يشطب كلمة ؛ مما يؤكد اتساقه الشديد مع نفسه . لا يدخن ولا يشرب الشاى أو القهوة

أو أى مشروب روى على الإطلاق خوفاً من تفاقم السمنة . مع ذلك فإنه متزوج من ممثلة إغراء مشهورة بفضل مألديها من مواهب وقدرات ؛ إسمها «عزة بركات» ، ذات وجه كالخوخة الناضجة ، وشعر أشقر غزير ، وعينين لامعتين ببريق جنسى مخيف جدا ؛ بريق يبدو على الدوام كأنه صاعد من أسفل قاع الشعور الفائق بالذلة ، ملء بالشبق ملء بالوعد ملء فى نفس الوقت بالوعيد ؛ هى نظرة التى تثيرك عن عمد كأنما فى براءة الطبيعة المطلقة ؛ وبنفس النظرة تنذك بأن تلتزم حدود الأدب ؛ غير أنه إنذار رخو لا يردع بل يرفع درجة الإثارة إلى ذروتها . جسدها جميل إلى أقصى الحدود ، كتمثال رائع من الضوء ، كيمامة صغيرة يمكن أن تطويها تحت إبطك أو تخفيها فى تجويف صدرك . رغم نحافة كتفيها العريضتين وعجيزتها الواقعة النافرة المتحدية وعنقها المرمى الواقف على صدر كباحة من الرخام ؛ فإنها سريعا ما تصيبك بالأس والحسرة على حرمانك من هذه الكنوز النادرة . كان محيى أحمد يسمع غزل الناس فيها ، ويسمع هجوم محررى الدار القدامى عليه وعلى أستاذه ؛ ولكن قفاه أغلظ من إيتيه لا يشعران بأى وخز ، ولا يكثر وجهه الغليظ المكبظ بأى شىء كما أنه لا يعكس أى انفعال ، كأنه بطيخة بعينين وشعر رأس ومما أثار حنق محررى الدار الأصلاء ؛ ما أعلن من أن سمير لطفى قد جىء به لينعش الجرنان ويرتفع بأرقام توزيعه الهابطة المتدنية ، بما لديه من حرفية فائقة . وكانت العروض الكبيرة فى جريدة القطر - وجلهم من كبار الكتاب المرموقين والأساتذة الأجلاء وأصحاب الأقلام النارية - يعرفون أنه ما جىء به إلا لكونه يمتلك مرونة ليست تتوفر عندهم ؛ ولكن لأنهم لا يحبون الإصطدام برجال الثورة ولا يحبون جدران الزنازين ومعاشرة الجاويشية وتكسير الأحجار فى الجبل فإنهم قد تقبلوا الأمر بكل بساطة وأريحية عجبية ، خاصة أن سمير لطفى أعطى لكل ذى حق حقه ؛

فخصص لكل واحد مقالة أسبوعية أو عامودا يوميا أو صفحة يوميات يكتبها من منزله دون أن يتجشم مشقة الحضور إلى الجرنان ؛ وبعضهم كلف بالبقاء فى منزله معززا مكرما يقبض مرتبه وحوافزه ومكافأته بشرط ألا يفكر فى الكتابة ؛ فكانوا جميعا يوعزون إلى صغار المحررين ورؤساء الأقسام وعمال المطابع واللجان النقابية بضرورة التمرد وإعلان الثورة على هذا المقتحم . وقد كان ؛ فمئذ احتل سمير لطفى مكتبه هذا فى أول غرفة على يسار الداخل فى الجناح المقابل ، بآثاثا ذاك الفاخر ؛ صارت الردهة المواجهة لمكتبه تزدهم على الدوام بطوائف من المحررين والعمال وموظفى الإدارة يلفطون ويتظاهرون فى طلب مقابلته مستخدمين شتى الأساليب ، من ترج ومن صلف ومن عنجبية ومن زعيق بصوت عال فى غير تحفظ .. كل ذلك وهو يسمع ولا يبالي ؛ ومدير مكتبه يوزع البسمات والقبلات فى غير تفرقة ، يطلب الشايات والقهاوى بغير حساب فى محاولات للتهداة والترضية والإحتواء لا تنتهى ؛ فى حين لا تكف سوسن السكرتيرة عن تلقى المذكرات وتسجيلها والدخول بالملفات إلى سيدها ثم العودة بابتسامة واعدة مطمئنة ..

لا بد أن الزحام الذى أشهده الآن متصل بشىء من هذا القبيل . رأيتنى أقترب من هذا الجمع متوجسا ، يدفعنى الفضول إلى معرفة حقيقة الأمر ، ويكلبنى الخوف من أن ترصدنى العين فيوضع اسمى فى القائمة السوداء لدى الرئيس الفعلى للجرنان ؛ وترن فى أذنى نصيحة صديقى فهمى أبو الفتوح ؛ لا شأن لك أنت بهذه الصراعات فلا تتكلم ولا تعلق ولا تظهر فى التظاهر . وقفت من بعيد أراقب الأمر مع بعض الساعة وعمال البوفيه .. فتبين لى أن الجمع يضم مجموعة هائلة من الأفندية المحترمين لم أكن رأيتهم من قبل أبدا ولا عرفت أى واحد فيهم . وكان من الواضح أنهم على درجات متفاوتة من الأناقة والرصانة واللباقة ومسحة الأهمية على وجوههم ؛ وكلهم مشتركون فى سمة واحدة هى

ذلك الصدا الذى يتراكم على وجوههم ويتركز فوق جباههم ، واللون الرمادى الحائل فى جميع عيونهم ؛ كما أن أيدى بعضهم ناشفة متشققة ، كانتهم جميعا مجموعة من الأنفار الأجرية الكادحين تم نزعهم من ملابسهم الفقيرة واللباسهم هذه الحلل التنكرية الأنيقة بمصانها الشفافة . كانوا يتبادلون الحديث فى فوضى وغوغائية وصخب ؛ تارة فى غضب وتارة فى لامبالاة ، وتارة فى تعقل وأريحية ورزانة ، وتارة فى تهديد شبه سوقى صارخ . رأيتنى أقترب من أحد الساعة لأسأله :

- « من هؤلاء وما خطبهم ؟ ! » .

فشوح بذراعه نحوهم وقال لى :

- « أأست تعرفهم يارجل ؟ ! إنهم الكتاب والصحفيون الذين يسمون أنفسهم باليساريين ! شيوعيون ماتعرف ! إخوانيون ماتعرف ! المهم أنهم كانوا فى السجن منذ سنوات طويلة ! وقد أفرج عنهم الرئيس جمال عبد الناصر فجاءوا يبحثون عن مواقعهم ! بعضهم يا ولدى كان معنا هنا صاحب كرسي ومركز كبير ضاع الآن واختفى ! وبعضهم كان فى جرائد أخرى ! وبعضهم كان مدرسا أو موظفا فى شركة ! لكنهم جميعا تم ترحيلهم إلينا ! تم تعيينهم فى الجرنان ! والجرنان أصبح مثل حلة الطورلى عدم المؤخدة ! ملئ بناس من كل ملّة وكل صنف ! من أين نجى لكل هؤلاء بالمكاتب ؟ بل أين سنضع المكاتب ؟ وأين هى الصفحات التى يكتبون فيها وهى لا تكفى من هنا من الخلق المتخائق كل يوم عليها ؟ إنهم والله غلطانين فى هذا التجمهر والزعيق ؟ هل نحن فى زمن التجمهر والزعيق ؟ ! إن الواحد يمشى جنب الحائط ولا يتركه الشياطين فى حاله !! أليسوا سيقبضون مرتباتهم وهم نيام فى بيوتهم كغيرهم ؟ فما الذى يخيفهم ؟ إنه مخ أعوج غريب ! ناس تبحث عن الراحة وهؤلاء يزنون على خراب عشهم !! » .

ثم تركنى ومضى . هو كغيره من الكثيرين فى هذه الدار يظننى موظفا بها ولهذا يخاطبنى فى عشم وبساطة . وإذا علمت منه هذه المعلومة تعاطفت مع هؤلاء المتجمهرين ؛ وشرعت أقترب منهم فى حميمية ، لعلنى أتعرف فيهم على كثيرين من الكتاب الذين حلمت برؤيتهم ذات يوم وحجبهم السجن عنى . فلما اخترقت جمعهم ، رأيت الوجوه التى كنت أعرفها من قبل تختلط الآن بوجوه لم أكن رأيتها ، يتجمعون فى زئيط مبتهج . فوجئت ببعض الساعة يقتحمون غرفة سمير لطفى ثم يخرجون حاملين تلالا من الكتب والأوراق والأشياء يتوجهون بها إلى المصعد ؛ ثم مالبث سمير لطفى نفسه أن يخرج فى أثرهم منكس الرأس معقود الحاجبين يمضى فى مهابة وسط رهط من رجاله .

قلت :

- « ما الخبر ؟ ! »

قال أكثر من صوت :

- « قد نجحنا فى الإدارة لأول مرة فى حياتنا !

شكاوينا جاءت بنتيجة لقد ضج سمير لطفى وطهق من الدار فطلب عودته إلى داره الأم ! وهو الآن متوجه إليها بالسلامة !! » .

وانبرى من يعلن هازءا على الملأ أن الدار خسرت كذا وكيت مما لا يمكن تعويضه منذ حل بها هذا الرجل الأريب . كان الجميع يرددون نفس القول بتفاصيل أخرى كثيرة تشبه الخيال والأساطير . الممض لى حقا هو أن الجميع يرددون ذلك باستماتة عجيبة وتشف غامض شرير ، كأن دار اليهود هى التى خربت وليست دارهم التى يتنطعون أمام شباك صرافها نهاية كل شهر وفى كل

أن بدواع مبتكرة من صنوف الإحتيال على نهب الفتات ! .. وكان ثمة جرس يرن فى إلحاح شديد يتتابع صوته من مكان مجهول تحت الأقدام أو خلف هذه الأبواب وليس من يستجيب له أو يسكته . صرت أنظر بحنق شديد إلى هؤلاء السعاة الواقفين فى بلدة وكسل يجرعون الشأى والدخان فى لامبالاة . حيائى . بعض المحررين وكتاب اليوميات ورؤساء الأقسام بهزة رأس فيها الكثير من الإستعلاء والتحفظ والتنبيه على بأن ألزم حدودى وأعرف مركزى . مع ذلك أغرتنى تحياتهم بالزحف شيئاً فشيئاً والإندماج فى جمعهم مدفوعاً بالدهشة من سماع هذه الأساطير والفضائح المتواترة حول ذلك الراحل غير المأسوف عليه ..

إذا بى قد صرت بين جمع أليف من أولئك الذين خرجوا لتوهم من سجن الثورة وجاعوا يتعرفون على مواقعهم فى جريدة القطر التعيسة . كان يبدو على كائننى ملم بكل أخبارهم على أكمل وجه وأنتى قد عاشرتهم على هذا الوضع سنوات طويلة ، وأنتى واقف معهم منذ أمد بعيد أستمع إليهم ويستمعون لى بألفة حميمة . يدهشنى الآن أنهم يحدثوننى باعتبارى زميلاً لهم فى الجرنان لا يعينهم معرفة وضعى على وجه التحديد . يدهشنى أن بعضهم يحمل رزماً من القصص يسألنى عنى يصلح من معارفى لإعدادها للإذاعة أو التليفزيون أو السينما أو المسرح ؛ وبعضهم يقرأ على بعضهم مخطوطات عديدة لدواوين شعرية مكتوبة فى المعتقل . الواضح أننى سكران بنشوة هذه المشاركة الحميمة وكأنتى قادر بالفعل على تقديم الخدمات وإسداء النصائح وفك الأزمات المستعصية . كان صدأ السجن لا يزال يصبغ وجوههم ورقابهم وأيديهم وعقولهم أيضاً ؛ وواضح أننى مروع من منظرهم ، من هذه الحكايات الرهيبة التى يستكمل بعضهم بعضاً حكايتها عن تلك التجربة المريعة الهائلة فى نفس الآن ؛ عن الذى مات من فرط التعذيب ، عن أستاذ الجامعة المرفه الوقور الذى كان يسوقه السجنان إلى الشغل الشاق سوق الأغنام فينكفى وينكسر منظره

فيتخبط فى ظلام البصر ؛ عن الخوازيق واللهاليب والسياط والكدر المميت ..
قياله من ثمن قاذح ذلك الذى يدفعه الإنسان من عمره لقاء المشى فى النهاية جنب الحائط إيثار للسلامة . كان من الواضح الجلى لى أننى متعاطف جداً مع الدكتور « مرقص الأسيوطى » ومع كبريائه الذى انكسر فخلف فى العينين ندبة وراء المنظار ؛ ومع « سالم السلمى » الذى يقدم كل يوم موضوعين ويتلقى ثلاثة مرفوض نشرها دون إبداء الأسباب فلا يبتئس ولا يفعل أكثر من ابتسامة خجول على شفتيه المتحفظتين فيما يعدل المنظار بطرف أصبعه فى حركة خاطفة؛ ومع « وهيب شنقار » ، الشاب الذواتى الطابع ، الطلق الحيا ، الذى يتلفت حواليه بحذر وتوجس كلما ضحك ضحكة صافية عالية أو تألفت فى عينيه نكتة سياسية يكتفى بالإيحاء بها فحسب ؛ و « فهيم ميخائيل » الناقد الشاب الذى يجيد الكتابة فى الفن من وجهة نظر فلسفية ويكتب فى عالم الجمال الماركسى ، وينتقد سارتر وكير كجارد وألبير كامو فى عامود أسبوعى صغير ما يكاد يبدأه حتى يضطر إلى إنهائه ثم يرمى بالقلم فى غيظ وهو يشد شعره ، منددا بهذه الصفحات التى يدهورها الجرنان فى عبث أعلامى لا طائل من ورائه، فيما يختنق هو كمفكر فى عامود ضيق لا يتسع للتمهيد لرأى بله أن يتسع للرأى نفسه ؛ كذلك أتعاطف مع « شكرى عبد الوبود » ، الفيومى الأصل، القصير القامة فى امتلاء وغلظة ملامح مع الوسامة ، مدكوك اللحم ، مرغد ، كحلو ف خفيف الظل ؛ يتكلم من حلقه بصوت خفيض ، يخلط الضحك بالكلام والكلام بالضحك ظناً منه أنه بذلك يغمز إلى معان خفية ويقرص فى أوجاع مستترة . يرتدى بذلة شديدة الأناقة بصفين من الصوف الهيلد المعتبر ، برباط عنق قرمذى على قميص سماوى اللون تمشياً مع لون البذلة الكحلى الغامق . قبل دخوله السجن كان فى السنة النهائية بكلية الفنون الجميلة ؛ وكان يرسم

بعض الأغلفة لبعض الكتب ، ويتمرن على الرسم الصحفى فى دار يسارية عريقة ؛ لكنه منذ خروجه من السجن وهو لا يكف عن دعوة الزملاء إلى بيته أو أى بيت من بيوتهم ليقروا عليهم آخر مسرحية كتبها . ثم فوجئت الأوساط الفنية باسمه يتردد فى أخبار الصحف ككاتب مسرحى من طراز جديد ، يتخصص فى الدراما الفولكلورية العربية ، ويعيد صياغة مواويلها وحواديتها فى قالب مسرحى قريب الشبه بمسرح الالامعقول الذى بدأ ينتشر فى البلاد كآخر موضات الفن المستورد الذى يثبت به مثقفونا دائما ، وبه وحده ، أنهم مثقفون . وقد شهدت جوقه محررى الفن ونقاده بأن مسرحيات شكرى عبد الودود التى كتبها فى السجن هى مسرحيات أصيلة وجديرة بالعرض على الجمهور فى مسارح الدولة والنشر فى كتاب . بالفعل صدرت مجموعة منها فى كتاب فخيم ضمن سلسلة مهمة تصدرها هيئة الكتاب ؛ ثم أتبعها برواية مهمة فى نفس السلسلة حظيت بإعجاب كل من قرأها فاعتبروها فتحا جديدا فى أرض الرواية العربية . ثم إنه بدأ بإصرار ومثابرة وإلحاح تعرف على بعض مخرجى المسرح وصادقهم حتى وقع أحدهم فى غرامه ، فقدم له عرضا مشوقا على خشبة مسرح تجريبى تابع للدولة ، مكونا من مسرحيتين من ذات الفصل الواحد ، إذ أن معظم مسرحياته من فصل واحد ؛ حوارها ذو طابع واحد ، أقرب إلى شعر العامية أو لغة المأثور الشعبى . كان شكرى عبد الودود بخيلا إلا مع من يشعر أن من ورائهم فائدة من نوع ما ؛ حينئذ يمكن أن يعزم الشخص على تحشيشة يستعرض فيها عدة أصناف جاءت كهدايا من أصدقائه فى الفيوم والشرقية من تجار المخدرات الذين تعرف عليهم فى السجن . قد تمتد العزومة إلى غوة ؛ أما إن تحققت الفائدة بالفعل من وراء شخص ما فلا بأس من إكرامية نقدية أو هدية ثمينة حسب حجم الاستفادة . كانت وظيفته فى الجرنان

كتابة المقالات عن معارض الفن التشكلى أو عن العروض المسرحية والفن الشعبى . مع ذلك فإنه شكا موهوب محترف ؛ فى دقائق معدودة يكون قد استقطبك فى صفه وعيشك فى مشكلاته العديدة التى لا تنتهى أبدا ، مرة مع الرقابة ومصادرة فنه العبرى لخطورته على النظام ؛ ومرة مع النظام نفسه فى عدم تعيينه بمرتب لائق مثل زملائه الذين قبلوا كتابة اعتذارات وخرجوا من السجن ؛ ومرة مع الفرقة المسرحية التى تطالبه بتعديلات جوهريّة فى نصوصه المقدسة وواقع الأمر أنها تفتعل مبررا لتأجيل عرض المسرحية كمبرر منطقى لرفضها نهائيا ؛ ومرة مع صاحب البيت الذى يدفعه الجشع لرفع الإيجار جنيها كاملا بحجة أنه أجرى على الشقة بعض إصلاحات لم تخرج عن كونها ترميم للشقة بعد تصدع وتشقق ؛ ومرة مع الحشيش الذى تردت أصنافه وردأت وياتت تجلب الصداق والدغششة وسرحان الذهن فى الفراغ الأملس ؛ ومرة مع منتجى السينما الذين يشتررون روايته الشهيرة ويبيعونها لبعضهم البعض دون أن يجروا أحدهم على تنفيذها لحساسية موضوعها ذى « التيمة » الجنسية الصارخة .. وهكذا لم يوجد فى الأوساط كلها من لم يعرفه جيدا وقد يتبنى أحدهم مشاكله ؛ بل إن الصحف كثيرا ما كانت تكتب فيها من خلال اليوميات والأركان الفنية . وبفضل إلحاحه وتركيزه ومثابرته على الشكوى صنع لنفسه إذاعة إعلامية خاصة متنقلة غير خاضعة للرقيب ؛ فكتب عنه الكبار والصغار بحماسة فائقة ؛ وقيل - بشواهد دامغة - أنه يتاجر فى الآثار خفية ، وأنه يجمع هذه الآثار من محترفى التنقيب عنها فى أراضى الفيوم وقرى الجيزة والصعيد والشرقية ؛ وإنه يهدى بعض القطع النادرة والجعارين لبعض من يتوسم فيهم مصلحة كبيرة أو يتوسل بهم لتحقيق . وكان المتسائلون عنه كظاهرة صاخبة يهزون رؤسهم فى خبث حكيم حين يتذكرون أن «شكرى عبد الودود» يحمل اللافتات اليسارية

الزاعقة فى حين أن الذين فتحوا له المنافذ كلهم من المحسوبين على اليمينية .
وقد حكى بعضهم أمام الجميع أنه شاهده فى باريس فى يوم قريب يزور متحف
اللوفر بحقيبة ملائكة بالقطع المتنوعة ، عرضها على المسئولين ؛ ففحصوها جيدا
وتأكدوا من أصالتها ؛ وأبدوا استعدادهم للشراء إذا هو أتى لهم من السفارة
المصرية بشهادة تثبت أنه تاجر آثار معتمد ؛ وكانوا بالطبع يعرفون أنه لن
يتمكن من الإتيان بهذه الشهادة ؛ ولكن شكرى عبد الودود حينما يتجول
بحقيقته بين المحلات الشهيرة المتخصصة فى العاديات ، لم يكن يدرك أن
مندوبا سرىا من المتحف يمشى وراءه ، ليدخل المحل بعد خروجه مباشرة ويأخذ
القطعة بزيادة قليلة أو كثيرة فى سعرها . العجيب أن مثل هذه الحكايات
وغيرها تحكى أمام شكرى نفسه بإضافات عديدة تكاد تشبه الأساطير فلا يعنى
بالرد عليها ولا بأى تعليق سوى ابتسامة بلهاء يقصد بها السخرية ..

ها أناذا الآن جالس معه فى غرفة مستطيلة تضم سبعة مكاتب ماركة
إيديال ؛ حول كل مكتب يجلس ثلاثة أو أكثر يتحدثون . لم أفهم بالضبط لماذا
أنا الآن جالس معه هو بالذات ؛ ربما لأنه قريب منى بعض الشيء بفلاحيته
التي تكاد تقرب من الحمورية فى شكلها الإنسانى الجاذب ؛ فإذا تتوقع منه
حمورية كاملة إذا بك تكتشف حمورية إنسانية حمولة ؛ وربما لأنه ودود بالفعل
يشجعنى ويشجع غيرى على إقامة الود معه ؛ وربما لفضولى الشديد تجاهه
ومحاولتى معرفة محتواه على الحقيقة . على أنه كان غاضبا لأول مرة ؛ تهطل
ملامح وجهه الدسم المكتنز المستطيل كالشمامة ، وتتشقق شفتاه الغليظتان تحت
السيجارة البلمونت القصيرة التي يشعلها على الدوام من سابقتها . أمامنا
فنجانان من القهوة أحدهما فارغ يبدو أننى شربته ، والآخر نصف ملآن يبدو
أنه يخصه . كان يخلد إلى الصمت برهة ثم يعود إلى الكلام فى صوت متهدج

أسيان أسيف ، ويخطط الكلام بالضحك كعادته ؛ لكنه هذه المرة ضحك مصفر
كالإبتسامة الشاحبة على ثغره . الكلمات غامضة مضخمة غاضبة ؛ لكن كان
يبدو وكأننى أفهمها ؛ بل من الواضح أننى أعرف الموضوع الذى يتكلم فيه
والذى أغضبته كل هذا الغضب ؛ سرعان ما فهمت أنه يقصد بكلامه وغضبته
شخصية « خالد الشباسى » ، الناقد الشاب ، الذى انضم بين صفوف الاسماء
الكبيرة فى زمن قصير ؛ لنبوغه المبكر ، وذكاء قلمه وبساطة عبارته وجرأة آرائه
واتساع مداركه وإلمامه الطيب بحقيقة القضايا الجوهرية والحيوية التى يعيشها
الشعب العربى ، والتي يجيد الكتابة فيها من وجهة نظر يسارية خالصة ؛ مع
أنه لم يدخل السجن ؛ لأنه - فيما قيل - لم ينضم إلى أى تنظيم من التنظيمات
اليسارية ؛ ولأنه كان ذكيا فى كتابته فلا يلخبط الأوراق ولا ينزلق إلى الغلطات
الكبيرة . هو الإبن البكرى لمدرس إلزامى فى قرية من قرى محافظة الدقهلية
كان موهوبا فى الشعر وعلى شىء من الثقافة ؛ لكن الأيام رزأته بكثرة العيال
ومرض الزوجة فانغمس فى جبال من الهموم المنزلية ، فنذر نفسه لتربية الأولاد ،
مؤجلا هموم الشعر والأدب إلى حين . غير أن الحين قد طال ، ووجد نفسه ينمو
من جديد فى شخص ابنه البكرى خالد ، فوضع كل همه فى تنقيفه حتى
أنضجه ؛ فبات الإبن بين عشية وضحاها كاتب مشهورا مسموع الكلمة ؛ وبات
الكثيرون من الشباب يعلقون عليه الآمال فى أن يكون لهم نصيرا لأعمالهم .
ولم يكن هو فى الواقع يتردد عن هذا كلما واثت فرصة ؛ بل إنه كان من أوائل
من كتبوا عن مسرحيات شكرى عبد الودود قبل ظهورها كتابة جادة محترمة
أفاد منها على أكثر من مستوى .. فما باله اليوم غاضب منه إلى هذه الدرجة ؟ ..
سرعان ما تبين لى كأننى أعرف حقيقة الأمر ، وأننى مؤيد لشكرى فى غضبته .
ثم إذا بشكرى عبد الودود يقدم لى سيجارة جديدة وهو يقول بوضوح كامل منذ
أن رأيتنى جالسا معه :

- « تصور أن هذا الحمار النذل كتب مقالة يمتدح فيها ذلك الرجل ويسرف في النفاق والمحلسة ؟ ! » .

وبدا كائننى أعرف من هو هذا الرجل الذى يقصده ، وأئننى أعرف أن خالد الشباسى يمكن أن يفعل هذا ؛ أو ربما قد فعل هذا فعلا ؛ مع ذلك قلت لشكرى فى استنكار شديد :

- « يارجل !! أجاد أنت فيما قلت ؟ ! » .

هز رأسه ويده التخينة المظللة ؛ فتناثر رماد السجارة المحتجزة بين أصبعيه ، وقال مؤكدا :

- « لقد قرأها مدير التحرير وأخبرنى فى السر لأننا أصدقاء قدامى ! بصراحة قرأها لى باستنكار وأسف قائلا : هذا هو ناقدكم الذى تفخرون به أنظر ماذا يفعل فى سبيل البقاء !! من لحظتها وأنا أحس بالعار ! »

- « ولماذا لم ينشرها مدير التحرير ؟ » .

- « لأن صاحبنا لم يطلب نشرها ! إنه يطلب رأى مدير التحرير فيها فحسب !! زاعما أنه منعا للحرص سينشرها فى مجلة أدبية بيروتية يقوم بمراسلتها ! وهو طبعا لن ينشرها مطلقا لأنها ليست تمثل رأيه الحقيقى فى هذا الرجل السفاح ! إنما هو بذلك الإنتهازى يعرف أن مدير التحرير سيعرضها على الرجل وحينئذ ربما اختشى الرجل وأبقى عليه !! »

لم أجد ما أعلق به ؛ فأخلدت إلى الصمت ، ورحت أدخن فى استمتاع ،

وسط زئيط وضجيج خرافى راح يرج المبنى كله . العجيب أنه وسط كل هذا الضجيج عاد رنين ذلك الجرس الملحاح ينبعث من مكان مجهول مرسلا صيحاته المتقطعة المتتالية . فجأة نهض شكرى عبد الودود واضعا يديه كالعادة فى جيبي سرواله ، وجعل يروح ويجىء فى توتر ملحوظ ، منكسا رأسه فى الأرض ؛ ثم تسلل خارجا من الغرفة ؛ ومضى نحو غرفة رئيس مجلس الإدارة الجديد ؛ فتوقف أمامها قليلا مترددا ، ثم اقتحم حجرة مدير المكتب واختفى بداخلها ..

نهضت أنا واقفا . بدأت أنتبه لبعض هذا الضجيج ؛ أصخت السمع جيدا . كان الجميع يتكلمون فى نفس الموضوع بطرق مختلفة ولهجات متعددة ؛ لكن الجميع خائف مذعور ؛ والجميع فى شبه ثورة عنيفة على وشك أن تندفع مدمرة كل مايعترضها ؛ غير أنها مجرد جعجعة على الطريقة المصرية الأصيلة، تسمع فيها السخط والتهديد العنيف مبطن بالتلطيف ورخى الحبل والابقاء على خط الرجعة . سرعان ما اتضح كل شئ أمامى ؛ مع ذلك كان يبدو على كائننى أعرف كل هذا مسبقا : فلقد اختارت الثورة الأستاذ « صابر علام » فعينته رئيسا لمجلس إدارة وتحرير جريدة القطر ؛ وفوضته فى أن يفعل ما يشاء فى سبيل إنقاذها من الخمول والتردى . « صابر علام » فى الواقع من ألغ الصحفيين قبل الثورة ، حين كان رئيسا لتحرير مجلة فنية أسبوعية واسعة الإنتشار لا يزيد عدد محرريها وإدارييها على ثلاثين فردا بما فيهم السعاة ؛ وها هى ذى الأيام قد رفعته أخيرا ليصبح مسئولا عن دار كبرى تصدر ثلاث جرائد يومية إحداها مسائية والأخرى صباحية والثالثة بلغة أجنبية ، وتصدر مجلتي أسبوعيتين إحدهما سياسية فنية إجتماعية أسبوعية والأخرى للأطفال ، ومجلة

أدبية شهرية ، وسلسلة كتب شعبية ؛ أما عدد العاملين فى الدار فيزيد عن الألفى عامل وموظف ومحرر وكاتب . تساعل السذج : كيف تأتى له أن يوضع فى مثل هذا المنصب الخطير ؟ أجاب الآخرون إجابات كثيرة بدا لى أننى أعرفها من قبل ؛ سرعان ما تذكرت أنه قبل الثورة كان رئيسا لتحرير مجلة سياسية أسبوعية كبرى ؛ كان يديرها بحرفية كبيرة ؛ وكان طيب القلب محدود الأفق مغامرا ، لا يدرى العواقب البعيدة الخفية ؛ ففى سبيل الخطبة الصحفية المرجوة لرفع مستوى التوزيع لا مانع لديه من القيام بأى مغامرة ولو نصف محسوبة هذه الخصيصة وحدها هى التى خدمته من حيث لا يدرى ولا يقصد ؛ ذلك أن الضباط الأحرار قبل إعلان الثورة بشهور قليلة كانوا على علاقات متنوعة متباينة بين العمق والسطحية مع كبار الصحفيين فى ذلك الوقت لنشر بياناتهم ووجهات نظرهم فى بعض القضايا ؛ وقد عرضوا بعض كتاباتهم على الأستاذ صابر علام فنشرها على الفور من زاوية أنها - فحسب - خطبة صحفية ؛ فظن الضباط الأحرار أنه مؤيد لهم ومؤازر ومشارك ؛ إذ لم يدر بخلداهم مطلقا أنه لم يدرك خطورة أبعاد مانشر ؛ ولو أدركها لامتنع عن النشر بدون أدنى تردد ؛ أما وقد نشرها فلاشك أنه قد وضع بنفسه رأسه على حبل المشنقة فى سبيلهم . وهكذا حفظوها له جميلا لا ينسى . وكان من حسن حظه أن الثورة قامت بعد ذلك بوقت قليل لتنقذه مما كان سيتعرض له حتما لو لم تقم ؛ وظلوا على علاقة طيبة به كما ظل هو مواليا لهم بكل جوارحه ؛ إلى أن واتتهم الفرصة فعينوه فى هذا المنصب الحيوى الخطير . ولقد وضع شرطه أمامهم ففوضوه ؛ فلكى ينجح فى إنقاذ هذا الجرنان التعيس فلا بد له من اختصار عدد العاملين فيه إلى أقل القليل ، للتخلص من عبء ثقيل جدا هو مرتبات كل هؤلاء ، وكلهم من نوى الرتبات الكبيرة . ولهذا فقد جاء إلى الجرنان

بمذبحة هائلة لم يسبق لها نظير فى التاريخ ؛ إذ قام بالإستغناء عن قائمة مهولة من الكتاب والصحفيين الكبار للآمعين نوى الأمجاد الكبيرة المشهورة ؛ تم نقلهم إلى جهات أخرى لا علاقة لها بعملهم الصحفى من قريب أو بعيد ؛ إلى شركة باتا للأحذية ، وهيئة البريد ، وهيئة المخابز والمطاحن ، ومضارب الأرز ، ووزارة التموين ، ووزارة الأوقاف ..

هاهم جميعا يلغطون ويصخبون ويسخرون فى مرارة من هذا المصير المؤلم التعس . جميع الغرف فى الجرنان تحتدم بالثورة لكنها مجرد كلام فى كلام .. ثم مالبت الجميع أن خفت كثافتهم ؛ وبدأت جموعهم تتفرق شيئا فشيئا بايحاء خفى من أجهزة الأمن المنبثة فى جموعهم بل والكامنة تحت جلودهم وفى صلب عظامهم فلما فرغت المكاتب تماما بدأ وفود بعض المحررين الجدد الذين جاء بهم السفاح معه لكى يعملوا فى روقان بعض الظهر ، فى إعداد صفحات جديدة بمقالات وموضوعات وأخبار وصور جديدة كانت جاهزة معهم منذ أيام مضت . وفيما كان الطاقم الفنى القديم لا يزال منكبا على العمل فى توضيب الصفحات اليومية المعتادة ؛ كان الطاقم الجديد قد نحاه سرا وقدم إلى المطبعة صفحاته الخاصة التى سترى النور غدا .. وكان رنين الجرس المجهول المصدر قد عاد يرتفع من جديد فى إلحاح شديد ؛ ثم إنه جعل يقترب شيئا فشيئا ويعلو شيئا فشيئا إلى أن صار يثقب أذنى مباشرة ؛ فانتفضت قاعداً .

كان التليفون يواصل الرنين منذ وقت طويل ؛ وكانت الساعة فى يدي قد تجاوزت السادسة والنص بكثير ؛ فوليت مسرعا وقفزت إلى آلة التليفون . رفعت السماعة ؛ جاغنى صوت عرفت أنه صوت ضابط النجدة ، الذى قال فى استهوال رقيق : « أشهد أن لا إله إلا الله ! أكل هذا نوم ؟ إننا نتصل بك منذ نصف ساعة بمعدل مرتين كل خمس دقائق ! » شكرته واعتذرت له ، ثم وضعت

السماعة ، وتمطعت متثأباً أنفض الكسل والخمول والتعب عن كتفى . فتحت باب الحجره ، وعبرت الغرفة الكبيرة إلى الردهة على أطراف أصابع قدمى ؛ فإذا هى بخلوها مخيفة . ذهبت إلى بورة المياه فغسلت وجهى وتركت الصنبور يندفق على رأسى ؛ ثم جففته بورق الدشت ، وغسلت قدمى ؛ فى تكتم وبدون ضجة . ثم عدت فارتديت قميصى وحذاءى وعدلت هندامى على قدر المستطاع ؛ ثم جلست خلف باب الحجره واجف القلب متوتر الأعصاب ..

فى تمام السابعة سمعت لغطا على البوابة ثم سمعت صوت أقدام تصعد السلم ؛ فعرفت أن الرئيس عبد العظيم البرديسى قد أتى ؛ فتسارعت دقات قلبى ، وفتحت باب الحجره برفق وخرجت إلى الغرفة الكبيرة ، فانزويت فى الركن ، ثم انتننى فكرة نفذتها فى الحال ، بأن جلست على مقعد المكتب المجاور للباب ثم أسندت رأسى على سطح المكتب وتصنعت الإستغراق فى النوم ؛ على أساس أن البرديسى إذا دفعه إبليس للبدء بدخول هذه الحجره فإنه يرانى على هذا الوضع فيفهم أننى قد نسيت نفسى فى سهرة الأمس حتى أغلقت الأبواب دونى . إستحسننت الفكرة وخطر لى أن أستمر فيها إلى النهاية بل وأن أزق لعبد العظيم وألقى عليه تبعة ما حدث لأنه لم يلحظنى قبل رواحه ؛ لكننى تذكرت أن عبد العظيم البرديسى إبن حارة الدرب الأحمر لا تدخل عليه هذه الحيل المكشوفة خاصة وأننى قد غسلت وجهى وطردت النوم . سمعت صوت المفتاح يدخل فى قفل باب الجناح ؛ ثم صوت الباب وهو يفتح ثم صوت أقدام عبد العظيم تقرر الأرض الخشبية . برشت بعينى من خصائص الباب فرأيت شبهه يمر من أمام باب الغرفة متجها إلى الداخل ؛ فعرفت أنه متوجه إلى غرفة عضو مجلس الإدارة المنتدب ، التى تقع فى عمق بعيد جدا فى حنية عند انتهاء الردهة . عندئذٍ فتحت باب الغرفة فى رفق شديد وأطللت برأسى على الردهة متابعاً ظهر

عبد العظيم وهو يبتعد ؛ حتى اختفى فى الحنية البعيدة ، فوسعت فرجة الباب قليلا ، وانتظرت حتى سمعت صوت المفتاح فى قفل غرفة عضو مجلس الإدارة المنتدب ، وصوت أقدام عبد العظيم وهى تدخلها ؛ فمرقت متسللا من فرجة الباب وقد قوى قلبى بعض الشئ وتسرب إليه قليل من الإطمئنان ؛ فعلى الأقل أستطيع الآن أن أزعم لمن يرانى أنني قادم لتوى لإنجاز أعمال بائته كلفنى بها صديقى فهمى ؛ لكننى بقفرتين على أطراف أصابعى صرت على بسطة السلم ، وبقفرات أخرى هبطت الأنوار الثلاثة ، فصرت فى ردهة الدور الأرضى حيث رحبة المصعد وأمامها منصة رجال الإستعلامات وساعة التوقيع بالحضور والإنصراف . صرت فى الممر الخارجى المؤدى إلى باب الشارع وقد وقر فى ذهنى أننى إن نجوت من الفضيحة هذه المرة قلن أكرر هذه القطة الحمقاء مرة أخرى .

رأيت الخفير ممدا فوق الدكة على رصيف الشارع وقد اطمأن إلى الصباح فجذب البطانية فوق رأسه واستسلم لغفوة إضافية . مرقت من جواره كالريشة فى مهب ريح عاصفة ، فى تلصص ؛ سرعان ما استعدت وقارى واتزان مشيتى فلما صرت فى منتصف الشارع العمومى يلحننى هواء الصباح الرطب فاض صدرى بسعادة خرافية ، ونزلت من عيني دموع مريحة للأعصاب دافئة كان ثمة صوت جرىء كالح الوجه يرن فى أعماقى قائلا : وهكذا يمكن أن نكرر هذه النومة فى ليلة عصيبة أخرى قادمة . ثم وجدتنى أرد على هذا الصوت قائلا : ما كل مرة تسلم الجرة ولكن لم لا ؟ .. ثم تذكرت فجأة أننى فعلت هذا عشرات المرات من قبل ، وربما كانت هذه هى المرة العشرين أو الثلاثين التى يرن فيها هذا الصوت بأعماقى فى نفس هذه البقعة من هذا الشارع وأرد عليه بنفس الجواب .

خبز البغايا

آخر ما كنت أفكر فيه أن أبييت - ولو لساعة واحدة - عند صديقي
الحميم شاعر العامية الفلاح «عبد الفتاح البتانوني»، ليس لنذالة فيه ، لم أكن
عرفتها ، بل ليقيني أنه هو نفسه من قبيلة المشائين من أمثالي يبحث عن مبيت ،
وفى الليالى العصيبة السوداء فكرت فى زيارة كافة الأصدقاء ، بل فكرت فى
زيارة غير الأصدقاء ، بل إننى زرت بالفعل من لم أكن أعرفهم من قبل إلا فى
لقاء عابر ، فسلخت فى بيوتهم بضعة أمتار من جلد الليل وأكملت الباقي
كالعادة سيرا على الأقدام فى الطريق حتى يتكشف لحم الليل عن غلالة من
البياض ، وما أندر الذين خرجت من بيوتهم فى تلك اللحظة الحميمة التى
تسكرنى وتطربنى : لحظة أن أرى جثة الليل معلقة فى خطاطيف شمس الشروق
المصطبغة بلون الدم القانى حيث تسعدنى رؤيتها ترقده على الوضم لتشرحه
بالبلط وسكاكين الضحى .. حينئذ أستطيع أن أمضي أمنا إلى حيث لا هدف لا
غرض لا عمل لا موعد لا أى شئ سوى الحلم بقاء معجزة تتجسد لى فى
الطريق أصبح على أثرها - بموجبها - ذا هدف وغرض وموعد ورباطات
لا تنتهى ..

غير أن الطريق لم تكن تلقى فى طريقى بغير نفس الأشخاص الذين
أراهم دائما والذين ملكت رؤيتهم قبل أن يملوا رؤيتى . لقد صرت أمقت كل شئ

يقربهم منى أو يقربنى منهم . كلهم يكتبون ويقرأون ويحلمون بالوصول وبالنجومية والتريع - انفراديا - على قمة ما ولو زائفة . كلهم ينظرون إلى بعضهم البعض باحتقار خفى لكنه سرعان ما يظهر لدى أى بادرة احتكاك . يترصدون بعضهم البعض يتسقطون مخازيهم وأخبارهم الفاضحة !! أجلس معهم على المقهى لدقائق معدودة فأعرف كمية من فاضح الأخبار ومنحط السلوك ودنى النفوس تكفى لتلويط وتلويث كل الأقوام على ظهر الأرض . والواحد منهم يطب عليهم فجأة وهو لا يعلم - وربما يعلم - أن لحمه قد استبيح على هذه الأرض فنهشته الكلاب والقطط والحشرات وشربت من دمه حتى صارت مشتاقة لشرب المزيد من الدماء ، فإذا هو بمجرد جلوسه لا يلبث حتى يشارك فى نهش لحم شخص غائب ، بنفس السكاكين الحامية القاسية .

كنت أوقن من أننى لابد ملاق هذا المصير نفسه بمجرد انصرافى ، غير أننى كقروى «قُح» حديث عهد بالمدينة كنت موقنا من أنه ليس فى حياتى ما يمكن أن تلوكة الألسن المتوحشة ، كما كنت واثقا من أن نهاشى لحوم البشر بين أدياء الثقافة فى هذه المدينة شأنهم شأن الكلاب والحيوانات الشرسة لا تفتح شهيتها للنهش إلا إذا اشتمت رائحة اللحم النتن ، ولطالما شعرت بأنوفهم تتحسسنى فى شغف ولهفة كلما جلست بين مجموعة ممن ينتحلون كتابة القصة والرواية والقصيدة والمقالة النقدية والخبر الفنى ، أو يزعمون الإنتاج والإعداد والإخراج ، فكان بدنى يقشعر من لفح أنفاسهم ولعابهم السائل فوق ألسنتهم اللاهثة فى محاولة معرفة كل شئ يتعلق بى منذ أن ولدتنى أمى حتى انفردت بحمل همى ..

تعودت أن أهرّب من تجمعات هذه المقاهى التى يعف عليها أدياء الثقافة والأدب والفن . غير أننى لم أكن أملك مهربا من الشارع حين يرزأنى الشارع بواحد منهم أو بمجموعة تتسكع . إنها المحنة بعينها ، إلا أننى اعتدت غلظة القفا وكلاحة الوجه ، أصبحت أستمرئ تجاهلهم ، أعرف كيف أصددهم وأزوغ من أسئلتهم الصفيقة الجريئة المفاجئة ، التى تعتبر جارحة فى حد ذاتها،

أو لها مثلا : «جائ منين يا فلان ؟ رايح فين يا فلان ؟ لماذا لا نراك ؟ هل أجد معك عشرة قروش أردھا لك بعد باكر ؟ ما هى أخبار صديقك فلان ؟» . أسئلة سخيفة لا أحب سماعها ، وناس أسخف لا أحب رؤيتهم على الإطلاق . الأسخف منهم ذلك الذى يحاول امتطاعك بذريعة الأخوة أو الأبوة أو الرفقة الحميمة ، ليندس فى قلبك مرة واحدة قائلا : «وعامل أيه دلوقت يا فلان ؟ إنت هدمك وسخة كده ليه ؟ إنت ما لكش بيت ولا إيه ؟ قل لى إيه هى أحوالك بالضبط يمكن أقدر أتصرف لصالحك !» . علمتنى التجربة المريعة أنه غير قادر على التصرف ، إنما هو قادر فحسب على تنويمك بوهم الحب وخدر العاطفة حتى يعرف ماذا ورايك لتجد نفسك بعد ساعات قليلة صرت صفحة معلقة فى لوحة الإعلانات على مدخل كل باب ..

أمثال هؤلاء تعلمت أن أراهم على بعد فانتقل إلى الرصيف الآخر ، أو أنعطف على حارة جانبية ، أو أعطيه الجانب التخين من وجهى فكأننى لست أعرفه وليس يعرفنى ..

على أن محاسن الصدف كثيرا ما كانت تلقى فى طريقى بشاعر العامية «عبد الفتاح البتانونى» ، القروى القح مثلى ، الذى أحبه بحق وحقيق ، نتلقى دائما عند كل كلمة يكتبها أو قول يلفظ به أو سلوك يأتى به . هو مثلى محكوم بالذى يصح والذى لا يصح ، والعيب ، وتقاليده الأخوة والجيرة والشهامة وتقديس الصداقة ، وما إلى ذلك من غذاء رضعناه صغارا من بز أمتنا القرية مع أنه من محافظة المنوفية وأنا من محافظة الغربية . حتى شعره العامى كان يصدر عن فولكلور القرية ، أغنياتها التى هى تعازيم ورقى للعمل وأدواته ، للإنسان من المهد إلى اللحد ، للأرض من سواد التربة إلى اخضرار البرسيم فى عيون البقر ، للشمس من المغيب إلى الشروق ، للكون من عهد آدم إلى عهد محمد ، وسيرها الشعبية التى هى تمجيد للعروبة ، للقوم ، لأمة محمد التى هى

دائما أبدا بخير ، من عنترية إلى هلالية إلى يزنية إلى حمزنية بهلوانية إلى ذات همة ، إلى الظاهر بيبرس وخضرة الشريفة وسعد اليتيم والسيد البدوي ، وألف ليلة وليلة ، والمداحين ، والمواوية ، تلك هي ثقافتى ثقافته ولذا لم يكن غريبا على ، حتى مفرداته لم تكن تخرج عن قاموس القرية قاموسى : الناف والمحراث والشرشرة والفأس والطنبور والمذراة والمنجل والكريك والنورج والساقية والشادوف ، وحطب القطن وقش الأرز ، والترع والمصارف والقنوات والزراريق ، وخوار البهائم وثغاء الماعز ونهيق الحمير ونعيب الغريان وشقشقة العصافير وهديل الحمام ووقوقة الأوز وصياح الديكة ونباح الكلاب وشدو الكروان ونقيق الضفادع ليلا مختلطا بعواء الذئاب ..

كان قد سبقه إلى الوجود شاعر كبير ضخم . كان فرعا من شجرة مورقة مزهرة خرج منها أقطاب كعبد الله النديم وبيرم التونسي وبيديع خيرى وصلاح جاهين . لُحِقَ بالثقافة الفرنسية ، وتعمق فى تراث بلاده بشقيه المدون والشفاهى ، وتراث العالم والأمم المحاربة ، حتى أدرك أبعد غور فى الوجدان الشعبى العربى ، ومن ذلك الغور العميق الموغل فى العمق حفر أنفاقا عبرتها المشاعر فبات الإنسان فى شعره هو إنسان العالم فى طبيعته المصرية العربية .

غير أن هذا الشاعر الضخم كان آنذاك قد أب إلى خبر كالسر الدفين خلف أسوار سجن الواحات . ولم يكن خارج السجن منه سوى ديوان معروف بالاسم فحسب لكنه غير موجود على الإطلاق ، وكان من الممكن أن ينمى هذا الشاعر من الوجود برمته لولا أن قصائد ديوانه كانت قد نشرت متفرقة فى بعض المجلات اليسارية التى احتجبت ، فحفظها بعض الغاوين ، ولجمالها وروعها ونفاذها نقلها عنهم آخرون ، ونقلها الآخرون للآخرين ، ولفرط شيوعتها وسماحتها واتساعها كان البعض يدعيها لنفسه والبعض الآخر ينسبها إلى الفولكلور ليبرر لنفسه أن يؤلف عليها مسحا جديدا .

إلا أن هذه القصائد كانت قد خلقت ابنا نابها شاطرا ، كان فى الأصل والجوهر رساما ؛ وفى الروح شعر حى ، إلتقى بالشاعر الكبير فى الحركة اليسارية وعلى صفحات مجلاتها فوقع فى غرام شعره وانبرى يحاكيه ويمضى حيثما افتتح الشاعر الكبير من الأراضى والميادين والإتجاهات . رضع لبن الشعر من استاذة رائده ، سرق النار منه ، ولأن ملامح أبيه كانت ناطقة على كل قسماته لذلك لم يسعه إلا الاعتراف بينوته لهذا الأب العظيم ، ولأن الأب كان عظيما وطاغيا لذلك لم يسعه إلا التفاخر مزهوا بهذا النسب النسب والحسب الحسيب .

ثمة حقيقة كانت غائبة خلف أسوار سجن الواحات ، لذلك ظللنا وقتا طويلا نوقن أن صديقنا الرسام الكبير هو إمام شعر العامية المصرية . وكان هو - ربما نون أن يشعر - قد ركز هذه المقولة فى الأذهان ، وافتتح فى مجلته (نور الصباح) صفحة يقدم فيها أبنائه من شعراء العامية . فلما انتقل إلى جريدة سيارة كبرى نقل معه شعر العامية ينشره فى أحيان كثيرة فى مربعه بدلا من الرسم حين تتوعل الفرشاة ، فكان فضله على شعر العامية لا ينكر . ثم راح ينشر عطر العامية فى الأغنيات يكتبها لأشهر المطربين والمطربات ، ويواكب ثورة يوليو بأغنيات لأكبر مطرب فى عصرنا ..

وكانت رسائل الشاعر الضخم تأتى من خلف الأسوار مبلة بالبهجة ودموع الفرح ، إذ كانت أنباء ناره المنتشرة تبلغه عبر الصحف والمذيع . وكان الشاعر الرسام يقرأها على خلصائه منا فى مكتبه بالجريدة عند الأصيل .

من بين الأصوات التى قدمها الشاعر الرسام كان صديقى البتانونى . وكنت أتمنى أن أكون من بينهم لولا أن البتانونى قد هز هذه الأمانة فى صدرى من أول قصيدة أسمعنيها . وبعد مجموعة لقاءات حميمة بيننا ومجموعة قصائد اقتنعت بأننا فلاحان يسرحان ببضاعة واحدة غير أننى جد غشيم فى عرضها بينما البتانونى ماهر فنان ، وما أحرق أنا فى التعبير عنه شهرا كاملا يمليه هو فى جلسة واحدة بدون أدنى عناء وبلا تعثر أو مراجعة ، فكأنما القصائد مكتوبة جاهزة فى رفوف برأسه يستطيع استدعاها فى أية لحظة يشاء .. ثم إن شعره من السهولة والسيولة والصدق والتلقائية حتى ليبدو حين يلقى كأنه يؤلفه تأليفا فوريا ، كأنه يتكلم من وحى اللحظة الآنية كلاما مسبوكا جدا ومموسقا رغم شدة استرساله ، حلوا جميلا خالبا ، على صغر سن قائله يبدو محملا بالحكمة مكثفا بالصور الغنية النابضة . وكان لابد لى من البحث عن هوية أخرى قبل محاولة الدخول فى منافسة مع البتانونى ، إذ أن تفاصيل كل تجربتى الفلاحية موجودة فى قصائد البتانونى ومن زوايا رؤية لم تكن تخطر لى على بال .

وهكذا حاول هو أن يستدرجنى لألقى عليه بعض قصائدى فلم أستجب له مطلقا ، بل نفيت كل صلة لى بالشعر الا كاستمع ذواقة أو كدارس معنى بقضاياها . ثم إننى حمدت الله على أنى لم أكن قد عرفت بعد كشاعر عامية .

العجيب أن البتانونى هذا لم يحبطنى ، لم يزعجنى أدنى إزعاج بل على العكس حفزنى لمتابعة نموه بحرارة وجدية وإثارة ، بل إننى صرت أحفظ شعره عن ظهر قلب بمجرد قراءته مرة واحدة ، فينتابنى حماس شديد لإلقائه على مجموع بانفعال حار كأننى مؤلفه الأصلى . وحين كان بعض الذين تسرب إليهم خبر أننى شاعر عامية يطلبون منى إتخافهم بشيء من قصيدى كنت أنبرى فى الحال فأسمعهم قصائد البتانونى ، فإذا هى تدهشهم دهشة بالغة ، فأحس

بمعة فائقة وأروح أحدهم عنه بكثير من الشغف والحب ، عن مستقبله ، وكيف أنه صديقى ، وكيف ألف هذه القصيدة أو تلك . ثم إننى أصبحت أجد لذة كبيرة فى إلقاء شعره على جماهير عديدة متنوعة ، وأستمع بمنظر الأذان وهى مشنفة ، مستغرقة فى الإستماع بشغف هائل ، شغف من ردت إليه بضاعته كاملة غير منقوصة بل مصونة فى أغلفة أنيقة ..

فى ليال كثيرة كان شعر البتانونى هو الميرر الوحيد لبقائى جالسا فى قعدة مستريحة رغدة تسهر حتى الصباح فى بيت من البيوت العامرة بالدفء والمحبة والشبع . قبل منتصف الليل بقليل أبدأ فى إلقاء الشعر ، حتى إذا ما إنخرط الجميع فى الإستماع وطلبوا المزيد أعطيتهم فى ببطء شديد ، مستمتعا بمرور الليل وكأنه وباء جسيم . وفى عز الانخراط فى متعة الشعر لابد أن أتوقف برهة كأننى أخط شرطة اعتراض - لزوم ما يلزم - لأشير ولو بشكل عارض إلى أن المواصلات قد فاتتني وانتهى الأمر ، أو هى بالكاد تفوتني .. حينئذ أحصل على شرعية رسمية بالبقاء : «ياعم أديك قاعد معانا للصبح حتروح فين ؟» . تطربنى حتى ولو قالها أحد الجالسين بغض النظر عن صاحب المكان ، وفى الحال تنزاح عن صدرى جبال من السحب الكدرة ، وينطلق من داخل شيطان مرح خفيف الظل يدهش له الجالسون قائلين : « وكاتم كل ده فى نفسك ؟ ! » ..

المشكلة أننى لم أعد أرى البتانونى إلا لما وفى الشارع صدفة ، أو فى إحدى دور الصحف التى أتردد عليها ، فألاحظ استمتاعه الشديد - والخفى - بكون المحررين والكتاب يهتمون به ويحتفون ويجلسونه على الكرسي ويطلبون له القهوة ويعزمون عليه بعلب السجائر فيما أنا واقف لا يهتم بى أحد ، يظهر استمتاعه الخفى بذلك حين يتطوع بعزومتى كأنه من أصحاب المكان فيقول : « ما تقعد يا فلان تشرب قهوة ! » ، مع أنه واثق أنه ليس من كرسي أجلس عليه ، إنما

هو يريد - فحسب - أن يذكرني بوضعه مقارنا بوضعي ، لأنه يعزم هذه العزيمة ثم ينصرف مباشرة إلى الحديث مع الآخرين كأن شيئا لم يكن ، فأحس داخلى بجرح ينزف بعمق ، وكنت أدهش كيف أننى مع ذلك أقبل عليه بحرارة فى كل مرة ، ولكن يبدو أننى كنت أحبه أكثر من نفسى ، ربما لأنه كان زهرة ما يمور فى نفسى من زمن الشعر وحلمى السرمدى الساخن أبدا ..

المؤكد أيضا - رغم ذلك - أنه يحبنى من أعماقه بصرف النظر عن سلوكياته الشخصية الصغيرة ، التى يفسرها لى دائما بأنها نوع من الحماية لنفسه حتى لا يتجرأ عليه أحد أو يستهزئ به أحد من أبناء المدينة . ولقد صدقته بالطبع ، لأن بأعماقنا جميعا عقدة الخوف من أبناء المدينة ، الذين يطو لهم دائما أن يعاكسوننا كلما ذهبنا إلى البندر ، ويخيفوننا بدراجاتهم السريعة فى هجمات مفتعلة ماهرة قائلين : «إوعى الجاز ! إوعى الجاز!» ، فنرتعد ونصرخ ونصير مسخة يضحك عليها السائرون . دليل حبه لى أنه ما من مرة رأيته فيها إلا وأعطانى نسخا مكتوبة من آخر قصائد وأغنيات كتبها ، ويصدرها بإهداءات بخط يده من قيل : «إلى الوحيد الذى يملك إمكانية كتابة هذا الشعر» ، أو : «إلى الذى أحس أنه يحفظ شعرى قبل أن ألقيه عليه » . وهكذا ، فأحفظها بمجرد قراءتها ، وأحتفظ بها فى أوراق داخل حقائب أتركها أمانة عند بعض الناس ثم أنساها .

ثم إنه اختفى تماما ولم أعد أراه مطلقا ، وبدأت أسمع أخباره وأقرأها وسط أخبار النجوم والكواكب ، وبدأ شعره الذى أحفظه يصبح قديما مملا ، سمعه الناس منى عشرات المرات ، فى حين أننى مطالب فى معظم القعدات بالإسترسال فى قول الشعر لوقت طويل يسمح بفوات المواصلات المزعومة . غير أننى لم أعدم وسيلة ، إذ كان لا مفر من أن أدس شعرى أنا على شعر

البتانونى، لكى أختبر وقعه عليهم ، «لأعرف إن كنت شاعرا أم دعيا . فلما لم يلاحظ أحد أن جسما غريبا قد دخل فى لحم القصيد صرت أستكمل المقاطع الناقصة من وحى خيالى ، وأنشئ القصائد الكاملة على نسق الفولكلور وعلى أنساق فؤاد حداد وصلاح جاهين ويبرم التونسى . وقد درج الناس على أن يقولوا لى كلما جالستهم : «أسمعنا شيئا للبتانونى !» ، ودرجت على أن أقول لهم من شعره مقطعا واحداً أو ربما مدخلا والباقي كله من تأليفى ، بلذة مضاعفة لا أدرى لها سببا أو تفسيراً ..

الطريف حقا أن البتانونى حين إنفتح أمامه ميكروفون الإذاعة وبدأ يلقي شعره فيه إستمتع إليه الناس بإشتياق عظيم ونزل من قلوبهم منزلا طيبا للغاية ، فكان بعضهم يقول لى :

- « سمعتك تلقى الشعر فى الإذاعة ! أقصد صاحبك البتانونى ! »

من الجميل أن تلقى به الصدف فى طريقى وأنا هائم على وجهى بغير طنام بغير شراب بغير مأوى بغير كسب على الإطلاق . فإذا به يستجيب لأحضانى ، ويصير بين صدرى عودا أسمر كعود السنط ، بقامته الطويلة وجسده النحيف ووجهه الرمادى ورأسه الصغير وفمه الواسع الشهوانى ولسانه الطلق الفصيح . تعود أن يلقانى باسم مبهتجا ، ودوداً ، طيب القلب ، أخوا ، يسألنى عن أحوالى ، فأندفع فى الحال محدثا إياه عن كل شىء ، ملخصا كل صغيرة وكبيرة ، يخفى شارع المدينة ويحل محله طريق زراعى فى القرية فكأننا فى قريتنا نتحدث بحميمية وصفاء وصدق عن آلامنا ومشاكلنا . عن أحواله ، فيجيب بكلمة أو كلمتين ، أفهم منهما أنه يحاول شق طريقه بشرف ، وأن يبقى على نفسه كشاعر فلا يلجأ للإرتزاق على أى مستوى حتى ولو كان بكتابة الأغنيات لأم كلثوم نفسها . كان دائما أبدا يسألنى :

- «ألم تشبك لك فى أى بلوى من البلوى الحكومية الثابتة ؟!» -

يقصد أن أكون قد عثرت لنفسى على وظيفة أقتات منها ، هو سؤال تعودته من كل من أشعر أنهم يهتمون بأمرى أو يشفقون علىّ ، فكنت أجيبهم فى العادة بأننى على وشك التعيين فى الجريدة الفلانية، أو أننى ستككل مساعى بالنجاح قريبا فى العمل بالمجلس الأعلى للفنون والآداب . أما البتانونى فحين يسألنى هذا السؤال فإننى أحدثه عن الأمر بكل صراحة وأمانة ، عن فلان بك الذى هرب من مقابلتى يوم زرتة فى مقر عمله ، عن المقلب الذى شربته فى المجلة الفلانية حيث مكثت فى التمرين ستة أشهر بدون أجر وفى النهاية اعتذروا لى ، عن الموضوعات الثقافية التى أرسلتها لبعض المجلات فتختصرها وتحولها إلى أخبار بدون أجر . لا أترك شاردة ولا واردة إلا حدثته فيها بإفاضة. وكان ذلك فى الواقع ممتعا ، لأنه يقودنا إلى مقهى البرابرة فى ميدان التحرير ، حيث يعزمنى الشاعر على واحد شأى ميزا بالحليب ، ويضع علبة سجائره البلمونت أمامى فأدخن أربع أو خمس سجائر وراء بعضها وقد أحتفظ بواحدة أو اثنتين ، ولربما ترك لى بقية العلبة وانصرف ..

ذلك شئ جميل فى الواقع ، يضعنى فى حالة امتنان شديد . فهو فى نظرى كادح مثلى غير أنه ينشر بعض القصائد ويتقاضى عنها أجرا ، ويقال أنه يساعد البعض فى كتابة بعض الحوارات الغنائية لبعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية وبعض التمثيليات القصيرة لعرائس التلفزيون . فمنتهى الكرم منه أن يعزم على بالشأى والسجائر وأحيانا بعض سندويشات الفول .

كنت فى الحق معجبا بجرأته فى اقتحام القاهرة . فلقد حصل على شهادة الثانوية العامة ، ولأنه ابن فلاح أجير فقير لا يقوى على مده بمصاريف التعليم الجامعى فى المدينة ، فقد سعى لدى قريب له ، سعى بدوره لدى عضو مجلس الأمة عن دائرة بلدتهم ، فعينه كاتباً للنيابة فى محكمة شبين الكوم

الجزئية . وكان مولعا بكتابة الأغنيات منذ طفولته ، فظل يكتبها ويرسلها للإذاعة من قريته ، يزامله بعض رفاق قريته فى هواية الشعر . وحدث أن سافر منوفى من مجلة أسبوعية سيارة ، وعاد فكتب تحقيقا صحفيا عن شعراء المنوفية الشبان ومن بينهم عبد الفتاح البتانونى . فما صدق البتانونى أن رأى صورته وكلامه منشورا فى المجلة حتى ترك القرية وجاء من فوره إلى القاهرة معتزما مراجعة الإذاعة فى موقفها من أغانيه بعد أن صار معترفا به تكتب عنه الصحف . ولم يكن يعرف أحدا فى القاهرة سوى المجلة والمحرر ، الذى قدمه لصلاح جاهين فاستمع إليه ، وأفهمه أن إمكانياته أكبر من الأغنية المحدودة ، وأن من الأوفق له أن يكون شاعرا لا مؤلف أغان ..

إنبهر الفتى بصلاح وبنفسه ، واستمع إلى شعر صلاح فسرق النار منه، وعرف سر كتابة الشعر، لماذا يكتب الشاعر قصيدة ؟ ما الهدف منها ؟ ما الزاوية التى يريد الشاعر أن يريها للناس ؟ وماذا فيها يريدون أن ينتبهوا إليه : الفن من أجل الحياة ، الشاعر نبى ، الشعر مهمته نقل شعور إلى شعور ، إنفعال إلى إنفعال ، تأثير إلى تأثير ، الشعر صور محسوسة مؤثرة ، لابد أن تنقل السر الإنسانى ، تجسده ، تشعر الناس به ، الشعر طلب للعدالة ، مناصرة للضعيف ، انتصاف للمظلوم ، تمجيد للبراءة للعمل للإنسان . فتفتحت عينه على صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى ونجيب سرور ومجاهد عبد المنعم مجاهد وفوزى العنتيل فبهرتة القصيدة الحديثة بتركيبها السهل الميسور .. فتفجرت فى أعماقه الينابيع . بعد هذا بأسابيع قليلة كان البتانونى يدور على النوات والصالونات يلقي أشعاره التى كانت بواكير النار تشعلها ، من نوبة سين القبانى فى منزله ، إلى نوبة صبحى الجيار فى منزله ، إلى نوبة نجيب

محفوظ فى كازينو أوبرا ، إلى نواة رابطة الأدب الحديث . فى كل من هذه السنوات إلتف حوله المعجبون بكثرة ، بات له رهط من صداقات حميمة مؤمنة به وبموهبته مستعدة لأن تقدم إليه كل عون ومساعدة ممكنة .

* * *

غير أن البتانونى لم يآلف سوى «جمعة الجيزاوى» ، المثقف الشاب ، الذى يساويه فى العمر ، لكنه بحكم قرب قريته من العاصمة كان يتردد على مقاهى وندوات الجيزة : قهوة عبدالله وقهوة سان سوسى وقهوة أنديانا ، وندوات القاهرة : نجيب واللقانى والجيار .. فلحق الكثير من المقولات الكبيرة والآراء العميقة والنظريات الناقصة فى الفن والسياسة والمجتمع ، وعرف أسماء الكتب الثمينة والمصادر النادرة وقرأ بعضها ، ويعرف جميع المجالات الأدبية والثقافية التى تصدر فى العالم العربى فلا يفوته عدد منها . دائما أبدا يمشى محملا بتلال الكتب على صدره ، مع حقيبة منتفخة بالأوراق . غالبا ما تجد بين هذه الكتب أحدث ما صدر فى بيروت والقاهرة ودمشق وبغداد ، بينها كتب ثمينة اقتنصها من على سور الأزبكية . تدهشك دائرة معارفه الكتبية أيما دهشة ، إذ يكفى أن يكون ملما بأسماء هذه الكتب فحسب لتضعه فى عداد المثقفين بالنسبة لأمثالنا القادمين من البرارى والقرى النائية ، فما بالك وهو يعرف الكثير عن أهمية هذه الكتب وعن محتوياتها ، وربما حدثك عن الكتاب ساعة أو ساعتين ، كما أنه يربط بين هذه الكتب وما ينشر فى هذه المجالات وبين الكثير من قضايانا السياسية والأدبية والاجتماعية . إلى ذلك فهو يعرف معظم الكتاب العرب فى جميع الأقطار الشقيقة .. ويعرف ماذا كتبوا وماذا نشروا وكيف اصطلم فلان بالسلطة وكيف اعتدت السلطات بالسجن على فلان وبمصادرة كتب فلان ، والحجر على فلان ، ومنع فلان من السفر . كذلك يعرف

أسماء الأحزاب الشيوعية فى كافة أنحاء الوطن العربى ، وبعض رجالاتها وكوادرها السرية بأسمائهم الحركية ، وبعض مواد من برامجهم وأفكارهم ونظرياتهم . يتكلم بفصاحة ولباقة ودمائة مثل كبار المفكرين ، ويعتبر نفسه من الرعيل الناشئ فى حقل النقد الأدبى الذى افتتحه كل من عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم ، ولديه آراء جاهرة وجريئة وصارمة عن كل من يكتبون ويشعرون من كافة الأجيال ، مستعد دائما لإرسالها على الفور لدى أى إحتكاك حتى ولو لم تطلب منه صراحة .

يمثل البتانونى فى الطول واللون ، أسمر قمحى ، وجهه كآنية صغيرة من الفخار ، برأس مقلوطة يشوبها من المنتصف والجبهة بوارد صلح خفيف الظل ، غليظ الشفتين مبتسم على الدوام . دقيق الأنف بارز العينين ، فى عينيه نظرة فلاح فضولى خبيث ، يوهمك دائما بأنه يفهم فى كل شئ ويعرف كل شئ وهو لم يعرف بعد ما المسألة ، لكنه قد يقنع بعض السذج بأنه ملم بكل المسائل فيصارحونه بحقيقة أمورهم دون مجهود . يضع نفسه طرفا فى معظم المناقشات ومعظم المواقف ومعظم المعارك دون أن يكون له ناقة فى الموضوع ولاجمل سوى أن يظهر ثقافته ونظراته العميقة وآراءه الدقيقة ذات النظرة الشمولية التى لم تشتمل فى الواقع على أى شئ . هو فلاح ، كريم جدا ، يطلب لمن حوله شايات وقهاوى ، ويألف القرويين أمثاله . فإذا شعر بمواهبهم التصق بهم وأنفق عليهم كل ما فى جيبه عن طيب خاطر وإستمتاع . قد عرفنا أنه يملك بضعة قراريط فى القرية ورثها عن أبيه المزارع ، ويشاركه فى الإرث بعض الفتيات المتزوجات لكنهن رمين طوبة الميراث ، فبات يكترى من يزرع القراريط ، مرة بالطماطم وأخرى بالخس والجرجير والفجل والفول والملوخية . يسافر كل بضعة أيام ليفعل شيئا ، و دائما أبدا ينجح فى العودة ومعه نقود يصرفها على القرويين الموهوبين ، يشتري بها تلال الكتب ليترك بعضها أو

معظمها فى بيوت الأصدقاء كى يقرأوها ويتخفف هو من حملها . يستأجر شقة متواضعة فى الجيزة يملأها بتلال الكتب . هذه الشقة قد تتحول فى بعض الشهور إلى حجرة فى بنسيون فى وسط المدينة ، أو عوامة على نيل الزمالك ، حسب تقلب الأحوال المادية ونجاح المحاصيل والموارد الأخرى التى نجهلها فى قريته تلك التى لم نعرف اسمها أبدا .

كم هو حميم «جمعه الجيزاوى» هذا . هو الوحيد الذى يمكن احتماله من بين عشرات الشلل والمجاميع غير المتألفة غير المتجانسة لا يعيبه سوى شغف عجيب بالنم وتقطيع اللحم والأعراض بلذة خرافية ، حتى بات كل منهم يوقن من أنه صار مزقا فلا بأس عنده إن ثار لنفسه بتمزيق الآخرين ليصبح لا فرق بين خيار وفقوس . إن الاشتراكية لم تتحقق فى بلادنا إلا فى هذه الظاهرة المفزعة فحسب .

«جمعه الجيزاوى» لا يتخير فى هذه الناحية عن أحد ، لكنه على شىء من اللياقة والظرف ، بإستخدام الحيل المكشوفة فى التشنيع على الآخرين ، أو فى محاولة إبتزازهم أو استخراج شىء من صدورهم . مدخله دائما قول ماثور ، مشعور غالبا ، يستعيره ليغمز به معنى جديدا يقصده . مباشر فى منطق رغم المناورات التى يحاول القيام بها . مما يؤكد قلة حيلته فى الأساس ، فإذا هو بعد دقائق يحدثك عما يريد بغير لف أو دوران ، حديثا مرتبا محشوا بمصطلحات النقد الشائعة ، مزركشا ببعض قفشات من تمثيلات أو أغنيات شائعة ، قد يزوج بأسماء سارتر وبرتراند راسل وكارل ماركس وعلى بن أبى طالب وسيدنا محمد فى هامش معجون بالمتن ، حتى لتحار أيهما الرئيس :

الهامش أم المتن ! غير أنك فى النهاية لابد أن تفهم قصده الحقيقى على نحو كاف ، ولابد أن تحبه ، تحب حماسته الدائمة الإشتعال فى كل صغيرة ، حتى ولو كانت حماسة خاوية من المعنى .

فى أدب شديد مغلف بالحماسة يحدثك عن بيان يجب أن يوقعه كافة المثقفين الشرفاء استنكارا لما قالته إسرائيل فى المؤتمر الفلانى ، عن مبالغ من النقود يحب جمعها من المثقفين الشرفاء لمساعدة بعض الإخوة المعتقلين السياسيين ، عن مقابلة يجب إجراؤها مع المسئول الفلانى لطرح المشكلة الفلانية على نطاق واسع ، عن اعتصام يجب إقامته فى مقر الإتحاد الإشتراكى إحتجاجا على مهاجمة قوات الشرطة لندوة نجيب محفوظ فى كازينو أوبرا ، عن مقالة مغرضة أو قصيدة تهاجم شرف مصر والمصريين كتبها نزار قباني فى صحيفة بيروتية ولابد من رده وإعطائه درسا ولابد من مقابلة واحد من مفكرينا أو صحفيينا الكبار لحثه على الرد . وأنت قد تظنه مقداما شجاعا يستطيع مقابلة هؤلاء متى شاء ببساطة . فإذا ما مشيت معه رأيت ينطلق فى الطريق بمشية رجولية منضبطة كمشية عياق القرية من تجار الفواكه والمحاصيل ، لا ينقصه سوى اللآسة يلفها حول رقبته ، مما يؤكد أنه يعيش شخصية المثقف الجاد بكل جدية . أدبه فى الحديث يتساقط على مظهره إتساقا طبيعيا لائقا ، لكنه بعد دقائق معدودة ينهار ليظهر تاجر الفراخ وكاتب الأنفار .

نفسه طويل ، يلعب الصوت حتى النهاية بغض النظر عن شأو يبلغه أو خفوت ينهيه . سيذهب معك بالفعل إلى روز اليوسف مثلا ، فإذا به بالكاد يستطيع الحصول على مقابلة صبرى موسى أو عبدالله الطوخى من المحررين الشبان . أو يذهب معك إلى جريدة الجمهورية فيقابل فاروق منيب بصفته فلاحا

مثله . ثم يتضح لك أن جهوده هذه يمكن أن تكلل فى النهاية بقدر من النجاح ، يمكن أن تؤب الحملة المقصودة إلى مقالة صغيرة يكتبها هو ، ليعلق عليها المحرر فى مقاله الأسبوعى .

كم يتوق جمعه الجيزاوى إلى أن يكون أحد هؤلاء المحررين الشبان اللامعين ، مثل صالح مرسى وعبدالله الطوخى وصبرى موسى وعلاء الديب والرسم حجازى فى روز اليوسف ، أو مثل فاروق منيب فى جريدة الجمهورية . يا حبذا لو كان العمل فى ملحق الأهرام مع لويس عوض . يا حبذا لو كانت له زوجة محررة فى الصحيفة معه ، يتأبطها للفرجة على المسارح ، يحدثها بالهاتف تسهر هى على راحته حتى يتمكن من أداء مهمته النقدية الموكولة له من قبل العناية الإلهية ، فلتكن مذيعة فى التلفزيون مشهورة مثل سميرة الكيلانى زوجة رائده ومثله الأعلى الناقد الكبير محمود أمين العالم . ذلك من حلمه وإن لم يحدثك فيه صراحة ، إذ هو أكبر من ذلك وأرفع ، بل هو أول الساخرين ممن يتزوجون من عاملات خاصة إن كن شهيرات ، أما إن كن شهيرات جدا فإن زوجها فى نظره وإن كبرت شخصيته يصبح زوج الست ، بما وراء ذلك من غمز وتلميح وتلقيح على بعض الشخصيات العامة مما قد يجد أصداء ضاحكة فى مقهى ريش أو مقهى زهرة البستان أو مقهى البرابرة أو الأتيليه . عموما فهو مغرم بالنهش فى جميع الشخصيات الكبيرة المشهورة ، يتهمهم جميعا بالعجز الجنسي ويؤلف باسمهم جمعية إسمها جمعية عدم الإمكان ، ويعين فيها الأعضاء تبعا لهواه ، فإن حنق على شخص أو قرش ملحته عينه عضوا فى جمعية عدم الإمكان . الأكثر إثارة للدهشة والغيب أن أى حديث أو شائعات عن العجز الجنسي تجد قبولا حسنا لدى هذه الجماهرة من مدعى الثقافة والأدب ، فانتشر لهذا خبر جمعية عدم الإمكان وبات كأنه حقيقة فعلية واقعة .

دع فتاة من اللامعات فى الحقل الإعلامى أو الفنى تكلمه وتماحكه بناء على خطة يدبرها أصدقاؤه الأشقياء ، وشف كم يكون الأمر مضحكا وطريفا ، فسرعان ما يندلق جمعة الجيزاوى على نفسه ويصير من حرارة العاطفة وسذاجة السلوك فى حالة تجلب الرثاء ولكن بعد أن تشبعك ضحكا صافيا عميقا ، إذ لابد أن تجد فى سلوكه الساذج هذا كثيرا جدا مما كان من الممكن أن تقع أنت الآخر فيه لولا أن خطوط دفاعك متمكنة فى بعض النواحي ، أو لأنك غير واثق من أمر نفسك فيما لو وضعت مكانه هل تبقى كيانا متماسك الشخصية تتصرف برزانة وحرصا أم ستتهار كل خطوط دفاعك دفعة واحدة كما يحدث لجمعة الجيزاوى فى مثل هذه اللحظات الدقيقة الحرجة ؟ .. تخيل نفسك وقعت فى شرك امرأة فاتنة ذات هيف وقوام بارع ممشوق لم تكن أنت تحلم بأن تستجيب هى لغزلك بله أن تدعوك للوصال . مسموح لك - طبعاً - بالتهور قليلا مهما كنت مترنا . فى تسعين فى المائة من الأحوال ستذهب معها إلى حيث دعتك لشرب كأس ، مدفوعا بحب المغامرة وحمية الجنس التى لابد أن تفقدك صوابك . ها أنت ذا قد ذهبت فى تيار الهوى ، كلمتها وكلمتك ، لاطفتك وأرضت غرورك بل صاحبت فى فرح عندما سمعت اسمك : أه جمعة الجيزاوى ! الناقد المشهور أنا قرأت لك مقالة كذا ؟ هذه فرصة هائلة ! قد عزمتك على الغداء فى منزلنا ! وأهلى غير موجودين اليوم به ! شرفنى واقبل دعوتى ! .. منزلك ؟ ! طبع وماله ..

فى البيت الذى تقودك إليه تسلمك إلى داخل الشقة ثم تختفى فى الحال . تجلس أنت على أول كرسي صادفك ، مبهور الأنفاس ، لابد تتوَجس تنوقع تنرقب إيقاع دقات قلبك النشط . ساعة أو أكثر وأنت مصلوب فى لحظتك

البئسة . بعدها تظهر هى مرة أخرى مرتدية قميص النوم الخلع الفاتن ، تقبل نحوك بكأس أنيقة يعلم الله ماذا فيها من شراب ، توصيك أن تشربها بسرعة حتى تلحقك بالأخرى كى تسخن نفسك ، تميل عامدة لتضع الكأس فينطرح شعرها كالشلال ملامسا وجهك وأنفك بنعومته ورائحة عطره المذهلة ، ويلطشك ثديها النافر فى كتفك لطشة سريعة تترك أثرا حارقا يشمل جسدك برمته . لاتعطه عقلك ليتصرف به بل دع جمعة الجيزاوى يفعل فى محنته ما يمليه عليه حمقه العظيم ، إذ هو لن يجد أمامه سوى أن يمرر كفه على ظهرها مستقرا به على عجيزتها . فترفع له الحسنة عينا حارقة لاهبة ثم تشير له إلى حجرة النوم ..

فى حجرة النوم يدخل عليك غلام خليع خنشور ، يرتدى فوقك نازلا فيك ملاطفة وغزلا وتحريكا وتديكا ومربعة . أنت بالطبع ستتصرف على أى نحو تمليه عليك الفطنة . وهكذا فعل جمعة الجيزاوى حين وضع فى هذا الموقف بكل حذافيره . غير أن فطنته لم تكن تقطن إلى أن لقيفا من أصدقائه من بعض ذوى الدخول الكبيرة من المتاجرين بالصحافة والأدب والكسبية بوجه عام يجلسون فى حجرة مجاورة يكتمون ضحكهم كى يتمتعوا بالفرجة حتى آخر رمق فى جمعة الجيزاوى ، حتى وهو يلف انحاء الشقة عاريا كما ولدته أمه يبحث عن ثيابه التى اختفت فى حجرة ذات باب خفى ، وأشباح المتأمرين تلف خلفه فى ممر الشرفة الخارجية التى تطوق الشقة من جميع النواحي .

فصول كثيرة هازلة كهذه كثيرا ما حاكها البعض لجمعة الجيزاوى ثم تفننوا فى إعادة حكيها بتفاصيل التفاصيل . وفى سبيل المصادقية يدعى كل من يحكى أنه رأى رؤية العين . وسواء حدثت هذه الفصول أم كانت مجرد شائعات

ثقيلة عابثة فإن هذا ما كانت تثيره شخصية جمعة الجيزاوى فى أوساط المثقفين بوجه عام . ولذلك فقد كان مشهورا جدا دون أن يكون له رصيد من الإنتاج يمكن الاحتكام إليه عند وضع شخصيته فى الميزان ، فكان يبدو فى كثير من الأحيان كشخصية وهمية مجسدة . لا يوجد مثقف واحد لا يعرف جمعة الجيزاوى ولا يحكى عنه بشكل حميم ينطوى على كثير من الطرافة . وأنت ترى جمعة الجيزاوى فى نقابة الصحفيين كثيرا فكأنه أهم من نقيبها مع أنه ليس عضوا بالنقابة من الأساس . وتراه فى نقابة المحامين المجاورة فى مطعم الغداء يتأمر على النوادل يدقق فى نظافة المفارش والأطباق وبرودة الماء وجودة اللحوم . ولسوف ترى الكثيرين يبادلونه التحية فى ود وأريحية واستئناس ، حتى قيل إن جمعة الجيزاوى لو رشع نفسه فى أى نقابة من النقابات العامة فى منصب النقيب لفاض على الأرجح بالتزكية . وأنت تراه كذلك فى أتيليه القاهرة ليس فى مواعيد نوبة الثلاثاء فحسب بل فى سهرات كل ليلة ، وشرب كأسين كمشاهير المثقفين والسياسيين . يضع ساقا على ساق ، ينطلق فى حديث حماسى بالفصحى المتقعرة تارة الحلمتيشية تارة أخرى ، له مع نوادل الأتيليه - مثملا له مع كل النوادل - معاملات خاصة وحسابات شكك يتجادل معهم بشأنها كثيرا كثيرا . فى أواخر الأماسى تراه فى شقة فى الحوتية يسكنها مجموعة طلبة فى كلية الفنون الجميلة وبعضهم يهوى كتابة القصة . أو تراه فى شقة فى العجوزة يسكنها مجموعة أخرى من نفس الطائفة يتعشقون العمل فى حقل الصحافة . أو تراه فى شقة فى نفس الحى على مبعدة خطوات قلب يسكنها قاص شاب وافد من الإسكندرية يعمل موظفا بسيطا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب يحسده جمعة عليها ويتمناها لنفسه ، وهو فى كل سهرة من هذه

السهرات يتحدث نى قضايا النقد الكبيرة كما عالجاها حسين مروة وعبدالعظيم أنيس ومحمود العالم ومحمد مندور ، وفى الأخطاء القائلة التى يقع فيها الأدباء الشبان الوافدون من القرى إذ يفرغون ذكريات القرية فى عملين أو ثلاثة ويلوصون بعد ذلك فى الخواء ، وفى تطرف يحيى حقى فى مجاملة القصاصين غير الموهوبين بكتابة المقدمات لجاميعهم القصصية وتصلبه فى عدم الترحيب بنشر شعر العامة المصرية فى مجلة المجلة ، وفى المجلة الثقافية الأدبية التى يزعم إنشاءها عما قريب لتستوعب الأدباء الشبان وتحل مشكلتهم الأزلية ، وفى الكتاب الذى ينوى أن يصدره مقدما فيه ملامح جيل جديد ، يجمع من كل شاب قصتين ، ويكتب هو المقدمة التحليلية النقدية التبشيرية ، على أن يساهم كل واحد من الكتاب بسهم فى تكاليف الطباعة .. هو يعرف ولدا صاحب مطبعة ودار نشر وليدة مقرها فى حى إمبابة وهو ولد متفتح فى الأدب ويتحمس للأدباء الشبان ..

ولقد يصدر الكتاب بالفعل ، ولقد تصدر المجلة حقا ، لكنك تلتقى بجمعة الجيزاوى بعد وقت يقصر أو يطول فإذا المشاريع لاتزال تستغرقه وتستنفد حماسه ، وإذا هو يندesh من أنك لم تسمع بعد عن الكتاب الذى أصدره ليؤرخ به للامح جيل جديد ، أو من أنك لاتزال تسأله عن فكرة إصدار المجلة مع أنها قد صدرت بالفعل لمدة عشرين اثنين كانا من أرقى ما طبعته المطابع العربية إلا أنها مع الأسف هى المحنة الأزلية التى تواجه كل المجلات : التمويل ..

أشهد أن قد نالنى من حماسة جمعه الجيزاوى ومن كرمه ومن علاقاته الشئ الكثير . فعن طريقه عرفت مجموعة كبيرة من أصدقاء أعترز بصداقتهم ، وعرفت كتبا ثمينة ما كنت سمعت عنها من قبل ، وفهمت بعض تراكييب العلاقات

السياسية ، وبعض أسرار الحركة اليسارية التى لم أكن أعرف أى شئ عنها ، وبعض أخبار الأحزاب الشيوعية . تلك فوائد ثمينة بلا شك ، لكننى لم أكن أشعر بقيمتها أثناء صيرورتها ، ربما لاستهانتى غير الموضوعية وغير المحقة بشخصية جمعة الجيزاوى كشخصية غير محبوبة غير متسقة غير متأصلة فى شئ بعينه من فروع الفن والثقافة والمعرفة ، وربما لأن هذه الفوائد كانت تتضاعل أمام احتياج أكثر أهمية فى حينه من أية استفادة أخرى ، ذلك هو الإلتحاق بسرير النوم الذى أحلم به ليل نهار من شدة التعب ، وكان يمضى طبعاً أن تقصر موهبتى عن قناعة جمعة الجيزاوى فلا يصدق على كما يفعل مع من يقتنع بهم من الموهوبين الفلاحين ، خاصة وأنه كان يبدو على أننى قد بت مطروداً من جنة النوم بأمر إلهى تتضافر جميع القوى الكونية لتنفيذه ونفى النوم من عالمى نهائياً . فكان أن صرت أستسلم للنوم فور أن تصافح مقعدتى أى مكان ، فجأة لا أراى ، فجأة يندب فى رأسى خطاف حاد ينتشلنى من قاع بحر النوم ، إن كان فى مقهى فإن النادل يقف لى بالمرصاد ، أو فى مركبة فإن أيدى الشياطين من أولاد الحلال سرعان ما تهزنى تنبهنى إلى مرور المحطات . صرت أتمنى زنزاة منعزلة لا يعرفنى فيها بشر ولا أتصل فيها ببشر ، لكى أنخرط فى نوم عميق يشبع شهيتى وشهوانيتى للنوم ، بشرط أن يكون فى مخى جزء صاح أشفى به غليلى وأمارس اللذة بأننى نائم بالفعل على أرض مستوية ، بملء الكلمة نائم ، ممدد الساقين والذراعين ، لا أكل ولا أشرب ولا أفعل أى شئ سوى أن أفتح عيني كل دهر لأتأكد من أن جسدى النحيل الضعيف الهفتان قد وجد أخيراً رقعة فسيحة على قده يتمدد فيها مصعداً الأنفاس فى هدوء وراحة بال ..

على أن «جمعة الجيزاوى» كان يستندل معى كثيرا ، فلا يدعونى إلى مكان من الأماكن التى يذهب إليها ليلا أو يستأجرها ويترك فيها بعض أصفياه ، الأرجح أنه ربما كان يستنفهنى ، أو لعله لا يأمن جانبى . الأكثر رجحانا أنه - فيما بدا لى - كان يعمل على تجنيد هؤلاء الأصفياء لضمهم إلى حزب من الأحزاب الجديدة التى كانت تقوم تحت مسميات اجتماعية وأغراض مهنية تعاونية ، ولقد كنت مستعدا لأن أكون جنديا من جنوده الخالص ، مثل عبد الفتاح البتانونى وقرينه شاعر العامية سمير دياب الذى يقولون أنه هو انذى جند جمعة الجيزاوى نفسه ، ومثل طنطاوى فهيم طالب الفنون التشكيلية القاص ، ومثل عطية الأمير طالب الفنون التشكيلية الذى يعد مسخة مسلية ، وغيرهم وغيرهم ، لولا أنني كنت أشعر أن جمعة الجيزاوى ليس يالغنى دون أن أعرف لذلك سببا يقينيا . لكننى بعد لأى قدرت أن السبب الوحيد لنفوره منى هو أنني لم أعترف له مطلقا بالنبوغ والعبقرية ، ظلت أنظر إليه باعتباره واحدا ممن يحاولون الوصول إلى شئ يعتد به ، ومثلما جئنا كلنا لنفعل . ولم أكن أعرف - لفلوحيتى ربما - أن هناك مجموعة من إخواننا الشبان ينافقونه بامعان غريب ، وينصبونه على رأس الشبان ناقدا يمثل جيلنا ويحق له أن يكون متحدثا رسميا باسمنا . وقد عرفت أنهم - ومن بينهم صديقى البتانونى - لامانع لديهم من الدفاع عنه بحماسة هوجاء هتافية خاوية ، وفى نفس الوقت لامانع لديهم من احتيازة الآخرين فى استنكارهم لشخصه والاستهانة به فى حين هم ينافقونه فى كل شئ يروجونه من أجل شهرة فى دروة مأهولة بالطعام والشراب والسجائر الكتب الثمينة التى لا يتردد أحدهم على شرائها ..

ما كان يدهشنى شقا من صديقى البتانونى أنه كلما أحرز شهرة جديدة تجرأ بالرأى المتطرف على الكثيرين من رفاق طريقه بل من السابقين ، وأصابه

الإستعلاء والترفع الأجوف المتمثل فى مقولات فكرية كبيرة يلوكها يحاول تنويها فى بعض القصائد وبعض الأغنيات .. حينئذ أعرف أن جمعة الجيزاوى قد نجح فى حشو رأسه بمعظم المقولات الثقافية الفكرية الفنية التى تمتلئ بها كتب اليسار الأوروبى والشرقى فى تأليف نقاده ودارسيه ومبديهيه وفلاسفته . وهو بدوره لم يعرفها من مصادرها الأصلية إنما التقطها من المقالات والدراسات التى اشتغلت عليها من قبل مجموعة من رواد الدراسات النقدية وباحثى علم الجمال العرب ، والتى كانت تنشرها مجلة الآداب البيروتية ومجلة شعر ومجلة دراسات أدبية ومجلة المجلة ، لمحمد مندور ولويس عوض وحسين مروة ومحمود العالم وعبد العظيم أنيس وعلى الراعى والشاعر أدونيس وغيرهم ..

مهما يكن من أمر فإن لجمعة الجيزاوى فضلا كبيرا جداً فى تثقيف البتانونى وفتح وعيه على المصادر الثقافية وعلى ذلك الرباط السحرى السرى الذى يربط الفن بالحياة بالنشاط الثقافى بوجه عام ، وفى دراسة ضافية كتبها الجيزاوى عن أشعاره وضع يد شاعره على نقاط الأهمية فى شعره وعلى النقاط التى سيجيئه التطور منها ، يكفى أنه كتب عنه باعتباره شاعرا كبيرا مرموقا . وحتى بعد هذه الدراسة لم يكن لدى صديقى الشاعر مانع من أن يستعلى على جمعة الجيزاوى فى لقاءات فى مكاتب بعض المحررين كانت أنباؤها سرعان ما تشاع .

فى تلك الأثناء كان صديقى البتانونى قد نشر الكثير من القصائد المهمة فى الجريدة الكبرى ، تناقلتها الأوساط الثقافية بإعجاب واضح ، وأذيعت له الأغنيات فى الراديو لطربين ذائعى الصيت . ومضى وقت طويل جدا لم أره خلاله . وكنت تقريبا قد كففت عن هواية إلقاء شعره على الآخرين بعد أن بات

هو نفسه متوافرا فى الأسواق ، وإن ظللت أتحمس دائما للحديث عنه وعن مواهبه فى حميمية كبيرة . غير أننى انغمست فى همومى تماما ، المنحصرة دائما فى كيفية الإنفراد بالليل فى مكان ما لأخنقه حتى تصعد روح الصبح من جوفه . إلى أن قابلت «زكريا المندوه عمران» ، أغرب قاص قابلته بين الشبان .

كان ذلك فى قعدة الإمبابى . وكانت أول ليلة لزكريا فى القاهرة . لست أعرف كيف بلغته أنباء هذه القعدة فى بلدته فعرف أنها ملتقى المشائين ، المهم أننى فوجئت بفتى غريب ، نحيل القوام نحيف البدن صلب الملامح والأطراف ، قمحى اللون ، طويل الأنف غائر العينين أسودهما . رأسه صغير بيضاوى ، حليق الشعر ، ضيق الفم ناشف الشفتين ، إذا ضحك انكمشت شفتاه وبدا كأن صوت الضحك يرتد إلى داخله فيحاول إخراجه مرة أخرى فيسمعك الضحكة الواحدة ضحكتين ، الضحكة وصداها الداخلى . فى عينيه كدح شديد وفى نظراته مرارة ، وفى لهجته عصبية وانفعال زائد عن الحد ، وشكله بوجه عام يذكرنى بالأولاد الحمارين المنتشرين على محطات البلاد القريبة من القرى ، إذ يؤجرك الواحد منهم حماره لكى تركبه إلى مشوارك فيما يجرى هو خلفك مهرولا يهوش الحمار بخيزرانة قصيرة كلما تلكأ الحمار أو استمكر ..

ما رأيت على جسد «زكريا المندوه عمران» سوى الجلباب الكالح الذى يرتديه أبناء فقراء الفلاحين الأجراء رغم أنه كان فى الواقع يلبس قميصا أفرنجيا وسروالا كابناء المدينة ..

لحظة وصولى إلى قعدة الإمبابى بعد منتصف الليل بكثير كانت القعدة حابكة فى صفين أحدهما يظاهر الحائط والآخر يظاهر الشارع ، وقد صنع

الحائط ظلا صناعيا حجز رصيف القعدة عن ضوء الشارع فكأنه فرش للقمر عباءة سوداء يعرض أضواءه عليها . وكان القمر ساطعا من السماء مجاورا لمصابيح الشارع الكهربائية محاطا بها لكنه رغم ذلك يبدو منحازا لقعدة الرصيف كحارس غفير . وكان من الواضح أن وجهها جديدا قد طرأ على القعدة ، فهذه الهدأة المستكنة تحت وقع صوت المتحدث لا تحدث عادة إلا عند الإستماع لزائر جديد ليس من اللائق مقاطعته بل الأفضل تركه يسترسل فى الحديث كما يشاء حتى يسفر عن نفسه جيدا فيتعرفونه على نحو صحيح .

المتحدث كان «زكريا المندوه عمران» ، الذى أسند ظهره للجدار بجوار الثلاثة مباشرة ، ووضع ساقا على ساق ، بإحساس المسحوق الذى ينكمش حتى وهو يزعم الإنجعاص ، إذ الإنكماش فى داخله من الأساس . وقد انخرط فى الحديث بثقة لا حدود لها ، وبشئ من جلافة النجوم اللامعين فى حركاتهم الحاسمة وغمزاتهم الذكية المتعالية التى قد لا تخلو من حماقة أو ربما صفاقة فى التعبير ، محركا ذراعيه الطويلين بأصابعه السرحة فى حركات سريعة متتالية صعودا وهبوطا وتمليسا على الهواء كأنه ينسج بيديه شبكة الحديث ، ذلك الملى بالتحدى ، وبشئ كأنه الوعيد ، ونبرة كأنها التهديد ، وانفعال كأنه طرق للحديد بالحديد ، تعقبه هيافة مفاجئة غير متوقعة من هذه الجدية الجادة ، كأن الانفعال الحماسى الساخن قد ضرب فى سقف دماغه المحبوس الإرتفاع فلم يجد متنفسا فارتد منبسطا ، كأن الاسترسال المتوهج فى كلام كبير إصطدم فى رأسه بفقر ما ، فإذا بالمتحدث قد داس فجأة على أرض رخوة ، فينقلب الحديث إلى سخرية جوفاء مضغومة فى ضحكة حمقاء ..

لست أذكر بالضبط موضوع الحديث ، أغلب الظن أنه كان يدور حول خواء الكتاب الكبار وتخلف مفهومهم لفن القصة وكيف أن الأمل كله فى

الشبان ، وأمجاد القصة الحقيقية قادمة ، لأن القصة الحقيقية ، فى الواقع ، لم تكتب بعد ، مع احترامه ليوسف إدريس وليحيى حقى من قبله وأما نجيب بن محفوظ - هكذا نطقه - فهو روائى فحسب ..

كنت قد ألقيت السلام فتلقيت ردودا مضغومة ، وانسريت جالسا بجوار الثلاجة من ناحية الشارع ، فصارت الثلاجة تفصل بينى وبين ذلك المتحدث الذى لم أكن عرفت بعد من هو . بعد دقائق معدودة من جلوسى اكتشفت أن المتحدث لا يتحدث فى موضوع بعينه وإن بدا كالمحاضر التحرير ، إنما هو يتحدث فحسب ، ينتقل من موضوع إلى خاطرة إلى تعليق إلى حاشية إلى حكاية جانبية غريبة إلى رواية موقف طريف ، ومن العبث أن تحاول إيجاد رابط بين كل هذه المتفرقات غير رابط الصوت الواحد . غير أن أحدا ممن يستمعون إليه لم يفكر فى إيجاد هذا الربط الضرورى المطلوب لأى حديث ، ذلك أن زكريا المننوه عمران ، ربما لأول مرة ، يقدم المعنى الحقيقى الأصيل لكلمة حديث ، وهو التجدد المستمر فى كل دقيقة . فإلى أن تفكر أنت فى الحكمة من هذه النقلة المفاجئة تلو النقلة المفاجئة تكون طلاوة الحديث قد استغرقتك بكل مدهش ومثير من الأفكار الجنونية والمعانى غير التقليدية والعبارات الشاعرية البليغة المكثفة ، المشوبة بهيافات كثيرة ، المتذبذبة بين الأدب الجم فى المخاطبة وبين البذاءة الشديدة ، التى تكمن أحيانا فى بعض العبارات المتسمة شكليا بالأدب الجم . إلا أن هذه البذاءة وإن لمست البعض وأسالت جراح البعض فإن الجميع قبلوها باسمين ضاحكين لما تتطوى عليه من خفة ظل وغرابة وذكاء ، الأمر الذى قطع لى بأبنى أمام فنان مطبوع بالسليقة ، ينقصه القليل من التنظيم والترتيب والتشذيب . على أننى أحببته فى الحال ، وبدا كأننى أعرفه منذ الطفولة ، بل

تيقنت من أننى ملم سلفا بكل ما يدور فى ذهنه من أفكار وما يصطرع فى صدره من مشاعر ..

كان يخاطب كل الناس بأسمائهم مجردة من أية ألقاب ، بلهجة فيها من الود أكثر مما فيها من الزرابة ، باستثناء البعض القليل كالاستاذ أسعد المحامى أو فايق الرسام ، هذان يقول للواحد منهما : يا حبيبى يا أخى . ثمة نبرة فى لسانه توحى بأنه غير جاد فى الإعراف لأحد بالاستاذية أو العمومة . كذلك كان من الواضح أنه يعرف كل هؤلاء الناس معرفة جيدة ، فلا بد أنه قرأ لهم أو جمع أخبارهم من أى مصدر . الأرجح أنه يتابع كل شئ حتى يريد الصحف ، إذ أن أخبارا ترد على لسانه كانت فى الأصل ردودا على بعض الناس فى بريد إحدى المجلات الثقافية ..

عرف اسمى من الترحيب بى فى القعدة ، فميل رأسه عند سماع اسمى بحركة ثقيلة كأنه يشد خطا تحت الاسم علامة على أن حبالا خفيفة تربط بيننا ، ثم تركنى قليلا حتى يفرغ من حديثه وحتى تتيح له الحماسة أن يدخل الكثير من سجاثر أسعد وفايق . ثم إن حديثه قد بدأ يميل إلى الهزل الخالص ، ويتحول إلى نكات بعضها قديم ممجوج ، ويكثر من الضحك لدى كل كلمة ينطقها قبل أن ينطقها وبعد أن ينطقها . وكان بعض أهل المنازل البعيدة قد بكروا فى الانصراف ، والمرتبطون بملاحق للسهرة فى بيوت حافلة قد تغامزوا وتهامسوا وتسللوا وراء بعضهم خلصة ليتجمعوا على ناصية حارة جانبية كى يستأنفوا السير معا . هكذا كشفتهم عين زكريا المننوه عمران الثاقبة ، وعلق على انسحابهم بكثير من الاستحسان الضاحك . ثم مال على قائله كأنه أخيرا قد فرغ لى :

- «إزيك يا شكرى ! بدر صفوان صديقك يسلم عليك كثيرا !»

هتفت فى فرح حقيقى :

- «تعرف بدر صفوان ؟!»

قال :

- «عين مدرسا فى بلدتنا ! وهو الآن على وشك أن يرتدى لباس

الجندي ! أنت تعرف أن تجنيده كان مؤجلا بسبب دراسته فى الكلية !»

- «وكيف حاله يا أبا الزيك ؟»

قال بجدية وانفعال :

- «حزن حزنا كبيرا حينما علم أنك بقيت فى القاهرة ! هو ليس يريد لك

البهدة ! وكان بوده أن ترجع إلى بلدتك أو إلى الإسكندرية لكى تستطيع الكتابة الجيدة ! هو أيضا يعلم أن فى أعماقك قاصا موهوبا رغم تعلقك بالشعر ! أما هنا فإنك لن تجد عملا وهذا سيعطلك عن الكتابة ! كنت أظنك تحمل ليسانس الآداب مثله !»

قلت وقد لزم التنويه :

- «أنا لم أدخل الجامعة أصلا !»

قال ببساطة مشوحا :

- «ليس يهكم طبعاً ! أنا أيضا لم أدخلها ! ولسوف ثبت وجودنا فى

هذه المدينة الفاجرة !»

قلت :

- «هل أنت شاعر ؟!»

قال كأنه يلومنى على جهلى :

- «شاعر ماذا يا حبيبى يا خوى ؟ أنا قصاص ! ولا أعرف فى الدنيا شيئا سوى القصة ! وليس لى فى هذه المدينة أقارب سواها ! هى التى تستضيفنى ! ولأنها فقيرة مثلنا فإننى أعتمد على نفسى فى نفقات الضيافة !!»

قلت بإعجاب وحماسة :

- «أحب أن أقرأ لك !»

قال ببساطة :

- «اسمعك قصة كتبتها حديثا !»

ولم يكن معه أية أوراق على الإطلاق . فاقتربت منه ، رأيت وجهه بوضوح ، فإذا بشئ من الشحوب يظهر خلف ملامحه كأنه مستنفذ الطاقة على اللوام . اتعدل ، ولوح بأصابعه ، انبرى يقرأ - من الذاكرة - قصة قصيرة كاملة . بهرتنى أولا مسألة أن يحفظ الكاتب قصصه عن ظهر قلب كأنها القصائد المنظومة يسهل حفظها ويقاؤها فى الذاكرة . ثم بهرتنى القصة نفسها ، كانت تنطوى على شئ جديد ، فالعبارة الواحدة ليست مجرد عبارة ، بل هى عدة عبارات معجونة فى بعضها كالفتيرة المشللتة ، فيها مذاق شاعر الرباب وطعم كتاب الغرب المحدثين أمثال ألبير كامى وهيمينجواى وفوكنر ، السرد فيها ممزوج بالمونولوج الداخلى بوصف اللحظة بتداعى المعلومات التاريخية السابقة والحاضرة . من فقرة إلى فقرة ترتسم فى الذهن صورة درامية جدارية مع كالنقوش الفرعونية . ثم اتبع القصة بقصة ثانية فثالثة ، من الذاكرة ، حتى اعتبرته ظاهرة خارقة من ظواهر أيماننا المقبلة .

أحببت قصصه مثلما أحببت شخصه ، فانزويت معه فى ركن الثلاثة نتسامر ، وقد سرنى أنه يعرف حالتى المادية سلفا ، فكان يستقطب السجائر له

ولى ، ويواصل الحديث أو يواصل الاستماع . ومن حين إلى حين يعود فيذكرنى بصديقى بدر صفوان ، الذى وجد فيه ولدا من أنقى من عرفهم فى حياته ، لولا أن بدر صفوان - فى نظره - لا علاقة له بفن القصة من قريب أو من بعيد ، مع احترامه لجائزة نادى القصة التى حصل عليها أكثر من ثلاث مرات ، إذ أن فوزه بهذه الجائزة - فى حد ذاته - دليل على أنه يكتب قصصا رديئة . وكنت أريد أن أختلف معه حول رأيه فى صديقى بدر صفوان ، وأقول له أن صديقى دارس الفلسفة وعلم النفس والاجتماع يكتب القصة من باب الهواية ولا ينوى الاحتراف ، بل إنه يرفض النشر إلا فى أماكن يتأكد أنها تناصر مبادئ الإنسانية وحقوق الأغلبية المسحوقة ، وإنه قد رفض التعيين فى بعض الجرائد حتى لا يضطر لاحتراف الكتابة . إلا أنني لم أقل شيئا من هذا لذكرى المنذوه عمران ، واعتبرت أن رأيه محض حماسة زائدة ، صحيح أنها تعكس حماسه لنفسه ولكنها تعكس أيضا عشقا صوفيا كبيرا للفن ، ولفن القصة القصيرة بوجه خاص .

وكانت الساعة فى مشارف الثالثة صباحا حين صفصفت القعدة علينا هو وأنا والإمبابى المستقيم على البتك . قال فجأة : «أنا جعت» ، وتثأب متمطعا ، فشمنت رائحة البيرة تغمر أنفى . وكنت قد نسيت أمر التعب والنوم مؤقتا ، فلما تثأب حطت فوق كاهلى جبال التعب والنوم . وكنت قد نسيت أمر الطعام منذ بضعة أيام ، فلما شمنت رائحة البيرة وسمعت اسم الجوع شعرت بجوع خرافى . قال :

- «طبعا أنت طرزان ما معك نقود ؟!»

قلت :

- « طبعا طبعا !»

قال :

- «نفسك فى لقمة طرية ؟!»

قلت :

- «نفسى !»

قال :

- «نفسك تمدد لك ثلاث أربع ساعات ؟!»

قلت :

- «نفسى !»

قال :

- «قم بنا !»

ونفض واقفا يتمطى ، وشرع يمشى كمشية راعى الغنم يتطوح يمينه ويسرة كالذى يهش على قطع كبير من الغنم . مضيت بجواره أتأمل ذلك الكائن الطريف الجميل ، الذى جاء يخرج لسانه للمدينة ، غير أبه بأى شئ فيها ، غير يهرب من رجالها أو مكاتبها أو مؤسساتها أو شوارعها المسفلطة اللامعة . هذا ما أفكر إليه أنا وكثيرون من أمثالى القرويين .. فأيقنت أنه سينجح حتما فى المدينة وسيحقق شيئا يعتد به ..

حودنا من شارع شامبليون إلى شارع عبد الخالق ثروت فى اتجاه كورنيش النيل . بعد خطوات قليلة انزوى زكريا واقفا بجوار الحائط يقضى حاجته على الملأ ، والمياه المتدفقة منه تشر على الحائط وتحقر لنفسها أهدودا الرصيف وتجري إلى الأسفلت كبول البغال . إنها البيرة التى كرع الكثير

منها كما هو واضح . استدار عائدا يزرر فتحة السروال ، ومضى بجوارى وداح يسألنى عن أخبار بعض الناس الذين يهيمه معرفة أخبارهم ، وعلى أية حال - يقول - فقد قرر أن يعيش فى القاهرة إلى الأبد حتى لو لم يرتبط فيها بأى عمل ، حيث خدمته الظروف بأن أوقعته فى مصيبة تتهدد حياته إن هو ظهر فى القرية ثانية ، فلقد أحبته فتاة سنيورة وأعطته نفسها فخاف من وقوعها فى قرابيزه وهو عاطل ، وليس عنده مانع من الزواج منها ولكن ليس هذا وقته ، إنه سيرى مستقبل القصة أولا ، وبعد ذلك يعود إلى القرية ويأتى بهذه البنت ليصلح غلطته مع أنه واثق من أنها لن ترشد عنه كفاعل حتى لو مزقوها إربا ، ومن يدرى ؟ فلربما باتت هى زوجة أكبر كاتب قصة قصيرة فى البلاد العربية . ثم قال فجأة إنه يحب النقود ويحتقرها فى آن معا ، يحبها طالما هى بعيدة عنه ، ويحتقرها بمجرد وقوعها فى يده ، الليلة مثلا ، كان قادما من بلدته ومعه ثلاثة جنيهات فوق أجرة السكة الحديد ، اقتحم بار اللواء - الأنجلو - ليستعيد ذكريات عزيزة قرأها عن هذا البار الذى كان يجلس فيه نخبة من مثقفى ذلك الوقت ، فظل يكرع البيرة لكى تتعمق الذكريات حتى دفع الجنيهات الثلاثة كلها وخرج من البار جائعا يترنج ، ليكمل سهرته مجانا فى قعدة الإمبابى ، أما الآن فإنه ذاهب بى إلى ابن خالته ليقضى عنده الساعات القليلة المتبقية من الليل ، ولربما وجدنا عنده ما يؤكل أو ما يشرب ..

سألته عن ابن خالته هذا : هل هو موظف ؟ فتوقف عن السير منزعجا ،

متراجعا بذقنه فى دهشة :

- «ألا تعرفه ؟!»

قلت :

- «ومن أدرانى به ؟ هذه أول ليلة أعرفك فيها !»

قال فى غير اقتناع بجهلى بابن خالته :

- «إنه الشاعر عبد الفتاح البتانونى ! طبعا تعرفه ! أعرف أنه صديقك

الحميم !»

توقفت بدورى وأنا فى غاية الدهشة :

- «عبد الفتاح البتانونى ابن خالتك ؟!»

قال باسم :

- «كيف لم تعرف إلى الآن ؟!»

قلت ضاحكا :

- «إغفر لى جهلى !»

قال :

- «تربينا معا منذ الطفولة يوما بيوم ! فقد ولدنا معا فى عام واحد ! عام ألف وتسعمائة وأربعين ! فى زمن الحرب العالمية المجنونة ! ذهبنا إلى المدرسة معا وعشقنا الفن معا ! هو عشق الأغانى وأنا عشقت القصة من يوم ما قرأت يوسف إدريس ونجيب محفوظ ! كان البتانونى فى البلد يمشى فى حجائى ويتمسح بى لأنى أكبر منه فى المقام ! فأنا الكاتب الأديب وهو مؤلف الأغانى ! وكان لنا مدرس للغة الإنجليزية يكتب النقد فى المجلات والصحف وله شهرة واسعة هو الذى شجعنى وأنا شجعت البتانونى ! ويبدو أن هذه الأيام الوسخة يا حبيبى يا خوى ستقلب المعايير وتجعل منه نجما من وراء ظهرى ؟»

ثم واصل السير بطريقة من يتراجع بصدرة إلى الوراء قليلا ليخلع رجله

من الأرض كى يمدها . استغرقت أنا فى خواطر مبهجة : أخيرا سأزور صديقى الحميم «عبد الفتاح البتانوى» فى منزله لأول مرة فى حياتى . لا شك أنها ستكون من أكبر المفاجآت بالنسبة له ، بالقطع سيفرح فرحتين ، فرحة لأننى أخيرا قد زرتة بشكل طبيعى خالص ، وأخرى لاكتشافه أننى أعرف ابن خالته زكريا المندوه عمران ويعرفنى ، أى أن الصلة بينى وبينه ستزداد عمقا ..

تذكرت أن صديقى الحميم عبد الفتاح البتانوى لم يدعنى لبيته أبداً رغم أنه قابلنى فى لحظات عصيبة كثيرة . حينئذ تقبض قلبى لبرهة سريعة شعرت خلالها بقرصة لاهبة ، لكننى سرعان ما عزوت الأمر إلى ظروف خاصة لا بد أنها تحيط به ، فأتانا لم أكن مستوضحا لكل ظروفه السكنية الخاصة ، وهو لم يحدثنى أبداً فى مثل هذه الأمور من قريب أو بعيد . وهكذا مضيت بجوار زكريا المندوه عمران وقد استقر فى قرارى أن أوصله وأقفل عائداً . غير أن صحوة مفاجئة دبت فى ذاكرتى ، فاستيقظ مشهد عجبت كيف تأتى لى نسيانه ..

... لى صديق من زعماء المشائين يدعى «عبد الوهاب منير» ، لا بيت له ، لا عمل ، لا كيان لا مركز لا زوجة لا أولاد لا شهادة ميلاد أو بطاقة شخصية . مع ذلك تراه على الدوام أنيقا غاية الأناقة : بدلة نظيفة إلى حد ما ، قميص أفرنجى غامق اللون حتى لا يظهر فيه الوسخ ، رباط عنق غامق أيضا لكن زيت العرق يلمع فوق عقده ، الأزرار المذهبة فى أساور الأكمام البارزة من كم السترة ، الخاتم الفضى بفص العقيق فى بنصره الطويل . وجهه رصين الملامح ، ممتلئ القسما ، كل شئ فى وجهه بارز مجسد : الخدان والأنف

والصدغان المستطيلان فى امتلاء مقبول ، الحاجبان الكثيفان ، العينان الصقريتان القويتان فى جسارة وثقة إلى حد المخاطرة والحق ، والرأس المبروم فى اتساق بشعر غزير مهذب وسوالف طويلة منسقة ، وجناح المنظار «البيرسول» البنى يطل مشبوكا فى جيب سترته على الصدر ، بجواره قلم حبر أبنوس عتيق . فى الشتاء يرتدى معطفا شديدا الفخامة . لا يخلع رباط العنق صيفا أو شتاء . حين يدخل أى مكان - ولو للقاء عابر - يخلع السترة شأن البكوات القدامى ويعلقها فى مسند الكرسي ، أو يبقياها على ذراعه . لا فرق عنده بين وزير وخفير ، وباب المقهى يستوى عنده مع باب مجلس الأمة أو مجلس الوزراء أو أى مجلس . يتكلم من حلقه فى هدوء وروانة واتزان ومهابة ، فى لهجة تعودت أن تأمر وتنهى ، وأن تجاب كل مطالباها فى الحال . سريع التماس العذر للآخرين ، لديه مبرر لكل فعل يفعله الآخرون تجاهه على وجه خاص . فإن تجهم فى وجهه مدير مكتب أحد الشخصيات الكبيرة التى يفرض نفسه عليها ، فمعنى ذلك أن مزاج الواد فلان - يعنى مدير المكتب - ليس على ما يرام اليوم ، إنه يعرفه حق المعرفة ، ومربيه ، وهذا الولد بالذات يحبه جدا وهو واثق من حبه له ، وهو يعرف حقيقة الخبر وراء توقع مزاجه اليوم لكنه إن يقوله صونا لقدسية الأسرار ..

يقدم لك نفسه على أنه وكيل وزارة الإعلام ، فتصدقه على الفور ، إذ أن مستوى حديثه ملائم جدا لهذا المنصب ، وهو قد يستطرد معك فى الحديث عن مشاكل الوزارة وأوضاعها السيئة التى لا ترضيه ، وكيف أنه تبلغه فاحشات الولد فلان - الذى يتضح لك أنه المذيع الشهير أو المخرج المعروف - وأنه يملك أن يوقفه عند حده لولا أنه يخاف الله ولا يرضى بقطع العيش ، ثم إن بلادنا

غريبة الشأن كما تعلم سيادتك ، إذا انقلب الحاكم على إنسان انقلبت عليه الدنيا ، إذا أنت فصلت من المذيع أو الصحيفة نفيت فى منزلك ومث حيا ، تمتنع جميع الجهات عن التعامل معك ، بل قد يساهم البعض فى تشويهك والتمثيل بجثتك لله فى الله ، يركب الجميع وهم بأن الثورة قد باتت غاضبة على هذا الشخص التعيس ، ولا يخفاك أننا فىنا العبر ، فىنا الذى قتل الحاوى ، فىنا الكثيرون ممن يحبون مجاملة الثورة ورجالها وأجهزتها كأنه يقول : دعكم من هذا الخائن وانتبهوا لى أنا فقد تجدون عندى مشتهاكم ، إن العجل إذا وقع تكثر سكاكينه ، تمنع سيادتك هذا المثل العجيب فإنه يعكس وضعنا المصرى فى هذه الأيام على وجه الخصوص .. أليس ينبغى عليه والحالة هذه أن يتقى الله فى دينه وضميره وشرفه فلا يحكم على إنسان بالإعدام بناء على شائعات حتى ولو كانت قوية ؟ يا عم ! هل فلان الفلانى هذا هو الفاسد الوحيد فى البلد ؟! من كان منكم بلا خطيئة فليمره بحجر ! إن الوضع كله من أساسه .. يا عم لا داعى للكلام الكثير الله لا يسيئك ! دعها على جناب الله وقل يا باسط ! ربنا يولى من يصلح ...

وأنت ترى عبد الوهاب منير فى كل مكان ، أحيانا تتركه فى مكتب أحد رؤساء تحرير جريدة الجمهورية يشرب القهوة ويثرثر ويهز مع الرؤوس الكبيرة بلا تحفظ ، وقد يقول للواحد منهم : يا ولد يا فلان ، لكنك تفاجأ به بعد دقائق معدودة فى مكتب أحد المذيعين اللامعين أو أحد كبار المخرجين فى التلفزيون ، يتحدث عن الأوضاع التى لا تسر ، والفوضى التى عمت ، وقلة الضمير والذمة فى العمل . فتمكث أنت طويلا بغية معرفة حقيقة أصل الموضوع الذى يتكلم فيه على وجه التحديد بهذه الحماسة الجادة والعبارات الرصينة الرنانة التى تتسق

مع مظهره الجاد المهيّب ، لكنك عبثا تحاول ، فإنه يتكلم كلاما عاما ، ربما عن بلدة مجاورة ، ربما عن فيلم شاهده منذ عشر سنوات أو رواية قرأها بالأمس ، أو رحلة إلى باريس قام بها فى خياله ، وحتى إن حضرت حديثه من أوله فربما رأيته يدخل المكتب متكلماً كأنما يواصل مع صاحب المكتب حديثاً معروفاً لهما معا . وسيدهشك بالطبع أن صاحب المكتب يبادلّه الإنصات والتعليقات السريعة كأنه معه على الخط . والأمر لن يخلو من عبارات يسربها عبد الوهاب خلال حديثه ينتقد فيها إحدى المسلسلات باستعلاء مطالبها بإيقافها فى الحال كأنه المسئول الأوحى فى البلاد ، وقد يحكى خبراً مثيراً لا أساس له من الصحة رغم أنه استمعه منذ برهة فى إذاعة ال : بى بى سى ..

سيددهشك أيضاً كيف أنك تركته منذ برهة فى جريدة الجمهورية لتجده ينتظر فى مكتب فى التلفزيون ، أو على مقهى ريش ، أو يقبل فى فرش الكتب عند مدبولى بميدان طلعت حرب . لابد أنه إذن من أهل الخطوة مثملاً هو من أهل اللحظة ، أو أنه قادر على التواجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد . غير أن الدهشة تبلغ ذروتها حين تراه يقابل فى كل مكان بالترحاب والبشاشة . القليل من الشبان يحتقرونه يستعلون عليه ، لكنهم سرعان ما يحبونه لدى أول احتكاك ، ويكتشفون فيه مسلياً عظيماً ، وربما كان هذا هو السر فى أن الكثيرين من ذوى الشخصيات الكبيرة والمراكز المرموقة يحلو لهم أن يصطحبوه فى الأماكن العامة على مسئوليتهم ، أو يستضيفونه للسهر فى قعاتهم الخاصة بل الشديدة الخصوصية أحيانا ، يتصرفون أمامه كأنه شئ مهمل غير موجود ، وفى سكرهم أو سطلهم أو انبساطهم تتكشف كل عوراتهم أمامه ببساطة ويسر شديدين . من هنا فهو قادر على أن يحدثك عن تاريخ شخصية مشهورة جدا

هو الوحيد من بين المشائين الذى لم يظهر أبدا فى قاعدة الإمبابى ، ربما لأن لديه أخراما كثيرة يتستر فيها ، ولابد أن له مكانا ما يغير فيه ثيابه ويريح جسده .. إلا أنك لن تعرف عنوانه مهما حاولت ..

وإنه ليختفى أحيانا شهورا طويلة حتى تكاد تنساه تماما ، وفى لحظة معينة تفاجأ به بشكل عجيب ، فى سهرة خاصة عزمك عليها أحد فإذا به من أصدقاء صاحب المكان ، أو ربما تلتقيه فى الشارع أو فى حفلة سينمائية صباحية . الطريف أنه مستعد لتعريفك بنفسه فى كل مرة يلتقيك فيها دون ملل أو سأم ، حتى وإن بدا أنك تعرفه حق المعرفة ، حتى وهو يقابلك بحميمية سائلا إياك عن أهلك وأهلك وربما عن زوجتك فلانه - التى هى أرجل منك - ولا مؤاخذه ! مع كل ذلك يصر على أن يعرفك بنفسه ولو بشكل شبه عارض ، غير أنه فى هذه المرة - ودائما هذه المرة - يقع فى النسيان الأكبر ، مفترضاً أنك بلا ذاكرة على الإطلاق ، وأنتك نسائى ، هكذا يقول لك بصريح العبارة ، ولابد أن الحشيش الذى يعرف أنك تدمنه قد برد مخك بمبرد النسيان فأفقدك الذاكرة ، أو أن السبرتو الرديء الذى تشربه حرق خلايا دماغك بدليل أنك نسيت حقيقة منصبه ، أتزعم أنه وكيل وزارة الإعلام فى حين أنه - كما كان يظن أنك تعرف - وكيل وزارة التموين ، وكيلها الأول ، أتريد أن تسقط حقه فى الوزارة ومنصب الوزير على مرمى حجر ؟ حرام عليك يا راجل يا طيب ! .. وإنه ليسحبك من يدك إلى محل من المحلات الكبيرة جدا فى وسط المدينة ، فيدخل بك فى ثياب ومهابة وغطرسة ، شاخطا فى عمال البيع ، متسائلا عن لوحات التسعيرة أين هى ولماذا هى صغيرة غير واضحة ولماذا لا توضع فى مكان بارز ؟! أيضا يصرخ على الإيذاء ؟! عجائب والله . ثم ينصرف فى الحال كمن

كأنه يتحدث عن ولد يلعب فى الحارة حتى وقتنا هذا ، لا يعترف بالألقاب وإن حدث الجميع - عند الروقان - باللهجة اللائقة اللبقة البليغة . يحكى ما يشبه الأساطير عن ناس يبدون كالملائكة ، فإذا هم شياطين جهنمية ، فى نفس الوقت يحكى ما يشبه المعجزات عن ناس اشتبهوا بالشیطنة . يضع ساقا على ساق كأعظم العظماء فى عصره ، ويتحدث عن كبار القوم وعن كبار حكام العالم أجمع باعتبارهم عيالا أغرارا تنقصهم الحنكة والخبرة والتربية أحيانا ..

ولسوف يروك أن تراه ذات ليلة فى خلوة مع واحد من علية القوم وحاشيته ، ثم إذا بك تفاجأ به فى ليلة تالية فى كازينو فى شارع الهرم مع ثلة من الشيوخ العرب وكوكبة من الساقطات الشهيرات . ذلك أنه يعرف عددا كبيرا من هؤلاء ، بل سيتضح لك - وسيقنعك لابد - أنه صديق للأمير فلان ، الروح بالروح ، و خليل للأمير علان ، وأن الملك فلان كثيرا ما يرسل له من يحمله عنوة إليه ليأتنس به بعد طول اشتياق . ولقد تفاجأ به متربعا فى منزل إحدى الساقطات فى حى بولاق الترجمان خلف المحكمة مباشرة ، من البغايا اللاتى يفتحن بيوتهن كغرز لتدخين الحشيش وبيعه واصطياد العشاق والمغامرين لاستخدامهم والاستفادة من ورائهم . حينئذ لن يشعر هو بأى حرج ، بل يستقبلك فى ود عميق كأنه صاحب البيت ، يعطيك حاشية سريعة تقهم منها أنه يعرف صاحبة البيت من خلال معرفته بأمرها رحمها الله أو بأبيها ربنا يمسسه بالخير ، يأمر بإكرامك والتواصى بك ، يداعبك طوال القعدة من بعيد لبعيد فيما هو جالس مع المعلمة يتحدثان فى ألفة وسرية كأنهما امرأتان انفردتا للنم فى امرأة أخرى .

ألقى خطبة دينية فى ملهى راقص ، مشيعا بالتحايا المبالغ فيها والإعتذارات بشكل مهذب فيه توقير يقف بحساسية دقيقة على الخط الفاصل بين الجد والهزل ..

كنت أحتقره أحيانا ، ثم أرانى مضطرا لاحترامه فى معظم الأحيان ، فكثيرا ما كنت ألتقيه فى أماكن دفيئة أحاول التستر فيها ، فى مقاهى قاع المدينة أو لوكانداتها الرخيصة ، فكان يصنع لى شيئا من المهرجان يغينى عن مهمة التعريف بنفسى واكتساب العطف بشرح ظروفى . ثم إنه كثيرا ما كان يدعونى إلى أماكن لا أستطيع الذهاب إليها بمفردى ..

ذات ليلة التقانى ماشيا فى شارع التوفيقية أتسكع فى جبهة الليل ، فدعانى لمرافقته فى سهرة هو ذاهب إليها قد تمتد حتى الصباح . أضاف أننى ابن حلال مصفى ، لأنه كان على وشك أن يسأل عنى ، إذ أن الست التى سندهب إليها الآن من عشاق شعر البتانونى ، وسوف تكافئه لأنه جاء بى كى أسمعها شعر البتانونى . أثار خيالى وفضولى ، رحت أحس من تكون هى يا ترى ؟ لكنه بعد برهة صرح :

«هى إنسانة سمعتها مش ولا بد ! لكنها غلبانه وفنانه حقيقية ! لا شأن لنا بسيرتها ! إن الله حلیم ستار ! المهم أنها تغوى الشعر الجيد ! تتمنى أن تغنيه ! تتمنى أن تكون إنسانة نظيفة لكن المجتمع لا يساعدها !»

وجدتنى أهتف على الفور :

«سندهب إذن إلى المطربة بدر البور !»

قال مشوحا بطريقة من يقول : أدى الله وأدى حكمته :

«نعم !»

قلت :

«ولكن ! الفضيحة ! إنها متهمة بالاشتراك فى شبكة لتجارة الرقيق

الأبيض ! والقضية لم تنته بعد !»

غمزنى قائلا فى لهجة واستسهال :

«يا رجل دع الملك للمالك ! أيعرف أحد أين هى الحقيقة ؟! الله أعلم

بالمستور ! مالنا نحن ؟ نحن ناس فنانين ! من يعرف عنا شيئا يقوله ! نحن

أنظف من النظافة ! نفعل ما نشاء ! هيا هيا لا تكن مثل هاملت ! كالمنبت

لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى !» .

وسحبنى فمضيت معه دون مقاومة ولكن على مضض ، فإذا به يعمن فى

إغرائى قائلا :

«ربما وجدت لنفسك عندها نومة طيبة ! لماذا تقطع رزقك ؟!»

انبرى خيالى يحلم فعلا بهذه النومة الطيبة ، فرضيت تماما بالذهاب

لكننى استنكرت مسألة قراءة الشعر فى مجلسها . فبدر الدور هذه - وهذا

اسم فنى مستعار بالطبع - مطربة سورية لبنانية ، وفدت إلى القاهرة منذ أوائل

الخمسينات واستوطنت ، وصارت تقدم برنامجا غائيا فى إذاعة صوت العرب،

تتبادل تقديمه مع المطرب المغربى شريف علوان الذى لا يتميز عنها فى الصوت

بأى شئ ، فكلاهما صاحب صوت ضيق المساحة جدا ، نصف حلو ، وكلاهما

كان متزوجا من قبل ، ويقال أنهما تعرفا على بعضهما وتزوجا فى القاهرة .

تقول المجلات اللبنانية كالشبكة والصيد الموعد والليالى أن بدر الدور هاربة

من زوجها رجل الأعمال المالى بفضيحة أخلاقية ، وترد هى فى مجلة الكواكب المصرية أن هذه المجالات متخصصة فى اختلاق الفضائح لاستلاب النجوم وابتزاز أموالهم ، وأن قضية الرقيق الملققة لها تمت بإيعاز من هذه المجالات التى تعيش على الابتزاز . وقد صدقها البعض ودافع عنها بحاررة لأن هذه المجالات كانت تشق طريقها بسهولة إلى القارئ المصرى فتفتته بالصور العارية وأخبار الفضائح المثيرة ..

غير أن السهرات الهامسة فى ليالى القاهرة أكدت أن قضيتها تم حفظها لأنها قامت فى الأصل بمعرفة المخابرات المصرية ، إذ كانت أجهزتها قد سخرتها هى وبعض الفنانات المصريات للسرّح ببعض الشخصيات السياسية العربية والإفريقية للحصول على معلومات مفيدة ، وأن هذه الأجهزة أبرزت القضية ثم طوتها بغرض إرهاب بعض هذه الشخصيات وإحراق هاتيك العمليات حتى لا يصلح للعمل ضد الأجهزة المصرية . وقيل بل إن القضية لاتزال مستمرة ، وقيل إن بدر البدر بقيت فى القاهرة لأن الأجهزة لا تزال فى حاجة إليها . غير أن الصحف المصرية بعد ذلك بوقت قليل نشرت خبرا مؤداه أن زوجها شريف علوان ضبط فى مطار القاهرة بشحنة من المخدرات كان يزعم إدخالها مصر مع مجموعة من المشتغلين بالفن . وفى نفس يوم نشر الخبر كان شريف علوان مشتركا فى حفل أضواء المدينة ، وقد غنى أمام الجمهور بالفعل . ثم قيل إن البوليس أتى به مخفورا لينهى وصلته الغنائية المتعاقد عليها سلفا ، ليقترده مرة ثانية إلى سراى النيابة لاستكمال التحقيق .

النشء المؤكد لى أن الكثيرين من صعاليك الحياة الفنية يحدثون بعضهم بعضا عن أخبار الليالى الحمراء التى يقضونها فى شقة بدر البدر مع نساء من معارفها أو معارفهم أو معها وحدها . أما هى شخصيا فقليل أنها على علاقة

حميمة بممثل يعمل فى نفس الوقت مقدما للبرامج فى التلفزيون ويشتهر بالشذوذ الجنسى اسمه «سعيد فخرى» . وهى علاقة لا تخلو من منفعة ، إذ تقدمه لعشاقها من ذوى الأموال والميول النفطية ، ويقدمها لعشاقه من منتجى الأفلام السينمائية ..

حضرنى كل ذلك فيما نتلكأ سائرين نحو كوبرى قصر النيل فى صمت مريب . وقد قررت أن أذهب ، لا للتخلص من سواد الليل فحسب ، بل للتعرف على هذا العالم المثير للتعقّز . نفيت من دماغى فكرة إلقاء الشعر هناك احتراما للشعر من ناحية ، ولصديقى الحميم من ناحية أخرى ، ولنفسى من ناحية ثالثة ، لسوف أتهرب بأى سبب حتى لو أدى ذلك إلى مغادرة المكان ..

الشقة كانت فى مدينة المهندسين التى لم تكتمل بعد . ولم أكن رأيتها من قبل ، إذ هى عبارة عن بضعة عمائر وقلل متناثرة فى فضاء عريض . على أول كوبرى توقف عبدالوهاب منير قائلا فى بساطة :

« نستوقف تاكسيا ؟ »

قلت بسرعة :

« معك نقود ؟ »

قال :

« وماذا أفعل بها ؟ هل أحمل شيئا لا أحبه ولا أحتاجه ؟ ! »

قلت :

« وأنا ليس معى ! فكيف ستركب ؟ »

قال :

- « ليست مشكلة على الإطلاق ! سنركب حتى باب المنزل أربعة وعشرين قيراطا ! »

وتقدم نحو نهر الشارع بكل ثقة ، فوقف رافعا إبهامه برشاقة وأناقة معترضاً طريق السيارات الملاكى . توقفت بالفعل سيارة فارهة . مال هو على السائق كأنه يعرفه من قبل معرفة جيدة بل كأنهما أصدقاء قدامى . قال :

- « مساء الخير يا إكسلانس ! عامل إيه فى هذه الدنيا الغرورة ؟ ! »

قال السائق مبتسما فى ود :

- « أهلا وسهلا سعادة البيه ! بخير والحمد لله ! » .

قال عبدالوهاب بيك وهو يمد يده على أكرة الباب المجاور للسائق :

- « إذا تكرمت علينا من فضلك وإحسانك تحدفنا فى سكتك وأنت ماشى ناحية المهندسين ! إلهى يعمر بيتك ويستر طريقك بحق جاه النبى والإمام على ! »

قال السائق فى شىء من التردد :

- « أنا مش رايح المهندسين ! لكن ممكن أنزلكم فى أقرب مكان لها ! ماشى ؟ »

قال عبدالوهاب وهو يفتح الباب ويركب :

- « فضل وعدل ! إركب يا جدد ! »

فركبت فى الكرسي الخلفى . إستأنف السائق السير . قال عبد الوهاب بيك وهو يتحسس جيوبه :

- « الله ! نسيت السجائر فى مكتبى فى الوزارة ! خرطوشة روثمان كاملة ! » .

أزاح السائق علبته نحوه :

- «سجائر يا سعادة البيه !»

- «تشكر يا أمير يا ابن الأمرا !»

قالها وتناول العلبة فعزم على السائق وعلى ثم اشعل لنا ثم انبرى يتحدث عن أخبار وزارته ، مشاكل الجمارك ، التهرب الجمركى ، التهرب الضريبى . لاحظت أن السائق ينصت باهتمام شديد وفضول أشد ، ثم ما لبث أن قال :

- «حضرتك فى أى وزارة ؟» .

فى بساطة وأريحية قال عبد الوهاب بيك !

- «محسوبك وخدامك عبد الوهاب منير ! وكيل أول وزارة المالية !»

قال السائق كأنه يراجع نفسه :

- «أهلا وسهلا ! فرصة سعيدة !»

عاجله عبد الوهاب :

- «الواد السواق ابن الهرمة قلت له روح أنت وهو ما صدق ! ياريتنى سبته ! أنا لا أحب القيادة فى هذه البلد المزدحم !»

بدأ السائق يعرفنا بنفسه . قال أنه تاجر موبيليا من دمياط وله مكتب تصدير فى القاهرة ، وعنده مشكلة فى الوزارة . أعطاه عبد الوهاب اسمه وعنوانه وتليفوناته وأوصاه بالاتصال به فى أى وقت وهو تحت أمره وإذنه . وبناء عليه أصر السائق أن يوصلنا حتى باب البيت ..

كان واضحا أن عبد الوهاب بيك يعرف العمارة حق المعرفة ، وأنه جاء إلى هذه الشقة عديدا من المرات ، الشقة فى الدور الثالث . والعمارة عبارة عن مجموعة من الفيلات فوق بعضها ، بمصعد أنيق يتسع لخمسة ركاب ..

طرق الباب ، ففتحت لنا خادمة ريفية لعوب ضاحكة السن بغمازات ، وضح أنها - لابد - من فلاحات جزيرة ميت عقبة وأرض اللواء . قالت : «اتفضل يا عبد الوهاب بيك» ، ومضت تتأود أماننا عبر ردهة عريضة مربعة ، مزدانة بورق الحائط المشجر ، وأطقم المقاعد المشغولة بالصدف والمنجدة بالقטיפات الزرقاء الغامقة ، وأعداد من المرايا البلجيكية ، والأرض مفروشة فوق الموكيت بالأبسطة الثمينة . مضينا وسط مهرجان من صورنا المنعكسة فى المرايا على ضوء النجم الهادئ المتدلى من السقف كالعراجل كعناقيد العنب . أفضت بنا الردهة إلى ممر ، طالعتنا فيه سحب الدخان ورائحة الويسكى مختلطة برائحة الشواء فاستيقظ جوعى الأبدى المخيف لكنه سرعان ما همد فجأة مصحوبا بشعور من التقزز والخوف والتوجس . اقتربنا من حجرة يتصاعد منها اللفظ . لم أصدق أذننى ، كان ثمة من يلقى شعر العامية ..

دخلنا حجرة مظلة على الحقول بشرفة كبيرة فى حجم باحة مستباحة ، مفروشة برسم قاعة شرقية مهيبة ، مليئة بالثلث والحمير الخشبية المنجدة والكتب الاستديو القريب من الأرض ، وجمع كبير من رجال ونساء وشبان وصبايا يجلسون كيفما اتفق ، تتساند الأفخاذ فوق الأفخاذ والرؤوس فوق الاكتاف ، يتحلقون صينية نحاسية عريضة القطر فوق حامل خشبى فى علو طلبية ، عليها ما لذ وطاب من أنواع الكباب والكفتة والأجبان والبسطرمة والزيتون والفواكه المتنوعة ، وزجاجات الويسكى والكرفوازية والنبىذ والبيرة .

الكنوس موزعة فى كل بقعة ، وثمة من يفرك الحشيش بتبغ السجائر ، وأكثر من آلة عود موجودة فى الأركان ، وآلة رق ، وكمان ..

توقفنا على الباب مبهورين بسحب الدخان والوجوه السابحة فى غيبوبة من نشوة كاذبة ، فران على الجميع صمت غريب . كانوا منكسى الرؤوس كأنهم جميعا متهمون فى قضية مخجلة ويقفون أمام القاضى فى انتظار عفو يصدر عن رقة قلبه ورحمته . ميزت فى وسطهم .. صديقى عبد الفتاح البتانونى شاعر العامية ، بلحمه وشحمه وشعره . ولحظة دخولنا كانت ألسنتهم تردد : الله الله يا استاذ عبد الفتاح ! إيه الحلاوة دى . وكانت أنغام كلماته الفلاحية لا تزال تتردد فى الأفق البعيد .

قال عبد الوهاب :

- «السلام عليكم !»

قالوا جميعا فى هتاف :

- «عليكم السلام»

وقالت بدر البدر :

- «أهلا يا عبد الوهاب !»

قال وهو يخلع حذاءه ليتربع بجوار الباب على شلته :

- «أهلا يا مدام ! أقدم لك صديقى فلان الفلانى ! الكاتب الصحفى

الفنان !»

قالوا جميعا : «تشرفنا !»

وقال البتانونى : «إيه الفرص الجميلة دى يا فلان؟»

قلت : «فعلا يا عبد الفتاح ! دانا جاى هنا على اسمك!»

وسع لى أحدهم فأنحشرت بجوار عبد الفتاح ، وتطوع آخر فقدم لكل منا كأسا وزيتونة . كان وجه بدر البدور أسطع وجه فى الغرفة كلها ، بتقاطيعها الشامية الدرزية إذ هى على وجه الدقة من جبل السويداء ، وشعرها الكستائى المنطرح على كتفيها ، وعيونها السوداء الواسعة . لو أن صوتها فى حلالة وجهها لهزمت جميع مطربات البلاد ، لكن لملاحة وجهها وسيولة قوامها تأثير كبير يفتح أمامها كافة الأبواب المغلقة . قالت هى بعد برهة :

– «يا يا استاذ سكت ليه ؟ عاوزين نسمع !»

ضحك البتانونى عن فم واسع جدا ، قال بصوته الرخيم :

– «شعر إيه بقى فى الحر ده يا مدام ! إحنا لا مؤأخدة بنسكر وينحشش !» .

بفجوميته المعتادة قال عبد الوهاب بيبك :

– «أنت كنت تقول منذ برهة !»

فألقى البتانونى محاضرة بليغة عن قدسية الشعر وتناقضها مع هذه الجلسة . كان الجميع ينظرون إليه بدهشة مشوبة باللامبالاة . اغتساظ عبد الوهاب فقال مشوحا :

– «خلاص يا عم ! فهمنا ! لا شعر ولا غيره ! نسمع مزيكه ولا نكتة

أحسن !»

فمال أحد الشبان وسحب آلة العود . كان مطربا سوريا وفد إلى القاهرة حديثا ورأيت صورته فى عواميد الأخبار الفنية ، اسمه رفيق حلمى ، صوته مرن قوى جبلى حاد ، يغنى ألوانا من الفولكلور اللبنانى . جعل يصدق والجميع ينصت . ومال عبد الوهاب على أذنى وهمس بصوت عال ضاع فى اللغط ، قائلا وهو يشير إلى إحدى السيدات المتبرجات تجلس بجوار البتانونى ، وقال :

– «طبعا تعرف هذه المرأة ! إنها رومية الديرى ! زوجة الملحن المعروف سليمان أبو العرب أعمى العين المنجوس ! ذهب إليه صاحبك بأغنيات يلحنها لمختارات الإذاعة ! فترك هذه الزوجة للعبو تعشقه وتسرح وراءه هكذا كما ترى ! إنها مقتونة به وهو ينصحها دائما بالإخلاص لزوجها لكنه مع ذلك يسلس قياده لها ! داعرة وداعر ! اللهم استر على ولايانا !!»

قلت له :

– «إن صديقى رجل شريف ! ليس فى دماغه سوى الشعر وحده ! ولست أظن أنه مغرم بالنساء فهذا آخر شئ يفكر فيه !»

قال ساخرا :

– «ومع ذلك يرتمين عليه ! ألم تسمع حكاية البنت عاملة الآلة الكاتبة فى الفرقة القومية للفنون الشعبية ؟!»

قلت :

– «مالها هى الأخرى ؟!»

قال فى احتداد بلهجة أبوية ارتفع لها حاجباه الكثيفان :

- «أنت يا جدع نايم فى العسل ؟ إنها الغيبوبة ! صاحبك هذا قد تزوج البنت المذكورة لأكثر من سنتين ! لا لشئ إلا لبيت فى شقتها ويعيش على مرتبتها !»
قلت :

- «سمعت أنها بنت دميمة ! ومزوجة !»

- «ومطلاقة أيضا ! العصمة دائما فى يدها ! إن اتضح لها أن الزبون طامع فى شقتها الخطيرة الموروثة طلقته فى الحال غير أسفة عليه ! كما فعلت مع صاحبك ! طردته شر طردة ! والسبب رحميه الدميرى هذه ! وهى الآن تكفر عن ذنبها وتبحث له عن مأوى مريح مهما كلفها ذلك من عرق أعى العين ! الذى يعتبر خسارة فى عضمها !!»

فجأة دقق البتانونى جرعة الويسكى كلها فى جوفه ، وأشعل سيجارة ، ثم نهض واقفا :

- «طب اسمحوا لى أنا ! عندى ميعاد مع عبد الحليم حافظ ! لا مزاج عندى للمشوار لكن مجاملة لصديق عزيز سأذهب ! إنهم يدبرون لى خطة محكمة لى أكتب لعبد الحليم أغانى عاطفية ! وأنا مشترط أن أكتب على طريقتى ! بحيث أن من يسمع عبد الحليم يقول : البتانونى يغنى ! إنما أكتب له مثل محمد حمزه وسيد مرسى وعبد الوهاب محمد وهؤلاء ! يفتح الله ! ثم إنى لا أسمح لأحد بالتدخل فى شعري !!»

قالت بدر البدر :

- «ربنا معك ! موفق !»

ونهضت رحميه الدميرى قائلة :

- «خدنى فى سكتك ! أوصلك بالسيارة وأروح !»

قال بنبرة واهية :

- «إبقى أنت إن كنت تبغين السهر !»

قالت :

- «يكفى هذا الليلة ! تصبحوا على خير !»

وبدأ كل منهما يرتدى ثيابه ، وهمس عبد الوهاب بيك فى أذنى :

- «هذا الكلام صحيح ! حدث أمامى وقال لهم نفس هذا الكلام ! وقالوا له لا مانع !!»

إنصرف البتانونى وفى صحبته رحميه الدميرى ، كما انصرفت معهما فتاة جميلة كان من الواضح أنها مرتبطة برحميه وتقول لها : يا طنط ، وبانصرافهم اعتدل عبد الوهاب فانتقل إلى مكان فسيح وجذبني معه قائلا :

- «نسهر الآن ! أسكرنا يا بتاع الويسكى ! وأسكرنا يا بتاع الأغانى ! خش على القنود الحلبية !»

وقد كان ، سكرنا مما جميعه ، وانصرفنا فى غبشة الفجر ، فاقتادنى عبد الوهاب سيرا على الأقدام إلى مقهى فى الدرب الأحمر ممتد فى جوف حوش واسع غير مسقوف ، فيه دكك خشبية مستطيلة . طلبنا الشاى بالحليب ، خيل لى أن شخصا آخر غيرى يشربه ، إذ أنى كنت بعيدا عن حافة الوعى

بأميال طويلة . ثم نسيت ما حدث بعد إمساكى بكوب الشاي ، لكنى تيقظت بعد دهر طويل فرأيتنى مسندا رأسى على مسند الكنبه وظهرى مبروم يتألم ، وشمس العصارى تملأ الحوش ، ويجوارى بضعة شبان يلعبون الكتشينة فى ركن بعيد ، وليس لعبد الوهاب منير ثمة من أثر . بقيت دقائق طويلة حتى تمكنت من فتح عيني وعدل ظهري ، ثم نهضت واقفا بصعوبة ، ومضيت متسللا من الحوش إلى ساحة المقهى إلى الشارع كالمذهول لا أعرف ماذا ينبغي على أن أفعل ...

* * *

... غمزنى زكريا المندوه عمران لكى أحوذ معه على شاطئ نيل الزمالك . داخلنى الكثير من الشك فى جدية زكريا المندوه عمران ، فليس من المعقول أن يكون صديقى البتانونى قد أصبح فجأة من سكان الزمالك شأن عبد الحليم حافظ وأم كلثوم ، لكننى فوجئت به يتوقف على الشاطئ أمام عوامة كبيرة شديدة الفخامة ، يفصل بينها وبين الشارع حديقة جميلة محندقة ، مليئة بالأشجار الوارفة التى تكاد فروعها تغطى واجهة العوامة . لها باب صغير على الشارع يفتح على ممشى مستطيل كالشريط العريض مفروش بالحصباء ينبت العشب من خلاله ..

عوى كلب على ظلنا ، فأطل من خلف باب الحديقة رأس الخفير صائحا فى إرهاب مسرحى : «مين ده ؟» . قال زكريا :

«افتح يا عم دهب !» . فتح الخفير قائلا : «إزيك يا استاذ» شدنى زكريا قائلا : «عبد الفتاح موجود ؟» . قال الخفير :

- «من ساعة ما حضرتك اتكلمت فى التليفون من البلد وهو قاعد منتظرك بقى له يومين تلاتة ! مسكين نازل كتابة للصبح كل ليلة !»

صرنا على باب العوامة ، فاستدار زكريا صائحا :

- «لكن أنت عرفتني ازاي ؟»

- «الأستاذ وصفك لى ! ونبه على ألا أترك أحدا غيرك يدخل !»

طرق زكريا الباب برفق ثم دفعه فانفتح . مضينا فى ممر فى منتصف العوامة ، وخطواتنا تنز فوق خشب الأرض . كانت هناك غرفة مفتوحة ينبعث منها الضوء . مالبث أن احتجب بظل البتانونى خارجا يصيح فى مرح :

- «أهلا يا ابو الزيك !»

ثم انفصم عرق البهجة فى صوته مرة واحدة ، كأن سهم الذهول قد طعنه فى مقتل . شعرت أنه يبذل جهدا نفسيا كبيرا لكى يبدو طبيعيا وهو يسلم على بفتور سائلا إياى عن أحوالى وأخبارى التى يبدو غير مستعد لسماع شىء منها على الإطلاق . تقدمنا داخلا الغرفة ، فدخلنا وراءه وقد شعرت أننى يجب أن أرد قدمى إلى القفول ، لولا أننى سرعان ما تذكرت أن البتانونى كثيرا ما يلقانى فى الشارع بهذا الوجه المتجهم الكتيب ومع ذلك يعزمنى على الشاي والسجائر .

فى الغرفة ترابيزة فى المواجهة . على الحائط صورة فى برواز معلق لكنها مقلوبة على وجهها . فوق المنضدة تلال من الكتب الثمينة ، كلها من الأمهات التى كانت شائعة فى جيلنا والتى كان مجرد وجود بعضها عند أحد يكفى للدلالة على أنه مثقف جاد ، والتى كان يشتريها جمعة الجيزاوى بنقود

الطماطم والجرجير كى يستفيد منها ابن الطماطم والجرجير . يوجد كرسيان من الخيزران ، وسرير سفرى ضيق بجوار الحائط . ظللنا واقفين ، البتانونى يتحدث مع زكريا فى موضوعات لا شأن لى بها ، تعلقت عيني بالبرواز المقلوب ، بتلقائية مددت يدي وعدلت الصورة على وجهها ، فإذا هى صورة ملاك نورانى فى صورة إنسان يشع بالذكاء والحرارة والشفافية والنبل ، يرتدى بدلة ويغطى رأسه بطاقة صوفية شغل المحلة الكبرى ، هى صورة مرسومة بالريشة ، خطوطها تشبه إلى حد التطابق خطوط الفنان جمال كامل ، وتحتها إسم صاحب الصورة وكلمة سجن الواحات . تمعنت فى الإسم فكنت أقع من فرط الدوار ؛ هذه إذن صورة الشاعر العظيم الضخم المحتجز خلف القضبان مع رفاقه الأحرار ..

جلس البتانونى على أحد الكرسيين ؛ وجلس زكريا على الآخر وشدنى قائلا : إقعدي ؛ فجلست على السرير دون أن أفتح فمى بكلمة ، بأشعل البتانونى سيجارة ونهض فمد ذراعه وقلب الصورة على وجهها من جديد ، فأصابنى شعوريا بالغيب ، فافتعلت ابتسامة وقلت : لماذا تعلقها إذن ؟ فشوح قائلا بضيق : يا أخى أنا لم أعلق شيئا ، فلم أرد ، إنما أخذت أجمع بصرى وأسترده شيئا فشيئا والرمل يحشو عيني ، على نفس المنضدة لمحت ورقة لف من ورق محلات الكباب الشهيرة ، فوقها كرتونة عريضة ترتص فوقها قطع الكباب والكفتة فوق طبقة من البقدونس ، بجوارها علب كثيرة مليئة بأنواع السلاطات ، وبضعة أرغفة طازجة ، ووابور سبرتو ، وبراد ، وكنكة ، وعدد من الأكواب . نهض زكريا مشمرا ذراعيه وتأهب للأكل ؛ لكن شيئا من التردد القوى سرعان ما قمع حركة يده فاكتفى بالنظر فى الطعام بلا مبالاة ، ثم مال بث

حتى جلس معطيا للطعام ظهره . أما أنا فما كدت أسترخى فى جلستى على السرير حتى سحبنى تيار التعب فتلاشيت ، وكنت أشعر بذراتى تدور فى الهواء ، وسرعان ما هويت بظهري فأرحتة فوق السرير بالعرض ، وقدمائى فوق الأرض كما كنت جالسا . إستشعرت الراحة لبرهة وجيزة غبت بعدها عن الوجود تماما

* * *

بعد دهر طويل فوجئت بنفسى أسير فى شارع ستة وعشرين يوليو بجوار زكريا المندوه عمران يساندنى ضاحكا . أفقت فجأة : كنا قد غادرنا العوامة وتجاوزناها بكثير . نظرت فى ساعة يدي وحسبت الدقائق منذ مجيئنا حتى اللحظة فعرفت أننى قد غرقت فى النوم لخمس دقائق فقط بالتمام والكمال . لم أصدق الساعة ، بل إننى استغرقت برهة طويلة حتى تنبعت إلى أن الذى يمشى بجوارى ضاحكا من قلب صاف ، كائن جميل إسمه زكريا المندوه عمران عرفته الليلة لأول مرة . كالعبيط قلت له : «فيه إيه ؟» ، فضحك بعمق :

- «أنا متأسف ! أيقظتك من النوم رغما عني ! وعلى قلبى كالسكين !»

قلت : «فيه إيه ؟!»

قال مشيرا بأصابعه السريحة إلى الراء :

- «هذا الحيوان الأحمق يقول عنك إنك مخبر تتعاون مع المباحث !!»

غاص النصل فى قلبى . قلت من ريق جاف : «أنا مخبر ؟! أتعاون مع

المباحث ؟! البتانونى يقول عنى هكذا ؟!» .

قال مشوحا فى عجب :

- «تصور !؟ أنا الآخر لم أفوتها له ! لم أسكت ! قلت له أنت غلطان وضيق الأفق ! لأنه لو كان مخبرا يتعاون مع المباحث ما كان هذا حاله !»

ثم أخذنا معا إلى الصمت العميق لانسمع سوى وقع أقدامنا على الأسفلت كقلول جيش منهزم . بعد برهة قطع زكريا الصمت قائلاً :

- «لقد أفسدته المدينة المجرمة ! هذه العوامة ليست عوامته ! إنها عوامة الجيزاوى ! إستأجرها لنفسه لكنه تركها له ! إذ هو يدرك أن البتانونى سوف يكبر لامحالة وسيكون ظهرا له ! وعلى فكرة أنا لست أشك فيك رغم أننى لم أرك إلا الليلة ! بل بالعكس ! إننى أشك فيه هو ! إننى أعرفه جيدا ! إنه يحب نفسه إلى أقصى حد تتخيله ! نفسه هى الهدف والغاية والوسيلة ! فى سبيل حماية نفسه يدوس فوق رقاب الموتى يلغظ فى فرج أمه بشرط ألا يراه أحد ! لقد كنت ميتا من الجوع ولكن نفسى جزعت حين هممت بمد يدي على طعامه ! والآن دك منه وقل لى ماذا تكتب الآن أو ماذا تقرأ !؟»

قلت له : «ليس عندى مكان أكتب فيه أو أقرأ !»

قال ببساطة :

- «الحمدلله أننى لست محتاجا لهذا ! بل لست محتاجا حتى للورق والقلم ! إننى محتاج فقط لرأسى ! وحينئذ أكتب فيها وأنا ماض فى أى مكان فى أية لحظة ! وكل ورق قد يضيع أو يتهرا أو يستلب ! أما ما كتب فى الرأس فهو باق إلى الأبد لا يضيع ولا يفنى !!»

رحت أحدثه عن بعض قراءاتى . كانت الدموع تخنق صوتى تكاد تحجبه ، وأنا أجاهد لكى أنسى وأبدو وكأن ما سمعته الآن لم يؤثر فى . وقد

طلع علينا الصباح إذ نمشى فى شارع ستة وعشرين يوليو عند قهوة بور فؤاد الشهيرة بقهوة النشاط . حيث سمعنا برطمة يتخللها سب وشتم غامضان بصوت نسائى نصف مخمور . إلتفتنا ، فإذا هى امرأة خارجة من ممر نصيبان ، كانت فى حوالى الخمسين من عمرها ، طويلة رفيعة ، وجهها ملء بالمساحيق التى لم تغلح فى إخفاء بعض التجاعيد فى وجهها المستطيل المبطط الأبيض المشوب بحمرة ، زرقاء العينين ، ترتدى معطفا بياقة من الفرو الرخيص الساذج . تمسك بيدها كعكة كبيرة من السمين ، وقطعة جبن رومى وبيضتين .

كانت الشتائم لاتزال تنهمر من فيها ، ومن الواضح أنها نازلة من إحدى الشقق فى واحدة من عمائر الممر ، كذلك من الواضح كما تقول شتائمها بصريح الإشارة أن بعض الرجال القساة البلطجية اصطادوها فى أول الليل ، فظلوا طول الليل يمرمطونها ، وفى النهاية طردوها بدون مليم واحد مما تستحقه ، أكلوا عرقها ربنا لا يكسبهم ، كل ما حصلت عليه هو هذه السمينة وقطعة الجبن والبيضتين من بقايا مزة السهرة . قال لى زكريا المنهوه عمران :

- «ياجيبى ياخوى أكلوا عرق فرجها وهذه جريمة أشد نكرا من جريمة أكل عرق الصنایعى !

هكذا الحياة فى هذه المدينة ! الكل يأكل من هامش العهر !»

ثم استوقفها :

- «تعالى ياست ! لايهمك ! نحن نعوضك عن سفالة أولاد الزوانى

هؤلاء !»

وهمس لى :

- «ألا تعرف شقة خالية؟!»

غلت الدماء فى عروقى :

- «أعرف صديقا يعمل فى إذاعة الشعب على الآلة الكاتبة ! من بلدة جنب بلدتنا ! يسكن فى شقة فوق سطح عمارة قديمة فى حى السيدة زينب فى شارع زينهم !»

فاذا بزكريا بكل جرأة يستوقف عربة أجرة ، ويشد المرأة من ذراعها برفق قائلا :

- «إركبى ياست !»

فركبت بالفعل دون أدنى تردد ، فركب هو بجوارها ، وركبت أنا بجوار السائق متوجساً . قال هو للسائق : «السيدة زينب يا اسطى !» . فانطلقت السيارة وأنا من فرط حماسى لا أكاد أفكر فى مشكلة أجرة السيارة من أين سندفعها إذا فرض أننا سنضحك على هذه السيدة الغلابة مرة ثانية .

وصلنا إلى البيت لحظة شروق الشمس . قال زكريا :

- «سأنتظرك هنا حتى تصعد وتمهد الجو ثم تنادى علينا من سور السطح !»

هللت لهذا القول ، واندفعت أصعد السلم حتى الدور الخامس ، حيث تقبع شقة صاحبى فى ركن من السطح العريض المبلط النظيف . كنت أقدر أن صاحبى على وشك الخروج إلى عمله ، فلما رأيت باب الشقة مغلقا أخذت أطرقه برفق ، ثم بشدة ، ثم بقوة أشد ، لكن أحدا لم يرد ، فظللت واقفا فى مكانى مدة طويلة أطرق الباب حيناً وحيناً أستريح ، رغم أنه قد تبين لى أن اليوم جمعة وأن

صديقى فى بلدته من الأمس . ثم فوجئت بخطوات تصعد السلم ، وسرعان ما ظهر زكريا المننوه عمران وحده ، ممسكا بالسמירה وقطعة الجبن والبيضتين ، وفمه يلوك اللقيمات فى سأم وشبهة معا . قلت له :

- «أين المرأة؟!»

ضحك فى نزق :

- «هربت ! تركتنى وتسالت هاربة ! وقد رأيتها لكننى تصنعت الغفلة !»

- «لماذا هربت؟!»

- «خافت ! عرفت أنها من ساقط للاقط لقابض الأرواح !»

- «وكيف تصرفت مع السيارة؟!»

- «فتشت حقيبة يد المرأة بصنعة لطافة ! فوجدت فيها سبعة قروش فكة ! أعطيتها للسائق وقلت للمرأة : سأردها لك عندما نصعد !»

ثم تربع على بلاط السطح :

- «أين صاحبك؟!»

- «يبدو أنه سافر إلى البلد !»

- «بالسلامة ! تأكل لك لقمة؟!»

شعرت بقليل من الغثيان :

- «لا ! ماليش نفس !»

فاندفع يأكل بشبهة ضاحكة ، ويجدد العزيمة فى كل لقمة فانفتحت شهيتى رغما عنى ، وتناولت بيضة ولقمة أخذت ألوكةا متقرصا بجوار زكريا .

وكانت الشمس قد سطعت فى ضحاها حينما انتهينا من الأكل ، فأخذنا نتجول فوق السطح وننظر للشارع من فوق السور . وفجأة رأيت زكريا يترك السور متجها إلى جدار الشقة ، ثم يتمدد على ظهره فوق البلاط ، فإذا الفكرة قد أشرقت فى رأسى ، مع ذلك حثثته على النهوض قبل أن يرانا أحد فيظننا لصوصا ، إلا أن شخيره ما لبث حتى ارتفع فى إيقاع هادئ واثق مطمئن رصين . فلم أملك سوى التمدد بجواره ، والالتحاق بشخيره الفاتن .

— ١٤ —

فل وياسمين

نشوتى كانت فوق الحلم بدرجات كثيرة جدا ، النشوة كانت مضمرة فى الكون كله ولا بد أن هزة كونية عنيفة قد فجرت ركام الركود فانبعثت النشوة تعبق فى كل الأرجاء فى كل الأنحاء .. رائحتها مسكرة ، هى نفس تلك الرائحة التى ظلت تسكننى منذ سنوات طويلة ، فلا تطرأ على خياشيمى إلا فى لحظات غريبة وعابرة لا تستغرق أكثر من برهة وجيزة أظل بعدها من السكر والانتعاش فى غاية . هى شبيهة برائحة ذلك العطر الذى بلا اسم محدد ، مبطنة برائحة الورد البلدى ، والفل والياسمين بل يخل لى أنها بؤرة جميع أنواع الروائح العطرية العبقورية التى تفرزها بطن الأرض . لقد عجزت عن تحديد أصلها ، لكننى ما ان تصافح أنفى حتى أرانى شخصا آخر تماما ، إذ تتيقظ داخلى حيوية هائلة كالمحقق بمصل القوة ، يصحو كل شئ فى ، يتأهب ، يتحفز ، تمتلئ الحياة كلها بالبهجة العظيمة التى سرعان ما يتضح أنها نسيج أصلى فى تركيبة الكون وفى بواعث الحياة . بفروسية مدهشة يجتاحنى إحساس عارم بأننى مقدم على تحقيق نصر مبهر مدهش وفريد ..

سرعان ما تذكرت أن رائحة النشوة هذه هى رائحة «نازك» التى لا أعرف إن كانت هى تتعطر بها من قنينة لا شك ثمينة وغالية أم أنها هى رائحتها الطبيعية التى خلقها الله بها ، والتى تعودت أن أشمها على بعد ، حتى ولو بينى وبينها حاجز من أبواب وجدران ومنازل وشوارع وبلدان ..

ثمة خاطر صلب ينتصب فى مؤخرة رأسى كشرطى المرور ينظم الخواطر عند التقاطعات الكثيرة التى صارت تلتقى كلها الآن فى ساحة النشوة العارمة الدافقة المجتاحة . راح هذا خاطر يبيت فى رأسى كل العزم ، يجذبني من بحر النشوة محتفظا برأسى فوق صفحة الموج حتى لا أغرق تماما فتضيع منى هذه اللحظة هذه الفرصة العبقريّة التى لم يسبق لها مثيل والتى قد لا تتكرر مطلقا . كنت حانقا عليه أشد الحنق أحاول أن أفلفص رأسى لأغطس فى بحر النشوة حتى الفرق التام ، لكننى كنت أرانى أستجيب لجذبه وأترك رأسى عائما فوق صفحة الموج برهات خاطفة أجدد فيها اليقين والهواء وأفتح عينى على الواقع البديع الذى صرت فيه فجأة دون مقدمات وعلى غير انتظار ، ولأتأكد فى صحوة عابرة على هامش الفعل أننى فى قلب الفعل قد صرت . لقد كان حتما على أن أصحو لبرهة بين كل برهة لأستأنف الفعل فى البرهة التالية بكل عمق وانتشاء ووعى . من بين التقاطعات تمرق خواطر مخالفة لتعبر ساحة النشوة خلصة تهيب بى أن أغرق فيما أنا فيه أفضل لى ، إذ العمق الحقيقى هو الاستغراق التام . هى خواطر سوداء تكاد تقنعنى بأننى ساع إلى إفساد اللحظة لا محالة بتمزيقها إلى فتات تبددها ، فصار قلبى يرتجف بشدة خوف أن يحدث هذا ، فأرانى على الفور مصعدا رأسى فوق صفحة الموج لأتأكد أن هذا لم يحدث بالفعل ..

كل الدلائل تشير ، بل تؤكد ، أن هذه التى تلتحم بحضنى - عاشق ومعشوق - هى نازك بلحمها ودمها ورائحتها وبرة صوتها القادمة من القاع البعيد جدا ، من داخل أطراف قدميها العاريتين ، وكعبيها الغائصين فى لحم سلسلة ظهري فى المنطقة التى لا تطولها اللوفة عند الإستحمام . بحة قصدت بها أن تحجب صوتها حتى لا يتفجر فيزلهل الكون يوقظ النيام ، فيما هى تتلوى وتتنفّض كعضلة القلب ، تعزف معزوفة الألم النشوان ، تستغيث بمن لا يرحمها

كى لا يرحمها من ذلك الطعن الكثيف المردار ، تهتف أنفاسها فى أذننى برنين ذهبى مجلجل : «فهيمى ! فهيمى ! فهيمى ! فهيمى !» ، فلا أرد مطلقا ، وإن كنت أسمع بحة فى حلقى تخرج متحشجة من حين لحين : «هيه ! هيه !» ، وقلبى لاهث ، وذراعاها تحت إبطى كمجدافى زورق تتلاعب به الأنواء . كنت فى كامل فروسيّتى ، فى أعنف قوتى ، عودا من الحديد الصلب المشتعل تلفظه فوهة الفرن لتتفرج فتتمصه من جديد كأنها استهدفت تحويله إلى لهب واستهدف تحويلها إلى رماد ، وبدون هذا وذاك أشواط وأشواط لا نهاية لها ، والعرق لا يكف عن التدفق ليتبخّر فى الحال تاركا فى الجسدين لفحة حارقة سرعان ما يربطها لثم الخدود للخدود أو باقات من الشعر الناعم تتطاير جدائله فوق رأسى لتعود فتتزلق متبعثرة على الوسادة ثم كأن ريحا ترتفع بخيمته فيتكور صاعدا لتختفى شواشيده فى الركن المظلم فلا أرى سوى منابته فوق جبين وضاء لوجه بيضاوى كالشهد المصفى ، وأرى ظللا منه فى حاجبين كثيفين ورموش مستطيلة مشرعة حول عينين ضارعتين مشرقتين ، فى ضراعتهما تحد وإغراء واستنغار واحتواء ، قد استغرقتهما ذروة النشوة فأبّت معزوفة الأصوات إلى إيقاع مركز يختصر كل النغمات فى نغم سحرى واحد يحيط بى من كل ناحية كأنما الوجود كله ينادينى فى ضراعة حقيقية مبطنة بتحنان عميق : «فهيمى ! فهيمى ! فهيمى ! فهيمى !» . من نشوتها تقوم نشوتى ، لنشوتها نشوتى ، بنشوتها أنتنشى وأنتنشى وكل الأركان تردد أصداء : «فهيمى ! فهيمى !» التى تتداح فى الأفق البعيد لترتد بقوة داهمة ، حتى لقد شعرت بدبيب من الخجل المفاجئ ، داخلى قليل من الحياء مبعثه شعورى المفاجئ بأن ثمة من قد يصحو فيستنكر . سرعان ما نغصنى شعور قابض بأننى ربما يكون لى أولاد ينامون

فى حجرة مجاورة أو فى الحجرة نفسها . أملتنى القرصة لسبب بدا غامضا مجهولا ..

حاولت نسيان هذه القرصة المؤلمة ، وكنت لحظتها ممتطيا صهوة الريح تحيط ساقى بساط الريح ممسكا بيدى لجاما من حزم من الشعر الأسود الناعم اللامع المعبق بعطر دافئ رطيب معا . على أن ألم القرصة كان قابضا بقسوة مثل كماشة تسحق قلبى بين فكئها الخشنيين . شعرت أننى على وشك السقوط حطاما . صرت أتثبت بلجام الشعر فى قوة ، أضغط بعضلات ساقى على جانبي البساط فلا يتثنى بل ينضغط الجانبان قليلا بمقدار بيت لبعضلات ساقى . صرت أستشعر برودة البساط الذى بدا لى أشبه بفستان مشجر هو على الأرجح من فساتين زوجتى . وكان الجسم المنتفض قد أب تحتى إلى شئ رخو بليد . سرعان ما تبين لى أن التقاطعات المحيطة بساحة النشوة قد انفتحت على بعضها منذ دقائق طويلة مضت فساحت الخواطر على بعضها وعمت الفوضى والغلوشة وامتلا الأفق بالضباب الأسود الكثيف . ولم أكن أرى من خلل الضباب شيئا ، ولم أسمع من هدير تلاطمه سوى همس ساخر من شفاه شيطانية تخرج لى لسانها لتنبهنى إلى أننى لست صاحب اسم فهمى . وأن فهمى هذا هو شخص آخر غيرى وإن كنت أعرفه ويعرفنى ..

شعرت فى الحال كأن لوحا من الثلج يحتوى قلبى ، الذى راح مع ذلك يرسل دقات لاهثة متلاحقة . لحظتها رأيتنى - لبرهة سريعة - مبعثر الجسد تماما : فخذى اليسرى مرمية فوق عجيذة امرأة تنام بجوارى ، وبدا كأننى أعرف أنها ربما تكون زوجتى . كانت كجثة هادمة لفظت أنفاسها منذ سنين طويلة ، أما فخذى اليمنى فكانت غائبة تحتى ، ذراعى كل منهما فى واد ، الوسادة مبللة بلعاب كثيف لا بد أنه متدفق من شفتى . كنت تعباً إلى حد مخيف ، أشعر بضرورة أن ألم جسدى على وضع يريحنى ، لكننى لم أتحمس

لذلك ، إنما أغلقت عينى ثانية فى استسلام ، حين رأيت شبح الضيق تحت جفونى أغلقتهما فوق إغلاق . سرعان ما رأيتنى أخلق فى الفضاء ثانية ، ممتطيا صهوة الريح من جديد ولكن بلا بساط ولا لجام ولا أى شئ . لم أكن خائفا ، لكننى كنت فى أشد الحزن ، واللامبالاة . كان يبدو على كأننى أعرف أنها تحليقة كاذبة وأننى أخوض فى الهواء معركة هلامية ساكون الخاسر فيها على كل الأنحاء . راح الفضاء يضيق شيئا فشيئا ، تبزغ فى جوانب الأفق مساحات دكناء ، سرعان ما اتضح أنها هامات أبنية ، عمائر ومآذن ومداخل وقباب وأسلاك برق وهوائيات بث إذاعى على هيئة أعواد حديدية متقاطعة . ما كان يبدو أنه نقط ضوء بعيدة جدا سرعان ما ظهر أنه نجوم سماوية ، ثم سرعان ما ظهر أنه مصابيح كهربائية شاحبة تلمع فى الأركان والحنايا والمنعطفات . فإذا بى أجلس فوق سطح بناية كبيرة ، ذراعى اليسرى تستند على سور السطح ، فيما أنا منجوعص على كرسي هزاز مصنوع من الجريد ، أمدد ساقى على كرسي آخر ، بجوارى طقطوقة نحاسية لامعة من طقاطيق المقاهى ، عليها صينية صغيرة تحمل فنجانا من القهوة وكوب ماء طويل القامة . تذكرت الفنجان ، بشغف هائل انقضت يدي عليه بحرص واتزان حتى لا يتشقق وجه القهوة ، بطرفى أصبعى قربت الفنجان من شفتى ورشفت ، فإذا بالفنجان فارغ إلا من تفل البن اللزج ، بدا أننى ربما أكون قد شربت الفنجان منذ دقائق طويلة ثم نسيته ، بدا أننى أجلس ها هنا منذ وقت ليس بالبعيد وليس بالقرب ، مر رجل نحيل بدا من المريلة البيضاء على بطنه وساقيه أنه النادل ، عرفت فى الحال أننى أجلس فى بوفيه نقابة الصحفيين المسمى بـ «الروف» على السطح العالى . سرعان ما تبينت أننى أجلس ها هنا بحكم علاقة حميمة وثيقة لعلها الانتماء للمهنة وإن لم أكن ملتحقا بها أو بالنقابة ، تذكرت أننى فى انتظار شخص ذى أهمية بالنسبة لى فى هذه اللحظة فحسب ، يترتب على عدم مجيئه

انهيارات كثيرة ، إنه لابد أن يأتى على الأقل ليدفع ثمن هذه القهوة التى طلبتها واضعا ساقا على ساق وشربتها منجوعا فى ملكوت لا حدود لأفاقه . وخزنى خاطر يقول بأن القهوة أمرها ساهل ، يمكن أن أطلب إلى النادل بابتسامة رقيقة واثقة أن يحاسب عليها الاستاذ فلان الذى مكثت فى انتظاره بوعده منه ، أو يمهلنى إلى الغد فأحاسبه عليها . أما المشكلة الكبرى إذا لم يجئ فلان فهى اللجوء إلى الشارع أتجول فيه حتى الصباح كالعادة . إننى يجب أن أبيت هذه الليلة عند فلان هذا بأى وضع كان ، فكل المحلات التى تسهر حتى الصباح لها فى ذمتى مشروب أو مشروبين ميثوس من دفع ثمنهما ، كما أننى مهدود الحيل تماما ولا أظن أن ساقى سيساعداننى على المشى خطوة واحدة بعد أسابيع طويلة من التجول الشريد الضال ، بل إن الهم الأكبر الذى يثقل رأسى الآن هو هم الوقوف على محطة الأتوبيس الذى سنركبه إلى بيت صديقى فى حمية الزيتون ، والخوف من أن يطول الانتظار فأضطر للترقب فوق الأرض . صحيح أن صديقى يتعشم الليلة أن أسأهره حتى مطلع الفجر وأسلية وأسأمره مقابل المبيت عنده ، مما يتطلب صحوة جسد ودماغ وأعصاب ، ولكن من يدرى، فلعلنى حين أطمئن على وجود المأوى تنيقظ مشاعرى ويؤزُّ عنى التعب كما قد حدث لى فى ليال كثيرة ..

مثلت فى مخيلتى كنية «فوتى» من النوع الذى إن أزيح عن الحائط مقدار عرض لمسند أمكن فرد المسند وتحويل الكنية إلى سرير لا بأس به يتسع لجسدين سأسئقل به وحدى ، لكننى أعرف أن شعورا بالخلج سيمنعنى من قلقلة الأشياء فى ردهة منزل صديقى ، سأقتنع بعرض الكنية ، يكفى أن صديقى سيحضر لى وسادة أثنيها تحت رأسى . دب فى أوصالى خدر دافئ راح يتمشى فى عروق ساقى صاعدا إلى قمة رأسى وأذنى ، فاحت رائحة البهجة فى الحال ، عبرت الأفق رائحة عطرة مسكرة ، ارتفعت أذنائى فى الحال

ككلب يستشعر ديبيا ، ساحت أذنائى فى الأفاق المحيطة محاولة استقطاب صوت الرائحة النشوانة . سرعان ما راح ديبب الصوت ينبجس من بطن الصمت الكنوب ، فوق ترددات أصدائه وعبر طيات من الستائر المخملية يبرز شبح «نازك» عارية تتلوى كبلطية فى قاع مياه عكرة . راحت قوة فى مخيلتى تجتهد فى ترويق المياه شيئا فشيئا لاستيضاح ذلك الجسد الذى بدا الآن مشهدا كاملا يتلعبط فى شبكة هائلة ، تكاد الشبكة تقترب من منطقة الوضوح التام لترتد غامضة كابية مظلمة برقائغ غروبية دخانية . سرعان ما استبان لى أن الصديق الذى أنا الآن فى انتظاره هو الشاعر «فهيم عزيز» ، رفيق الصبا وصدر الشباب ، الذى قدر له - بفضل أبيه الشيخ ناظر إحدى المدارس الابتدائية فى بندر دسوق - أن يتخرج مبكرا فى معهد الخدمة الاجتماعية فيلتحق بوظيفة أخصائى اجتماعى فى الوادى الجديد ، ليراسل مجلات وصحف القاهرة والبلاد العربية فتنتشر له بعض قصائده الطموحة ، ثم التحق بمعهد المعلمين الخاص لمدة سنتين عمل بعدها مدرسا فى المدارس الثانوية ، ثم استطاع - بفضل أحد رؤساء تحرير جريدة يومية كبيرة ، كان شخصية مرموقة وكان ممن درسوا على يد أبيه الشيخ فى المدرسة الثانوية وعشق من خلاله لغة الأدب - أن ينتقل محررا فى الجريدة فى قسم المراجعة ، فقد له أن ينشر شعره وبعض مقالاته وتحقيقاته الأدبية، ثم استغنت عنه الجريدة فى أزمة من أزماتها المادية العديدة ، فتشعبط فى دار النشر القومية كفاحص للكتب المقدمة للنشر ومحرر لإعلاناتها . أيامها كانت حكومة الثورة بصدد إنشاء مجلة مصورة تنقل بها أصدقاء النهضة الصناعية فى البلاد ، اسمتها (نهضة وادى النيل) ، فظل هو يسعى بدأب وصبر حتى اختير سكرتيرا لتحريرها ، وهكذا لحق بقطار الصحافة بعد فوات محقق . كان - أصله وحيد أبويه - قد تزوج

مبكرا من حبيبة قلبه «نازك» ، فدوخها معه فى البلدان البعيدة ردحا من الزمن قبل أن يستقر أخيرا فى القاهرة فى شقة أنيقة فى الدور الخامس من عمارة كبيرة جديدة تطل على الشارع العمومى الكبير فى حلمية الزيتون ، حيث تتناثر حوالبه بعض القصور والفيلات العتيقة والحدائق الرصينة ..

الملل بدأ يجتاحنى . نظرت فى ساعة يدى ذات الجلدة السوداء الجرباء ، ميناؤها يكاد يختفى تحت زجاجة مشعثة يحيطها ظرف معدنى ساقط الطلاء . أشعلت عود ثقاب وقربته فتبينت أن موعد صديقى فهمى عزيز قد مضى بنحو ساعة ونصف ، فداخلنى ما يشبه اليقين بأنه لن يأتى . اقتحمنى صوته الخبيث الأصفرأوى عبر أسلاك الهاتف قائلا فى ترحيب مبالغ فيه :

- «يا مرحبا بيك فى كل وقت ! إنه بيتك يا مغفل ! أنت واحشنى فعلا ! تعال لتتعشى معا ! نقضى سهرة ممتعة نقلب فيها شرائح الحديث على فرن الذكريات الحارة ! لكن ما الذى يمنعك من المجئ الآن ؟ من أين تتكلم ؟ إذن فاركب الأتوبيس من محطة شارع فؤاد وتعال ! تريد أن توحى إلى بأك مغلس حتى من أجرة الأتوبيس ؟! معقول هذا ؟! دع بخل الفلاحين هذا ! قيمة الفلوس فى المدينة أن تصرفها أما قيمتها فى القرية فأن تدخرها !! ألم تقرأ هذا فى قصة يوسف إدريس الأخيرة ؟ لقد فضح الأعيب الفلاحين أمثالنا ! لكنها قصة عظيمة من ابن الهرمة هذا ! اسمع ! تستطيع لو كنت صادقا فى مسألة الفلس هذه أن تقترض قرشا من ذلك الشخص الذى تتكلم من عنده ! اتصرف ! إتلحج يا بجم ! المهم أن تكون عندى فى أقل من ساعة حتى ندرك الليل من أوله ! أما العودة فلا تحمل همها لأنك ستنزل معى فى الصباح ! أنا بصراحة لا بد أن أمر على الترنزى ! على كل حال سأمر عليك لأخذك ! انتظرنى فى بوفيه النقابة واشرب قهوة على حسابى ولا تقلق من تأخيرى ! إسمع ! لعلك تكون مدخرا لنا مفاجأة طيبة ! أنت طبعاً تحتفظ معك ولو بقطعة صغيرة نبخر بها رأسينا لتلحو

السهرة ! لا يمكن أن أصدقك ! جيب السبع لا يخلو ! لسوف تتعشى معا ونشرب الشاي والقهوة وكل هذا على نفقتى فحاول أن تعثر على قطعة نلها سيجارتين ! لا تستندل معى فإن من يلتفون بك فى السهرات يبلغوننى أخبارا طيبة !! على كل حال سأحاول المجئ لك ! قل يارب !» ..

أيقنت أنه لن يجئ . مع ذلك لم أجد بديلا عن انتظاره ، لشد ما أتمنى لو أنهم سمحوا لى بمواصلة الانتظار فوق هذا الكرسي فى هذا السطح إلى ما لا نهاية . رأيت أن أنقل قعدتى إلى كرسي آخر فى ركن قصي محتجب بين أضلاع المنحنى كشرفة مستقلة معزولة ، بوسعى أن أختبئ فيها فلا يرانى أحد . وقفت ، تمطعت ، طقطقت عظامى ، تتأعبت ، ترنحت فكدت أتهاوى ، مشيت قليلا نحو المطبخ ، لم يكن ثمة من أحد ، إلا أن فرن البوتاجاز مشتعل والمذايع مفتوح والمذيعه تحدث نفسها بصوت طفيلى ثعبانى متسلق للأعصاب . اتجهت إلى الركن المنعزل ، انزويت فيه نفس الجلسة السابقة ، ضمنت أن النادل سوف ينسانى مؤقتا ...

.. كانت «نازك» تمشى بجواره فى شارع البلدية فى بندر دسوق ، تكاد تقاربه فى الطول ، تضع ذراعها تحت إبطه ، غزال معلق فى جذع نخلة ، إذ هى ممشوقة القد هيفاء ، عريضة الكتفين ، ناهدة الصدر ، نحيلة الخصر ، بارزة الردفين طويلة الجذع ضامرة البطن ، مهما اتسعت فساتينها وانسكبت على الساقين الرخاميين فلا بد أن ترى عينك بطيختين متلاحمتين فى أسفل قناة الظهر ينتفضان تعلنان بكل شياكة واحترام عن كنوز ثمينة نزقة تحت هذا المظهر الرصين المحترم . طويلة الرقبة دائرية العنق ، كمثرية الوجه مع استطالة فى الفكين وفم واسع مكتنز الشفتين ، أنف طويل مستقيم شامخ ، عينان سوداوان واسعتان كعيون البقر يلمع فيهما بريق ذكاء مسجون مهيب الجناح منذ الصغر ، وجراة معتقلة ، ووجل دائم من رقيب صارم مجهول . هو يحجل

فى مشيته كمشية الغربان ، أو العربان الذين تعودوا على أن تكتفى أقدامهم بلمس أرض الصحراء فحسب لترتفع فى الحال بخطوة أخرى ، حتى ليرتفع الجسد كله ويهبط لدى كل خطوة بخطوة ، مما جعل «نازك» تحاول الانضباط مع إيقاع خطوه الملى بالنزق والإختيال . من يراها لابد أن يلفته منظر وجهيهما المتجاورين كأنهما الكرة الأرضية المستخدمة كوسيلة إيضاح فى المدارس ، بجانبين أحدهما مظلم والآخر مشرق . على ضوء الجانب المشرق تتأمل عين الرائي فى الجانب المظلم فتجد وجها مبسطا أصفراوى الملامح كوجه قطاع الطرق ، متورم القسما بفعال كبرياء مصطنع ، وثقة بالنفس سميكة صلبة لم تفلح فى إخفاء ما فى أعماق نفسيته من انسحاق دفين وشعور بالوضاعة لعله رافد من جهة أمه ، إذ يؤكد أهل بندر دسوق أن أباه رجل طيب القلب نقى العنصر حقا ، فى حين أن أمه حرياء دمية الوجه سيئة المعشر ، وكلنا نعرف أن لطشة الأدب والشعر هى ميراث أبيه كقبس من روح نيرة انحصر فى مرحاض .

نحن الآن جلوس على المقهى التى نلتقى فيها كل ليلة نتطارح الآراء والأشعار والأزجال نتكلم فى كل شئ . نرى نازك وفهمى مقبلين من بعيد ، نعرف أنه قد جاء فى إجازته الأسبوعية ، وأنه نزل فى ضيافة أهل خطيبته بمنزلهم فى البندر ، إذ أن منزل أبيه فى كفر بعيد . نعرف أنه خارج بها ليفسحها ، سيدخلان سينما البلدية ، سيمشيان طوال العصرية على شاطئ ترعة البدالة وسط الحقول ، سيجلسان فى محل متاخم لنادى الموظفين فى شارع الكورنيش ، سيأكلان بعض قطع الحلوى ، يشربان عصير الليمون أو المانجو ، سيدخن هو بشرائه كى يثبت فى ذهنها صورة الشاعر الشارد على الدوام فى أسمى القضايا والمشار والمعانى الإنسانية العميقة ، سيظل طوال القعدة يداعب شعيرات فى صدغه أو شاربه . نعرف أنه قد تعدد المرور بنازك

من أمام مقهانا ، رغم اللغة الطويلة والبعد الهائل بين الشارع الأفرنجى والحي البلدى القح الذى يقع على رصيفه مقهانا ، لكى يرينا نفسه وقد صار شخصية مهمة من علية القوم يلبس لبس البكوات ويتأبط أجمل فتيات المدينة ، البيك يفسح الهانم ، لاغرو فأبوها أشهر طبيب فى المدينة ، عيادته حافلة على الدوام ، أولاده كلهم جامعيون . كائى بيك مهم مشى من أمام المقهى رافعا رأسه المدورة المدببة من أعلى كراس الهدهد ، مداريا عينيه تحت منظار أسود كطه حسين . وحيث يتأهب بعضنا لرد التحية وإبداء الحفاوة إكراما للهانم ، إذا به يمر على الرصيف فيتجاوزنا ، يهملنا تماما ، يتجاهل الجميع كأنه لا يعرف هذا المقهى . تحمر وجوهنا غيظا وكسوبا ، نتابعه بنظرات اشمئناط ، نعاقبه بأن نعلق أبصارنا بالبطيختين المنتفضتين تحت الفستان أسفل قناة الظهر ، وبالساقين المبطرختين المبرومتين فى دقة وإحكام .. نظل نتابعهما حتى يختفيان . يصدق توقعنا بمجيئه فى آخر الليل ليشرب فنان قهوة ويمتع نفسه بما قد يظهر فى أعيننا من حسد له وغبطة ، لكننا نكون قد اندمجنا فى لعب الطاولة أو فى أحاديث جانبية خاصة ، فلا نغيره التفاتا ، إلا أنه يقتعل مدخلا للحديث فينتقل بكرسيه وقهوته إلينا ، ليظل يتحدث وحده فى متفرقات ثقافية تحتشد بأخبار الكبار واللامعين ، للإيحاء بأنه قد صار معاشرنا للقمة ، ومن العليمين ببواطن الأمور ، وأن المسافة بين طموحاتنا وبين واقعه هو المائل مسافة طويلة ، وأننا قد نلثت حتى السقوط من الإعياء دون اللحاق بنجوميته المرتقبة . حينئذ ينضم إليه «عبد الصمد عبيد» ، الوحيد بيننا الذى له شرعية التيه علينا فى المقهى ، حيث أنه يرسل خواطره الأدبية وقصائده التى يكتبها فى كل مناسبة قومية أو سياسية أو حتى بمناسبة حادثة من الحوادث المدوية ، إلى كل المجالات والصحف بدأب يحسد عليه . يصرف على طوابع البريد ما يمكن أن يكون مصروفا كاملا للواحد منا فى شهر ، إذ أن معظمنا من قرى ريفية تبعد عن

البندر بأُميال طويلة ، أما عبد الصمد عبيد فمن قرية تبعد عن البندر مسافة يتريضها المسافر فى الصباح ، أهلها لا يعتبرون أنفسهم على سفر حين يجيئون إلى البندر ، من المألوف أن ترى حمير أهلها وركائبهم وقفهم تنتشر فى شوارع البندر باستمرار ، يبيعون اللبن والخضراوات والفواكه والحبوب ويشترون بأثمانها أشياء من البندر كالأدوية والملابس والأسمك والطلوى ، ناهيك عن تجهيزات العرائس . القرية اسمها «خروب» ، يضاف اسمها أحيانا إلى اسم عبد الصمد عبيد : الخروبى . لاغرو أن يجي كل يوم من قريته نظيفا لامعا ، يفرط فى التأتق وإحكام الملبس والحرص على ارتداء البذلة الكاملة ورباط العنق تحت الياقة المنشأ ، ودبوس مذهب يثبت رباط العنق فى القميص ، وزائر من فصيلته تلمع فى أسورتى الكمين البارزتين من كمى البذلة ، وحذاء من الجلد اللميع ، وجورب حريرى شفاف . يحرص عبد الصمد دائما على أن يضع ساقا على ساق بطريقة التقاطع حتى يظهر تناسبه وتناسب كل الألوان مع بعضها . فإذا تجاوزت عن قامته القصيرة وجسده المدكوك فى بعضه اجتذبك وجه أبيض يخفى تحت تلويحة الشمس شقرة تكاد تكون أجنبية ، مع سواف طويلة إلى الفكين ، وغزارة شعر مصفوف بعناية إلى الخلف مع قبة صغيرة على الجبين تلمع كئنه يسقى شعره كل يوم بالزبد واللبن . يخيل لرائيه أنه بذرة فرنسية قديمة استفحلت من الداخل واكتسبت صلابة الفلاح المصرى؛ حتى يده النظيفة بأصابعها الطويلة حين يسلم عليك بها يحرص على إشعارك بقوته ، فتبدو ككماشة من الحديد لا تتأنى إلا لفلاح عروقه موصولة بحديد الفأس . وجهه جميل بالفعل ، أنفه مستطيل سرح ، فمه مسمم قليلا ، بأسنان مغسولة بالفرشاة لتوها ؛ عيناه واسعتان قويتان برموش طويلة . رغم أنه عضو فى شلة المتأدبين والشعراء ؛ ورغم حصيلته المميزة من المفردات اللغوية العتيقة الرنانة ، وقدرته على محاكاة النظم على نسق القصائد الشهيرة ؛ فإنه فى

الحقيقة يضمم فى نفسه أمنية دقينة بأن يصبح ممثلا مرموقا وأن تجيء أفلامه لتعرض فى سينما البلدية ويتفرج عليها أهل البندر وخاصة البنات «إخلاص» ابنة مأمور البندر التى يحبها فى السر ويجد فى نفسه الجرأة على مغازلتها وكتابة الرسائل إليها يدفنها فى كتب أدبية يعيرها لها ، ويكتب لها موضوعات الإنشاء ، وهى منبهرة به إلى حد ما ، إذ هو جميل ومتمسك بمظاهر الرجولة والشهامة والكبرياء ، ودائم التردد للعبارات والأقوال الماثورة الرنانة التى تحض على الأخلاق الحميدة وتشير إلى المعانى السامية ، ويغير ملابسه دائما ويكوئها بما يوهم بأنه ابن أحد أثرياء الريف . ولأحد يعرف ماذا سيكون مصير علاقته بالبنات «إخلاص» لأن الجميع يعرف أنه مخطوب لابنة خالته منذ الصغر ، ويستعد للدخلة عليها فور حصوله على عمل . ثم إن إلحاحه على الصحف والمجلات كثيرا ما ينجح فى نشر اسمه بالمطبعة تحت نصف عمود من الكلام المنمق المسبوك أو بضعة أبيات من الشعر الطنان . حرصه على شكله وأناقته لا يقل عن حرصه على حياته نفسها . أما حرصه على استعمال الأشياء الحديثة اللافتة فلا مثيل له ، دائما أبدا يحب أن يكون أول من استخدم كذا ، الشيء اللافت إذا ظهر مع أحد قبله لايام حتى يقوم بتعويضه فى شىء آخر : القلم الأبنوس الباركار ، النظارة البيرسول ، الولاة البوتاجاز الرونسون ، الراديو الصغير الحجم ، الساعة الميدالية ، قم السجائر الذى ينفك إلى قطع ليتمكن تنظيفه من الداخل ، ناهيك عن أشهر ماركات الصوف وأربطة العنق . أبوه موظف فى مصلحة الرى ، لعله ملاحظ أو مفتش أو ما أشبه ، ولديه إلى جانب الوظيفة فدان من الأرض الزراعية يزرعه بنفسه ، وليس له من الأولاد سوى عبدالصمد وأخيه يسرى الذى يصغره بسبع سنين ، وبنت متزوجة حديثا من شيخ خفراء قرية مجاورة . هو رجل يجيد القراءة والكتابة ولديه إلمام بالسياسة بحكم عشرته لمهندسى الرى وأضرابهم ، وطموحه كله قد بات مركزا فى ولديه ،

أن يعلمهما فى المدارس كأبناء الذوات حتى يصير من حقهما الانضمام إلى طبقة الأفندية عن جدارة واستحقاق . وصحيح أن عبدالصمد قد بات يكلفه الكثير ، وقد فشل فى الدراسة بعد أن مكث فى السنة الرابعة الثانوية أربع سنوات دون أن يحصل على شهادة الثقافة فانقطعت صلته نهائيا بالمدرسة على أمل كاذب بأن يحصل على الشهادة من منازلهم ، إلا أن عبيد أفندى يشعر بكثير من الفخر كلما رأى أبنه عبدالصمد أفنديا محترما وآخر شياكة وأكثر أناقة وجمالا من أبناء رؤسائه الكبار ، ويكاد ينبهر إعجابا كلما سمع إبنه يتكلم بالعربية الفصحى أو يلقى قصائده فى حفلات المدرسة وسراقات المرشحين فى الانتخابات ومناسبات الأفراح ، حينئذ يشعر أنه قد أنجب بالفعل ، كما يشعر أن «الولد» سوف ينجح فى حياته بصرف النظر عن الشهادة ، ولهذا فإنه لا يبخل عليه بأى مصروف ، ويضاعفه له كلما أراه اسمه مطبوعا على ورق الصحف .

عبد الصمد عبيد هو الصديق الصدوق لفهمى عزيز ، رغم أن كلا منهما يضمّر للآخر حقدا دفينا لا يظهر إلا فى لقطات عابرة نكتشفها نحن ونتغامز . إلا أنهما لا يتخيران عن بعضهما فى القدرة على التودد وإضفاء الحرارة على اللقاءات بينهما وفى الرسائل التى يتبادلانها عندما يسافر فهمى ، والصور التى يتصورانها معا فى لقطات لافتة كصور الصحف . عبدالصمد هو أول من يقود الهجوم على فهمى عزيز لأتفه الأسباب ولكن بطريقة تحتية خبيثة ، إذ يؤلب عليه الجميع حتى نادل المقهى ، يوحى لهم بأنه متعطر على القاضى وطالع فيها ، ويشيع أنه يسطو على أشعار صالح شرنوبى وفوزى المعلوف وعبدالحميد الديب ، لايغنيه إن كان مستمعه يعرف شيئا عن هؤلاء الشعراء أو لا يعرف ، إنما يغنيه دائما أن ينبهر المستمعون بمعلوماته وبعده الأسماء والأعلام التى يرددها فى الحديث الجارى مع أنه ربما يكون قد استمع اليوم اسم علم من هذه الأعلام

لأول مرة فى حياته دون أن يعرف عنه أية معلومات سابقة . مع ذلك هو أول من يهرع لملاقاة فهمى عزيز بمجرد أن يهل على المقهى ، حيث ينتفض وأقفا بشهامة ريفية زائفة لكنها متقنة ، حيث يطق يده بالسلام فى قوة ، يتلقفه بالأحضان ، ينادى على النادل فى حفاوة كبيرة ، تأخذه الحماسة فينكشف لنا زيف ما أخبرنا به من قبل ، إذ يتضح أنه رد على كل رسائل فهمى التى زعم أنه لم يعرها التفاتا ، يتضح أن فهمى هو الذى يتباطأ فى الرد بما يتضح أن عبدالصمد يغبطه على وظيفته وعلى خطيبته وما سوف ترثه من ثروة ، يتضح أنه ألع على فهمى كثيرا فى أن يبحث له عن مسكن بجواره إذ أنه انتوى السفر إلى القاهرة والإقامة فيها بصفة نهائية لاحتراف الأدب كالعقاد والمازنى . آخر ما كنا نتصوره أن يكون صادقا فى آخر خبر نقله إلينا عن نفسه ولم نصدقه ، حيث فاجأنا منذ أيام قليلة بأنه تلقى خطابا شخصيا من رئيس تحرير مجلة التحرير التى أنشأتها حكومة الثورة فى دار التحرير للطبع والنشر ، يطلب منه فيه الحضور إلى مقر المجلة لاستلام عمل تحريرى فيها إذ أن الموضوعات التى بادر بإرسالها إليهم بمجرد علمه بخبر إنشاء المجلة قد لقيت ترحيبا وأقنعتهم بموهبته الأدبية . ها هو ذا يعرض الخطاب على فهمى عزيز ، مكتوب على المظروف بالمطبعة : مجلة التحرير . ها هو ذا فهمى عزيز يخلع منظاره الأسود فتتكشف عيناه الخبيثتان المليئتان باللؤم والخسة ، وتنعوج شفاته الرفيعتان بابتسامة صفراوية ، يعلو الشحوب صفحة وجهه وهو يقرب صفحة الخطاب من عينيه ، فيما راحت أطراف أصابعه تنتف شعيرات فى صدغه بعصبية شديدة . هامو ذا ينحى صفحة الخطاب عن عينيه فى لامبالاة عجز عن إخفاء ما تحويه من إحن ومواجد ، ثم يرده لصديقه دون أن يعلق بحرف ، ولا بد أنه - كما أوحى لنا عبدالصمد فى نفس الجلسة - كان يتمنى هذه الفرصة لنفسه وأن الغيظ يأكله لأنه يقيم فى القاهرة ومع ذلك تفوته فرصة كهذه .

الغيط يأكلهما معا من «أحمد أبو عماشة»، ذلك الشاب الغلبان الذى لا
 كيان له على الإطلاق، إذ هو نجار طبالى، كل ما يملكه من حطام الدنيا حقيقية
 العدة، قوامها منشار صغير وفارة للمسح وشاكوش وقادوم وزردية وكماشة
 وسنبك للخرم ومتر خشبى من النوع الذى يطوى على بعضه فى شرائح متحركة،
 وعلبة مسامير، وكوز ملء بالغراء، المفروض أن يتجول بهذه الحقيقية فى
 الشوارع والحوارى، لكنه اليوم بات يستكبر على هذا التجوال، أصبح يكتفى
 بالجلوس على المقهى متنكرا فى زى أفندى، بكتفين مقفعين نحيفين كورقة تهم
 بأن تنطوى على نفسها، وقامة طويلة نحيفة جدا تكاد تنهوى من شدة الهزال
 والعوز وندرة الشبع. السروال والسترة والقميص والحذاء من معروضات سوق
 العصر أو ما يسمى فى القاهرة بسوق الكانتو، ملبوسات اجربت على أكتاف
 أصحابها وتدهورت قبل أن تصل إلى جسد أبى عماشة، الذى قلبها بواسطة
 الترزى على وجهها الآخر. وجه أحمد أبو عماشة هو الآخر فى حاجة لمن يقلبه،
 إذ يبدو كأنه قد تهرأ وتدهور وتلوى وتلعبت ملامحه من فرط العناء والإنفعالات
 والعصبية الناتجة عن مركبات نقص لا حصر لها، هو الذى علم فهمى عزيز
 هذه الحركة العصبية إذ لا يكف عن العبث بأطراف أصابعه فى شعيرات وهمية
 فى صدغه الحليق، حتى لقد خلقت أصابعه ندبة تكاد تلتهب فى صدغه.
 مصدر غضبه الدفين أن جمهور البلدة لا يريد الإعراف بالشخصية التى طرأت
 عليه كأحد المبدعين المرموقين فى المدينة لدرجة أن الكثيرين من مختلف البلدان
 يحضرون إلى المدينة خصيصا للسؤال عنه فى المقهى والحظوة برويته. إن أهل
 البندر مازلوا يجيئون له فيطرقون سمعه فى بساطة:

- «قم يا اسطى أحمد ! عندنا باب خن الفراخ نريد إصلاحه ! عندنا
 طلبية مكسورة ! عندنا مسمارين فى ترباس الباب ! عندنا تراييزة ملخلخة !» .

بعضهم يقول له فى عشم: «يلا ياد يابو حميد ما تبقاش لكع !» . قد
 يحدث ذلك فى حضور من جاعوا لرؤيته مبهورين به، أو فى حضور طاقم
 الأفندية من المتأدين والشعراء وفيهم من هو على مقربة من وكيل وزارة أو مدير
 عام، حينئذ تنهار أعصاب أحمد أبو عماشة ويكون يوما سيئا فى حياته المليئة
 بالأيام السيئة. أما إن تم ذلك وهو جالس فلا بأس من أن يقوم معه، بل قد
 يهز مع بعض الألفاظ الخارجة قبل أن يقوم تعبيراً عن بهجته بكونه سيعود
 بعد قليل وقد عمر جيبه بنصف فرنك أو شلن أو ربما بريزة كاملة، فيشتري
 خمسة بلمونت وشطيرتى فول وطعمية وربما دخل السينما .

«أحمد أبو عماشة» كان مغرماً ببيرم التونسى وبالأزجال التى تنشرها
 جريدة البعكوكة، فانبرى يقلدها، فإذا هو موهوب موهبة كبيرة جدا، وإذا هو
 قادر على أن يثقف نفسه بقراءة أى شىء يقع فى طريقه، وكتب يسمع عنها من
 رواد المقهى أثناء الندوات فيسعى لاستعارتها أو استئجارها من المكتبات. كانت
 محاولاته الزجلية تطرب من يستمع إليها بما فيها من إحكام فى الصنعة
 وسهولة فى الموسيقى والقوافى وحكمة شعبية عميقة ناضجة بغلب الحياة ومرارة
 التجربة. وقد كان يبعث بأزجاله إلى الصحف والمجلات فتنتشرها أو تنشر
 مختارات منها، وإلى البرامج الإذاعية فتذيع الكثير منها، ويراسل كبار الأدباء
 والمفكرين بالزجل فيربون عليه بإحترام كبير، ويكتب الأغنيات الشعبية الحارقة
 ويبيعها بتراب الفلوس لمؤلفين محترفين ولهواة الغناء. حدث أن أقام المجلس
 الأعلى للفنون والآداب مسابقة فى الشعر الشعبى حول موضوع حرب السادس
 والخمسين كملحة يكتبها من يشاء على طريقة الملاحم الشعبية. وكان أحمد
 أبو عماشة بسبيله إلى فعل شىء كهذا قبل أن يسمع عن هذه المسابقة، وحين
 قرأ خبرها كان قد أوشك على الإنتهاء منها، فبادر بتقديمها بين حشد هائل من
 المشتركين فيهم كثير من المحترفين، لدهشة الجميع فوجئ البندر كله بفوز

أحمد أبو عماشة بالمركز الأول فحصل على جائزة كبيرة وميدالية تذكارية ثمينة ، وتحول إلى أفندى حقيقى بشكل رسمى ، ونشرت الصحف والمجلات السيارة موضوعات عنه محلاة بالصور ، ووفدت الوفود من القاهرة تطلب رؤيته وتكليفه بكتابة برامج وأغنيات ، والتقطه المذيع الكبير طاهر أبو زيد فسجل معه حلقة لبرنامج (جرب حظك) إستمع إليه الجميع بانبهار شديد ، وواظبت بعض المجلات الفنية على نشر أزعاجه بانتظام . وكانت الضربة القاضية لكل من فهمى وعبد الصمد أنه دعى للمشاركة فى مهرجان الشعر فى دمشق مع لفيف من كبار شعراء مصر .

بات يتجنب الظهور بين زبائنه القدامى ، فلا يحضر إلى المقهى إلا فى أواسط الليل ، ليجلس وحده بعيدا ، منزويا ، ينتف شعر صدغه بعصبية ، يتوقع العنوان من جميع الناس على ظهر الأرض ، ويتجنبهم ما أمكن ، ويؤول أحاديثهم وحركاتهم ويتوهم أنها مقصود بها السخرية منه فيبنى على ذلك مواقف عدائية من الجميع ، فيغلظ لهم فى القول مقدا ، ويبادئهم بالهجوم وسلطة اللسان ، وقبل أن يتفاهم الأمر يهب منسحبا فى عصبية غاضبة كأنه لن يعود ثانية ، لكنه قد يعود بعدها بقليل ليطلب واحد شائ يشربه على مدى السهرة كلها . هنا يدور الغمز عليه فعلا ، ولكن بقدر من الحب لا يستأمله ، إذ يعرفون أنه اختفى مسافة مداخل سيجارتين من الحشيش فى العشة التى يسكنها فى حارة العوانية .

ها هو ذا يحتفى هو الآخر بضيوف المقهى القادمين مع فهمى عزيز ، فيجلس واضعا ساقا على ساقا بروح معنوية مرتفعة ، ويتحدث عن موعد سفره الذى تقرر تنفيذه بعد أيام للإلتحاق بعمل فى وزارة الثقافة عينه فيه يوسف السباعى الذى كان يحظى بلقب لا يخلو من سخرية هو : أركان حرب الأدب والثقافة ، وتكون النكتة واضحة إذا عرفنا أن شغلته فى الأصل عسكرية إذ كان

لواءً بسلاح الفرسان . أخيرا سيصبح أبو عماشة موظفا حكوميا قد الدنيا وهاهوذا يأخذ عنوان فهمى عزيز لكى يزوره ، وها هوذا فهمى يكتب بقلم حبر ماركة تروين على كارت مكتوب فى وسطه بالمطبعة : فهمى عزيز ، وتحتها : شاعر وصحفى ، على وزن تاجر وترزى . ولم ينس أن ينبه أحمد همسا أن رقم الهاتف هذا هو هاتف الجيران لأن هاتفه الخاص على وشك أن يتم تركيبه ..

كان من الواضح أننى غير معجب بأى شئ من هذا الذى أراه ، كما كان من الواضح أننى معنى بشئ واحد فقط هو صاحب المقهى «عبد الكريم الحريرى» ، ذلك العجوز الحكيم ، النحيف البدن ، ذو الرأس الصغير ، وملامح الوجه التى تكاد تتلاشى . إنه كالطيف كالنسيم العليل ، لولا مخاطبتك إياه لم تره ، عشق الأدب وورث هذا المقهى فى زمن ترتفع فيه نفقات التعليم العالى ، وليس ثمة من يدير المقهى سواه ، فاستغنى عن التعليم واختار إدارة المقهى . ولم يمنعه ذلك من ممارسة هوايته وطبع مجموعة كتب على نفقته تضم قصصه وخواتمه ونقداته وتحليلاته للقضايا الثقافية والاجتماعية التى يكتبها برصانة العقاد وجزالة المازنى ولكن بنصف ثقافة . على أنه أصدق الجميع وأكثرهم تواضعا وواقعية وعدم إدعاء ، يكفى أنه جعل للمقهى شنة ورنه ، ويسببها اشتهر بندر دسوق شهرة ثقافية توازى شهرتها بسيدي إبراهيم الدسوقي .. هاهوذا يجلس الآن خلف منصة الماركات كالعادة ، وفوق رأسه دولا ب مثبت فى الحائط ذو باب زجاجى ، ترتص فيه كتب تراثية وحديثة ، بعضها لمؤلفين عمالقة زاروا المقهى وأهدوه نسخا منها موهورة بتوقيعاتهم . ها هو ذا يتابع الجميع والصخب بنظرات تكاد تغلق عدسة المنظار الطبى السميك لتندفع الفرحة منها بهذه الحركة التى كان هو السبب فى إحداثها ..

رأيتنى أنهض واقفا تجاهه ، سلمت عليه . قام فأخذنى بالحضن فى حفاوة كبيرة جدا . كان واضحا أنه لم يرنى منذ بضع سنوات اختفيت فيها عن

المقهى . أفسح لى مكانا بجواره . جلست ، لاحظت أنه وحده ، فرحت لذلك ، خيل لى أن المقهى فقد رواده وصخبه القديم . طلب لى براد الشاي ، قدم لى سيجارة ، سألته عن الحال ، قال «عال العال ! كلكم سافرتم إلى القاهرة واحترفتم وتركتنونا فى ذيل القائمة !» . وكان سعيدا فى أعماقه وهو يقول هذا ، ثم أضاف مبتسما :

- «المقهى تجدد شبابها باستمرار ! لقد حل محلكم شبان جدد أكثر منكم حيوية وصخبا وطموحا ! لكن أقل منكم تحصيليا ! وأميل إلى الاستسهال ! ولا شأن لهم بالسياسة ! بل إن بعضهم لا شأن له بالوطن أصلا !! والغريب أن بعض الصحف تنشر لهم ! إن المصيبة هى كثرة الصحف وقلة الكتابة الجيدة !!» ..

كان من الواضح أنني جئت إلى البندر فى زيارة خاطفة حيث كنت فى قرىتى لأمر ما ، وأنتى استصعبت الرحيل دون المرور على المقهى ورؤية الاستاذ . وكان من الواضح أنني على غير ما يرام ، وأنتى مهموم ومثقل بأشياء كثيرة كثيرة ، وأنتى قد صدمت فى ناس كثيرين وخاب أملى فى أمنيات كثيرة . منظر البراد الأبيض الزنك فوق الصينية اللامعة كان حميما جدا ، رحت أضع قوالب السكر فى البراد وأقلبه بالمعلقة ثم أصب فى الكوب مستلذا . وكان الاستاذ مشوقا متلهفا لمعرفة كل أخبار القاهرة ، سألتى عن فهمى عزيز ، وعن عبد الصمد عبيد ، وأحمد أبو عماشه ، وعن مشاهير الكتاب والنقاد والرسامين والشعراء . يخيل لى أنه لاحظ أنني ممرور من الجميع وأنتى غير مستعد للإجابة عن أى شئ ، مع ذلك رحت أردد خلف كل سؤال : «بخير ! طيبون ! الحمد لله ! ربنا معاهم !» . هو نفسه لم يكن ينتظر الإجابة ، فقد راح يلاحقنى بالأسئلة حول أشياء كتبها هؤلاء وأولئك من الأصحاب والمعارف والهواة . حقا ! حقا ! إنهم ها هنا يتابعون بكل دقة وحماسة ، ويقدمون الكلمة المطبوعة ،

ويحترمون كل ما فقد احترامه فى أنظارنا فى القاهرة . ثم إنه بدأ يهدأ ويطلب تقارير ضافية عن كل شئ سألتى عنه . شعرت أنه شغوف بالفعل ، شعرت أنني قد بدأت أضيق ، لم أكن أعرف إن كان الضيق بسببه أم بسبب استيقاظ حالات الملل القديم من المقهى أم بسبب أشياء حدثت لى فى بلدتى ، لكننى كنت أتمنى الإنصراف فى الحال . رأيتنى أقف متأهبا للإنصراف ، واضعا يدى فى جيب السروال منتظرا أن ينتهى من عد الماركات التى رماها النادل أمامه . فى وقفى تذكرت أن الاستاذ طلب عنوانى فى القاهرة لى يرأسلى عليه ، رحت أفكر فى الخلاص من هذه الورطة بلباقة . لم أجد مفرا من كتابة نفس العنوان الذى أعطيه لكل من يطلب مراسلتى . انحنيت على المنصة لأكتب العنوان فى مفكرة قدمها لى الاستاذ ..

فى الحال رأيتنى فى حجرة مكتب ممدوح الجمال مدير تحرير مجلة «نهضة الوادى» ، الذى بدا لى أنه أصدق أصدقائى فى القاهرة رغم أن معرفتى به تبدو قريبة العهد . كنت جالسا على كرسى جلدى ملاصق لمكتب ممدوح ، أمامى مباشرة مكتب فهمى عزيز الذى يعمل سكرتير التحرير ويشرف على ملحق أدبى وفنى يصدر داخل المجلة الصناعية مكونا من أربع صفحات يكتبها ناس ما أنزل الله بهم من سلطان ، كلهم ذوى مناصب فى مجلات أخرى يملكون فرص نشر القصائد والتعليقات فى مجلاتهم وصحفهم . تذكرت أنني جئت هاهنا فى الأصل لزيارة فهمى عزيز . كان ذلك منذ شهور طويلة تزيد عن العام ، أذكر أنه يومها أهملنى تماما ، وأن الذى اهتم بى وحياتى بأحسن تحية كان هو ممدوح الجمال ، الذى كان يكتب القصة القصيرة قبل أن يتحول إلى صحفى بارع ماهر . هو شخص رقيق جدا ، على خلق ، طويل القامة ، أبيض البشرة منبسطة الملامح على وجه كقطيرة السميد ، كبير الرأس كبير القلب ممرح ، يموت فى المزاح البرئ والضحك الصافى بقدر ما يموت فى العمل بجدية

ولإخلاص وتفان ، واسع العينين وواسع الصدر أيضا ، طبيعى فى أناقته الشديدة قريب الشبه جدا بالممثل القديم أحمد سالم ، كريم إلى حد كبير جدا قد يخلع ملابسه عن جسده ليستر بها عرى الآخرين . إحتوانى من أول لقاء ، شعر بمحتنى ، تعود أن يسرب يده من تحت المكتب لتغمزنى بخمسين قرشا أو جنيه كامل أو أكثر ، تعود أن يعزمنى على الغداء كلما زرته ، أصبحت أزوره هو ، أصبحت أكتب عنوانى : مجلة نهضة الوادى ، ممدوح الجمال ومنه إلى فلان . كالجرذ الخبيث كان فهمى عزيز يدرك - لا أدري كيف - أن ممدوح الجمال نفحنى شيئا ، حينئذ أراه يوجه لى غمزات ذات معنى ، أفهم منها أن السهرة الليلية ستكون عنده لأبيت حتى الصباح ، فأعرف أنه يستهدف النفحة التى أتعشتم الاستناد عليها لعدة أيام ، لسوف ينجح فى إغرائى بالتضحية بنصفها على الأقل فى شراء قطعة من الحشيش ندخلها فى منزله على الشيشة ، وهو أمر كثيرا ما أضعف دونه وأستسلم له .

بزغ وجه الأستاذ فجأة ممسكا بالمفكرة يقرأ عنوانى ثم يصيح فى جذل طفولى :

- «الله ! أنت إذن تعمل مع فهمى فى نفس المجلة !!»

قلت بسرعة :

- لا ! ولكن هذا مجرد عنوان مؤقت !»

ثم سلمت عليه بسرعة ، وانصرفت ساخن الأذنين ..

الشارع كان طويلا جدا ، محتشدا على الجانبين بالعمائر العتيقة والجديدة ، المرتفعة الطوابق ، أما العتيقة فبنفس الارتفاع ولكن بطوابق أقل عددا . كان واضحا أننى أسير منذ وقت طويل مضى ، ولم يكن يساورنى أى قلق ، بل يداخلنى شئ من الإطمئنان . الشارع كان خاليا تماما من المارة ، كل

حين تمرق سيارة تعزف على الأسفلت اللامع زقيفا حادا ، ليعم الهدوء من جديد . ضوء فوانيس الشارع يتأجج ضوء قمر شريد بين شواشى العمائر وحواريها الجانبية ، يخفى فى حودة ليظهر على ناصية مقبلة ، فيصاحبنى لخطوات ، لتحجبه عمارة شاهقة أو أهبط أنا فى نفق من الأنفاق العديدة التى مررت بها فى هذا الشارع الطويل الذى ييبو بلا نهاية ، وإذا انسلخ عن النفق أرى القمر مقعيا على صخرة من السحب الجرانيتية . كان ثمة ما يدغدغ أعماقى بفرح مرتقب ، لعل مصدره أننى الآن - لأول مرة فيما ييبو - أبدا كائننى أمشى لهدف معروف محدد . فجأة تذكرت أننى لست أسير بمفردى ، إذ أن ظل من يبدو أنه كان يسير معى زحف بجوارى أو لعلنى تلكأت نحوه ، اقترب منى صاحب الظل ، بدا كائننى كنت أعرف أنه فهمى عزيز ، وأنا ابتدأنا السير معا من وسط المدينة فالعتبة الخضراء فشارع أحمد سعيد . كنت أعرف الآن أنه يقتادنى إلى شقته فى حلمية الزيتون لكى أبيت عنده الليلة فى حجرة الأنتريه . كنا قد اشترينا قطعة الحشيش بمائة وعشرين قرشا من مرسى فرغل بحى بولاق ، لكى نشربها قبل النوم ، ونوقظ فى دخانها المنعش حميم الذكريات ، ويسمعنى آخر قصائده ، وأشحن عقلى لأنقدها ، وربما قرأت عليه - من الذاكرة - بعض أفكار قصصى التى أنوى كتابتها حين يتاح لى مكان أبيت فيه وأكتب . تذكرت بكثير من الأسى أننى دفعت جنيهها كاملا من ثمن قطعة الحشيش هذه ، ودفع فهمى عزيز عشرين قرشا ، زاعما أنها كل ما معه ، ولكى يثبت لى صدق زعمه وضعنى أمام هذه الورطة المهيبة التى لا أدري كيف رضيت بها ، وهى أن نمضى إلى حلمية الزيتون سيرا على الأقدام لأننا لا نملك أجرة الأتوبيس وهى لا تزيد على خمسة قروش كان بإمكاننا اختصارها من قطعة الحشيش لو أنه صرح لى بذلك قبل شرائها ، لكنه جشعه فى التدخين . يقول أن هذا الأمر فات عليه وأننى فى تصويره أحتفظ فوق جنيهه ولو بخمسة قروش من النفحة التى

تفضل على بها ممدوح الجمال . أخذت أسبه فى سرى وألعن ديك الذين خلفوه ،
وديك معرفته ، فهذا الجنيه الذى تكبدته الليلة كنت أستطيع النوم به عشر ليال
بحالها فى لوكاندة من لوكاندات شارع كلوت بك التى أبيت فيها عادة . يبدو
أننى صرحت بشئ من هذا ، لأنه انبرى يقول إن فرصة لقائنا تساوى أكثر من
أى نقود ، وأننى سأتعشى معه عشوة منزلية لا تقدمها المطاعم بأقل من خمسة
جنيهاً ، وسأنام على كنبه وثيرة فى مكان نظيف مريح ، فضلاً عن أننا
سنتحدث معا حديثاً ذا شجون ، ولى أن أظل نائماً حتى الضحى كما أشاء فهو
لن ينزل غداً إلا متأخراً جداً . وكنت أشك فى أننى سأصلح لأى شئ بعد أن
ينتهى هذا العذاب الطويل ونصل إلى الشقة فى حلمية الزيتون . وكان من
الواضح أن هذه هى أول مرة يلين فيها قلب فهمى عزيز فيعزمنى على المبيت فى
شقته ..

ها أنذا أصعد إليها سلماً ضيقاً . مشوار آخر تفسخت منه مفاصلى .
حين توقفت لاهثاً على البسطة الأخيرة كان كل ما يشغلنى شيئان اثنان : أن
أسترد روحى التى صرت ألقظها مع كل نفس أتنفسه ، وأن أضن بقطعة الحشيش
فلا أرى منها سوى ربعها . إنحططت جالساً على الكنبه التى عرفت أننى
سأنام عليها ، وهى مجاورة لحائط عرفت أنه حاجز بين الردهة وحجرة النوم،
التى رأيت سريرها الوثير المخملى ملاصقاً لنفس الحائط أثناء دخولنا من باب
الشقة. «الأنترية» منجد على قوائم معدنية لعلها من الألومنيوم السميكة ، من ذلك
النوع الذى أراه معروضا فى المحلات بكثرة. توجد مجموعة من الرفوف عليها
مجموعة من الكتب المجلدة العتيقة فهمت أنها خاصة بأبيه الشيخ ، وكلها من
كتب التراث الشهيرة ، ومعها بعض كتب حديثة ، وبعض المجلات الأدبية مثل
مجلة الآداب البيروتية ومجلة الرسالة الجديدة. تركنى فهمى عزيز وغاب فى الشقة
، سمعت رنين صوت عذب مسكر عرفت أنه صوت نازك التى أصبحت زوجته
وأنجبت له طفلة لم أرها وإن سمعت فيها أزجالاً كتبها أحمد أبو عماشه

فى حفلة سبوعها منذ ما يقرب من عامين . هذه أول مرة أتذكر فيها نازك بعد
أن كنت نسيتهما فى سنين التشرد الفاتئة . أصغيت لحديثها ، سمعته يعارضها
بهمهمة مضغمة لم أتبين منها شيئاً ، ثم سمعت خطوات زحف الشبشب على
الأرض ، ثم انبثق ضوء تسرب إلى فى الردهة قادماً من حجرة مواجهة على
اليسار عرفت أنها المطبخ ، وخيل لى أننى رأيت طيف نازك ملفوفاً فى روب
منزلى عليه ورود كبيرة وتفوح منه رائحة عطرية فريدة ، ثم رأيت شبشب فهمى
عزيز يمرق هو الآخر مرتدياً المنامة وفوقها الروب دى شامبر الذى كنت أرى
الباشوات فى أفلام السينما يرتدون فى منازلهم . بعد قليل جاء حاملاً الشيشة
ومنقد النار فوقه ثلاثة حجارة وماشة ساذجة لا تسعف بل لا تصلح . وضع ذلك
أمامى على طقطوقة ، ثم مضى وجاء بقطعة من المشمع فرشها تحتى وتحت
الشيشة ، ثم مضى ، فأخذ المنقد وذهب إلى المطبخ وعاد واضعاً فوقه قطعة
كبيرة من الفحم شبطت فيها النار . وضع المنقد أمامى ومضى ، اختفى فى
المطبخ ، بينما جعلت أمروح على الفحم المشتعل بورقة سميكة . بحثت عن
الدخان المعسل فوجدته فى قعر الطقطوقة ، فصرت أفركه وأفرفره ، ثم أضعه
على الحجارة . انتهزت فرصة غياب فهمى فنزعت قطعة الحشيش من جيبي
واقطعت منها ربعها أبقيته فى يدي ثم أخفيت الباقي ثم جعلت أوقع على
الحجارة بتعميرات مفرودة خادعة حتى أوهمه بأننى أفطرت فى التوقيعات
حينما أزعم أن الحشيشة قد نفدت . صهللت النار ، وصهلل ضرب الشيشة بعد
التجربة والضبط ، وبقيت فى انتظار فهمى عزيز ، الذى طالت غيبته فى المطبخ
بشكل مريب . أصبخت السمع ، سمعت صوت احتكاك الشوك والملاعق بالأطباق
فتذكرت وعده بالعشاء فالتمسست له عذراً فى التأخير ، إذ لابد أنه الآن أوشك
على تجهيزه ، لكن صوت احتكاك المعلقة بالطبق ظل مستمرا لوقت طويل ،
يصاحبه صوت مضغ وصوت ارتشاف المياه ، ثم صوت فهمى وهو يتجشأ . ثم

استمر ذلك لوقت طويل حتى كادت النار تنوب وتنتهى ، ثم ما لبثت حتى سمعت صوت خرير المياه فى كوب . فى اللحظة التى هممت بمناداته رأيت شبحة مقبلا من المطبخ يحمل صينية صغيرة جدا عليها كوبان من الشاي الخفيف ، وضعها على كرسى بجوارى قائلا :

- «يا أخى لم يعد للسباكين ضمائر ! فى مطبخنا الماسورة مثقوبة جئنا بالسباك لإصلاحها ! أخذ خمسين قرشا بحالها ! حار ونار فى جتته ! ثم تركها مثقوبة من ناحية أخرى ! اكتشفت الآن أننى كنت أستطيع إصلاحها أحسن منه ! وقد كان ! منذ تركتك وأنا أعكرش فيها حتى أصلحتها بالفعل ! فلا تؤاخذنى إن كنت تأخرت عليك !!» ..

فلم أرد ، وسحبت قطعة نار ووضعتها كيفما اتفق على الحجر وقلت له : «ولع !» . لم يفهم أننى منحرف المزاج ، وأننى رصصت النار على طريقة المعسل الحاف ، مع أننى أول من يستنكر هذه الطريقة وأرى أن حجر الحشيش لا يحيا ولا يصح إلا بنار مطحونة فى مصفاة تنسكب على الحجر كقطرات من الجمر . أخذ يشد الأنفاس بقوة جهنمية وحس متبلد . وصرنا نشرب على هذا الوضع غير المريح حتى هدنى التعب تماما ولم أعد قادرا على تحريك أى عضو من أعضائى . غامت المرئيات فى ناظرى ، صارت الأرض تدور تكاد تتشقلب ، شعرت بغثيان مرير ، لم يغب عن فطنتى أن للجوع الشديد دخلا كبيرا فيما أصابنى . تراجعت بظهرى فأسندته وركنت رأسى على الحائط حتى لا يتدحرج ساقطا على الأرض ، أغمضت عيني طارحا ذراعى بجوارى وكل أمنيئى أن يكف صوته عن الكلام ، إذ أنه منذ جلسنا لم يكن فى الوجود كله سوى صوته الرتيب المتلاحق الملحاح يضرب فى رأسى دون أن ينفث له ولو ثقب صغير ينفذ منه إلى داخل رأسى ، لكننى أذكر أنه ألقى عددا من القصائد الغنائية السمجة ، وقصائد المناسبات السقيمة ، وسوناتات - شوف قلة الأدب - مثل سوناتات

شكسبير كتبها عن الوادى الجديد وأسمائها سوناتات الوادى الجديد . يا سلام ! هذه هى الكلمة الوحيدة التى نطقت بها طوال الجلسة دون أن يعتربها أى انفعال أو معنى ، كما أنه حكى عن فروسيته فى مواجهة ممدوح الجمال ، ذلك الزميل الأفاق الناعم كالثعبان الذى يحاربه خفية ليقصيه عن منصبه ليعين بدلا منه أحد أصدقائه التافهين ، لكنه - فهمى - سيريه مركزه ، سيدمره ، سيوقف نموه ، سيجعله يرجع إلى بلدته ليعمل بقالا أو كاتب أنفار . وكنت أقول : يا سلام ، بطريقة محايدة ، وفى قلبى نيران مشتعلة أود لو أصلبه فيها . ها أنذا كفت عن ترديد كلمة يا سلام ، وأعلنت غيابى التام عن القعدة ، إلا أنه ظل منخرطا فى الكلام وتقليب بعض الملفات لاختيار مقطوعة جديدة أو ربما وثيقة استقطبها من مكان ما لكى يكيد بها لممدوح الجمال حين تجئ ساعة الحساب التى هى لا ريب آتية . ألهمنى السماء طريقة لإسكاته نفذتها فى الحال : صرت أصعد من شخيري ، الذى ساعدنى عليه امتلاء صدرى بالدخان واللهات وتعب الأنفاس ، حينئذ شعرت به ينهض حاملا الصينية ، فتذكرت أننى لم أشرب الشاي ، ثم صار يروح ويغدو بين المطبخ والردهة ، ثم عاد ونادانى بشئ من الرفق هو الخشونة بعينها :

- «وله ! واد يا فلان ! اتعدل !»

رمى فوقى بشئ ، انتبهت فإذا هى وسادة طويتها فوق الكنية ، ورمى بطانية من بطاطين الجيش . خلعت حذائى وتمددت فوق الكنية فاردا البطانية على ساقى ، وغطست فى بحيرة النوم المظلمة بكثافة ، صرت أسمع هدير شخيري يتدفق متلاطما كأحجار صماء تضرب فى بعضها ، ثم ما لبثت حتى شعرت بأصابع مدببة تلكزنى فى ذقنى ، فانتبهت فرعا ، فتحت عيني بصعوبة ، رأيت شبح فهمى عزيز يقف ناظرا فى وجهى مرتديا روب الحمام على اللحم ..

قلت : « فيه إيه ؟ »

قال : « بطل خنفرة ! صوتك بيحذف قنابل ! »

قلت : « أسف ! أتعبنى المشوار وقلة النوم ! »

ثم اعتدلت على جنبى ، وبقيت نصف نائم نصف يقظان حتى لا أصدر هذه الأصوات القبيحة التى قد تستنكرها نازك . سمعت صوت باب حجرة النوم ينفلق من الداخل بالترباس ، .. استعصى على النوم تماما ، حاولت استدعاء التعب ولكن دون جدوى ، فأشعلت سيجارة رحت أدخنها وأنا مضطجع . كانت الشقة غارقة فى الظلام والصمت ، لكنه كان صمتا مريبا جدا ، إذ راح يسرب إلى أذنى صوت هزهة السرير بشكل متصاعد كان كفيلا بإيقاظى من أعماق النوم . انتعشت كل أطرافى ، شعرت بشئ من الخجل . على أن صوت الهزهة سرعان ما اندمج فى معزوفة الوحوش المملوطة والشجر والغنج ، صوت نازك هو مصدرها جميعا ، ها هى ذى تتأوه تأوهات عميقة غنية بالنشوة طافحة باللذة تنشد المزيد والمزيد . صوت التأوهات يخرج من الحلق ومن الأنف ومن سقف الحنك ومن كل مكان ، مصحوبا بصوت بقبة . الأرض كلها قد انتفضت ، أخذت زخرفها وازينت صارت تروح وتجي ، صرت أنا الآخر أروح وأجىء دافئا نفسى فى حشية الكنبه أكاد أخرجها وأظافر أصابعى تنهش فى لحم الوسادة ووبره ، وإيقاع صوت نازك يشيلنى ويحطنى ، وصفائح الدم تغلى وتغور فى رأسى وعروقى . ما لبثت معزوفة الأصوات حتى آبت إلى إيقاع واحد متلاحق يتصاعد إلى قمة الضراعة ، هى ضراعة تطلب النهاية لكنها تضرع الرغبة فى المواصله ، وإيقاع صوت البقبة ينثر رذاذا لاهبا يشى بأن النار فى طوقها مراحل عديدة من الوهج ، وصوت نازك يضرع : فهمى ! فهمى ! فهمى ! فهمى ! على جناح صوتها رأيتنى أشرف شطآن الذروة المتأججة العالية . أصابنى العنفوان حتى فقدت الإحساس بالمكان وبالخجل ولم أملك سوى أن أكون شريكا

ثالثا فى هذه الموقعة الجليبة التى ربما كانت رحاها تدور بين أطراف عديدة ، لكننى خشيت صوت هزهة الكنبه وكانت أكثر جعجة من السرير ، كذلك خشيت أن أترك عليها بصمة اللبل . تسللت هابطا عن الكنبه متمددا فوق الأرض ، وكانت الذروة العالية قد بللتنى بموجات القذف العالية فصرت أغوص فى لزوجتها وصولا إلى ذروة أخرى ، حتى أب صوت الإيقاع النشوان إلى فحيح كفحيح القطار يرسو على رصيف المحطة ، فأفرغ قطارى كل ركابه وانثنى عائدا بى إلى الكنبه فاعتليت بها ساحبا البطانية فوقى . بعد برهة طويلة سمعت صوت الباب ينفتح ، ووقع خطوات ، وتكة زر الكهرباء ، ولحت من خلال جقونى المطبخ بصيص ضوء قادم من الحمام ، فصرت أرتعد كالدجاجة تحت المطر ، شاعرا بأن جسمى قد تخفف من أحمال كثيرة ثقيلة كانت ترهقنى . وكانت رحات المطر تقبل نحوى من باب الحمام فأترك خيالى ينقل جسدى ليضعه تحت هذا الدش الجميل ، وكنت بالفعل أشعر بلسعة المياه الرطبية تسرى فى عروقى تضاعف من نشوتى ..

صرت أحث الخطى نحو خيمة النوم التى كانت على مقربة . كنت واعيا بنفسى وأنا أدخلها وأغيب تماما فى حضنها . غير أننى ما كدت أدخلها حتى رأيتنى أخرج منها على الفور من الفتحة المقابلة ، حيث كان ثمة يد تشدنى تدفعنى تلكزنى تهزنى بعوانية مضمرة . فتحت عيني ، وجدت فهمى عزيز يقف مرتديا كامل ثيابه . انتفضت جالسا تطلق عظامى . كانت نوافذ الشقة كلها مفتوحة وأنفى مليئة برائحة الشياطين ، وشمس الصباح الباكر تنزل فى ضيافة المطبخ وجزء من الردهة ، ورائحة الصابون المعطر تختلط برائحة نازك برائحة الشاي بالحليب ، الذى رأيته على الطقوقة ويجواره شريحة خبز سمراء تنطوى على مسحة من الجبن الأبيض . وكان فهمى ممسكا بكوبه يجرع منه فى شراهة ويمصص لدى كل شفقة بشفتين غليظتين شهوانيتين . اعتدلت ، لبست

حذائى على عجل . قال : «تغسل وجهك !؟» . قلت : «مش مهم !» ، ومسحت عيني بيدي ، وشعرت بنفسى ملتصقا ببقعة متصلة من السروال ، فتلملت فى جلستى حتى تخلصت منها ، وسويت شعر رأسى بأصابعى . قال : «اشرب الشاى !» . وكان فى نيتى أن أرشف رشفة واحدة ، لكننى حين وضعت الكوب على فمى وجدتنى منجذبا إليه أكاد أدفن رأسى كله فيه ، فصرت أرشف بكل لذة ، رشفات متتالية ، وخياشيمى تعبق بنكهة شهية عرفت أنها نكهة نازك ، حتى أتيت على الكوب فى لحظات قليلة . تركننى فهمى وغاب فى الداخل قليلا ثم عاد ممسكا بحافظة أوراق جلدية كملفات طلبة الجامعة ، وبين أصبعيه سيجارة يستغيث وهجا من ضمة شفتيه المحروقتين فى المنتصف ولسانه لاينى يخرج طرفه ليبللهما استعدادا لجذبة النفس القادم . وكانت السيجارة تطشطش برائحة الحشيش ، فاستريت ، فصرت أتحمس جيوبى بحثا عن القطعة التى أذكرتها ، لم أجدها ، صرت أنظر فى الأرض وتحت الكنبه ، وهو يتابعنى بنظرات تطفح بالخبت المتخفى تحت بطانة زائفة من الدفء والحنان . قال بلهجة ذات معنى :

- «فيه حاجة وقعت منك ولا إيه !؟»

ترددت قليلا ثم اندفعت قائلا :

- «حتة حشيش كانت فاضلة معاية ! فى جيبي الصغير ده !»

سلط على نظرة احتجاج تتأهب للردح ، قال ساخرا :

- «باقولك أيه ! ما ترميش بلاك علينا ! انت بعظمة لسانك قلت دا آخر حجر معايا ! لما سألتك عن سيجاره أنام بيها !!»

لم أكن واثقا إذا كنت قد قلت له ذلك بالفعل أم أنه لم يسألنى من الأصل عن شئ ، لكننى كنت واثقا من أنه انتهز فرصة نومي العميق قبل إيقاظى

بلحظات وسرق القطعة من جيبي . كان غضبى الدفين يدفعنى إلى البصق فى وجهه أو صفعه ، إلا أننى طوحت رأسى فى أسف إكراما لمظهرى فى نظر نازك ، ونهضت واقفا ، فتقدمنى نحو الباب ، وخرجنا ..

جلسنا على مقعدين متجاورين فى الأتوبيس ، وكان يصدر عنه لفح كلفح الإشعاع الذرى ، ذو نكهة كنكهة المازوت المحترق . شراسته فى التدخين تصيبنى بالتقزز والغثيان ، إذ يسرب أطراف أصابعه فى جيب القميص لتخرج ممكسة بطرف السيجارة لتشعلها من عقب السيجارة المنتهية ، بعد أن يبذل شفتيه المحروقتين المشقوقتين . إذا به يقول دون مناسبة :

- «أرى أن ممدوح الجمال يتودد إليك ! على فكرة ! لا تغرنك نعومته ! ما

تراه فيه أو بمعنى أصح ما يفعله معك ليس كرما أصيلا فيه ! إنه مثلا حين يطلب منك أن تعاونه فى إعادة كتابة بعض موضوعات المحررين الضعفاء فإنه يريد أن يضربنى بك ! لأن هذا الذى يكلفك به إنما هو صميم عملى أنا ! وإنه ليتجاوز حدوده بعمل كهذا !!» ..

الغثيان فى حلقى ، حولت وجهى فى اتجاه بعيد عن عينيه ، شردت وقد شعرت بقلبي ينقبض وثمة قبضة تعصره بقوة .. لاحظتها رأيت ممدوح الجمال يسير بجوارى فى شارع قصر النيل ذات ليلة مضت منذ ما يزيد على بضعة أشهر . كان الشارع فى غاية الهدوء والجمال ، والوقت قرب العاشرة مساءً ، وكنا فى طريقنا إلى بار الجمال - مجرد تشابه فى الأسماء - على ناصية شارع جواد حسنى أمام مبنى البنك المركزى القديم . كنت مغتبطا جدا ، فممدوح الجمال رغم أنه يشرب الخمر فإنه ليس من رواد البارات ، إلا أن مناسبة ما كانت فى الأمر ، أغلب اليقين أنها كانت عودة صديقه الشاعر نجيب سرور من الخارج بعد تشرد طويل فى أوروبا الشرقية واضطهاد من الحكومات حتى المصرية ، ورأى ممدوح الجمال أن هذه مناسبة تصلح لأن يخرج عن

مألوف عاداته ويذهب إلى البار للاحتفال بعودة نجيب سرور مع مجموعة من أصدقائه القدامى . أخذ يحدثني في الطريق عن عبقرية نجيب سرور النقدية ، وعبقرية عبد المعطى حجازى الشعرية ، وإنسانية كامل عبد الغفار المثقف الذى يصرف على الموهوبين من جيبه حتى لا يأكلهم اليأس وتسحقهم قسوة قلب المدينة . فجأة قال :

- «باين عليك ممعكش فلوس ! على كل حال حنتعشى فى البار كباب ! وحنشرب وندخن ! ونضع لك ثلاث تربيع الليل ! وأدى خمسين قرش خليفها معاك تتصرمح بيها من الفجر لغاية ما أشوفك تانى يوم الظهر !» .

ثم قال وهو يقدم لى سيجارة ماركة الجمل بدون فلتر :

- «على فكرة ! أنت يجب أن تلم نفسك ! فى الشهر القادم سأزيد لك المكافأة خمس جنيهات !»

دهمتمنى الكلمة ، توقفت قائلاً :

- «أى مكافأة تقصد ؟!» ..

جذب نفسا من السيجارة ونظر فى عيني باسترابة ودهشة :

- «ألم تقبض مكافآت من المجلة ؟!»

- «أية مجلة ؟!»

- «مجلتنا ! نهضة وادى النيل ! إننى أضع لك كل شهر مكافأة على

الموضوعات التى تعيد كتابتها ! ذلك منذ ستة شهور تقريبا ! اعترض رئيس التحرير فى أول شهر فقط ! ثم أقنعتة باستحقاقك لها ! أعطيته موضوعاتك ليراجعها فراقت له عباراتك الجميلة ! وأصبح يضع المكافأة بخط يده تلقائيا بدون أن يسأل إن كنت أنتجت هذا الشهر أم لم تنتج !!» ..

دش من المياه الباردة يغمرنى ، شعور بالفرح والبهجة والترقب والحذر ومشاعر كثيرة مختلطة . قلت :

- «هذه أول مرة أسمع فيها هذا الخبر ! أقسم على ذلك ! ولم أقبض مليما واحدا من صراف مجلتكم ! ولم يبلغنى أحد بذلك !»

صار ممدوح الجمال يصفق كفا على كف فى حيرة وذهول ، يبدو عليه أنه يريد قول شئ لكنه يمسك عن قوله ، لكنه قال فى النهاية وهو يحاول السيطرة على أعصابه :

- «غدا تجى ونطلب الصراف لترى بنفسك !»

- «وهو كذلك !»

ظلت طوال السهرة فى بار الجمال أفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث فى أمر هذه المكافآت طوال الشهور الستة الفائتة ، ولولا نكات نجيب سرور الحارقة ، ولماعية ذهن كامل عبد الغفار ، وما يحكيه نجيب عن تجربته المريعة وما فيها من إثارة شديدة لخيالى ، لولا كل ذلك لما استطعت أنا وممدوح نسيان أمر المكافآت التى لم أصرفها رغم تواجدى الدائم فى مقر المجلة وتحت بصر الصراف . فى صباح اليوم التالى طلب ممدوح الجمال صراف المجلة ، وجئ بكشوفات الصرف فروجعت فاتضح أن فهمى عزيز يصرفها كل شهر نيابة عنى ويوقع أمامها توقيعاً مضغماً لا هو توقيعى ولا توقيعها وإنما هو مجرد حركة دائرية بخط يشقها فى المنتصف . صراف المجلة بالطبع لابد أن يثق فيه لأنه من المفروض أنه شخصية كبيرة فى المجلة ، ثم إن فهمى عزيز أفهمه أننى بلدياته وأننى من طرفه وأعمل تحت رئاسته . من الصراف صحبنى ممدوح إلى رئيس التحرير . كان رجلاً فى غاية الرقة والدمائة يدعى «سليم فاخر» ، من الضباط الأحرار ، وأهله من الموسرين القدامى فى حى الجمالية ، مغرم بالأبهة

كسلوك أصيل فيه ، إذ هو بالفعل جميل كغصن الزيتون ، ربعة القامة ، أبيض اللون مع شقرة خفيفة لعلها مسحة خجل مولودة معه ، أنف دقيق مسمم ، ووجه مستطيل نبيل الملامح يأسف مقدما لكل ما يتوقع أن تفضى به إليه ، ولدى كل كلمة نقولها يقطب حاجبيه يستبشع بها ما تحكيه ، قد يتأتى بشفتيه ، ثم يأمر فى الحال بأى شئ ، ربما وضع يده فى جيبه وعرض عليك نقودا ، ربما أمسك بسماعة التليفون ليويخ من أغضبك ، ربما يشيعك حتى الباب غارقا فى أسفه وخجله إذا لم يستطع أن يفعل لك شيئا مهما ، ولسة الإخضرار فى عينيه تعكس جمال الكرة الأرضية ، ثم يخطر فوق البساط عائدا إلى مكتبه ، السرورالمعتبر الواسع الساقين بحالات أنيقة عالقة بكتفيه فوق القميص الحريري الطبيعي ، ورباط العنق مفشوخ حول رقبته القصيرة الممتلئة ، والدبوس الذهبى مائل فى إهمال . أول شئ يفعله حين وصوله للمكتب أن يتناول الغليون من فوق صينية من الفضة المكنتة ترتص فوقها مجموعة من الغلايين مختلفة الأشكال والأحجام والأنواع ، ثم يشعله بالولاعة الذهبية ، يجذب عدة أنفاس متلاحقة يتزايد عمقها ويتكاثر دخانها فى النفس الأخير ، ثم يضع الغليون ، وينكفى على الأوراق أو الجرائد . حتى مكتبه غاية فى الأناقة ، مشغول بالأرابيسك ناهيك عن طاقم الجلوس الأرستقراطى ، والستائر الثمينة ، والراديو ماركة فيليبس بجواره ، وجهاز التليفزيون فوقه ، ومشجب كالشجرة علقت عليه سترة صوفية زاعقة الفخامة . من عادة «سليم فاخر» أنه بمجرد وصوله إلى مكتبه يخلع حذاءه ويلبس بدلا منه خفا من نوع غريب جدا من الجلد لا ثقل له على الإطلاق كتفه من حرير القز ، مع ذلك متين كالزمن ، له نعل كقالب من الزيد ، ووجه بويرة ، يبدو أنه من جلد الثعلب . وذلك لكى يتمكن «سليم فاخر» من الوضوء والصلاة فى مكتبه عندما يحين الفرض . كان هذا الخف مثار إعجاب المجلة كلها ، ويعينى رأسى هاتين شاهدت «فهى عزيز» ذات يوم وهو يضعه

بين طيات الجرائد ويخرج به ظلنا منه أن أحدا لم يره . كان «سليم فاخر» يهبها مسافرا إلى الخارج فى مشوار رسمى . يالللثورة العارمة التى أقامها يوم بحث عن الخف فلم يجده ، شاهدت العقوبة القاسية التى وقعت على جميع السعاة ، تأملت ألما كاد يقتلنى لعم رجب ساعيه الخصوصى الذى نفاه إلى مكان قصى فحرمه من مميزات كانت تسنده ، ولم أجرو مع ذلك على الإفصاح بما رأيت خوفا من الدمار الذى توقعت أن أتسبب فى إحداثه بحمق لو أننى فتحت فى بكلمة ..

حين دخلنا أنا وممدوح الجمال لاحظت أن «سليم فاخر» أتى بخف جديد من نفس النوع ولكن بلون أبيض ، فبدا كأنه يلبس أرنبا فى قدميه ، فكنت رغبتي فى الإبتسام . وكنت فى الواقع أعانى كثيرا جدا من الشعور بالخجل وربما الوضاعة ، حيث قد بدا لى اللحظة خاطفة أنتى الآن أستخدم كمخبط ضد الشخص الذى جئت ها هنا عن طريقه ، لكننى حين جلست على المنعد الوثير ونظرت فى عيني «سليم فاخر» أحسست أنتى جالس مع شخص كل وظيفته فى الحياة أن يسمعنى باهتمام وأخوة ، ففى ملامح وجهه إغواء لك بالإفضاء والبوح ، وشحد لقدراتك الذهنية على تذكر التفاصيل وتفاصيل برمته . ففرق وجه الرجل فى عرق الخجل وراح يمسح وجهه بالمنديل ويتلفت لجهاز التبريد يستحثه على مزيد من الطراوة ، وكان الإشمئزاز واضحا عليه ، وإذا به يقول لممدوح فى أسف :

- «المفروض على الآن أن أوقع قرار فصلك أنت !! لأنك أنت الذى رشحت لى فهى عزيز هذا للعمل معنا !! قلت إنه خير من يساعدك ! ليك رشحت لنا لصا صريحا متخرجاً فى سجون مصر ! إنن لعرفنا كيف تتعامل

معه على النحو اللائق به ! هذا أحقر شئ سمعته طوال عملى فى هذه المهنة الشريفة المقدسة !!»

شحب وجه مملوح ، قال :

- «إقبل أسفى ! لقد عرفتته عن طريق أعز الناس فى حياتى ! كامل عبد الغفار حضرتك تعرفه طبعاً ! ساقه على ! ظل كامل يرجونى أن أساعده على الإنتداب إلى المجلة ليصبح أمر نقله سهلاً كما حدث ! لست بالذى يؤخر طلباً لكامل عبد الغفار وهو الذى طالما وضع يده فى فمى بالطعام والشراب فى أزماى كلها ! ووالله لم أكن أعلم عن هذا الشخص شيئاً ! ولا كامل نفسه كان يعلم ! حتى بعد أن كشفت معدنه الخسيس من أول احتكاك مباشر أخبرت كامل فقال لى إنه يتعشم أن موهبة الشعر تأكل الخسة فى صاحبها بشرط أن نصبر عليها ! وأوصانى بأن أرد على إساءاته بالحسنة حتى أرسم له المثل الطيب الذى لا بد أن يقلده فى يوم من الأيام ! وقد فعلت ! لكن خسة هذا البنى آدم نسيج أصيل فى بذرتة أو فى ماعونه !!»

استمع «سليم فاخر» إلى هذا الكلام جيداً ، ثم قال :

- «حتى شعره خسيس ! هكذا فهمت من بعض الأبيات التى ينشرها لنفسه فى الملحق الأدبى ! خسيس الموهبة ! خسيس الثقافة ! لا يصدر عن نفس غنية ! هذا شعورى على قدر فهمى ولست بأديب على أى حال ! أياً كان الأمر فإن هذا الشخص مر المذاق ! مزز ! وأنا أتجرعه إكراماً لخطرك ! والآن ! أستطيع أن أوقع قرار فصله فى الحال ! أن أسلمه للنيابة ! لكننى صرت أخشى من فضيحة تسى إلى مشاعر كامل عبد الغفار ! وتسى إلى مشاعرنا أيضاً ! لكننى ساكتفى بتوقيع عقوبات مؤلة ! سأسحب منه الملحق الأدبى وأنتدب جعفر شاش للإشراف عليه ! أما صاحبنا هذا فسالزمه برد المبلغ خصماً من مرتبه !

سأحرمه من كل الامتيازات إلى أن نبحت له عن أى مزبلة ننفيه إليها ! والآن ! قد وجب أن نستدعيه لكرمه !!» ..

ثم ضغط على الجرس ، فدخل ساعيه الخاص ، فقال له بلهجة خالية من أى انفعال :

- «ابعث لى بالأستاذ فهمى عزيز !»

وحيثما دخل فهمى بقامته المديدة لم يأذن له بالجلوس بل راح ينظر فيه نظرات توبيخ واحتقار لكنها مسربة بمسحة من الإحترام المبالغ فيه ، ثم وجه لنا نظرة ذات معنى ، فغمز لى ممدوح الجمال فقمنا وخرجنا . ورأيت فهمى بعد نصف ساعة يخرج من عنده وهو يحجل وينقل البصر حواليه فى تلصص وغموض ، ويدخن ، ثم دخل الحجرة وعلى شفثيه ابتسامة بلهاء شاحبة ، ثم انجعص وضغط على زر الجرس ، فدخل الساعى ، فطلب منه - بكل عجرفة وخطرة - فنجان قهوة ، ضرورى فنجان ، إياك أن يكون وجه القهوة ضائعاً ، لا بد أن يجى خلال دقيقتين من الآن ، الويل لك لو نسيت كوب الماء كعادتك ، المياه لا بد أن تكون باردة . بعد هذه المحاضرة أدار رأسه ناحيتنا قائلاً بكل وقاحة وبجاجة :

- «يا أخ مملوح أنا لم أرتكب جرماً ! هذه المكافأة من حقى أنا ! وهذا العمل عملى أنا ! لم أقصر فيه حتى تأتى بمن يساعدنى ويقاسمنى رزقى ! وعلى كل حال قاننا لم أعترف بغير صياغتى ! وكل موضوع صاغه غيرى أعدت صياغته !!»

حينئذ قال له ممدوح بكل هدوء وحدة :

- «كذاب فى أصل وشك ! أنا بأراجع كل الموضوعات على بنورة المطبعة ! والأعداد موجودة ! وأسلوبك معروف ! كما أن أصول الموضوعات

موجودة بخط أصحابها ! وخير لك أن تنسى هذا الموضوع وتكفى على الخبر ماجورا ! »

فلم ينطق بحرف ، بل انبرى يدخن ويكتب ، ورغم التقائنا كثيرا بعد ذلك فإننى لم أفاتحه فى هذا الموضوع بتاتا ، بل كنت أتعمد نسيانه لكى تهدأ أعصابى ، فما باله الآن يعود فينكأ الجراح النائمة ؟ الواضح أن الدم فىه هو ، وأن أم القيق تاكله فلا بد أن يهرش باستمرار .. ها هو ذا يلكنزنى بكوعه فيما يشبه الود قائلا :

« لماذا لم تعلق على كلامى ؟ ! هل انخرست !؟ »

لم أرد . وكان المفروض أن ننزل فى محطة التحرير ، لكننى ما كدت أرى شارع الجمهورية حتى انسلخت عن الكرسي بسرعة قائلا :

« أشوفك بكرة إن شاء الله ! سلام ! »

وهبطت متنفسا الصعداء ..

مضيت فى شارع الجمهورية خطوات . بالظرف الغريب ، من ذلك الذى يواجهنى على مبعدة خطوات ويقلل نحوى فاردا ذراعيه بشوشا ؟ غير معقول أن الزمن القديم فى أحيان كثيرة لا يحضر وحده إن حضر ، بل تحضر معه بعض شخصياته حضورا حقيقيا لا محض تذكر أو ذكريات أو كذا ، إنما تراه رؤية العين ، بل ها هو ذا الآن فى حضنى يربت بيديه على ظهرى وصوته يجهش بالاشتياق والحب . إنه « مختار حامد قريطم » ، جزء لا يتجزأ من زمن المقهى الدسوقي بكل ذكرياته الحميمة ، بقامته المديدة الفارعة ، وجسده النحيف الصلب ووجهه المستطيل كشرخة الشهد المصفى ، بشرة بيضاء كاللبن ، تترقرق على الدوام بانفعالات شتى تصعد لها الدماء فى أنحاء قسماته كالأوانى المستطرقة ، فيرتعش أنفه الطويل المستقيم ، ويظهر النبل العظيم فى عينيه

الواسعتين السوداويين المليئين على الدوام بمشاعر الشفقة والتأسى وبوادر حزن ، وتنطبق شفتاه الرفيعتان الموحيتان بقدرة هائلة على الصبر والصمود والاحتمال والكتمان ، حتى ليبدو وجهه من الجنب كوجه طائر البشاروش ، ومن الأمام أشبه بورقة شجرة موز صغيرة . صوته دائما أغن ، أخنف قليلا ، فياض بالمشاعر الصادقة الدافئة ، فكل حكاية نبرة ، ولكل تعليق نغمة ، وهكذا فانت تحب الإنصات لكلامه المنثال كخيرير الجول ، يؤنسك ويذكرك بكثير من العادات والقيم التى كدت تنساها فى زحمة المدينة الصاخبة . لعله أصدق أبناء المقهى على الإطلاق ، أشدهم ارتباطا عاطفيا بها ، أحنهم عليها وعلى صاحبها ، كما أنه أقدم شبانها فى هواية الأدب ، يتميز دون الجميع بأسلوب عتيق ناضج كأسلوب كبار الكتاب القدامى ، إنشائى وغير مفهوم أحيانا لكنه ذو جرس جميل جذاب ، يكتب الخواطر والتأملات وبعض القصص الرومانسية . إلا أنه لم يتعلم فى مدرسة ، بل اعتمد على مبادئ أولية فى كتاب القرية عندما كان يحفظ القرآن ، ثم علم نفسه بنفسه وقرأ كتب الأدب والثقافة وواظب على جميع المجالات والدوريات بإخلاص ودأب . منذ وقت مبكر جدا وشكله يأخذ سمات الرجال المحترمين ، الأنقاء ، الذين لا ينقصهم مظهر البكوية . ثم لما كبر فى السن قليلا أخذ سمات الكتاب والمثقفين الكبار ، خاصة وأنه يتخاطب دائما بأسلوب قريب من الفصحى الكاملة ، فيه جميع المصطلحات والمفردات العصرية السائدة والتى يتوقع بحسه اليقظ أنها ستسود قريبا . طول عمره شقيان ، عمل بالتجارة ، من كاتب حسابات فى مصنع للدخان المعسل يملكه خاله ، إلى موزع لبضائع نفس الشركة صاحبة المصنع ، بسيارة ذات سائق يجوب بها البلدان والقرى . فكان يكسب كثيرا ، وينفق على مظهره وقراءاته وأولاده الكثير ، لكنه أحس أن إمكانياته الذاتية أكبر من عمل محدود كهذا ، إنه بلباخته ومظهره المحترم وشخصيته المقنعة المحبوبة وانتمائه للأدب يستطيع أن يكسب

الذهب .. وهكذا جاء إلى القاهرة قبل الجميع ، لا لكى يشغل بالأدب ، فإنه أكثر واقعية من أن يترك نفسه نهبا لوهم كهذا يرى الكثيرين من أصدقائه يروحون ضحيته كل يوم ، ثم إنه لا يطيق أن يطلق عليه أنه ممن أدركتهم حرفة الأدب فجاء وتعزى وتشردت أسرته ، لا ، إنما جاء ليعمل فى مجال جلب الإعلانات للصحف والمجلات ، ربح كبير مضمون التزايد والارتفاع ، وانتماء فى نفس الوقت لعالم الصحافة والأدب ، يستطيع نشر ما يكتبه إذا أراد ذات يوم . لكنه يمتلك فضيلة كبرى ، هى شعوره الدائم بحقيقة إمكانياته الإبداعية بحكم حرصه على المتابعة ، إذ يرى أن الكتابة فى تقدم مبهر مستمر على أيدي من يتفرغون لها ، وهو قد بات من الواضح أنه لن يتفرغ ، فلقد تعود على الأبهة وكثرة المصاريف ، وهو يحب أولاده أكثر من حبه للشهرة الأدبية ، ويرى أن التركيز على تربيتهم ورفع مستواهم أصدق وأفضل من تربية المجتمع كله ..

أولاده أربع سنيورات جميلات كأنه ألفهن خصيصا للنشر على أغلفة المجلات الملونة ، بعيون زرقاء كعينية ، وشعور كستنائية مناسبة كالشلالات . كبارهن ساحرة تنهى لدخول المدرسة الثانوية ، أقيم لها أربعة عشر عيد ميلاد ، قيلت فيه القصائد والأزجال من عدة أجيال من كبار المشهورين فى عصرنا . بمزاج رائق ودأب مذهل يعد أبوها أرشيفا منظما لهذه الأعياد عيدا عيدا ، مع ملاحظات مدونة عن أطرف ماحدث ليلتها وأجمل ما قيل وأحلى ما قدم للأكل والشرب ، سرعان ما تدعم هذا الأرشفة بشرائط تسجيل اسطوانية تحتفظ بأصوات لها العجب من هواة فى بورسعيد والبحيرة والسويس والمنوفية والغربية والدقهلية ودمياط . كل هؤلاء وأولئك كانوا يسافرون من بلدانهم لحضور الليلة بموجب بطاقات دعوة وجهت إليهم بالبريد . وكان «مختار حامد قريطم» سعيدا لأنه ينادى بين أصدقائه بأبى مجيدة . قد بلغ من حبه لمجيدة أنه كان يجرب كتاباته الأدبية فى مطلع حياته فينشرها باسمها قبل أن تولد بل حتى قبل أن

يتزوج أمها ، فى بعض الأبواب التى يحررها قراء الصحف أو بعض الأركان وأحيانا فى أماكن مرموقة ، ولقد كان يكتب عنوان مجيدة بالتفصيل تحت كل توقيع لها ، فكان أن تلقت مجيدة عشرات الرسائل من الهواة والمحبين وخاطبى الود . لم يكن «مختار حامد قريطم» يتورع عن الرد على كل هذه الرسائل ، بل إنه أفرغ فيها وحدها كل طاقته الأدبية المدخرة ، وكان يتلذذ بعمق وهو يرد على رسائل الغرام ردودا حارة ناضجة مليئة بفيض الحكم والمثورات التراثية اللامعة ، وبظلال من شخصية الأديبة «مى زيادة» التى سحرت أدياء عصرها وأشعلت خيالهم جميعا وعلقتهم بها من كبيرهم لصغيرهم ..

لقد أطلعنى «مختار حامد قريطم» ذات يوم على أرشيف غاية فى العجب ، عبارة عن مجموعة ملفات ، على كل ملف منها اسم شاعر كبير ، أو أديب شهير ، أو ممثل مرموق ، أو مذيع ذائع الصيت ، أو سفير فى الخارجية المصرية . ما أن فتحت أى ملف حتى وجدت مجموعة ضخمة من الرسائل الخاصة كتبها صاحب الملف بخط يده إلى الأنسة مجيدة أعزها الله وحفظها جوهرة مصونة وعفة مكنونة ، ومع كل رسالة صورة بالكربون من الرد الذى قام «مختار» بكتابته وإرساله إلى ذلك الشخص المحب . لله ما أروعك يا مختار وما أخصب خيالك وما أنبلك ، ها هى ذى مجيدة ابنتك التى كانت مجرد فكرة تعابث بها خيال المتأدبين قد صارت عروسا تمشى معك فى الشارع فارعة مثلك فتبدو كأنك فتاها المفضل وهى حبيبة عمرك الغالية . على أن مختار قد بات يصعب عليه أن يترك كل هؤلاء المحبين مستغرقين فى أوهامهم خاصة وأن كل واحد منهم لا يعرف بالطبع شيئا عن الآخر ولا يعرف أن شخصا غيره فى حياة مجيدة ، والأخص أنهم جميعا باتوا من المشهورين المرموقين ، وإذا كان هذا جائزا فى أيام الصبا والمراهقة فإنه الآن أصبح ضربا من العبث المحض لأبد من إيقافه . وهذا هو الهم الحقيقى الذى شغل مختار طويلا فى البحث عن

طريقة فنية لإيقافه حتى لا يوقع بابتته فى مصادفات محتملة لامعنى لها ولا لزوم. والمشكلة هى كيف الخلاص من هذه الشبكة المحكمة من العلاقات التى نسجها بنفسه وبات عاجزا عن فكها ؟ .

اقترح عليه «عبد الصمد عبيد» أن يرسل لكل واحد منهم رسالة مقتضبة ينهى فيها العلاقة ببساطة لأى سبب من الأسباب ، غير أن الأمر بالنسبة لمختار حامد قريطم - كما قال - لا يحتمل التبجح بكل هذه البساطة ، إنما المشكلة أنه هو نفسه كان صادقا فى كتابته لكل هذه الرسائل حين بعثها لأصحابها باسم مجيدة ، لقد عنى كل حرف فيها ، وعاش كل معنى صوره ، وعانى وكابد كل إحساس نقله لأحدهم ، وإنه لكى يتناسى كل هذا ببساطة فإنما يلزمه قوة الصخر وإحساس الخريت ..

واقترح عليه «فهمى عزيز» أن يتجاهل الأمر برمته ، فمقود العجلة فى يديه هو ، يستطيع إهمال أى رسالة ترد إليه فلا يرد عليها ، وبالتالي فإنهم سيكفون بعد ذلك عن إرسال شئ . ورد عليه مختار بأنه يصعب عليه ذلك ، إذ أن هوايته الأساسية فى الحياة هى قراءة كل هذه الرسائل المتنوعة والإطلاع على أفئدة أصحابها وصدق عواطفهم ، ولا يمكن أن تكون رسائل أمامه ولا يقرأها ، كذلك لا يمكن أن يقرأ رسالة دون أن تستغزه للرد عليها ..

وهنا اقترح عليه الزجال «أحمد أبو عماش» وهو ينتف فى صدغه بعصبية ومن تحت شيلة عينيه الواطية تحت المنظار الأسود المنكسر دائما انكسار وجهه على صدره ، أن يقوم بنشر خبر فى الصحف كلها بأن الأنسة مجيدة مختار حامد قريطم قد تمت خطبتها بعون الله ليلة كذا وسط احتفال محصود من أقارب العروسين . هذا هو الاقتراح الوحيد الذى كان من الممكن أن يقبله مختار لولا أن مجيدة لم تصل بعد إلى سن الزواج وهو لن يصادر عليها الخطاب بنشر خبر أحق كهذا .

عشرات الليالى قضيناها فى منازل مختار المتعددة فى حياته المليئة بالتقلبات من بيت لبيت حسب أهواء الزواج التى تعصف به فى العمل ، أو فى بيت أبو عماشة الزجال ، أو بيت عبدالصمد عبيد فى السيدة زينب .. نلف سجائر الحشيش ونتكلم فى هذا الأمر. تمر الشهور الطويلة لا يرى أحدا الآخر، وفجأة تكثر اللقاءات ، معظمها ينتج عن أن مختار تكلم بالهاتف لفهمى فردت عليه نازك وعزمته على الشاى فتولى مختار تجميعنا بقلبه الدافئ وعزيمته القوية وصدق ارتباطه وإرادته الحديدية وقدرته على الإتيان بالواحد منا من أى مكان بعيد . وسواء كان التجمع فى منزله أو فى منزل غيره فإن جميع النفقات تكون على حسابه ، لأنه دائما أبدا يبنو غنيا فى غير حاجة إلى الإقتراض من أحد ، لأنه دائما أبدا فى حالة نشاط لا يهدأ ..

الإعلانات فى الصحف السيارة لا تدفع أكثر من عشرة فى المائة مع مرتب صغير . وهذا لا يكفي ؛ حسن ؛ هذه ليست بمشكلة على الإطلاق بالنسبة له ؛ لسوف يستقل بمكسبه فلا يتمتع به أحد سواه . أما الجرنان الذى سينشر فيه الإعلانات فأمره غاية فى السهولة عنده ؛ فلديه قائمة بأسماء كافة التراخيص الممنوحة لصحف ومجلات فى كافة أنحاء البلاد ؛ ويعرف أن أى جريدة أو صحيفة تتوقف عن الصدور عاما أو نحو عام فإن ترخيصها يصبح لاغيا من تلقاء نفسه ولا يحق للجرنان الصدور إلا باستصدار ترخيص جديد ، وهو أمر بالغ الصعوبة . لهذا فإن أصحاب التراخيص يقومون دائما أبدا بتلقيق عدد كل بضعة أشهر كمبرر لاستمرار الترخيص ساريا . ولاشك أن صاحب الترخيص سيكون سعيدا إذا جاءه من يؤجر منه الترخيص لإصدار المجلة بانتظام . ولهذا فمختار قد بات يعرف كل أصحاب التراخيص وورثتهم ويفهم شخصياتهم وأوضاعهم الإجتماعية . وكل حين من الزمن يستأجر ترخيصا ليصدر مجلته بضعة أعداد على نفقته الخاصة من حصيلة الإعلانات الغزيرة

طريقة فنية لإيقافه حتى لا يوقع بابتته فى مصادفات محتملة لامعنى لها ولا لزوم. والمشكلة هى كيف الخلاص من هذه الشبكة المحكمة من العلاقات التى نسجها بنفسه وبات عاجزا عن فكها ؟ .

اقترح عليه «عبد الصمد عبيد» أن يرسل لكل واحد منهم رسالة مقتضبة ينهى فيها العلاقة ببساطة لأى سبب من الأسباب ، غير أن الأمر بالنسبة لمختار حامد قريطم - كما قال - لا يحتمل التبجح بكل هذه البساطة ، إنما المشكلة أنه هو نفسه كان صادقا فى كتابته لكل هذه الرسائل حين بعثها لأصحابها باسم مجيدة ، لقد عنى كل حرف فيها ، وعاش كل معنى صوره ، وعانى وكابد كل إحساس نقله لأحدهم ، وإنه لكى يتناسى كل هذا ببساطة فإنما يلزمه قوة الصخر وإحساس الخرتيت ..

واقترح عليه «فهمى عزيز» أن يتجاهل الأمر برمته ، فمقود العجلة فى يديه هو ، يستطيع إهمال أى رسالة ترد إليه فلا يرد عليها ، وبالتالي فإنهم سيكفون بعد ذلك عن إرسال شئ . ورد عليه مختار بأنه يصعب عليه ذلك ، إذ أن هوايته الأساسية فى الحياة هى قراءة كل هذه الرسائل المتنوعة والإطلاع على أفئدة أصحابها وصدق عواطفهم ، ولا يمكن أن تكون رسائل أمامه ولا يقرأها ، كذلك لا يمكن أن يقرأ رسالة دون أن تستفزه للرد عليها ..

وهنا اقترح عليه الزجال «أحمد أبو عماشة» وهو ينتف فى صدغه بعصبية ومن تحت شيلة عينيه الواطية تحت المنظار الأسود المنكسر دائما انكسار وجهه على صدره ، أن يقوم بنشر خبر فى الصحف كلها بأن الأنسة مجيدة مختار حامد قريطم قد تمت خطبتها بعون الله ليلة كذا وسط احتفال محدود من أقارب العروسين . هذا هو الإقتراح الوحيد الذى كان من الممكن أن يقلبه مختار لولا أن مجيدة لم تصل بعد إلى سن الزواج وهو لن يصادر عليها الخطاب بنشر خبر أحقق كهذا .

عشرات الليالى قضيناها فى منازل مختار المتعددة فى حياته المليئة بالتنقلات من بيت لبيت حسب أهواء الزوابع التى تعصف به فى العمل ، أو فى بيت أبو عماشة الزجال ، أو بيت عبدالصمد عبيد فى السيدة زينب .. تلف سجائر الحشيش وتكلم فى هذا الأمر. تمر الشهور الطويلة لا يرى أحدا الآخر، وفجأة تكثر اللقاءات ، معظمها ينتج عن أن مختار تكلم بالهاتف لفهمى فردت عليه نازك وعزيمته على الشئ فتولى مختار تجميعنا بقلبه الدافئ وعزيمته القوية وصدق ارتباطه وإرادته الحديدية وقدرته على الإتيان بالواحد منا من أى مكان بعيد . وسواء كان التجمع فى منزله أو فى منزل غيره فإن جميع النفقات تكون على حسابه ، لأنه دائما أبدا يبدو غنيا فى غير حاجة إلى الإقتراض من أحد ، لأنه دائما أبدا فى حالة نشاط لا يهدأ ..

الإعلانات فى الصحف السيارة لا تدفع أكثر من عشرة فى المائة مع مرتب صغير . وهذا لا يكفيهِ ؛ حسن ؛ هذه ليست بمشكلة على الإطلاق بالنسبة له ؛ لسوف يستقل بمكسبه فلا يتمتع به أحد سواه . أما الجرنان الذى سينشر فيه الإعلانات فأمره غاية فى السهولة عنده ؛ فلديه قائمة بأسماء كافة التراخيص الممنوحة لصحف ومجلات فى كافة أنحاء البلاد ؛ ويعرف أن أى جريدة أو صحيفة تتوقف عن الصدور عاما أو نحو عام فإن ترخيصها يصبح لاغيا من تلقاء نفسه ولا يحق للجرنان الصدور إلا باستصدار ترخيص جديد ، وهو أمر بالغ الصعوبة . لهذا فإن أصحاب التراخيص يقومون دائما أبدا بتلقيق عدد كل بضعة أشهر كمبرر لاستمرار الترخيص ساريا . ولاشك أن صاحب الترخيص سيكون سعيدا إذا جاءه من يؤجر منه الترخيص لإصدار المجلة بانتظام . ولهذا فمختار قد بات يعرف كل أصحاب التراخيص وورثتهم ويفهم شخصياتهم وأوضاعهم الإجتماعية . وكل حين من الزمن يستأجر ترخيصا ليصدر مجلته بضعة أعداد على نفقته الخاصة من حصيلة الإعلانات الغزيرة

التي ينجح في جلبها بسحر ساحر لايبارى ، خاصة فى المناسبات القومية والأعياد الوطنية ، إذ يتعين - بفضل جهوده المتواصلة وقدراته ولباقته - على كل تاجر أو شخص من أعيان البلاد أن ينشر بطاقة تهنئة باسمه للسيد الرئيس ورجال الثورة من الضباط الأحرار ، ناهيك عن الشركات والمصانع بجميع أنواعها فى القطاعين العام والخاص ، وبشكل تعجز عن تحقيقه أقوى الأجهزة الإدارية فى أوسع الصحف انتشارا . وهو ضامن أن المهرجان الكبير الذى سيظهر على صفحات مجلته يوم صدور العدد سيحيطه بحماية من نوع ما إذا حاول أحدهم محاربته أو الوقوف فى طريقه .. إنه بإمكانياته الفردية يظهر لرجال الثورة كل هذا الحب والتأييد الجماهيرى العريض .. فى وسط كل هذا الزحام كان موضوع شبكة الرسائل يلح عليه ويجد لنفسه وقتا يروق فيه البال للدخول فى إهاب أنسة فاضلة على درجة مثالية وعظيمة من الأخلاق الحميدة وحرارة العاطفة ترد على مدنفين يطارحونها الرغبة فى الوصال ويبدلون تحت قدميها أغلى التضحيات .

إلا أن «نازك» وحدها هى التى قدمت الحل الأمثل ، بفكرة طيبة نادرة وإن كانت ذات طابع سينمائى بحث ، يعكس ميول نازك القديمة ورغبتها الدفينة فى أن تكون ممثلة مسرحية كبيرة كأمينة رزق ، أو محامية كبيرة كمفيدة عبد الرحمن ، أو زعيمة نسائية كهدى هانم شعراوى ..

كان بالفعل مشهدا بديعا ..

مختار فى الأصل كان يستعد للإحتفال بعيد ميلاد مجيدة الثالث عشر . وعملا باقتراح «نازك» وجه الدعوة الخصوصية عبر الرسائل الخاصة .. لكل أصحاب الملفات . كانت هذه أول مرة توجه إليهم مثل هذه الدعوة .. فحضرها جميعا بنجو ميتهم المتألقة . كانت الدهشة عظيمة حين اكتشفوا بعضهم بعضا - ربما لأول مرة - فى هذا الحفل المتألف العجيب . وحين ظهرت «نازك» فى

الحفل فقدوا جميعا توازنهم وانعوجت رقابهم وفغرت أفواههم وتحولوا إلى صبية صغار فى حال من الارتباك والتلعثم والشبق يرثى لها ، وبيان الحسد والحقد والتوتر فى عيونهم . لقد ظنوها «مجيدة» التى لم يروها من قبل أبدا .. فكاد يقتلهم الحذر والترقب والخوف الكامن فى كل منهم بأن تؤول ملكيتها إلى أحد سواه ..

غير أنها بكل هدوء وثبات ، وبفيض عذب من التثنى والدلال والحيوية الدافقة ، وصلت إلى المنضدة وسط سطح العمارة الكبير المجهز لهذا الحفل تجهيزات أخذها مقالة - فأبدعها - محل جروبى . أُلقت «نازك» كلمة هى الشعر الحقيقى ، إذ شكرت الظروف السعيدة التى جمعت كل هؤلاء الأفاضل الصفاة على حب نفس بشرية بعينها ، مما يؤكد ارتقاء النوع الإنسانى واحتشاده بالطاقات العاطفية والإنسانية العظيمة ، وقدرة الخيال البشرى على ابتكار أشياء ومعان ورموز ثم يصدقها فيعشقها فقد يضحي بعمره كله فى سبيل نصرتها ، وحفل الليلة أكبر دليل على ذلك ..

- «.. إن الحكاية يا أصدقائى الأفاضل لهى فى غاية الطرافة والفكاهة ! فى نفس الوقت هى شئ جميل ! إن كان من نتائجه تجمع كل هؤلاء الليلة فى هذا المكان فى هذه اللحظة وتعارفهم وإدخال السعادة على بعضهم البعض لكان فى ذلك الكفاية ! حسن جدا أيها الأفاضل الكرام ! أنتم جميعا أحببتم الأنسة مجيدة مختار حامد قريطم ! فتحتم لها قلوبكم منذ سنوات طويلة ! نفستم عن مخزونات كانت تضايحكم وفصفضتم فى لحظات كنتم فيها أحوج ما تكونون إلى وجود من يسمعكم بصدر واسع ! خاصة إذا كانت أنسة تحبونها وتستشعرون فى رسائلها دفء الشاعر وصدق العاطفة ورجاحة العقل ! والآن قد أن الأوان لكى أقدم لكم هذه الأنسة التى خلبت ألبابكم وحركت مكامن عواطفكم !! » .

وأشارت بيدها فى البقعة الكابية الضوء ، فاقتربت فتاة صغيرة على درجة كبيرة من البراعة والسذاجة والخفر ، تتعثر فى خطوها الوئيد وتغرق فى بحر من دماء الخجل . إلثوت الرقاب وفغرت الأفواه ، واندفعت موجات من الضحك الهستيرى ، هاصت الدنيا فجأة كان القيامة قامت . ثم إن الفتاة وقفت بجوار «نازك» ، التى وضعت يدها على كتفها النحيل وقالت :

- «هذه هى الأنسة مجيدة مختار حامد قريطم ! وهى طفلة كما ترون ! لعل معظمكم لديه بنت فى مثل سنّها أو أقل قليلا ! أما كيف حدث ذلك ! فإن الفاعل الأصلي والمؤلف الحقيقى لهذه الأسطورة الطريفة ! هو الذى يستطيع أن يروى لكم كل شئ عنها ! ذلك هو الصديق الاستاذ مختار حامد قريطم نفسه ! والد الأنسة مجيدة !!» .

ثم مدت ذراعها نحوه ، حيث كان جالسا فى الصفوف القريبة منكس الرأس غارقا فى الحياء والخجل ، فقام يتعثّر حتى وصل إلى جوار نازك أمام المنضدة الموضوع فوقها هرم كبير من التورته ، فجعل يرحب بالجميع ، ويفرط فى الحديث عن سعادته ، ويحكى مبررات ما فعل ، رغبة قديمة فى البوح مكبوتة ، فى التأليف فى التحرر من سجن التقاليد والقيود ، فى إيجاد الصديق الخصوصى الحميم ، فى ، فى ، فى ، وكل الأعين مركزة عليه فى دهشة كأنه عجيبة من عجائب الدهر ، إلى أن استأذنهم فى أن تبقى الرسائل ملكه ، لأنه السبب فى كتابتها ، فى مقابل رسائله التى فى حوزتهم ، إنها ستكون زادا يسليه فى شيخوخته ، مع التعهد بأن تبقى سرا لا يطلع عليه أحد غيره . ثم سلم ومضى ، وراح الجميع يغنون غنوة عيد الميلاد بقيادة نازك ، ثم أطفأوا الشموع وصفقوا بمرح هائل ، وعادوا إلى أماكنهم حاملين أطباق التورته . ثم مدت الموائد وزحفت القوارير والكنوس ، وزاحمتها أجهزة التسجيل فى الاقتراب

من متناول النجوم ، وأذاع المذيع وألقى الشاعر شعرا وارجل الأديب خطبة ومثل الممثل قطعة فنكتة ، وكانت ليلة لا تنسى .

قلت لمختار وقد فوجئت بأننا نجلس على مقهى فى شارع الجمهورية :
- «أين أراضيك الآن ؟! تصور أننى لتوى كنت مع مقصوف الرقبة فهمى عزيز ؟ نمت فى شقته مساء أمس ليلة ليلاء !» ..
قال :

- «منذ شهر لم أراه ! ولم ألتفنه !» ..
ثم أضاف بلهجة ذات معنى :
- «وليس لى رغبة فى الاتصال ! أنت تعرف أننى أموت فى حب الصداقة والأصدقاء ! وإنى لأتفانى فى خدمتهم وخدمة مزاجهم ! فمزاجى دائما أن أراهم سعداء ! تلك هى سعادتى الكبرى !»
قلت :

- «طبعاً ! طبعاً ! خيرك علينا جميعاً ! لم يحدث أن تكلف أحدا مليما واحدا فى وجودك ! عزائمك على الطعام والشراب تشهد بها عتبة منزلك وأطراف أقدامنا ! من ينكر هذا خسيس أو ممسوح الذاكرة !» .
ظهر عليه خجل شديد ، وتفصد جبينه بعرق الحياء ، صار يردد :
- «العفو ! العفو ! أنا مجرد خادم لكم !»
قلت بسرعة :

- «ولكن ما مناسبة هذا الكلام ؟!»
قال وهو يقرب وجهه منى ليشعل سيجارة ، سرعان ما صافحتنى نكهة الحشيش فى بطنها :

- «صدرى معباً من هذا الشخص ! ولم أكن أحب الكلام فى هذا ! لكن ! لكن ! على كل حال اعفنى من الكلام ! معلش ! افتح لنا موضوعا آخر أكثر إشراقا ! ما أخبار قصصك ومقالاتك ؟! ألم تلتحق بعد بأى جريدة أو مجلة ؟ إن الواحد يلتقى على الصفحات وفى صالات التحرير ناساً لا يصلحون إلا لصالات البارات أو حلبات السيرك ! مثلك يجب أن يكون له مكان فى هذه المعمة !» .

شعرت أن الأمر أهم وأخطر من أن أفرط فى معرفته ، قلت :

- «أنا مصر على أن تفضفض لى حتى تريح صدرك من هذا الجرد القبيح ! لطالما راجعتنى فى رأى فيه ودافعت عن نظافته ! الآن يكتشف كل من عاشره أنه يقرض لنفسه جحراً فى كل مكان فى جسد المرء وعقله وقلبه ! إنه لابد أن يتلف المرء ويقضى عليه إن لم ينتبه ويتصيده بأية طريقة مبتكرة ! فإذا كانت الفئران لا تاريخ لها ولهذا تقع دائماً فى نفس المصيدة بالخدعة نفسها فإن هذا الجرد الصحراوى مدرب على الزوغان من المصايد ! كما أن سم الفئران لا يميته فمن كثرة ما حقن به بات محصنا ضده ! إنه مثال للزيف واحترق الضمير وظلمة النفس وخواء الروح !!» ..

قال كائننى حقنته بالغضب والشجاعة ، رافعا حاجبيه فى دهشة واستنكار :

- «تصور أن هذا الحيوان فى ليلة عيد ميلاد مجيدة ابنتى ! ما كاد يرجع إلى بيته حتى انهال على نازك ضرباً مبرحاً كأنه يضرب حماراً ميتاً بالبنوية والشلوط والأكف الساخنة ! حتى كاد يشوه لها وجهها ! كسر لها بالفعل ضلعاً ! ذهبت ابنتى مجيدة لزيارتها كالعادة ! ففضفضت لها نازك ! قالت لها إنه فعل بها ما فعل لعدم ثقته فى نفسه ! لشعوره الشديد بالغيرة

عليها ! وأنا أقول لك إنه شعور دفين فى نفسه بأنه لا يستأهلها ! وهو متأكد أن أول احتكاك لها بالرجال الحقيقيين فى أى مكان سوف يكشف عواره وخسته ! وقد تطفش منه فى أول بادرة ! تصور ! لقد عاقبها لأنها هى التى ابتدعت فكرة الحفل من أساسها ! وقسا فى العقاب لأنها قدمت الحفل وأدارته ! هذا الحيوان نسى أن نازك فى يوم من الأيام كانت تحلم بأن تكون مذيعة فى التليفزيون ! وأنها كانت عضوة فى معظم جمعيات النشاط المدرسى طول عمرها وأنه منعها من كل ذلك بغلظة ! لست أعرف كيف أن نازك على ذكائها ونقاء نفسها لم تكشف حقيقة معدنه ! على كل حال أنا واثق من أنها كاشفة له منذ وقت طويل لكنها عاقلة تعرف أن الفأس وقعت فى الرأس وهى تحاول تكييف نفسها مع قدرها الذى وقعت فيه أيام كانت صبية ريفية غريرة ! إننى أفهم نازك جيداً لأنها كانت جارتى فى مسكن الصبا والشباب ! وابنتى مجيدة تعشقها وترغمنى دائماً على استئناف الإتصال ! ومجيدة تحكى لى دائماً مشاكل طنط نازك ! ولكن ! هل تتصور السبب الحقيقى الذى من أجله ضرب نازك ضرب غدار أسود القلب غليظ القفا ؟!» ..

- «لا بالطبع !»

هكذا قلت . فمد مختار يده ففتح حافظة أوراقه التى لا تفارقه حتى فى البيت . ظننت أنه سيوافينى بوثيقة مكتوبة ، فإذا به يستخرج أنبوية الحبوب التى نعرفها جميعاً ونتطلع إليها كلما قابلناه ، ففيها دائماً حبوب لتهذبة الأعصاب وكبسولات لتقوية الباه وأقراص لتنشيط البدن وعموماً وأخرى لشحذ الذاكرة وغيرها لتحديد البصر . دلقتها فى راحة يده ، فانتقى منها حبة صغيرة مع كبسولة وقرصين . احتجز الحبة وقدم لى البقية قائلاً :

- «دع هذه فى جيبك لحين العوز فى ليلة تصعد فيها إلى الجبل الأعلى !»

ثم قدم لى الحبة منفردة فيما يواصل :

- «أما هذه فابلعها الآن فوراً لكى تهدي من أعصابك فتحتمل وقع السبب الذى سأقوله لك الآن !!»

ثم صفق طالبا شايًا ومياها باردة ، وجز على أنيابه فاشخا شذقيه كعادته كلما أراد أن يضحك بعمق ، إذ يكتفى بهذه الغمزة مفرغاً فيها الذروة الصاعقة من الضحكة لتتناسب الضحكة بعدها صافية خفيفة الصوت حيث تتكرمش صفحة وجهه كسطح شأى يغلى ويفور . حين اطمأن أننى بلعت الحبة فعلا نزع بأطراف أصابعه المعوجة سيجارتين من علبة فضية فى جنبها قداحة غير ظاهرة ، أشعل لى ولنفسه ، نفث الدخان بلذة وبدا كأنه نسى الموضوع برمته ، حيث غامت عيناه فى القضاء وسبحتا فى بحيرة من الحزن العميق ، ثم اعتدل نحوى يشد ابتسامة شاحبة من بحر الأسف العميق :

- «الأمر ومافيه ! أرجو أن تضبط أعصابك أو فامسك دماغك حتى لا ينفجر ! نازك ضبطته يسرح بعقل ابنتى مجيدة بكل وقاحة وجبن ! كان سكرانا تقريبا ! وفى يوم جمعة ! وزجاجة النبيذ تحت قدميه يعب منها ! مجيدة كانت جالسة معه فى حجرة المكتب مبهورة به كالعادة تدله لكى يلقى عليها آخر أشعاره أو أى شعر ! كانت طنط نازك مشغولة فى المطبخ بتجهيز الغداء ! بالصدفة وقفت على باب المطبخ المواجه لباب حجرة المكتب ! سمعته يلقى أشعارا إباحية وردت فى كتاب الأغاني عن مواقف جنسية صريحة فاضحة تذكر الأعضاء التناسلية بأسمائها ! أبيات تجرح حياء أى امرأة فما بالك بفتاة بريئة كمجيدة ؟! ظننت نازك لفرط ذهولها أن زوجها لابد أن يكون قد جن حتى يردد مثل هذه الألفاظ فى بيتها بصوت عال وإلقاء مجسد ! سربت رأسها إلى الداخل فرأت ابنتى قد تكورت على نفسها فوق المقعد القريب كقطعة مذعورة كشر لها الكلب عن أنيابه ! ثم إنه طوى كتاب الأغاني وشرع يغازل البنت غزلا

صريحا ! ما كادت البنت ترى وجه نازك مطلا من الباب حتى انتفضت واقفة تصيح طالبة الإنقاذ : طنط ! ثم هرولت نحوها مرتعدة لترتمى على صدرها ! تلقتها نازك وصويت إليه سهام نظراتها النارية المغتازة ! لم تستطع منع نفسها من توبيخه : مش عيب عليك ؟ أظن ده عيب ! والله عيب ! ثم سحبت البنت إلى حجرة النوم وانخرطت فى بكاء حاد مرير ! فى الجمعة التالية ذهبت البنت لطنط نازك لتطمئن ! أخبرتها نازك أنه دخل عليها وراح يطعن فى مسلكها يوم الحفل ! ثم انهال عليها ضربا وتلطيشا !!»

وجذب نفسا عميقا من السيجارة بغیظ شديد كأنه يشرب من دم فهمى عزيز ، صديق صباه الذى قدم له أعمق الود وأصفاه فحاول تلويث عرضه . يبدو أنه قد بدأ يستريح فعلا بعد أن تبخر كل هذا العبء عن صدره ، إنه ما صدق أن وجد صديقا مشتركا يفضى إليه بسرره . ها هو ذا يشعل سيجارة أخرى :

- «أتذكر آخر مرة كنا فيها عند أحمد أبو عماشة فى عيد ميلاد ابنه تامر ؟ منذ حوالى عام أو أقل قليلا لأننا لم نحضر بعد عيد آخر عند أبى عماشة !» .. رأيتنا نجلس فى حجرة مكتب أبو عماشة فى شقته ، قريطم وفهمى وعبد الصمد وأبو عماشة وطاهر الرسام وأنا ، حيث كانت نازك زوجة فهمى ، ونازك زوجة عبد الصمد - إسمها نازك هى الأخرى - ولوزة زوجة أبى عماشة ومجيدة وإخوتها البنات يجلسن فى الحجرة التالية الملاصقة ، حيث تتصل الحجرتان بممر يفضى بالحجرتين معا إلى شرفة واحدة مستطيلة بطول الحجرتين ، فالواقف فى هذه الشرفة يستطيع أن يدخل أى حجرة من الحجرتين من باب واحد ليحود يمينا أو يسارا . دائما يختار فهمى عزيز الجلوس على المقعد المواجه لهذه الشرفة بحيث يتمكن من رؤية كل من يدخلها أو يمشى أو يجلس فيها . كان من الواضح أن عبد الصمد عبيد يحب أن يجلس هو الآخر على نفس الكرسي ، وها هو ذا يخطر بقامته القصيرة القميئة ، ملوحا بكف

يمناه حيث استقر فم السجائر الطويل بين أصبعيه ، مشيرا إلى أنه يحب هذا الكرسي نظرا لقربه من الهواء . فالتقى عليه فهمى محاضرة عميقة تبين أهمية أن يجلس ها هنا بحكم عشرته الطويلة لهذا الكرسي . كلاهما كان يكذب على الآخر كما نعرف . فجميعنا يعرف - دون أن نصرح لبعضنا البعض - أن عبد الصمد عبيد رغم كونه صديق عائلة بالنسبة لكل هؤلاء فإنه الوحيد الذى يضمن بزوجه أن يراها الآخرون حتى ولو كانوا أصدقاء طفولة ، مع أنه يستبيح لنفسه رؤية زوجات الآخرين . كذلك نعرف من طرف خفى أن فهمى مهموم طول عمره برؤية نازك الثانية زوجة صديق صباه عبد الصمد ، بل يتمنى لو ينفرد بها . وإذا كان قد تسنى له رؤيتها فإن ذلك تم بشكل مجزأ على مدى سنوات ، انتزعها فهمى انتزاعا ، فمرة يختلس نظرة إلى وجهها ككل ، وأخرى إلى عينيها ، وثالثة إلى ساقها ، وربما توقفت نظرة رابعة فى مفرق الإليتين البارزتين عند استدارتها ، أو مفرق الثديين عند مواجهتها ، ولا مانع عنده أن ينسى نفسه فتلصق نظره النهمة التصاقا بالمكان الذى وقعت عليه ، بل إنه ربما تعمد أن يذهب للسؤال عن صديقه وهو يعلم أنه غير موجود بالمنزل ، زاعما أنه كان فى مشوار قريب من هنا وصعب عليه ألا يمر ليطمئن عليهم ، لا لشيء إلا لكى تفتح له الباب بنفسها فيتملى من وجهها على مهل ، وأن يتطاول فى الحديث معها كعادته كلما تحدث إلى النساء ، ولسان حاله يقول : دعكن من أزواجكن وأوقعن أنفسكن فى حبائلى أنا النجم اللامع والفارس المفوار الذى يمكن له أن يتمتع . مثل هذه الأخبار نبليها لبعضنا البعض بحرص شديد ، حتى أن أبو عماشة ذات يوم قفش قفشة ظريفة عابرة فى إحدى سهراتنا بمنزله إذ قال : لو كنت من عبد الصمد عبيد لأفرت عن زوجتى حتى لا أثير فضول الفرسان . وعبد الصمد عبيد يثق أن فهمى عزيز قد اختار هذا الكرسي خصيصا ليتمكن من رؤية زوجته وهى تتحدث فى الشرفة مع

النساء ، ولهذا يريد أن يفوت عليه الفرصة . وفهمى عزيز يثق أن عبد الصمد عبيد يتوق إلى هذا الكرسي ليمتع نفسه برؤية لوزة زوجة أبى عماشة ، إذ هى تروق له جدا ، ورغم أن زوجه نازك؛ الثانية جميلة عرسية الجسم خمرة اللون مسممة الملامح شهية فإنه يفقد اتزانه حين يرى لوزة زوج أبى عماشة وهى تخطر كالبطة ، بقامتها الربعة وجسمها الممتلئ قليلا وعجيزتها العالية كالقبة وردفيها المسحوبين فى امتلاء ونعومة وبطنها الضامرة وخصرها النحيل ووجهها المتورد المستدير كطباق الفاكهة وعينيها الواسعتين السوداويين وذلك الشبق الخرافى الذى يتدفق منهما على الدوام ، ذلك الذى يفسره فهمى عزيز حينما يعطينا أبو عماشة ظهره خارجا للإتيان بالشاى ، بأنه جوع : «المرأة جائعة يا جدعان ! وأخونا أبو عماشة مخلخل الركب لا يرجى منه !» ، فإذا ما دخل أبو عماشة فجأة لعق هذا شفثيه المحروقتين المشقوقتين ونظر نحوه بعين صفراوية تصطنع المزاح الأسود ، وإذا يستدير أبو عماشة كعود طوحت به الرياح ليجلس مستأنفا لف السجائر عاجله فهمى عزيز دون مناسبة :

- «أخبار الوحايد إيه با بوحميد ؟! بتعمل وحايد اليومين دول ولا خلصت البرميل ؟!»

فيرسل له أبو عماشة نظرة تعودت على الانكسار والخسة والضعف وتشبعت لذلك بالعدوانية الثابتة المستقرة ، وقال :

- «خلصت إيه يا ابنى ؟ أنا لسه عملت حاجة ؟!»

فيعاجله فهمى عزيز بالنكتة التى حكمت :

- «ماهو باين إنك لسه ما عملتش فعلا !»

ثم ينفجر ضاحكا مادا يده ليستدر مصافحة أبى عماشة ، الذى يمد قبضته فى غير اكتراث ليلمس بها كف صديقه وهو يقول :

- «تيجى نعمل مشهد جماعى قدام بعض ونشوف مين الأفرس !؟»

فيرد عبد الصمد عبيد :

- «ويا حبذا لو نتبادل النسوان بالمرة !»

ويضحكون ضحكا أجوف ، فى حين ينظر إليهم مختار حامد قريطم لاويا شفتيه فى اشمئزاز واستياء وقرق .

ها هو ذا أمامى على المقهى مضموم الشفتين على نفس الشعور . قال :

- «تذكر آخر مرة كنا فيها عند أبى عماشة !؟»

- «طبعاً !»

- «ليلتها راقبته جيداً فرأيتة يراقب لوزة ! حتى رآها تتجه إلى المطبخ ! فوقف معلناً حاجته للوزة المياه ! فقام أبو عماشة وأشار له نحو باب المرحاض ثم عاد ! فيما خرج فهمى ! وعند باب المطبخ تلكأ حتى تمكن من التقاطها ! فوقف يتهامس معها لمدة لا تقل عن عشر دقائق ! فلعب الفأر فى عبي ! البنت تعتبرنى أبا لها لأنى كنت وسيطاً بين أبى عماشة وأبيها عند الكلام على الخطوبة ! لولاي ما وافق أبوها ! أعرف أن البنت مطبورة ! خفيفة ! تربت فى حارة سيئة فى البندر ! هى صحيح بلدى من النوع الذى يقول المثل أنه يؤكل ! لكنها نشأت فى منبت سوء ! وانى لواثق أن أبا عماشة فحل لا يقصر فى واجباته الزوجية بل إنه يعجنها عجن كل ليلة ! وهى قد تكشر له عن أنيابها فى النهار وترفع صوتها لكنه فى الليل ما أن يتحسس مؤخرتها حتى تنفجر له تماماً ! هى ليست عاهرة لكنها قليلة العقل قليلة التجربة ساذجة طويلة اللسان أيضاً ! وهى لابد أن تجئ إلى بيتنا كل يوم جمعة أو تجئ إليها أم مجيدة لكى توعيها بنفسها وتعلمها احترام نفسها ! ولولا ذلك لطارت من صديقنا !!»

قلت : «وماذا فعل فهمى معها أمام المطبخ !؟»

قال :

- «البنت لا تخفى عنى أى شئ ! سألتها يوم الجمعة التالية فقالت إنه طلب منها موعداً للقاء فى مكان بعيد ! أتظن ما الذى يسعى إليه هذا الشخص الغريب ؟ إضبط أعصابك مرة أخرى ! أصل الحكاية أنه ذات مرة ضبطها تشور بيديها ورأسها فيما هى واقفة فى الشرفة ! فتابعها ! فإذا هى تستجيب لمشغبة شاب رآه يقف قبالتها فى شرفة مقابلة فى الشارع الخلفى ! فسارع إلى الاتصال بها خلصة ! وأفهمها أنه قد كشف سرها ! وأوهمها أنه يتابع سلوكها هذا من زمن مضى وأنه يعرف كل شئ عنها ! بل إنه - شف الخسة - كان يدخر فى ذهنه بعض شائعات دارت حولها وهى صبية مراهرة فى البندر فذكرها بها كدليل على سوء سلوكها ! تصور ! اعترفت البنت أنها قابلت فهمى عزيز بالفعل مرتين من وراء زوجها ! مرة سرح بها فى كازينو قصر النيل ! والمرة الثانية عرض عليها أن يذهب معا لزيارة صديق فى شقته بمنيل الروضة ! لكنها خافت منه وتخلصت بأعجوبة ! وفى المرة الأخيرة يوم كنا معا كرر نفس الطلب فهددته أنه إن لم يلم نفسه فستبلغ زوجته ! وهى الآن بين حجر الرحى ! تخشى أن تبلغ زوجها فتحدث الكارثة ! لكننى قد وعدتها بأنى سأعالج الأمر بشكل فى !!» ..

قال هذه العبارة الأخيرة وهو يقف مصفقا للنادل فيما يستدرك متنهداً

من أعماق صدره :

- «هل وجدت مسكنك أم لا ؟»

قلت كاذباً :

- «أبيت مؤقتا فى لوكاندة العلم المصرى فى شارع كلوت بيك !»

قال كأن الفرصة قد واثته لإقناعى باقتراحه الأثير :

- «دعك من شيطان الأدب وأنت تفلح ! الأدب فى بلادنا لا يسد الرمق !

إسمع كلامى وتعال ساعدنى فى شغل الإعلانات وتحرير المجلة أضمن لك شقة وزوجة وسيارة فى غضون سنوات !!»

- «ربما أفكر فى هذا وأرد عليك !»

- «على كل حال ! اللقاء يوم الجمعة القادمة فى منزلى بمصر العتيقة !

أبو عماشة سيحضر مع زوجة ! وطاره ! وزميلي أدهم حبيب ! نتغدى ونشرب سيجارتين ! لابد أن تجي !»

- «بإذن الله سأجي !»

- «ويسكن أن نبيت مع صهرى !»

- «سأجي !»

سلم على وقبلنى فتبيلت ، مضى كل منا غى اتجاه معاكس ، ثم إذا به يتوقف مستديرا :

- «إسمع ! ماذا ورايك الآن ؟»

- «لا شئ بشكل محدد !»

قال باسم :

- «ماذا يمنعك أن تمضى معى الآن فى مشوار أو اثنين لعل الله يكرمنا

فتكون لك عمولة مجزية على الطائر ؟! لن تفعل شيئا أكثر من أن تكون معى ! وإذا قدرك الله على المساعدة بكلمة لبقة يكون ذلك أفضل ! إن المعلن يضعف

أمام اثنين ويخر أمام ثلاثة ! تعال معى نقضى يوما جميلا منه شغل ومنه فسحة !»

- «لا بأس على أية حال !»

ومضيت معه دون أى اعتراض .

ثم إن المناظر أخذت تترى علينا فى الشارع . وكنت أحس أن الملل يختبئ وراء كل مشهد وتحت كل خطوة ، وأنه يتأهب للإنتفاض على لولا كثافة الزحام وانشغال بالى بما سوف يحدث بعد دقائق معدودة حينما ندهم أحد التجار أو أحد مديري الشركات أو المصانع الصغيرة أو حتى الدكاكين والمخازن ، لنجلس مع أحدهم فنضع ساقا على ساق وندخل فى أبهة ، وتجي لنا قهوة ثم ندخل مع الشخص فى حوار ألبانى فهلوى . فمدخلنا دائما هو البحث عن متاعب المهنة التى ينتمى إليها هذا الشخص الذى نجالس ، إذ أن الكلام فى متاعب المهنة هو أحسن طريق نتمنى الألفة ، مع أننا فى الواقع قد لا نعرف شيئا عن هذه المهنة أو تلك ، إلا أننا يتسنى من الذكاء نستجوبه نستدر منه المعلومات والأسرار الخاصة بالمهنة ومتاعب أهلها : نقص التمويل ، نقص المادة الخام ، تضخم الأيدي العاملة ، كساد السوق ، تلك موضوعات عامة يسهل علينا الضرب على أوتارها بأنغام تحقق طربا عظيما لدى المستمع فيقف فى صفنا ، لكن تعال على مهنة كصناعة الجلود مثلا أو صناعة الصابون أو الخراطة أو الزجاج أو الألومنيوم أو الحلوى أو ما شاكل ذلك من مهن ، كيف نزعم لأهلها أننا جئنا لندافع عنهم فى الصحافة ضمن حملة كبيرة فى حين أننا لا نعرف موضوع الأزمة على وجه التحديد فضلا عن أن نعرف بيت القصيد فيه ؟ تلك هى موهبة مختار حامد قريطم والذين معه . إنه يحتاج فقط للعميل الأول من أهل المهنة التى ينتوى اقتحام سوقها ، فيقعد معه قعدة بريئة منزعة عن أى غرض إعلانى ، يتقمص فيها شخصية الصحفي الحقيقى المهموم

بمشاكل القطاع الخاص الصناعى والتجارى ، فيستقى من العمل كافة أسرار المهنة وألعيب أصحابها وطرائقهم فى الغش والتحايل أو الإجادة والانتقان ، ثم يودعه ويمضى بعد أن يلتقط له الصور . وعند العمل التالى مباشرة يكون مختار على استعداد تام لمحااجة أعرق أبناء المهنة ، يستطيع أن يعزف له على كل الأوتار المطربة التى يزعم للعمل أنه سيعالجها فى حملته الصحفية . وفى النهاية يفاجأ الشخص بأنه مطلوب منه نصف أو ربع أو ربما صفحة إعلان - حسب التقدير الذى يلمسه مختار أثناء المحاوره - فى صورة بطاقة تهنئة للسيد الرئيس ، أو للأمة العربية بمناسبة كذا . فأما الموضوع - يقول - فإنه بالمجان ، وأما الإعلان فإنه مدفوع الأجر . فى النهاية يدفع الشخص بكل أريحية ، لأن تمهيدا نفسيا بارعا قد أعده له مختار ..

كنت أكره هذا العمل كراهية الموت لشعورى بحقارة الكمين الذى ننصبه لشخص ما ، لكى نوقع به فى براثن إيصال بمبلغ كبير لم يكن فى حسابه ، ولربما اهتز الشخص من ذكر اسم الرئيس أو الضباط الأحرار فقام واقترض المبلغ ، ولربما كان رجلا غشيميا طيب القلب فيقلب المائدة علينا بسلامة نية ، ينبرى فى شكوى الزمان وخسة العصر وهوانه وشدة ما هو فيه من عوز وفاقة حتى ليكاد يدفعنا دفعا إلى الإحسان إليه بكل ما جيبونا لكى يسكت عن إرسال هذا الكلام المؤلم المذنب . بضعة مشاوير من هذا النوع اضطرت للمشاركة فيها مع بعض رجال مختار تحت إلحاحه لكى أسدد إيجار اللوكانده . غير أن المشى مع مختار حامد قريظم نفسه يعتبر متعة مثيرة بالفعل ، إذ هو يتميز عن كل أفراد هذا الطاقم بنزعه الإنسانية الضاغية ، وحسن أدبه ، وصفاء قلبه ، ولباقته ، وصدقه فى العمل ، وعدم المبالغة فى أى شئ ، ثم إنه لن ينصب على أحد محظوظا ، فلسفه نشر الموضوع على أحسن صورة ممكنة ، ولسوف يرسل للعميل نسخة من المجلد بالبريد المسجل ، وفى الأعياد يرسل له بطاقة

معايدة ، وحينما يتكلم فإنه العمل لابد أن يصدقه ، لذا كان يقبل تأجيل دفع بعض النقود لحين انتهاء النشر وهو ضامن أنه سيحصل عليه بكل سهولة . ولقد نمضى اليوم كله متجولين فى الشوارع فى جميع الأحياء والضواحي والبلدان والمحافظات ، ليتوقف مختار كل بضع خطوات شاهرا رأسه لأعلى متمنا فى اللافتات أو يخرج من جيبه شريحة من ورق مطوية كتب فيها عشرات العناوين التى نقلها من دليل التليفونات والدلائل التجارية والصناعية التى تصدرها الهيئات والمؤسسات والغرف . فإذا ما استقر على عنوان ، جذبني من يدي برفق ومودة وشقاوة ، ثم يسرع الخطا بساقيه الطويلتين وبذلته الكاملة فينبو كفاشة فرس النبي . عند اقرب مقهى يحط الرجال مصفقا طالبا الشاى ، يشعل سيجارة ، يفتح الحقيبة ، يخرج ورقة ليون عليها بعض الأفكار والملاحظات . يقول :

- «شف يا سيدى ! الرجل الذى سنقبله الآن هو رئيس مجلس إدارة كذا شركة لصنع المواسير ! ونحن وشطارتنا معه ! لا نقبل أقل من صفحتين ! النصف كاش والنصف بإذن نشر ! نريد الآن نعد أنفسنا للدخول عليه ! كيف تكون دخلتنا ؟ ما الموضوع ؟ الغرض من الزيارة ؟ ما الذى سنقوله ؟ !»

وهكذا نقضى حوالى نصف ساعة نتبادل فيها تمثيل الأدوار ، كأعظم ممثلين ، أنا رئيس مجلس الإدارة وهو الصحفى الزائر ، هو رئيس مجلس الإدارة وأنا المدير المالى والإدارى للشركة ، الذى قد يعرقل الأمر لسبب من الأسباب الجاهزة ، ما الذى يمكن أن يقال أو يحدث بحيث نخرج مجبورين متعشين . وإذا شعر أننا قد أحكمنا الحصار حول الفريسة المرتقبة نهضنا ، قد نتطوح فى الشارع كالبلطجية تتمايل فى ضحكات ماجنة ، حتى إذا ما اقتربنا من المبنى المعنى تصلبت أقفيتنا وتخشب هيتتنا واتخذت سمت الرجال ذوى الشأن الخطير ، لا تلين لوجوهنا عضلة إلا ونحن - بالكاد - نبتسم لمدير المكتب

أو سكرتيره فيما نطالبه - بكل بساطة - إبلاغ رئيس الشركة أن بعثة صحفية فى انتظار السماح لها بالمقابلة لأمر مهم . فى العادة كنا ندخل على الفور ، ولست أذكر أن مشوارا من المشاوير المعدودة على أصابع اليد الواحدة التى مشيتها مع مختار قد خاب ، لايد أن نخرج بنتيجة إن لم تكن هى التى طمحنا إليها فهى على الأقل مرضية لنا ..

دخلنا فى زحام أكثر كثافة ، وقد حدثت أن مختار يقصد لاشك ورشة من ورش الأحذية المختفية فى واحدة من هذه الحارات الضيقة الحافلة . أذكر منذ خطوات طويلة مضت أن مختار كان يراجع نفسه فى بعض المعلومات ، وكنت أتأهب للرد عليه ، غير أن كتلا من الزحام الشديد حجزت بيننا ، فدفعتنى القوافل إلى الأمام بينما تلكأت به فى الخلف ، فظلت أسير شاعرا بظله يقترب من خلفى ولايد أنه سيلحق بى ..

فجأة رأيتنى أمام باب غرزة كنت أتردد عليها من سنوات ولى فيها وبين عمالها ذكريات حميمة . وبدا كأننى كنت أمشى فى هذه الحارة خصيصا لكى أصل إلى مقر هذه الغرزة الكائنة فى منعطف سحرى ضمن حارة جوانية فى أمعاء حى الجمالية العتيق ، وبدا كأنى لم أغب عنها يوما واحدا . ثم رأيتنى جالسا على كرسى من القش فى ركن بين هديم على الجانبين ، وكنت على يقين من أن الولد الغرزجى يعد لى الآن شايًا وحجارة عند النصبية المختفية فى أعماق الهديم فى منحدر . وفيما كان الولد الغرزجى يضع أمامى الشاي والحجارة فوجئت بمختار حامد قريطم يمر مسرعا ، متأبطا ذراع رفيقه الأزلى أدهم حبيب ، وقد اندمجا معا فى كلام . انتفضت فى جلستى ، تأهبت لاستقبالهما بشوق حار لكنهما مرقا من جوارى دون أن يشعرا بوجودى . كنت أحس أننى منذ زمن طويل جدا لم أر صديق الصبا مختار حامد قريطم ، فى نفس الوقت كنت أحس كأننى كنت قد رأيته منذ وقت قريب جدا لا أدري أين . وقفت مناديا ، لكن صوتى ذاب فى بحر الصخب الهائل . طلبت إلى الغرزجى

أن يجعل باله لبرهة ثم انطلقت أهول مناديا : «يا أبو مجيدة ! يا أستاذ مختار !» ، لكن يبدو أن إحدى الحارات الفرعية قد ابتلعتهما أو لعلهما اختفيا فى بناية من هذه البنايات ، فاستدرت عائدا وقد شعرت أن مفاجأة ظريفة كانت ستحدث لو سمعنى مختار وجاء . ثم رأيتنى جالسا على كرسى فى غرزة أخرى فى حارة أخرى من نفس الحى ، ومن حوالى رهط كبير من الصحفيين والممثلين والأدباء ممن يفضلون الجلوس ها هنا ، وقد فوجئت بمختار وزميله يجلسان معى ، وكان من الواضح أنهما اصطدما بى أثناء مرورهما فانتهز مختار فرصة مقابلتى وكلفنى بصياغة إعلان تحريرى على أربع صفحات لمجلته أى ما يقرب من عشرين صفحة بخط يدى ، أعطانى بضع قصاصات وبطاقات وكتيبات وتركنى ألقب فيها ، ثم إننى قمت بعجتها كلها فى موضوع واحد ذى شكل فنى محكم بحيث أن من يقرأه لا يشعر أنه يقرأ إعلانا . مختار باعتباره أديبا سابقا يعرف أن عملية نفى الإعلان عن الإعلان تقتضى موهبة كبيرة جبارة كموهبتى، أتقبل هذه المداعبة لإحساسى أنها مبنية على تقدير حقيقى أستشعره منه ، ها هو ذا يتكفل بالصرف على القعدة من طقطق لسلامو عليكم ، جاءت صينية الكباب لحد عندنا ومعها البيبسى كولا ، ثم الشاي ، وسنة الأفيون لترويق الأعصاب وشحن نشاط الذهن . قرأنا الموضوع ، الحافل بلا سيما وببدا أن ومن نافلة القول وما إلى ذلك من عبارات رنانة شائعة يطرب لها المعلنون ، ومجموعة عناوين فرعية ومناشئيات لافتة . صار المساء فلأ بحق ، منحنى مختار ورقة بخمس جنيهاً ، قمت فمشيت معهما إلى محطة باب اللوق . ودعتهما على المحطة ، عدت إلى الشارع ، صدرى مرفوع وهامتى متألقة ، ظهر جمال شوارع مصر فجأة ، ظهر أننى بالفعل فى مدينة القاهرة ، شعرت أننى مصرى، أن البلدة بلدتى بالفعل . طارت مشكلة النوم بكل قلقها البليد الثقيل الرطيب ، طار النوم نفسه رغم عمق التعب . تحرك قطار الواحدة صباحا من محطة باب اللوق من الخطل اقتحام أى لوكاندة الآن ، لست عبيطا حتى أدفع إيجار ليلة لكى

أنام ثلاث ساعات أو نحوها لأواجه المشكلة نفسها بعد قليل ، لا ، أنا الآن ثرى بحق فقلبى جامد وخطوى واثق ومزاجى على سنجة عشرة ، أتوق الآن إلى من أتحدث معه وأتبادل الأفكار والنكات ، البطن ممتلئ ونكهة الكباب فى فمى ستظل تشبعنى لعدة أيام قادمة ، سأمضغ على حسها فولا وطعمية وجبنا وزيتونا بشهية فائقة ، بى شوق إلى التدخين بشراهرة ، إشتريت علبة سجائر بلمونت عشرين من «عبده» على ناصية شارع باب اللوق وشارع التحرير . وقفت أرددش معه ، إنه صديق قديم ، كان صاحب بوفيه للشاى فى الطابق الثانى من سوق خضار باب اللوق ، كان قد طهق من معاملة الباعة وأصحاب الورش فاستعمل البوفيه لحرق الحشيش ، فكان من البديع جدا أن تنزل طائفة من نادى الإذاعة فى شارع علوى أو من مقهى ريش على ناصية سليمان أو من مقهى إيزافيتش فى ميدان التحرير ، لنشتري قطعة الحشيش من خرابة خلف عمارة استراند من سيدة تجلس فى قاعة جوانية وفى حجرها كيس مليء بالقطع ، ثم نخرج على سوق الخضار لنشرب عند «عبده» . كان رقيقا جدا معنا . على أنه تعب من كبسات الشرطة ، ورأى أن تجار الشنطة شغالين على سوق غزة وليبيا والكويت والسعودية ، فاتكل على الله وجرب طلعة وطلعتين فتلاثة فعشرة فاحلوت اللعبة فترك البوفيه ونزل إلى الشارع على باب السوق نفسه فوضع يده على شريحة لابس بها من جدار السوق فأنشأ فوقها قاترينة أنيقة لبيع السجائر والمياه الغازية ، وركب فيها جهاز تليفون بخزنة يدر وحده عائدا يوميا مذهلا ، ثم توسع فعلق القمصان والسراويل والشيلان والبالونات ولعب الأطفال والحقائب السمسونيت والولاعات والشباشب الزنوبية ، صار مملكة قائمة بذاتها أضيفت أضواؤها النيونية الفسدية إلى أضواء شارع السوق ، وفى آخر الليل تضمحل الضوضاء ويروق الشارع فى ضوء كلويات البوتاجاز على بعض عربات الفاكهة والساند ويتشبات ، فتبدو مملكة «عبده» من بعيد كأنها

مدينة قائمة بذاتها ، ودائما تجد رهطا من الجنسين واقفين فى انتظار دورهم للتحدث فى التليفون ..

شربت زجاجة اسبائس مثلجة على حساب «عبده» ، وانتهزت الفرصة فتلفنت لصديقى ممدوح الجمال ، فرد على مندهشا ضاحكا بصوت نصف مخمور، دردش معى قليلا ، حاول استدراجى لمعرفة ما إذا كنت محتاجا لشيء. أنبيائه بأنى الليلة غنى وفى رغد من العيش . وضعت السماعة وأعطيت لبعده ورقة الجنيهاات الخمسة فحجز منها ثمن السجائر فقط ورد لى الباقي ، وطالبنى بحق العشرة القديمة أن أزره كل وقت ..

شرعت أتحرك من أمامه ، إنتفض قلبى ، فجأة من الرعب تذكرت أننى ما كان ينبغى لى أن أمر من هذا المكان حتى لايرانى «عبده» هذا بالذات . إذ أننى مكسوف منه وفى غاية الخجل ، ففى ذات يوم منذ وقت مضى كنت مارا من أمامه فرأيت مجموعة من الغلايين معروضة بشكل مفر ، وكنت أزمع تبطيل السجائر ، فخطر لى أن أستبدلها بالغليون اختصارا للمصاريف وذل السجائر وتحجيما للتدخين . وفى حقيقة الأمر أننى كنت مغرما بتدخين الغليون كعملية شكلية محضة ، منشؤها رؤيتى أثناء الطفولة لشكرى بيك التركى ناظر الزراعة وهو ينجعص على كرسي مرتديا القبعة وبين أسنانه الغليون ، وهو يتكلم ويشفط وينفث الدخان فى أن واحد ، والخلق أمامه راكعون خائفون ، فمن يومها وأنا مشوق لتجريب هذه النفخة الغليونية فلربما أضفت على شخصيتى لمسة من المهابة أو الأهمية . طلبت من «عبده» رؤية هذه المجموعة من الغلايين فعرضها على بمحاضرة بليغة عن أصالة خشبها وعالمية ماركاتها . سألته عن ثمن الواحد منها فقال : «جنه ونصف لاغير !» ، فبدا على الإعجاب والعجز معا ، قلت :

- «ممكن تحجز لى واحد !» -

قال بأريحية :

- «واحجز ليه ؟ ما تأخذه اهه !»

ثم شرع يلفه فى ورقة ، قلت : «أصلى ...» .

قاطعنى :

- لأصل ولا فصل ياسعادة البيه ! يوم ما يجيلك فلوس أبقى هات الجنيه

ونص !»

ولفه ، ورفع نحوى وجهه القريب الشبه بوجه الممثل شكرى سرحان .

مددت يدى ، فأستدار هو قائلاً :

- «تأخذ علبة تمباك بالمرة ؟! علبة أنفوره أهى بستين قرش بيقوا اتنين

جنيه وبريزه ! ليلتنا فل بإذن الله !» ..

ولف الغليون مع كيس التمباك فى ورقة قائلاً : مع السلامة يابيه .

فمضيت وفى نيتى أن أعود إليه فى أقرب وقت ممكن لكى أزد له حقه وأشكره

على هذه الشبهة وهذا الذوق ، لكننى بكل أسف لم أعد مطلقاً ، فلم تكن

الفلوس لتجىء بسهولة ، وإذ تجيء أكون كالأرض الشراقى ، لأهناً بوجودها

معى أكثر من ساعات معبودة ، حتى لقد نسيت أمر «عبده» تماماً ، حتى بعد

أن سهل مجيء الفلوس بعض الشيء لم أكن أتذكره إلا فجأة وأنا أهم بعبور

الشارع إلى محطة باب اللوق ، فسرعان ما أرتد كمن أصابه مس كهربى ،

وأنطلق فى الطريق المعاكس مهرولا تسابقنى أنفاسى اللاهثة شاعرا كأننى

ارتديت فوق رأسى قبعة الذهب . كيف جرؤت الآن واقتحمته بل كيف أمنت على

الورقة أم خمسة وأسلمتها ليديه ؟! لابد أن يكون قد نسى هذا الأمر تماماً ،

هذا هو الأرجح وإلا ما ظهر فى مقابلته كل هذا الود والإشتياق ..

رأيتنى أهول مسرعاً ، متغاضياً عن زحف السيارات المسرعة ، فأعبر

شارع البستان قفزاً ، لأدخل فى حارة قصيرة . تفضى بى إلى شارع هدى

شعراوى . كان مستودع البيرة ستلا قد أنزل نصف الباب وصار يللم نفسه .

نظرت فى الشباك المطل على الشارع فرأيت بجواره شاباً يرتدى قميصاً

وسروالاً ومنظاراً ، يضع أمامه مجموعة من الكتب والمجلات ومجموعة زجاجات

بيرة فارغة ، وزجاجة كونيكا مليئة حتى المنتصف ، وهو فى حال من السكر

البين يصعر خديه للهواء ويلوك حبات الترمس . تذكرت أننى أراه كثيراً فى

بعض المؤسسات الصحفية وعلى مقهى ريش لكننى لم أكن أعرف من هو على

وجه التحديد مع أنه كلما رآنى بش فى وجهى وكاد يدعونى لمشاركته فى شرب

كأس . ولم يكن الكأس مشروبى لكننى كنت مشوقاً لمعرفة من هو هذا

الشخص ، وإذ صار فى جيبى نقود رأيتنى أحبيه من خلف شبكة الشباك بقلب

جامد ، فأبتسم وأشار لى أن ألق وأدخل ، فدخلت ، قام يترنح ليسلم على

عدلته ، أمسك الزجاجاة وصب لى كأساً ، إعتذرت ، إكتشفت فى الحال أننى قد

تورطت فى مسئوليته وقد أختتم الليلة ختاماً غير مستحب . نهضت واقفاً

وانسحبت بصنعة لطافة دون أن يدرى . وعند الباب الآخر أصطدمت بفهمى

عزيز خارجاً من دورة المياه متسللاً إلى الخلاء . بإبتسامة خبيثة سحبنى معه ،

قال إنه كان جالساً مع هذا الصحفى المثقف الذى يكتب نقداً أدبياً متعنتاً ،

فشرب على حسابه حتى سكر وخاف أن يتورط فى توصيله ويدخل فى عراك مع

البار بسببه فقرر الهرب . ثم إن فهمى عزيز اختفى فى الحال لا أدري كيف

ولأين .

حين صرت فى شارع سليمان كان يخیل إلى أن «عبده» يبحث عنى فى

الحوارى ، إذ لابد أنه تذكر دينه .. فجعلت أسرع متوجهاً إلى بوفيه محطة

مصر فى باب الحديد ، لأشتري الجرائد هذه المرة كالناس المحترمين ، وأطلب

النهوة فالشأى بالحليب ، وأجلس يقظاً لإقناع النادل أننى لا أجيء هنا للنوم

فحسب ، وعند بداية الضحى أستطيع أن أعرج على إحدى لوكاندات كلوت بيك

لأحجز سريراً ثم أدخل لأتمدد فيه ساعة القيلولة ثم أخرج لأسهر سهرتى وأعود

فأنام بعمق حتى ضحى اليوم التالى .

رأيتنى عائما فوق بطنى فى مايشبه حمام سباحة عريض وكانت عيني ساقطة تطل فى قاع المياه فتدري الأرض على بعد سحق مفروشة بالحصباء والرمل ، وكانت بلطية كبيرة جدا كسمكة القرش تتلعبت قادمة من بعيد كسفينة بجاجة ، خفت من منظرها ، لكن شكلها كان بديعا جدا ، ملونة ، بلا حراشيف أو أشواك ، بفخزين بشريين مسحوبين فى اسطوانية رشيقة . إقتربت منى دائما ، رفعت رأسها ، فإذا بى أمام وجه نازك بكل حذافيره مثل القنديل الساجى . كان من الواضح أنها تؤدي رقصة حميمة بديعة الحركات ، تظهر حولها كائنات بحرية متنوعة جميلة الشكل لا أعرف لها إسما ، تتصارع فى محاولة الإلتصاق بالبلطية الكبيرة ، من ينجح فى الإلتصاق يلقم أحد شديها ويرضع فى نشوة بالغة ، ثم اندفعت البلطية تشق المياه متباعدة وخلفها موكب هائل من قوافل البط والأوز والدجاج فى تشكيلات رائعة . دار بى الموج فإذا بالأرض من ورائى متسعة تحتشد بأسراب من الأبقار والأغنام والجمال والحمير والخيول تختفى سيقانها بين مساحات شاسعة من السنايل والبرسيم والفول وأنوار الذرة والأرز . تبين لى أننى ربما أكون قد نزلت فى نهر النيل للإستحمام فى مياه الفيضان الذى يحيل بلدتنا دائما إلى جزر من المنازل تحيطها المياه العرمزية من كل ناحية . إن هى إلا برهة وجيزة حتى شق الماء تمساح أسود غبيح الشكل رهيب الفكين تطل من عينيه خسة بلا حدود ، يفتح فما كفتحة الخيمة ، إذا به يقفز غائضا فى الماء بحركة بهلوانية ويخرج ممسكا بالبلطية الذبذبة بين فكيه يحاول ابتلاعها بصعوبة فانهحشت فى حلقة حتى أعلى المنكبين ، فحينئذ من الواضح أن أسنانه عاجزة عن الغوص فى لحمها ، فصار يطوحها فى الهواء ويخطئ شمالا ويمينا وأعلى وأسفل والماء يهدر صارخا فى جلبة فاجعة ، يجر بها فى الأعماق . صرت أبحث عن دارنا متذكرا أننى كنت دائما أظن البركة المجاورة لها . رفعت رأسى ، رميت ببصرى فى الفضاء ، رأيت

فى الحال رأيتنى ممددا بالفانلة والسروال الداخلى على سرير سفرى داخل غرفة ضيقة عتيقة الطراز سقط الطلاء عن جدرانها بفعل الرطوبة العريقة فرسمت خرائط وأشكال ديناصورات وتنانين غامضة مخيفة . بجوارى سرير آخر خال ، مطابق لسريرى ، وسادة على السرير بلا سمك يذكر ، ملاءة بيضاء كالأحذية ، رائحة الصابون مختلطة بزناخة العرق ، تحتها حشية غير سميكة لدرجة أن الأضلاع الحديدية للسرير كانت بارزة تحت عظامى ، وفوقى كانت بطانية من بطاطين الجيش ، وسروالى وقميصى معلقان على مشجب فى الحائط فوق رأسى مباشرة ، أما النقود المتبقية وساعة يدى فقد سلمتها للأمانات مع بطاقتى الشخصية . كان من الواضح أننى على علاقة وطيدة بهذا السرير وبهذه الجدران وهذه اللبة الكهربائية الشاحبة المتدلية من سقف حديدى شديد الإرتفاع . بجوار رأسى صوان كالح عليه دورق ماء بلاطع ، فوقه شبك مظل على الشارع نصفه الأعلى يفتح ويغلق أما نصفه الأسفل فمستخدم كرف توضع فوقه أشياء النزيل ، كان ضجيج الشارع وصوت جلجلة الترامى كأنه فوق رأسى . التعب كان ينفخ فى عروق ساقى من أثر مشى طويل بلا بداية ولانهاية . جميع أطرافى منطرحة متباعدة . مع ذلك رأيتنى فى حالة انتصاب صلبة وغريبة ، والرغبة حامية ملحة جامحة . فى رأسى امرأة مستديرة الوجه أراها دائما تطل من شبك ما فى منطقة لا أذكرها . أغمضت عيني واستحضرتها فالتقيت بها على السرير بجوارى . دفنت نفسى فى الحشية المتصلبة محاولا رؤية تفاصيل جسدها الدقيقة لكننى كلما أفلحت فى تجسيده أرى فهمى عزيز يمر فى خاطرى كالسحابة الداكنة مخلقا دخانا يبدد كل شئ . صار من الواضح أننى قد تعبت تماما وفشلت فى الإلتصال بالمرأة التى رأيتها دائما تطل من الشباك فى دلا وطراوة . أرحت رأسى وأطرافى ، استسلمت لخدر لذيق راح يتمشى فى جه أنحاء جسدى .

على بعد أبنية كثيرة لعمائر فخمة وحدائق غناء تلتقى فى نصف دائرة ، غائرة فى سفح الماء حتى القاع السحيق. أيقنت فى الحال أن لى مصلحة مهمة جدا بل وخطيرة على هذا الذى يبدو أنه شاطئ قريب ، وأننى لابد أن أعبىء الماء إليه ، نعم لابد أن أصل إليه بأى شكل فهو الملاذ النهائى بالنسبة لى الآن . كان من الواضح أننى سباح ماهر رغم أننى لا أذكر متى تعلمت السباحة حتى وصلت إلى هذه الدرجة العالية من الحرفة ، بدليل أننى عائم فوق الماء دون أن أبذل أى مجهود . مهمتى الآن أن أدير دفة وجهى نحو ما بدا لى أنه شاطئ الأول والأخير . أوشكت بالفعل أن أرسو عليه ، جعلت أتهياً لقفزة أخيرة ، إذا بى أرى البلطية فى مواجهتى ، نصفها الأعلى كله فوق صفحة الماء تنظر لى بعينين واسعتين فوق رقبة طويلة كعمود الرخام ، وكانت تبتسم ابتسامة كبيرة وتغمز لى بعينها نحو المرسى الملائم ، وكنت أشعر أن نصفها السفلى كله فى فك التمساح المختبئ تحت الماء ، فتجنبتها لكى أقفز من جوارها ، لكننى شعرت بالماء من تحتى يزلزل بعنف حتى كاد يلفضى ، وإذا بضربة من ذيل التمساح تعالجنى فتدير رأسى تلقى بى إلى بعيد أكاد أنفقد صوابى جعلت أسترد أنفاسى شعرت أن الضربة ستترك فى جسدى ونفسى عاهة مستديمة لاشفاء منها إلى الأبد ، لكنها تهون فى سبيل أن أنجو بالعبور إلى هذا الذى بدا أنه شاطئ . عدلت نفسى ، سبحت مسافة طويلة فى خط مواز للعمائر والحدائق ، حتى إذا ما تيقنت من أننى بعدت عن فخ البلطية التى نصفها العلوى إنسان ونصفها السفلى تمساح غدار ، شرعت أدير نفسى فى اتجاه المرسى ، ما أن تهيأت للقفز حتى ظهرت البلطية ناظرة لى فى ود سلبى أملس ، رجوتها بنظرة أودعتها كل مشاعر الود الحار أن تتركنى أمر . هزت رأسها بعين مقهورة مشيرة لى بيدها الجميلة أن : تفضل . تسحبت برفق إلى بعيد ، إلا أن زلزلة الماء من تحتى فجرته إلى رذاذ ، وضربة أخرى فوق عيني ملأت الدنيا بالهيب

الحارق حتى صرخت كالذبيح وأنا أرتفع على موج الرذاذ لأهبط فوق الماء غائصاً فى القاع البعيد تمتلئ خياشيمى ومعدتى بالماء الخائق .. فإذا بيد قوية تقبض على كتفى وترفعنى من بين طيات الفرق فترتد لى أنفاسى شيئاً فشيئاً . فتحت عيني فى صعوبة شديدة وشهقات الفزع تبعثرنى . طاقتان من السماء تهبطان على عيني بزرقة صافية يحيطها سياج من الرموش المدبية ، عرفت فيهما عيني زوجتى ، رأيت فيهما قليلاً من الأسف المشوب بالحزن . جاعنى صوتها العاتب الرقيق : « ماذا فعلت بنفسك ؟ » . قلت : « ماذا ؟ » ، وهزرت رأسى استدرازا للإنتباه ، فإذا بى أجلس على كرسى أسيوطى مريح ، مرتدياً ثيابى الكاملة . اتسعت الدنيا فى ناظرى ، إذا بى فى حجرة مكتبى ومفترسى ، التى هى فى نفس الوقت غرفة استقبال ومعيشة ، رأيت أمامى على الطفاطوقة صينية عليها فنجان قهوة وضع أنه صات من فرط الركنة والإبتراء . سواره جريدة الأهرام مفرودة وفوقها كومة من دخان السجائر الفرط ، ودفتر ورق بافره ، وطفاية السجائر عليها كومة هائلة من أعقاب السجائر الملفوفة ، وسجارة كاملة نائمة فى تجويف الطفاية وقد احترقت بكاملها وبقي هيكلها العظمى خطاً متماسكا من الرماد . وضعت زوجتى أمامى طبقاً به بعض حبات الجوافة وعنقود من العنب الأحمر ، تذكرت أننى اليوم قبضت مكافأتى الشهرية من إدارة التفريغ ، وأننى انتويت ليلة جميلة مع زوجتى ولابد أن أعيشها بعمق قبل أن تنفذ النقود فلا يبقى هناك إلا مناخ الغضب والعراك والعصبية وانصداد النفس من الطرفين عن أى شىء . إبتسمت لزوجتى كالمعتذر ، وكانت رأسى ثقيلة لزجة ، فالقيت فى فمى بحفنة من العنب ، ووراعها حبة من الجوافة ، فانسعت عيناى ودب فيهما النشاط . قلت : « أما لو .. غنجان قهوة ؟ » . قالت وهى سعيدة : « إحكاهم الروب حول جسدها : « يشهد هذا الفنجان أننى عملته لك سراج رائق ! لكنك تركته وسرحت فى النوم ! أهذه هى الدقائق الخمس التى

قلت أنك ستجئ بعدها ؟ لقد قرأت مجلة حواء كلها فوق السرير فى انتظارك !
قلت : «معلش! خمس دقائق كمان! » ، فحملت الصينية ومضت ، وكانت فى
أبهى زينتها . شعرت أنني يجب أن أصحصح ، أسرعرت إلى الحمام ، خلعت
ملابس الخروج ولبست المنازمة الخفيفة ، وأطلقت صنوبر الماء فوق رأسى طويلا
ثم جففته وعدت إلى حجرة المكتب ، أخذت أرشف القهوة ، وشرعت ألف
سيجارتين ، واحدة أدخنها مع القهوة وأخرى أدخنها فى السرير حتى أكون قد
وصلت حقا إلى تلك المنطقة النفسية الفاصلة بين الحقيقة والخيال ، بين السحر
والواقع . كنت أشعر مع كل رشفة وجذبة نفس أنني على وشك أن أمسك بهذا
الخيوط الرفيع الذى إن قبضت عليه اضمحلت الكآبة وحضرت البهجة واكتسبت
الأشياء جمالا وحيوية .

قمت مندفعا إلى حجرة النوم قبل أن يضيع الخيط من يدي ، كنت واثقا
أننى سأحكم قبضتى عليه إذا ما أطفأت النور مستلقيا على الفراش الوثير .
خلعت ملابسى وتمددت على حرف السرير وأشعلت السيجارة الثانية وجذبت
منها الأنفاس المتلاحقة بنهم شديد ، وزوجتى بجوارى تعبر عن استيائها
بتحريك يديها يمينا وشمالا تضرب سحب الدخان تبعدها عن أنفها . كنت أجاهد
حتى لا أنظر لها خوف أن أرى على وجهها أية علامة تحبطنى . عوجت نفسى
بعيدا حتى أبعد الدخان عنها . مالت هى الأخرى ورمت بنصفها فوقى ، شعرت
أنها تسنجلنى ، إصطدمت بمسحة من اللامبالاة والإعتيادية المقيتة . وكان
لابد أن أطفىء النور حتى لا أرى سوى المرأة فحسب ! أطفأت عقب السيجارة
والنور ثم استلقيت وشرعت أحتضن زوجتى التى أحبها بالفعل وأتمنى إرضاعها
بكل ما فى وسعى من جهد . ما أن عم الظلام حتى حضرت نازك واستلقت
على الفراش بينى وبين زوجتى ، وكان على أن أتعامل معها هى . لكننى لا أجد
بين يدي إلا جسد زوجتى . أرانى حائرا ممزقا بين قضيتين سافيتين أحدهما

غائب حاضرا والآخر حاضرا غائبا ، وفى هذه المسافة الطويلة بين حضور الغائب
وغياب الحاضر يزداد لهاثى ويتصدع فى داخلى شئ ما ، يصير رخوا ،
يسقط من طوله كورقة الشجرة فى الخريف ، أحاول استعادته بسرعة ، أشد
خيوطه متشبثا بعينى نازك متوسلا بشعرها الشلال وصوتها الدافئ الحنون ،
أكاد أنجح ، أصطدم فى الحال بالحاضر الغائب ، أرثد كاسفا ، أنطوى على
نفسى مصدوما عنيدا لا تجدى معى المحاولات فتिला ، ينقطع ذلك الخيط
السحري الفاصل بين جبال الكآبة وشيطان البهجة ، تضع أطرافه تماما كأن لم
تكن ، يكاد يقتلنى اليأس والإحباط والغضب أنطرح على ظهري مستسلما
وصدرى يعلو ويهبط بفعل الكمد لافعل التعب .

شيئا فشيئا بدأ تنفسى ينتظم ، راح ثقل شديد كجبال من الرصاص
يزحف فوقى يبططنى يسوينى بالفراش ، أريد أن أصرخ لكننى لا أجد صوتى ،
أريد أن أحرك يدي أو قدمي أو أنتفض قاعدا لكننى لا أقدر على تحريك أى
شئ فى جسدى . صرت أغيب فى الظلام القاحل الجذب ، إلى أن رأيت عاريا
بانايوه أجرى بمرح فوق رمال طرية والبحر على مشارف البصر يهدر بالزبد
ورائحة اليود . كنت مبتهجا جدا فيما بدا لى ، رأسى ساخن وجسمى حار ،
سرعان ما وضح لى أنني أجرى وراء امرأة عارية هى الأخرى بالمايوه ، حينما
ظهرت أمامى كالفراشة البيضاء ، وكان من الواضح أنني أعرف أن هذه المرأة
هى زوجتى ، وأنا لابد أن نكون فى رحلة صيفية ، وهذا الشاطئ لابد أن يكون
شاطئ سيدى بشر بالإسكندرية ، الذى حلمت طول العمر أن أقضى فيه شهرا
أو حتى جمعة مع امرأة أحبها وتحبنى ، لابد أن يكون هذا قد حدث بالفعل أو
هاهوذا يحدث الآن، إنما شعورى يقول لى إننى عشت هذا المشهد من قبل أكثر
من مرة وأنه حميم . ها أنذا ألحق بالمرأة التى من فرط حبى لها خفت أن يكون
جريها نهائيا وبلا عودة . أمسكت بها لاهثا ، إحتويتها ، جسدها مشدود مررب

محدد التقاسيم ، إنه بكل حذافيره جسد نازك ، لكننى حين انحنيت على ثغرها لأقبله فوجئت بأنه وجه زوجتى بدون أى لبس . وكانت القبله لذيذة بل مسكرة بشكل لم أعهد له مثيلا من قبل . أعدت القبله مرة أخرى ، ثم اندفعت أقبلها فى جميع أنحاء وجهها ، ثم برح بى الشوق فحملتها على ذراعى وانطلقت أهرول فى اتجاه البحر . وكان ثمة عشة تقترب ، ناشرة وحدها عن بقية العشش المتاخمة . كنت على شىء من اليقين أن هذه العشة يملكها رجل من أقارب زوجتى فى الإسكندرية ، وأنه كما يلوح لى سبق أن عزمنا فيها . دخلت العشة وأنا من الشوق فى حال صلبة عفية . بدا أننى أعرف أن الحجرة التى على اليمين مكشوفة ، وأن الحجرة الوسطى هى أنسب الحجرات لكونها مطلة على البحر بشرفة عالية مسقوفة بالخشب ككاكين الأسواق ، فضلا عن أن بها سريرا عريضا وثيرا ولبة حمراء وفراشا وردى اللون . أضأت نورها الأحمر بأصبعى الذى مددته من تحت ألية الجسد الذى أحمله ، ألقىت بالجسد على السرير ، هجمت عليه كالليث يهجم على الفريسة . اندفعت لثما وتقبيلًا وتمريغا وتشويقا ، فلما صار الوصل قاب قوسين أو أدنى دهمنى شعور مفاجيء بالكآبة الحادة كحرارة سبتمبر فى زمته النيل ، هويت من حالى ، تمنيت لو دق عنقى وانتهيت . غير أنى مالبثت حتى شعرت بأنفاس غريبة داخل الحجرة ، فارتعدت ، رأيت شبحا يمرق أمام باب الحجرة فى الممر ، سمعت خرخشة الستائر التى اهتزت كأن لفحة هواء صافحتها ، إتنفضت صائحا : «مين اللى بره ؟! » . لم يأتنى جواب ، بل سمعت طقطقة الخشب تحت وقع أقدام ، داهمنى خوف مروع . من فرط خوفى من المجهول البادى رميت نفسى فى قلب الخطر دفعة واحدة : ياقاتل يامقتول . نزلت عن السرير ، مشيت على أطراف أصابعى ، أضأت النور الكبير الأبيض ، غمر الضوء الحجرة فبانث زوجى منكمشة على نفسها فى روع حقيقى ، تشد الملاءة على جسدها . نظرت حوالى فى ترقب ،

رأيت على صوان التسريحة طبقا من البلاستيك عليه بقايا فاكهة ، وسكين كبير من سكاكين المطبخ . إهتز قلبى لمراها ، جفلت عيني ، رأيتنى أمسكها من مقبضها العاجى الخشن فتموت قبضتى عليها . داريتها خلف ظهري وفتحت الباب . إندفع شبح يجرى فى الممر الدائرى المؤدى إلى الشرفة المطلة على البحر ، أضأت نور الممر ونور الشرفة حتى تبينت الشبح تماما من خلفه . كاد عقلى يذهب بددا ، قبضتى تقاوم الرعشة فوق مقبض السكين . إندفع الشبح خارجا إلى الشرفة ، تاهب للقفز من فوق السور الحاجز لكنه فوجيء بأن الموج العارم يتأهب لاستقباله ، فعدل عن هذا الفعل وانزوى فى ركن من السور كان من الممكن أن يقفز منه إلى الخلاء ليتوه فى الصحراء ، لكن الظلام الكثيف خلف ظهره جعله يستسلم فى الركن كالفأر المذعور ، رافعا ذراعيه فى استنجاد صائحا :

- «إخز الشيطان ! أرجوك لاتظلمنى !»

- «ياسافل ياابن المسافلة ! أهو أنت ؟!»

قال بابتسامة شاحبة مرتعدة :

- «سأشرح لك !»

وجدتنى لأؤكد أصدق ما أرى ، فأخر ما كنت أتصوره أن يتربص بى «فهمنى عزيز» إلى هذا الحد ، ووجدتنى أقترب منه ملوحا بالسكين نحو كرشه :

- «كيف سولت لك نفسك الدنيئة أن تتجسس على فراشى ؟!»

إفتعل ضحكة صفراء يذكرنى بها بنبرة الصداقة والذكريات الحميمة المشتركة ، قال :

- «ياوغد ! كيف تفكر هكذا ؟ لقد جئت لزيارتك ! تقابلنى بالسكين ؟!»

كانت هذه الصفاقة والبجاجة الفجة وحدها كافية لأن تجعلنى أدب السكين فى كرشه على الفور ضيقا وبرما بهذا الزيف الدنىء ، لكننى صرخت فيه بسخرية مريرة :

- «لست أرى أحدا يزور صديقه على هذا النحو إلا أنت ! إننى أفهمك أكثر من أمك وأبيك ! أعرف خستك المتأصلة فيك ! لكننى لم أكن أعرف أنها خسة مبطنة بالجنون !»

رسم على وجهه شعورا بالإستياء ، قال بلهجة تمثيلية :

- «هكذا ياوغد نظرتك لى أنا الذى لم يفرغ من حبك لحظة واحدة ؟! أقسم بشرفى أننى أنتظرك فى هذه الشرفة من أذان العصر ! عطلت نفسى عن السفر من أجل أن أراك ! إفتقدتك ! لم تعد تجىء إلى المجلة ! قلت فلأطمئن على صحتك !!»

- «ومن أنبأك أنى هنا ؟ من أين جئت بالعنوان ياروح أمك ؟!»

- «لا تهزأ بى ياوغد ! تذكر أننى صديقك وبمثابة أخيك ! تذكر أن بيننا عيش وملح ! صدقنى إننى أعرف علاقتك بهذه العشة ! لقد عزمتمنى فيها أنا ونارك ذات يوم ! حتى بالأمانة عرفتنا على صاحبها الذى هو قريب لزوجتك ! بالصدفة المحضة كنت مارا من هنا ! خطر لى أن أسأل عليك ! وجدت الباب مفتوحا وثيابكما موجودة فمكثت فى انتظاركما ! هذا كل ما فى الأمر !!»

وصل ضيقى إلى ذروته ، أردت أن أصرخ فيه فأنحبس صوتى . إرتبكت لبرهة وجيزة ، صرت أتلقت حوالى فى حيرة ، أهم بأن أرمى السكين فى البحر، لكننى ما كدت أحول وجهى عنه حتى شعرت بانتفاضته ، فانتبهت فى الحال

فرأيت فى عينيه إحباطا شديدا لمحاولة هجوم مباغت شرع يشنه على غفلة منى ، بل إنه كان قد هم بأن يحيطنى بذراعيه .. فما دريت إلا وأنا أقذف قدمى بين ساقيه فى مباغته ناجحة ، فاختل توازنه وتهاوى كالنخلة ، فعاجلته بالسكين فى بطنه فاندبت حتى نهايتها ، ثم سحبته لأدبها فى قلبه ، ثم أتحول إلى حيوان متوحش يقطع فى لحم الفريسة بنشوة فائقة ، حتى تيقنت من فناءه . جرجرته ، أسندته واقفا على السور ، أمسكت بقدميه ، رفعتهما ، دلقته فى قلب الموج فتدحرج فى المنحدر ، واختفى يزغرد فيه الموج . ومن بعيد جدا كانت سحببات الزبد الطافى فوق الموج تنعكس عليها أشعة النجوم فتكشف عن الإحمرار الذى اعتراها . عدت إلى الداخل ، صادفت المطيخ مضاء فدخلته فوجدت خرطوما طويلا من البلاستيك الأحمر فركبته فى الصنبور وسحبت طرفه خارجا إلى الشرفة . طوحت بالسكين فى البحر على طول ذراعى . سلطت الخرطوم على الأرض ، فاندفعت قراطيس المياه تفرش نفسها على الأرض تأكلها أكلا ، وينحدر الماء من تلقاء نفسه نحو ميزاب خفى تحت السور ليخر فى قلب البحر ، حتى صارت الأرض الخشبية نظيفة تماما ، وقلت لنفسى إن الموج لن يحتفظ بتذكار الدم أكثر من سويعات قليلة . ثم رأيتنى أدخل على زوجتى فى الحجرة الوسطى ، فدفعت عن نفسها الملاءة ، وبدا كأنها لم تر ولم تسمع ولم تعرف مما حدث شيئا ، وبدأ فى نفس الوقت كأنها عرفت كل شيء . شعرت بشيء قليل جدا من الضيق ، لكننى حين تمددت بجوارها كنت أشعر بمنتهى الراحة ، بل بالسعادة الفائقة كأننى قمت بأعظم عمل يمكن أن أقوم به فى حياتى ، أروع وأشفى للنفس وللغليل من أى مجد يمكن أن أطمح إليه ، ثم إننى اعتدلت نحو زوجتى كأن شيئا لم يكن . وكان فى نيتى أن أكتفى باحتضانها والإخلاد إلى إستشعار لذة ما فعلت ، لكن رائحة النشوة المسكرة سرعان ما طرأت فجأة فتشبع بها المكان كله ، بذلك العطر النفيس الفواح . فذب النشاط فى كيانى ، تمددت رغبتى وتصلبت كعود الحديد المحمى . وكان ثمة يقين راسخ فى أعماقى هذه اللحظة أن الرخاوة لن تعرف طريقها إلى أوصالى ثانية .

سلاسل فى الرقاب

هذا ، فيما يبدو لى ، مصعد ، أشبه باكشاك محطات الكهرباء فى شوارع القاهرة . وهذا ، فيما يبدو لى ، هو أنا ، يقف أمامى فى المرآة التى تحتل نصف جدار المصعد المواجه لبابه - ثمة مصباح خفى عليل الضوء يبدو تحت تكور فى سقف المصعد ، تكور من الضوء تتخلله شبكة من الظلال تمتد على السقف كله . من يبدو أنه أنا فى المرآة يرتدى سترة مبرقشة بنقط سوداء كحبات العدس على أرضية خضراء داكنة ، بياقة كياقة المعطف تمتد فتحتها من الصدر إلى البطن بزرارين وعروتين ، الزرار الفوقى مزدوج ، واحد من خارج وآخر من داخل السترة . تحت السترة فائلة برقبة وأكمام من النوع المسمى بالهيلانكا ، سوداء اللون ، وسروال واسع فتحة الساقين بتفصيلة تسمى شارلستون . الرقبة قصيرة والرأس مستديرة والوجه بيضاوى أشهب أشقر الشعر بسوالف طويلة وأنف مستقيم كقلم الشفايف ، فوقه منظار طبى أخضر العدسات خضارا قاتما ، بوادر صلعة خفيفة تعمل جاهدة على أن تشق لنفسها جزيرة صحراوية اللون فوق الجبهة المقلوطة كبوز القرعة العسلى . منظره على أى حال أعجبنى إلى حد ما ، فاقتنعت بأنه ليس يقل عن أى واحد من طائفة الأنقاء الذين أعرفهم . رفع يده لى بالتحية ، وكنت لحظتها أحاول عدل المنظار

على أنفى ، فداخلنى شىء من الرعب الخفى ، فيما كان المصعد يتهدد فى رجة خفيفة أثناء صعوده . وكان يبنو على أننى منسلخ لتوى من غيب طويل لست أدريه ، كأننى ولدت الآن فحسب ..

توقف المصعد ، إنجذب الباب الخارجى . من خلال زجاج الباب الداخلى ظهر رجل ضخم الجثة بكرش مدبب وذقن طويل وعينين جاحظتين فيهما شعور عميق بالقهر والإستسلام لقدرة مجهول . يرتدى بذلة رمادية اللون تبدو نظيفة وإن كانت عتيقة جدا قديمة الطراز كأنها من القرن التاسع عشر بستره تشبه ما يسمى بالريدنجوت ، طويل الأذنين كأرنب ، برأس مقلوطة كأنها مجرد فروة غزيرة من الشعر المتجدد تتخلله شعرات بيضاء ، ورباط العنق مبروم حول رقبته وهو لايتنى يمتد رقبته زاغدا الهواء بذقنه يمينا ويسارا كأنه يريد أن يخلع عنقه من هذا القيد الخائق ، بيده حافظة أوراق جلدية منتفخة ذات شكل هرمى . تبسم لى عن سن ذهبية وشفتين محروقتين من فرط التدخين . تبسمت له أنا الآخر ، وجدتنى أقول : «أهلا عيسى !» . دلف داخلا ، مادا يميناه ليسلم على قائلا من خلال أنفاس تتردد بصعوبة عبر أنفه : «إزيك ياأستاذ !» ، واستدار تلقائيا ليغلق درفتى الباب الداخلى بعد أن جذب الباب الخارجى جذبة تأمين قوية ، ثم ضغط على زر الطابق الأخير .

هذا إذن هو «عباس نحمده» ، إسم أبيه : «نحمده» وهو لا يمل دائما - ويجدية هائلة - من تكرار قصة الإسم لكل من يسأله أو يبدى استغرابه ، سواء كان ذلك بدافع السخرية أو بدافع الفضول : كان جده المزارع الأجير كثير العيال ، ولم يكن يستطيع الإنفاق عليهم كلهم ، ومع ذلك كانت جدته تحبل عقب الولادة بأربعين يوما وربما جاعت بتوأمين ، وحين ولدت أباه كانت السلطة قد أخذت أبناءها الذين تعبت فى تربيتهم ، مع ذلك استبشر جده به فأسماه : نحمده ، وقد صدق الفأل ، ف «نحمده» كان الوحيد من إخوته الذى لم تأخذه

السلطة للعمل فى السخرة ، إذ بارك الله فيه فأعطاه النعمة حتى علم جميع أولاده تعليما عاليا ومن بينهم عباس الذى تخرج فى المعهد العالى للفنون المسرحية ، وصحيح أنه تخرج فى قسم النقد إلا أنه يهوى التمثيل ويعتبر نفسه مؤهلا له بالدراسة ، وهو أولى به من أولئك الهواة غير المعهدين الذين يستعين بهم المخرجون فى الإذاعة والمسرح والسينما ، هو لن يستريح حتى يستصدر قانونا بمنع تشغيل غير المعهدين . وصحيح أنه يعمل بإدارة الشؤون المعنوية التابعة للقوات المسلحة ولكن لماذا لايشبع هوايته بالتمثيل فى برامج الإذاعة كغيره و .. قدم لى سيجارة وأشعلها وكنت أعرف أنه سيسأئف الحديث فى موضوع من عشرات المواضيع التى يفتحها معى كلما التقيته . إنشغلت عنه بالتدخين والنظر فى الأرض بشروء . وكنت أعرف أن حافظة أوراقه تحتوى على عجائب : عرائض ومذكرات وقصاصات صحف قديمة وصور قرارات إدارية ونصوص تمثليات وبرامج يمثل فيها ومسرحيات يخرجها لفرق المدارس والساحات الشعبية ، وجريدة الأهرام ، وقميص نظيف لزوم التغيير إذ هو يمكث فى القاهرة خمسة أيام كل أسبوع واليومان الباقيان فى بلدته الحسينية بمحافظة الشرقية . دائما أبدا نلتقى فى هذا المصعد لننتهى إلى مكان واحد ، قد يجلس معى ، أو يسرح به الكلام فنقطع شارعا بأكمله فلا يستأذن فى الإنصراف إلا إذا صرفته أنا بصريح العبارة .

وضح لى أنه صاعد من الطابق الثالث ، حيث توجد مراقبة التمثليات بكل مخرجيها وسكرتارياتها ، وفى الجناح المقابل توجد إذاعة البرنامج الثانى ، وفى الطابق الرابع توجد إذاعة صوت العرب ، ومكتب الشاعر أحمد رامى ، ومكاتب إدارات أخرى ضاق بها مبنى الشريفين المقابل ، فهذه العمارة تقع على ناصيتى شارعى الشريفين وعلوى حيث استأجرت فيه الإذاعة طابقين كاملين حافلين بالغرف الكثيرة ، أما الطابق الأخير ، الذى كان بمثابة سطح ، فقد

استأجرتة جمعية الخدمات المكونة من العاملين فى حقل الإذاعة وحولته إلى ناد للإذاعة ، فابتنت الجمعية جناحا واحدا هو الجناح المطل على شارع الشريفين ، وجعلت من الجناح المطل على شارع علوى قاعة كبيرة تحيطها الشرفات كالكورنيش من جميع الجهات ، ثم قسمت هذه القاعة الكبيرة إلى قاعتين فسيحتين ، إحدهما تشبه المقهى الجميل الحافل بالمناضد والمقاعد ، بحوائط من الأخشاب والزجاج والمرايا ، والقاعة الأخرى للتدريبات على التمثيل قبل التسجيل ، ولها شرفة تطل على شارع علوى ، حيث تقف عمارة استديوهات علوى شامخة عتيقة الطراز .

كان «عباس نحمده» يتصيب عرقا مع أن الوقت ليل بارد . وجدتنى أسأله : «ستجد أحدا فى النادى الآن ؟» قال وأنفاسه تصفر فى صدره : «النادى سهران حتى الفجر !» ، ثم أضاف : «هناك بروقات ومقابلات ! برنامج أضواء المدينة سيقم غدا حفلا لصالح الجمعية صاحبة النادى ! كل الفنانين متطوعين بلا أجر !» . وجدتنى أسأله : «هل الشيخ إينو هناك الآن ؟» . قال : «نعم ! هو رئيس مجلس إدارة الجمعية وصاحب النادى وصاحب فكرة الحفل ! هو طول النهار كأم العروسة فاضية ومشغولة !» . شعرت بانقباض مفاجئ ، سألت نفسى : لم هذا الإنقباض ؟ لم سألت عن الشيخ إينو؟! تبينت أننى كنت صاعدا إلى النادى لنفس الغرض الذى يسعى إليه عباس نحمده : إختلاس ساعة أو ساعتين من النوم فى مكان آمن بلا حرج . تبينت أن طموحى لم يكن يقف عند هذا الحد ، وأننى كنت أزمع التسلل خفية إلى غرفة خلفية نائية فى الجناح المطل على شارع الشريفين ، هى على وجه التحديد غرفة رئيس مجلس إدارة النادى الشيخ عبد العزيز إينو ، ذلك الرجل الطيب ، الأفندى المطربش ذو اللحية البيضاء الطويلة والقامة الفارعة المهيبة ، الذى حصل على لقب المشيخة كعضو مهم جدا فى القيادات الأولى لجماعة الإخوان المسلمين ، وأصبح يتعامل

فى هذا النادى مع فئات يعرف أن الكثيرين منها على درجة كبيرة جدا الإنحلال الخلقي لكنه يعرف أن نسبة أكبر على غاية من الفضيلة والظهر ليست غرفته نفسها هى قصدى إذ أنها فى عدم وجوده مغلقة بالمفتاح ، إنما أقصد غرفة الصالون الملحقة بها ، وهى كبيرة جدا ، تصلح كسرادق كبير ، تتسع لحوالى مائة كرسى صالون منجد مذهب على طراز ملوكى مهيب ، وعشرات من الطقاطيق والتراييزات الصغيرة ذات السطح الرخامى ، أما الأرض فمفروشة بالسجاد الثمين ، أعدت للإجتماعات الكبيرة ، إلا أن النوم فيها متعة لأحد لها ..

رأيتنى مقبلا نحو هذه الحجرة من الجهة اليمنى وقد قر فى ذهنى أنها مخبأ عظيم لمن يريد أن يقطع صلته بالعالم كله نهائيا ، هى نادرا ما تفتح للزوار ، وحتى إن هى استقبلت زوارا فإنها تستوعبهم جميعا فى ركن صغير بحيث لايمكن الجالسون فيه من رؤية من يستلقى نائما خلف أحد المقاعد بينه وبين الحائط . بابها دائما مقفل لكنه غير مغلق بمفتاح الخبثاء من الممثلين والمخرجين يتسللون إليها فى أحيان نادرة جدا للإختلاء بغدوة شهية شاركوا فى تكاليفها . ضبطهم الحاج إينو ذات مرة فهاج فيهم وفى الجميع وملأ جدران النادى بالملصقات التى تحض على احترام المكان وعدم اقتحام الغرف المصونة . ولقد نفذوا تعاليمه بالفعل ، إلا الممثل العاطل «إسماعيل نعيمه» ، ذلك الطيب القلب ، المتخرج فى معهد الفنون المسرحية فى أول دفعة مع شكرى سرحان وصلاح منصور وسميحة أيوب وعبدالمنعم إبراهيم وغيرهم من النجوم ، يعمل مفتشا للمسرح المدرسى بوزارة التربية والتعليم ، يشغل نفسه دائما بقضايا الممثلين المهنية ، عضو بمجلس إدارة نقابة السينمائيين ، يسعى لتأليف نقابة للممثلين وحدهم ، يتحدث عن التمثيل حديثا مثقفا راقيا ، يقرأ باستمرار أحدث ما صدر فى العالم من أعمال درامية ونقدية ويعرف أحدث المدارس ، والمذاهب

والتيارات الفنية الجديدة من بز أمها ، من اللامعقول إلى الغضب إلى الخنافس ، والهيبيز ، دائما أبدا يحمل كتابا إنجليزيا أو فرنسيا فى جيبه ، وجميع ما صدر اليوم من صحف ومجلات وكتب ، حيث يجلس فى النادي ليقرأها . مع ذلك هو آخر من يعمل بالتمثيل ، لسبب يبدو مجهولا ، مع أنه نمط فنى مناسب للسينما على وجه خاص ، إذ هو ربة القوام مبروم متين البنيان فى غير امتلاء ، يرتدى البذلة الكاملة صيفا وشتاء وهى دائما مكوية ، ولا بد من رباط العنق تحت ياقة يعلوها الغبار وزيت العرق على حافتها الدائرية حول رقبة القصيرة الملفوفة . وجهه مدور ، بملامح باهتة ، فالأنف مجرد إشارة بمنخرين لطيفين ، والفم مجرد بسمة مهذبة أسيانة على درجة كبيرة من النبل . مهذب إلى أقصى حد ، رقيق الحاشية صافى العبارة موجزا ، لا يتحدث إلا بالشديد القوى ، حين يكون هناك ضرورة ملحة لأن يتحدث ، فإن تحدث أفاض حتى أوفى وأفاد وقدم معلومات جديدة وكشف عن أدلة دامغة وبراهين عقلية محكمة ، بصوت رخيم رصين متزن مهيب ، قد يعرج الحديث على السياسة فإذا هو سياسى حريف من ساسه لراسه ، وإذا هو موسوعة فى أسماء السياسيين وشئونهم فى جميع العصور فى جميع أنحاء العالم ، ويتوسع أكثر فى شئون أفريقيا وأمريكا اللاتينية وإسرائيل . حديثه فى هذا فريد فى لونه لم أعده عند كبار الأساتذة والمثقفين ، حيث تمتاز السياسة بالأدب بالتاريخ ، حيث يعقب بقول لبرنارد شو فى إحدى مسرحياته على فعل لأحد الزعماء ، وحيث يحلل التاريخ على ضوء رواية لشتاينيك أو هيوارد فاست من أمريكا أو لتشيكوف ودستوفسكى من روسيا ، وحيث يربط بين النشرة الجوية وتصريحات عبدالناصر ، وبين تأخر الجرسون فى الإتيان بفنجان القهوة وما حدث لنا فى النكسة العسكرية ، حديث يتسم بالصراحة والجرأة على طول الخط ، رأيه فى مستوى المخرجين والممثلين والمؤلفين معلن بشكل أو بآخر ، كل واحد من هؤلاء وأولئك يعرف وزنه

الحقيقى فى نظره . ربما لهذا يحجم المخرجون عن استدعائه للتمثيل فى برامجهم ، ربما لشدة اعتزازه بكبريائه لدرجة أنه لم يفتح أحدهم من قريب أو بعيد فى مسألة العمل ، بل إنه لا يأنه بهذه المسألة على أى نحو ، هو الوحيد الذى يبتسم لكل الناس ، يعطف على من يسخرون منه سرا وعلانية ، بقرض نقودا لمن يحرمونه العمل فلا ينتظر استردادها وكل معذور فى قرشين يميل عليه فلا يرده خائبا أبدا . غداؤه فى النادي يعم بالخير الوفير على جميع الموجودين لحظتها فضلا عن نغمة الساعة هو ليس ثريا مع ذلك ، بل إن حياته أطرف من فيلم فكاهى دامع الضحكات ، إذ هو ورث عن أمه عمارتين كبيرتين متجاورتين فى شارع شريف فى وسط المدينة . وكانت أمه متزوجة من رجل آخر بعد موت أبيه الذى لم ينجب منها سواه ، وخلفت أمه بنتا وحيدة من زوجها الثانى ، الذى كان موظفا بسيطا جدا تزوجته عن حب ولشدة افتتانه بشخصها جعل بينا وبين أموالها سدا منيعا ، وقد مات زوج أمه ، وباتت أخته عاجزة عن العيش وحدها فى شقة كبيرة فى العباسية بإيجار كبير ومعاش قليل ، فنقلها إسماعيل لتعيش معه فى شقته فى مصر الجديدة وأهدى شقة العباسية لعروس كانت تخدم أمه منذ طفولتها . صار يسعى لستر أخته حتى يخلو تماما من المقلقات ، حالفه التوفيق فى اختيار عريس محترم من زملائه فى وزارة التربية والتعليم لكنه فقير الحال وإن كان ماضيا فى سلم الترقى بسرعة يحسد عليها لولا أنه يستحقها بدعائم من أخلاق حميدة وجد واجتهاد كبيرين . وقفت شقة الزوجية عقبة فى طريق إتمام الزيجة ، فلم يضيع إسماعيل وقتا ، تنازل لأخته عن شقته بكل ما فيها من أثاث ثمين عريق فاخر الرياش استوردته أمه من بلاد الفرنجة ، إنطلق متصعلكا فى وسط المدينة قريبا من الجو الفنى وسهراته وتجمعاته ، إستقر سكته فى بنسيون أنديانا ، تملكه سيدة يونانية عجوز . الطريف أن البنسيون عبارة عن شقة مهولة فى إحدى العمارتين اللتين ورثهما إسماعيل نعيمه عن أمه .

هو يستحق من اليونانية العجوز إيجارا شهريا عن الشقة التي حولتها إلى بنسيون هو أحد سكانه ، لكنه حريص دائما على أن يعطيها إيجار غرفته كل شهر سواء دفعت هي الإيجار أو تأخرت في دفعه . لم يحدث أن قال لها في يوم من الأيام : «إخصمى حقل من حقى لديك !» ، تقول هي ذلك لكل صديق يزور إسماعيل في البنسيون أثناء أنتظاره في غرفة الصالون العمومى . لذا فإنها تهتم بضيوفه غاية الإهتمام ، تسجل له أسماء من يطلبونه في الهاتف أثناء غيابه ، تولى غرفته وفراشه عناية خاصة ، تضيف ثيابه إلى الملاءات عند الغسيل لتقنها أنه سيدفع تكاليف غسيل البنسيون كله عن طيب خاطر . ولقد تجاوز الأربعين من عمره بقليل ولم يفكر في الزواج ، ولم يدخل في علاقة نسائية . الكل يعرف ما يمكن أن يكون السبب ، إنه مرض جلدى خبيث جدا في يديه ، إذ تبدو اليدان والعياذ باله محروقتين متسلختين على الدوام يتحول جلدهما إلى قشر سميك كثيب اللون يتشقق ويتساقط صانعا جزرا على ظاهر اليدين وحول الرسغين . لم يكن يغيظه من هذا المرض سوى أنه يضطر دائما إلى الهرش فيهما بلذة تزيد المرض تفاقمًا وخطورة ، فدرب نفسه بشق النفس على مصادرة حركة الهرش بسرعة كلما شرعت أطراف أصابع يد تمتد لتهرش في الأخرى ، إذ سرعان ما ترتد الأصابع إلى بعيد بقليل من العصبية . كان دائم الرغبة في إخفائهما داخل جيبى السروال خاصة في بعض اللقطات السينمائية العابرة التي صورها في بضعة أفلام قليلة . ثم إنه اعتاد أن يفقد إحساسه بهما لوقت طويل ، لا يتذكرهما إلا حين تأكله جرثومة الهرش فيتحنس موضع الأكلان براحة يده في تمسيس خفيف . ولقد صرفت أمه على الأطباء لمدة عشرين عاما سافر هو خلالها إلى بضع عواصم عالمية ليعرض نفسه على أشهر أطباء الجلد حتى ينس وعافت نفسه العقاقير والمسكنات وقرفت من الأدمنة والمراهم . مع ذلك يبتسم في نبل حقيقى وهو يحدثك عن هذه المحنة ثم يقول ببساطة . «لقد

أصبحت أحب هذا المرض بحكم الألفة والعشرة الطويلة ! ولن أنسى أنه كان السبب في أنى أجدت اللغتين الفرنسية والإنجليزية من كثرة السفر ودروس التقوية ! سيظل دائما صاحب الفضل في أننى أقرأ الآن كنوز الفكر الأوروبى الثمين الذى يعوضنى عن خواء بلادنا من مثله ! يهون المرض الجلدى إن كان فى يدى لكنه يصعب إن كان فى عقل الأمة ! » .

ها هو ذا يخرج من هذه الغرفة الخلفية ساحبا الباب فى رفق وتلصص لطيف ، متأبطا لفة كبيرة من الجرائد والمجلات ، ويمضى متبخترا فى هدوء عبر الممر الطويل ، وكان الجو مغيمًا والسماء ترسل رذاذا خفيفا رفيعا تنسرب نقاط منه عبر تندة الممر لتسقط فوق الجزيرة الصلعاء الصغيرة فى رأس إسماعيل نعيمة ، محدثة صوتا ورذاذا ، فيمد يده المسلوخة ليمسحها بمنديل حريرى لونه لون السماء ، لم ينظر خلفه فلم يرنى . دفعت باب الغرفة برفق ودلفت داخلها ، فوجئت بشهقة توشك أن تكون صرخة ، رحت أتلقت منتفضا باحثا عن مصدرها ، داهمنى صوت نسائى لاهث مرتعب ضارع : «إقفل بسرعة أرجوك !» إستدردت فى الحال ، رأيت فى الباب مزلاجا داخلها فدفعته فصار من المستحيل فتح الباب من الخارج . خطوت فى اتجاه الصوت ، هناك فى آخر الغرفة عند صوان كبير عريض يقف كالحائط يمتلىء بالملفات والأضابير والدفاتر والكتب ، لصقه على الجانبين مجموعة دواليب وأدراج معدنية صنع شركة إيدىال . أعرف أن خلف هذا الصوان مساحة فارغة تتسع لأربعة أشخاص متجاورين بالعرض وخمسة بالطول ، أعدها الشيخ إينو ليقيم فيها الصلاة مع من حضر إذا أدركهم موعد الصلاة أثناء الإجتماع ، وفرشها بسجاد ثمين ، فباتت محوطة بكثير من الرهبة ولا أحد يقترب منها ، لا يقتحمها إلا من أراد الإستعانة بالصلاة على النجاح فى تسجيل أو سريان مشروع . رأيتنى أقترب من هذه المساحة مرتعش الساقين ، مائلا برأسى لأتمكن من رؤية من يكون مستترا فيها . لمحت ظهر

امرأة فارعة ، عارية تماما إلا من سروال صغير فى حجم الكف لا يغطى أى شىء . غملت الدماء فى عروقى وفارت . كانت هى ملخومة مرتبكة كمن أصيب بمس شيطانى، تحاول تخليص القميص من الفستان لتتمكن من لبسه، مؤخرتها البارزة الشامخة المفلوكة تترجرج . إستدردت أريد وجهها فأطلقت صيحة مكتومة وشرعت تتكور على نفسها . أهو أنت ؟ ماذا تريد ؟! هكذا قالت فى اضطراب وقد اصفر لونها وغاضت الدماء تماما فى وجهها . قلت : « لاتخشى شيئا ! لست أريد شيئا ! لكن ماذا بك أنت ؟! مالكاية بالضبط ؟! » . تربعت على الأرض باكية ، كانت قد ارتدت القميص وشرعت ترتدى الفستان ، فلما ظهر وجهها من فتحة الطوق راحت تجدف بذراعيها باحثة عن أحد كى الفستان ، فتقدمت لمعاونتها ، أمسكت بالكى وعدلته هيأته لدخول ذراعيها فيه ، فلما أكملت ارتداء الكمين صارت تشد الفستان تحت صدرها وهى تنتظر فى عيني من خلال دموعها فشعرت أنها تكاد تبتسم إذ أن لمعة الهزل الساخرة كانت تبرق فى عينيها على الدوام . شعرت أننى يجب أن أجلس لأستطيع التحكم فى تنفسي ، فجلست قبالتها على الأرض مرتبعا ، فصار كل منا ينظر فى عيني الآخر حتى انفجرنا فجأة فى ضحك مكتوم . ساقاها متكسران على بعضهما عاريان .

.. لم يكن يخطر ببالي على الإطلاق أن «مايسه البحراوى» يمكن أن تقع فى مثل هذا المأزق السخيف. آخر ما كنت أتصوره أن تكون بهذا الرخص برغم كل ما أعرفه عنها . إنها تتمتع ليس فحسب بحب الجميع بل واحترامهم ، إذ هى جامعية ، تخرجت فى كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية ، ومن أصل تركى محافظ ، عشقت فن التمثيل فأقنعت الجميع بأنها تنزلت من عليائها وتعطفت على الوسط الفنى بالنزول إليه ، دائمة التلميح إلى أن التاريخ سيعتبرها رائدة من الرواد أثبتت أن بنات البيوت والأسر الكبيرة المحافظة يمكن أن يدخلن

حق التمثيل ليجعلنه شيئا محترما فى نظر الناس ، وقد ظهرت بالفعل فى بعض مشاهد فى مسرحيات كثيرة ، ويسيل عليها لعاب مخرجى الإذاعة فيطلبونها بإستمرار للتمثيل فى مسلسلاتهم وسهراتهم فى أدوار تؤديها بحرفة لا بأس بها مدعومة بخفة ظل تمهد لها القلوب إلى حسن القبول مهما كان أداؤها ضعيفا ، معظمها أدوار إغراء تتطابق مع مواهبها الطبيعية ، كجسد فاره مخروط كأنما صنعه نحاس زنر نساء على المقاييس التى تلهب الصخر ، يصدر ويطن كالخريطة الملونة وخصر رفيع ومقعدة مدورة بانسياب مخروطى نحو ساقين رخامين ، وعينين سوداوين ، وصوت حريرى مبجوح ومكتنز بالمشاعر الحياتية الرنانة . لا تظهر مطلقا فى سهرات الوسط الفنى ، لم تضبطها الأعين مرة واحدة فى مكان عام بصحبة أحد ، لم تتردد حولها أى شائعات ، يغازلها كبار السن فقط ولكن بتحفظ وعلى استحياء . على ترابيزة البروفات فى النادى تتلقى مكالمات عبر الهاتف فيعرف الجميع أن «داده» تطلبها لتطمئن على وجودها إذ هى تأخرت عن موعد العودة للغداء .. هذه هى الصورة التى نجحت هى فى رسمها فى أنظار كافة المنتمين إلى الوسط الفنى . أنا الوحيد الذى يعرف أن هذه القصة كلها كذب فى كذب . الفضل لصياغتي الألفية بحثا عن مأوى، رغيف، كوب شاي، لفافة تبغ ، فحينما يشت من الوسط الفنى والصحفى كمصدر للعيش لجأت إلى صنعة كنت تعلمتها طفلا فى قريتي ، صنعة خياطة الجلابيب البلدى ، كنت قد حققت مهارة مبكرة فى شغل الماكينة بالذات حتى صرت أراهن على عشرين جلاببا أدقها على الماكينة فى اليوم بليلة لولا أنني أشعر نحو هذه المهنة بالأنفة والكبرياء والكراهية لأنها لا تترك لعيني فرصة للقراءة أو الكتابة ، لم أكن ألجأ إليها إلا كعملية إنقاذ سريع مؤقت ، خاصة فى المواسم كشهر رمضان أو العيد الكبير ، حيث أجوب الأحياء البلدية المغرقة فى الشعبية أو الضواحي البعيدة المتصلة بالريف ، أبحث عن محل ترزى

عربي ، لأدخل على المعلم . صحيح أنني أخذ سميت الأفندي المثقف ، لكن بصمات المهنة ماتزال باقية في شخصي في مظهرى في أطراف أصابعي في طريقة إمساكى بالقماش في انحناء رأسى في حديثى الملىء بمصطلحات المهنة ومفرداتها . المعلم سرعان ما يفهم أنني ابن المهنة ، يسألنى في الحال ، «فطرت يا أسطى ؟» أرد عليه مغمغما بالفاظ مضغمة ، يرسل فى طلب صينية الفول ويراد الشاى . أقوم لأرد التحية ، فأركب الماكينة - ماركة سينجر فى الغالب - أفك سيرها الجلىد المبروم أمسك بالمزيتة فأزيت رأس الماكينة من الداخل بعناية ، ثم أعيدها إلى وضعها وأزيتها من الفتحات الخارجية ، ثم أمسحها بكهنة من القصاصات ثم ألضم الخيط فى الإبرة ، وأسرب يدي تحتها فأنزع المكوك لأرى إن كان مملوءا بالخيط أم يجب أن أملاه بالمرة . ذلك والمعلم المتربع خلف «التكرة» - بنك التفصيل الذى بلا قوائم - يراقبنى من تحت لتحت ، يدرس طريقة إمساكى للمزيتة وطريقة لضم الخيط وكل حركاتى الواثقة من نفسها فيتأكد أنني صناعى أطلب العمل بالفعل ، ينزع من جانبه لفافة قماش مفصلة يرميها أمامى على بنك الماكينة منتظرا تصرفى الأخير : طريقة فكى للفاقة وترتيب القطع والقصاصات وبأى قصاصة أبدأ الخياطة ، بعدها يندمج فى التفصيل مؤجلا الكلام فى التفاصيل حتى نهاية اليوم ، حتى يرى نظافة شغلى ومرانى وتدريبى ، القطعة بكذا ، واكراما لضيافتك بكذا ، ثم : آمال الأسطى منين ؟ من الحنة الفلانية ، ظروفى كذا وكيت ، أهلا بك ، ربنا يوقف لنا أولاد الحلال فى الغربية ..

دكان المعلم حسين حرفوش فى حى باب الشعرية بجوار مقابر باب النصر هو الدكان الوحيد الذى وافق مزاجى النفسى فمكثت فيه أربعة مواسم متتالية ، إضافة إلى أسابيع متقطعة بين المواسم . أمام الدكان مباشرة دكان مكوجى كان المعلم حسين يتعامل معه . المكوجى إسمه إينال مرزوق شاب فوق

الثلاثين من العمر بقليل ، جميل التقاطيع ، قمحى اللون شرش النظرات يشبه الممثل توفيق الدقن إلى حد كبير ، يكاد يكون هو ، إلا أنه طيب مسالم ، كسيب ، بيته فوق دكانه . البيت ملكه ، وحاله ميسور إلى حد يعلمه الجميع ويقولون إن بيته هذا مبنى فوق كنز فاطمى من العملة الذهبية . لهذا خطبت له أمه فتاة من بلدة فاقوس بمحافظة الشرقية كانت آية فى الجمال أسماها «عزيزة القشلان» تمت إليها بصلة قربى من بعيد . قيل إنها كانت طالبة بكلية الآداب لكنها رسبت فى الليسانس أربع سنوات ثم فصلت بسبب سوء سلوكها ، فلما تزوجت من إينال مرزوق أشاعت هى أنهم خدعوها فيه فزعموا لها أنه مثقف من الأعيان وأنها لو علمت أنه مجرد مكوجى مارضيت به . على شدة جمالها الفاتن لم يكن إينال مرزوق مستريحا معها ، بل كان دائم الشجار معها ليل نهار يضربها كل يوم علكة ، يعلو صراخها حتى آخر الحارة ، تظل بقية النهار تتبادل الردح مع حماتها بأعلى صوت وأقذع الألفاظ ، حتى علمت الحارة كلها أن عزيزة القشلان بنت سنكوحة لا هنا ولا هناك ، وأنها أجهضت مرتين وأجريت لها أربع عمليات ترقيع لغشاء البكارة فى أربع زيجات فاشلات قبل أن تلمها حماتها وتستترها ، مما جعل إينال مرزوق يضيق بها وبأمه وبالدنيا كلها ، فكان يضربهما معا حتى تسيل الدماء من ثلاثتهم . وكل بضعة أيام تلم عزيزة هدموما وترحل ، لتعود بعد بضعة أيام أخرى تطلب ورقة الطلاق ، فتتصدى لها حماتها معلنة أن هذه الورقة بعيدة عن شواربها ، فتدب الخناقة من جديد ، لتظهر أسرار جديدة مذهلة ، آخرها اعتراف حماتها بأنها من أسرة مهتكة ، أمها فى الأصل راقصة من العوالم من شارع محمد على ! اتضح من ردود عزيزة أن أمها كانت بالفعل من أهل الفن ، أما الحماة فكانت قوادة ، إبتنت هذا البيت من عرق فروج الضائعات ، وأن هذه الراقصة أم عزيزة هى الوحيدة التى لم تنجح فى الإيقاع بها فتأكدت من شرفها وإلا ما خطبت ابنتها لابنها . إلى أن جاء يوم

خرجت فيه عريضة القشلاق فلم تعد قط ، فداخ إينال فى البحث عنها فى كل مكان ، وكان فى أعماقه يحبها حبا كبيرا فظل يبكى حتى ذبلت جفونه ، وراح الناس يستنكرون حزنه عليها ويلومونه بشدة ويطالبونه بأن يحمد الله على أن خلصه من وكستها وكان لابد لإينال مرزوق أن يقنع الناس بأنه احتقرها ونسيها ، فخطب فتاة من نفس الحارة ودخل عليها فعوضته فى الحال بالخلفة التى كانت عريضة تحرمه منها بإرادتها مما يؤكد أنها لم تكن تنوى الإستقرار معه .

.. وحين شاهدت عريضة القشلاق أول مرة فى نادى الإذاعة ذهلت ، ومالت بى الأرض لما عرفت أنها تسمى نفسها «مايسة البحراوى» . كانت تعرفنى جيدا مثلما أعرفها ، غير أنها كانت تتحدانى من طرف خفى . إختليت بها ذات مرة لمدة دقيقتين فى المصعد فهمست لها قائلا بإبتسامة ودود : إزيك يا عريضة ، فصويت نحوى نظرات حامية وقالت بمنتهى الجراءة والتحدى : أهلا يا اسطى ، فلم أعقب ، وبدأ كأن بيننا عقد شفوى بالآ يتعرض أحدا للآخر . وكنت أعرف أنها كظاهرة من ظواهر الوسط الفنى ليست الأولى ولن تكون الأخيرة ، ولهذا تركت الملك للمالك كما أوصانى أهل زمان ، لكننى لم أكن أتوقع - ولاهى أيضا - أن يجمعنا هذا الموقف العجيب العصيب .

كانت عيونها ماتزال تثقب عيني ، قالت :

«تجسس على يانذل ياخسيس ؟!»

قلت بكل هدوء :

- لست نذلاً ولا خسيسا ! والله ما تجسست ولا هيببت ! إنما تسللت إلى هنا كى أضع رأسى خلف أحد هذه المقاعد أسرق ساعة نوم !»

بدا كأنها اقتنعت ، قالت :

- «ما كنت تحلم بفرصة كهذه ! جاءت لك على الطبطاب !»

قلت :

- «مظلوم والله فى كل ما ترميننى به !»

قالت :

- «ماهى شغلتك بالضبط ؟!»

قلت :

- «تعرفين جيدا أننى صحفى وأديب ومؤلف !»

قالت مستدركة مع هزة رأس خفيفة تماوج منها شعرها بجميع شلالاته

المنطرحة على ظهرها :

- «نعم ! مثلت مرة فى برنامج من تأليفك ! لكن ما حكاية الترزى

العربى هذه ؟!»

قلت :

- «مهنة تعلمتها فى الصغر ! ألجأ إليها كلما ضاقت بى الحال ! ولكن

قولى أنت ما حكاية ما أراه الآن ؟ !»

سحابة من الدمع الهازل تترقرق فى عينيها !

- «نصيبى ! بختى المائل وحظى العاثر ! الحمد لله على كل حال !»

وشرعت تنهض واقفة ، لولا أن الباب اندفع من الخارج فانتفضنا معا ،

وهمسنا فى نفس واحد : الفضيحة !! ثم فوجئنا بأننا قد ارتمى كل منا فى

حوض الآخر بحثا عن ملاذ ، كانت رائحتها مسكرة . سمعنا أصواتا فى

الخارج تنهاس : «الشيخ إينو أغلق الحجرة بالمفتاح ! كان لابد أن يغلقها بدلا

من المسخرة والمهازل التى قد تحدث بها ! هيا نخفى الآن من هنا قبل أن نتهم

بأننا كنا نحاول كسر الباب !!» ، وسمعنا أصوات أقدامهم تتباعد . فدفعتنى

عنها برفق وهى تشير إلى حجرى قائلة :

- « طلبت مرخيا يرفضنى فظفرت بمشود أرفضه ! »

إنتبهت إلى أننى صرت مشود الوتر بصورة مخيفة وأننى غارق فى الليل ، فهجمت عليها بجنون قاتلا ، بطلى فلسفة ، وصرت أمصرها وأقبلها فى كل مكان . بكل جنون وشراسة نزع ثيابها حتى عريتها تماما ، وكورتها ، فتضاعل جسدها حتى صار كالخيزانة المطوية . لأظن أننى يمكن أن أنسى حرارة اللقاء ونشوته ما حييت . طوال ما يقرب من ساعة كائننى أنشبت بأخر فرصة ساحرة فى حياتى ثم أفقت وأنا أزرر السروال وأحكم وضع الحزام فيما أتسلل على أطراف أصابعى لأزيح المزلاج برفق شديد وأنظر من خصائص الباب إلى الممر ثم أندفع خارجا أتنفس الصعداء ، متسللا إلى حجرة البروفات ومنها إلى مدخل النادى فأتلقى منضدة أجلس إليها لأراها مقبلة من الممر الأيسر . أشرت إليها فأقبلت كأنها ترانى صدفة . طلبت قهوة لى وينسوننا لها ، ثم أنصت إليها وهى تحكى لى قصتها مع إسماعيل نعيمة :

- « على فكرة ! لقد رضيت لك لأنى أحسست أنك أصيل ! أنت تعرف عنى أشياء كثيرة ومع ذلك لم تقلها لأحد ! وأحلى ما فيك أنك تركتني فى حالى ولم تحاول الإحتكاك بى ! ربنا يسترها على ولاياك » . قلت :

- « ما أظن أن الكلام عنى يهمنى الآن ! إنما يهمنى أن أعرف ما حكايتك مع إسماعيل نعيمة ! سأعرف لنفسى فحسب ! » بسطت يديها أمامها بكل هدوء وبساطة !

- « أحببت ! لم أحب أحدا فى الدنيا مثلما أحببت لا أحد فى الوسط الفنى كله يعرف أنه كل شىء فى حياتى ! هذا ما يحببنى فيه أكثر وأكثر ! غير أننى لست أفهم أبدا : هذه أول مرة فى حياتى أعجز عن فهم رجل ! واليوم

كنت أتخيل أننى على مقربة من فهمه ! فإذا بى أقتنع أننى لن أستطيع فهمه ولو عملت البدع ! إنه إنسان غريب غريب ! هل تتصور أنه كل شىء فى حياتى ؟ نعم قصتى معه طويلة ! يعرفنى وأنا طفلة فى الابتدائية فى المسرح المدرسى ! كان يفتش علينا ورأى أمثل دور كليوباترا فى مسرح المدرسة فقبلنى وتكلم عنى فى ميكروفون الحفل قائلا إننى مفاجأة وإن مستقبلا كبيرا ينتظرنى ! كلمته سكنت أذنى بقية سنين الدراسة ! إعتقدت أننى بالفعل لم أخلق لشيء آخر غير التمثيل ! وكنت أريد أن أدخل معهد التمثيل لكن أبى كان معقدا من الفن ويمقت اسمه ! إنه للعلم شيخ بلد لقرية فى مركز فاقوس ! أقصد أنه حين تزوج أمى كان شيخ بلد ! وكانت أمى متخصصة فى زف العرايس يجىء لها الناس من كل مكان ! وقع أبى فى هواها فتزوجها وعاش معها فى مصر سنوات طويلة باع فيها جزءا كبيرا من أملاكه وضاعت منه مشيخة البلد ! ولما رأى أن الحياة فى مصر مكلفة عاد إلى البلد وقهر أمى فى البيت منعها من الفن ! وكان العجائز من أهل البلدة يغمزون ويسخرون منه ومن زوجته الأرتيست ! ولولا أنه يحب أمى لطلقها ! لكنه كره الفن ومنعنى من ذكر اسمه ! من ورائه صرت أمثل فى المسرح الجامعى وفرق الهواة ومجاميع الكومبارس حتى أهملت الدراسة فى كلية الآداب ففصلتني فخفت الرجوع إلى البلد فتزوجت من رئيس اتحاد الطلاب الذى فشل فى الدراسة هو الآخر وصاع شهورا فطلقت نفسى منه فسافر للشغل فى الكويت ! فتزوجت تاجر مانيفاتورة كبيرا فى شبرا كنا نسكن فى بيته أنا وزوجى السابق ! لكنه كان متزوجا وله قبيلة من الأولاد إشتغلوا لى فى الأزرق : تهديد بتشويه الوجه وبالقنل ! أبوهم ضحيف

الشخصية يخاف منهم ! خفت على نفسى ! فاوضته فى الأمر فأعطانى مبلغا فوق مؤخر الصداق وطلقتى دامع العينين ومات بعد تطليقى بشهرين ! صرت أنتقل من شقة مفروشة إلى شقة مفروشة وأتسقط أخبار البلدة فعلمت أن أبى قد مات منذ شهور لكنه كان قد أنجب من أمى طفلة جديدة ! أمى باعت الفدان الذى ورثته وافتتحت محلا لتفصيل الملابس الحريمى ! قلت يابنت ارجعى إليها وعيشى معها فى المحل أكرم لك ! تغيرت أمى من جهتى أصبحت لا تأمن جانبى ! ما صدقت أن خطبنى إينال فقالت : المركب اللى تودى ! على فكرة أنا لا أكرهه ! إنه ولد طيب وجدع لكنه مقفول وغشيم وغير متحضر ! كنت أستطيع أن أنجره وأجعله على مقاسى لو كنت أنا التى اخترته بمزاجى ! إنما هو كان فى نظرى الرجل الذى زحلقونى عليه ! قلت يا بنت اقبليه مؤقتا لكى تعودى إلى مصر قريبا من هوايتك ! المهم صارت تحدث المهازل التى كنت تراها بعينيك ! أنا على فكرة لست بالصورة التى كنت ترانى عليها ! إنما كنت مضطرة للظهور بالشراسة حتى ينفر منى إنيال ويطلقنى ! أنا مصدر كل الشائعات السيئة التى انتشرت عنى فى الحارة ! لكن إنيال كان يفهم حقيقة شخصيتى وهذا هو الشئ الوحيد الذى فهمه فى حياته ! لما تأكدت أنه لن يفرط فى حتى لو ضربته بالجزمة القديمة قررت الاختفاء من حياته وتغيير شخصيتى القديمة كلها ! لحظة رميت بنفسى بحقيبة ملابسى فى أول تاكسى فى دغيشة الفجر خلعت شخصيتى ورميت بها فى صندوق الزباله فى الطريق ! فى مصر الجديدة داريت نفسى فى كافيتريا حتى الضحى فقممت لزيارة صديقة لى من زملاء الجامعة زوجها ضابط فى الجبهة فى القناة ليل نهار حتى نسيت هى أنها متزوجة ! تعيش مع أمها الأرملة وأخ صبى صغير ! كنت أنوى أن أجعلها توسط زوجها فى إلحاقى بوظيفة فى مكان محترم فإذا بالقدر يدخر لى مفاجأة من أعجب ما يمكن ! فوجئت بإسماعيل نعيمة يقف أمامى بلحمه وشحمه فى

مدخل العمارة ! ركبتنى عفاريت السعابة كلها ! واندفعت عليه أكاد أحضنه : الأستاذ نعيمة ؟ مش مقول ! ذاكرته حديدية ! نظر فى وجهى لمدة نصف دقيقة ثم هتف : عزيزة ؟ القشلاق ! قلت : ما شاء الله ! ظهر الانبهار فى عينيه من شكلى صار يحيطنى بنظرة من فوق لتحت متبسما كالعبيط ! ثم قال : أية ربح سعيدة جاءت بك إلى هنا ؟ عامله إيه ؟ دفتنى نفسك ليه ؟ يا ريتك دخلتى معهد التمثيل ! قلت هل تسكن فى هذه العمارة ؟ قال أختى هى التى تسكن فى شقتى القديمة وسأتعدى عندها اليوم كل سنة وانت طيبة بمناسبة موسم عاشوراء ! على فكرة يمكن أن أعزمك لو أحببت ! قلت شكرا أنا فى زيارة لصديقتى هالة السمديس ! قال اعزميها وأمها وأخاها أهلا بهم قولى لها تكلمنى فى التليفون إن الرقم عندها ! بعد الغداء صعدنا إليه فى الطابق الخامس فى شقة السطح التى بعرض العمارة كلها ! جلسنا فى الشرفة البحرية نشرب البيرة وندخن ونضحك ونتحدث إلى وقت متأخر من الليل ! عند انصرافنا تلكأ خلفى وهمس لى بكل مواعيده وعناوينه وطلب أن يرانى ! بعد يومين كنت أجلس معه فى كازينو البيروكيه أحكى له قصة بختى المايل ! كاد يبكى ! فى تلك الليلة رسم لى خطة الدخول فى الوسط الفنى ! اختار لى اسم ماييسه الجراوى ! ونزل معى فاستأجر لى حجرة فى بنسيون أنديانا فى جناح مقابل لحجرته ! أعطانى مبلغا من المال أصرف منه وأوصى بى اليونانية قائلا لها إننى بنت عائلة كبيرة ! على فكرة هذه اليونانية هى الدادة التى تطلبنى بالتليفون دائما على ترابيزة البروفات كما أوصيتها وعيشتها فى دور الأم بالنسبة لى ! صار إسماعيل نعيمة يتكلم عنى فى قعداته بين المخرجين والممثلين والمنتجين حتى فرش لى أرضا بالزهور وأصبح الجميع متشوقين لرؤيتى ! ولهذا اشتغلت من أول لقاء بينى وبين مخرج مسرحى فى مسرح الأزيكية كان يخرج مسرحية لفرقة خاصة كبيرة ! الدهش أن الدور الذى أعطاه لى كان - أيضا - دور كليوباترا استغرق على

مخيف : لا ! إلبسى هدمك بسرعة ! أنت مجنونة ! سأخرج ! وفعلها بكل بساطة ! تركنى وخرج ! فكأنتى وقعت من برج الجزيرة فوق الأرض فتهشمت ضلوعى وحتى الآن لم أفق من الصدمة ولست أعرف ماذا سأفعل معه أو يفعل معى حينما نتقابل ! إنى واثقة أنه طيب القلب لن يفعل شيئا يسئ إلى ! الآن قد أحببته أكثر وأكثر لتأكدى أنه ليس دنينا وليس طامعا فى شئ !! صدعتك وصدعتنى لكننى أرحتك وأرحتى ! عن إذنك لأن عندى بروفة مسلسل إذاعى !!».

.... ارتجت الأرض ، سرعان ما توقف المصعد . تقدم «عباس نحمده» وفتح الباب الداخلى ثم دفع الباب الخارجى فظهرت أضواء النادى تغمر الممر ، وانبعث صوت غناء الراديو وندنة آلات موسيقية فى مكان قريب ، وأصوات زهر الطاولة واصطكاك الأكواب وضحكات ماجنة وبكاء حار وجعير ملتاح ، هى إذن بروفات لتسجيلات سوف تتم فى الساعات القليلة القادمة . تبينت أننا لابد أن نكون فى شهر رمضان ، تذكرت أننى اليوم ، بينما كنت ما شيا فى شارع شريف الساكن تماما والخالى من أى حركة بعد المغرب مباشرة سمعت صوت آمال فهمى فى الراديو تلقى نهاية الفزورة والموسيقى تزفها بهدير صاحب ..

«عباس نحمده» يتقدمنى داخلا . الأخضر يجابهنا من الداخل ملفوفا بضوء باهت منبعث من شموعات كهربية متخفية فى الجدران كجفون مقروحة خلف أهداب من الزجاج المغيث . الأرض هى الأخرى مفروشة بالفرومايكا الخضراء الباهتة وكذلك الجدران مدهونة بالزيت الأخضر . ثمة لوحات كلاسيكية منقولة بسذاجة عن لوحات عالمية ومعلقة هنا وهناك . مناخذ مرصوفة على الجانبين فى الردهة المستطيلة ، كل منضدة محاطة بأربعة مقاعد من الخيزران . فى الجدران شبابيك كبيرة تطل على ممر رفيع ، يحده سور

المسرح عشر دقائق ! أدهشت الجمهور فصفق لى حتى غسلنى بالفرح وشعرت كأنتى ولدت من جديد ! من هذه اللقطة عرفنى جميع المخرجين ! كان إسماعيل نعيمة دائما يرسم لى خطط التعرف ويشرح لى نفسيات المخرجين قبل رؤيتهم ويشرح لى الأدوار التى أمثلها ويعيرنى كتباً مهمة أقرأها ويشترى جميع المجلات والصحف ليبعثها لى آخر الليل ! منذ بضعة أيام فاجأنى بعقد فى فيلم سينمائى لحسن الإمام ! رغم توقيعى للعقد لم أصدق أننى قد صرت ممثلة بهذه البساطة ! دور بنت سكرتيرة بطل الفيلم رشدى أباطة ! كل ذلك ولم تبدر منه أية لمحة تدل على أنه يطلب منى أى شئ ! توهمت أنه ربما يدخرنى للزواج لكنه صرح لى بأنه ليس فى خطة حياته الزواج ! ليس من المعقول أن فى الحياة شخصا يقدم لإنسانة ضائعة كل هذه الخدمات بلا مقابل ! أحيانا كثيرة كنت أسعى للانفراد به فى أى مكان فأقبله فإذا بقبلته ساخنة تؤكد حرارتها أنه يشتهينى ! من حبى له وامتنانى قررت ألا أضن عليه بجسدى ! لقد ركبنى الأنزال والأغبياء والضعفاء بموجب ورقة رسمية لا قيمة لها ولم أكن أشعر مع أحد منهم أننى أريده بالفعل ! أما هذا الشخص فقد أردته بكل كيانى بملء حرىتى ! قررت أن أنهى قلقى من جهته ! أن أعرف النهاية لأريح بالى ! ظننت أنه ربما يكون مكبوتا لعدم وجود المكان إذ أن البنسيون فيه حواجز ! وهو من جانبه لا يتحرك نحوى ! لكنه اليوم قابلنى فى النادى فأخذنى بالحضن لأول مرة وضغط على ظهري بذراعيه على غير العادة فتفككت أعصابى ! وكان النادى خاليا تماما فصرنا نتمشى فى الممر ! صرت أحدثه عن حبى له ! صار يحدثنى بالمثل ! رأينا الغرفة الخلفية مفتوحة ! وجدنا أنفسنا بداخلها وقد اندمجنا فى احتضان وتقبيل وتمريغ وفرهة حتى هيجنى وسبب كل مفاصلى ! فقممت فى الحال فأغلقت الباب بمزلاجه واستترت بالصوان فخلعت ملابسى وناديت له لكن الملعون سابت مفاصله وصار يرتعش كريحشة فى الريح وصار يرجونى فى فحيح

طويل بارتفاع نصف قامة رجل ، كثيرا ما يرتكن عليه بعض الذين يختلون ببعضهم فى أحاديث جانبية ذات شجون . على يمين الداخل ممر يؤدى إلى حجرة البوفيه الصغيرة ، يجاورها باب يفتح على الممر ، الذى إن سلكه الداخل وحود يمينا أيضا ومضى طويلا يستطيع أن يكسر يمينا ليصير فى مواجهة باب الغرفة الخلفية ، غرفة الصالون الملحقة بغرفة الشيخ إينو رئيس مجلس إدارة النادى . وعلى يسار الداخل ممر عريض . فى مواجهة الداخل من باب النادى منصة صغيرة يجلس عليها مراقب يتلقى الماركات كنظام المقاهى ويقوم بمهمة موظف الاستعلامات ، بجواره آلة التليفون . من هذا الشخص تستطيع أن تعرف كل ما تريد أن تعرفه عن أى شخص من رواد النادى وأى بروفة وأى خبر عن أى تسجيلات ، بل إنه لم بأخبار جميع السهرات السرية التى يقضيها عدد كبير من الرواد ، وخط التليفون قائم بينه وبينهم طوال الليل يتلقى أخبارا يبلغها لفلان وفلان بأن فلان وفلان فى انتظاره فى المكان الفلانى وأن على فلان أن يستحضر معه كذا وكيت . بجوار منصته كنبه كبيرة ومقعدان على الطراز الأسىوطى المنجد ، ومثلهم فى الجانب المقابل . للداخل أن يجلس هنا أو ها هنا فى انتظار موعد بروفة أو موعد تسجيل ، وله أن يدخل إلى الممر الضيق الذى يطوق النادى من جميع الجهات ، فإن عبره وجد نفسه فى غرفة مستطيلة عريضة تحتلها ترابيزة وسط كبيرة جدا مطوقة بالمقاعد من جميع الجهات تلك هى ترابيزة البروفات المبدئية ..

مثما يحدث دائما اتجهت إلى الكنبه المجاورة لموظف الاستعلامات فرميت بنفسى فوقها . ثم انتبهت إلى أن منظرى لم يكن لائقا فسرعان ما اعتدلت محاولا الانجعاص قدر ما أستطيع مريحا مؤخرة رأسى على حافة الخشبة ، واضعا ساقا على ساق كائى نجم من نجوم النادى وما أكثرهم . أعرف أن مصطفى النادل سيجئ لى بفنجان القهوة تلقائيا دون أن أطلبه ،

وسوف لا ينتظر أن أدفع ، إنه حسن النية بى مثما هو حسن النية بكل رواد النادى ، أنافى نظره سعادة اليك المؤلف والمحرر الصحفى ، لم يعرف بعد ، وربما لن يعرف أن هذا مجرد لقب اشتهرت به ولا تمثيل له فى الواقع بأى قدر ، إلا أن الأمر لا يخلو من مفاجآت تؤكد صدق اللقب تمنحنى فرصة أعرض لثل هذه الانجعاصة المرفوعة القامة ، فمن حين إلى حين يسجل لى أحد البرامج أقصوصة فى خمس دقائق أقبض عنها أربعة جنيهات وربيع ، أبادر فأدفع حساب البوفيه وحساب محلى السجائر على ناصيتى الشريقتين وعلوى تحت نفس العمارة ، وحساب المقهى ، أو بعض ذلك ، مجتهدا أن تتوفر بعض البرايز والشلنات لزم الانتناس بوجود النقود فى الجيب لبعض الوقت . الولد «سمير بندق» الكومبارس علمنى فكرة عبقرية حمدتها له ، جعلتنى مشهورا فى هذا النادى فى ظرف أسبوع واحد ، وبات اسمى على كل لسان ، إذ أعطيت رقم تليفون النادى لكل من التقيقه ، لفتيات من الكومبارس توهمن أننى قادر على تقديمهن للمخرجين أو التنويه عنهن فى أخبار صحفية بصورهن ، لناس اقترضت منهم نقودا أثناء زنقات ، لناس أوصيتهم أن يبحثوا لى عن عمل ، لبعض أصدقاء ومعارف يتصوروننى ذا شأن فى الوسط الفنى ، ففى كل بضع دقائق يرن جرس التليفون ويصيح موظف الاستعلامات فى جدية ومهابة : الاستاذ فلان الفلانى ! الاستاذ فلان الفلانى ! ، فإذا ظهرت بعد ذلك فإن أحد النوادل يهرول تجاهى هاتفا : يا فلان بيك ! فلان الفلانى أو فلانة سألت عليك اليوم أربع مرات ! وفلان يقول لك من فضلك إسأل عليه ! .. فأهز رأسى فى شياكة ورزاة - كما يفعلون - قائلا له : شكرا يا فلان ! ثم أعطيه سيجارة إن كان معى سجائر ..

فتحت عيني فى سأم ، طعم مر فى فمى . رأيت أمامى على الكنبه المواجهة تمثالا بالحجم الطبيعى لمومياء فرعونية فى لون الفخار المحروق حادة

الملاح منحوتة التفاصيل ، بعينين لوزيتين تنطلق منهما نظرات سأمانة مليئة بالكبرياء والأنفة ، وأنف طويل مستقيم كحرف الألف ، تحته قم بيوز مملود بشفتين غليظتين مطبقتين على شعور بالاشمئزاز ، تنسرب من بينهما سحائب الدخان . ذراع طويلة تمتد لتمسك فنجان القهوة بأصبعين طويلين تلمع فى أحدهما دبلة الزواج ، وذرار القميص حول المعصم . الفنجان يقترب من الشفتين الغليظتين مارا برباط العنق الثمين الأحمر والياقة المنشأة البيضاء والسترة السوداء الأنيقة . سرعان ما تبينت أنه الكاتب المسرحى الأستاذ ميشو ، الذى يترجم لإذاعة البرنامج الثانى مسرحيات لأثر ميلر الأمريكى وقصصا لفوكنر ، ويكتب البرامج الخاصة الدسمة والقصص القصيرة المكثفة . كان الفنجان قد راح يتراقص فى يده فاضطر إلى تركه بالطبق فوق الترابيزة الصغيرة واستغرق فى ضحك عميق حيث انفشخ حنكه فظهرت أسنانه الكبيرة الصفراء . سرعان ما فهمت أنه يضحك من منظرى . سرعان ما تبينت أننى قد ملأت النادى شخرا وشخيرا منذ دقائق طويلة مضت . لم أسمع بنفسى هذا لكننى على ثقة تامة من أنه قد حدث . تبسمت مداريا بعض الخجل ، لو كان الأستاذ ميشو وحده لما خجلت ، لكن الممثلة الضاحكة «حميدة بلبل» كانت جالسة بجواره مندمجة معه فى هوايتهما المفضلة : النيمية البريئة التى إن شعر ميشو أنها ستتطور لنهش الأعراض أو الطعن فى الذمم قطب جبينه الضيق الشبيه بقعر البراد المسود ورفع هامته صائحا بعجرفة وغلطرسه : «بس بقى يا ولد أنت وهو ! كفاية كده ! قلت كفاية ! كده تجاوزنا ! إنقل على موضوع تانى !» ، هكذا يصيح فيمن يحادثه ، الذى كان يبدو منذ برهة وجيزة أنه من أخلص الخلاء وأصدق الأصدقاء ، بل إن ميشو لن يتورع عن أن يتبع صيحته بشخطة حادة مهيبة للغاية : «يلا يا ولد قوم من هنا !» ، فإن لم يقم الشخص فى الحال ضاحكا لينصرف فإنه لن يستنكر هذا الأمر من ميشو . ذلك أن ميشو فى الأصل استاذ لعلم الكيمياء والأحياء فى المدارس الثانوية وقد

تنقل فى عدة بلدان وترقى إلى درجة مفتش أول لهذه المادة ، وبين جمهرة هؤلاء الممثلين والمخرجين والإداريين من كان تلميذا له فى فترة من فترات الدرس ، والجميع لا يرى فيه إلا ذلك الأستاذ المهيب الذى يصلح أن يكون قدوة حميمة فى انضباط السلوك والاحترام والكبرياء الشديد والاعتزاز بالرأى والثقة بالنفس وثقل وزن الشخصية بثقافة متألفة بجديد الأفكار والمعانى حول الوطنية والحرية والعدالة الاجتماعية والشعور بالمسؤولية . يحكى المخرج الاذاعى الشاب «حامد شرف» - وهو تلميذ سابق له - أن تلميذا من فصله فى لحظة هياج عبث كان يمسك بغطاء المكتب ويهدد به فوق حافته على إيقاع الصياح ، فإذا بالأستاذ ميشو قد انشقت عنه الأرض فوقف غاضبا وقد تغير لون بشرته من الفخارى المحروق إلى لون القلل الصفراء . كان ينتفض وهو يشوح بذراعه الطويلة . بمجرد ظهوره طق الضجيج طقته الأخيرة فى سرعة الضوء ومات الولد فى جلده . راح الجميع ينصتون فى شغف هائل لهذا التوبيخ الغاضب الثائر ، إنه ليس توبيخا بقدر ما هو درس عظيم فى الوطنية والتحضر ، فهذا الولد الذى راح يخرب التخته إنما هو فى الواقع كمن يضرب أباه بالحذاء ، لأن هذه التخته مشتراة بمال الضرائب التى يدفعها أبوه .. وحين تحتاج المدرسة لتخته بديلة فسيدفع أبوه ثمنها من دم قلبه أو على الأقل يحرم منها أخوه ، أما الذى يحتاج هكذا بالصياح والخطب والزرع فإنه محض حيوان غوغائى جهول ليس يليق بمقعد الدرس ولا هو صالح لتلقى العلم أصلا . يقول المخرج الإذاعى الشاب أنه شخصا لولا هذا الدرس ماكان استمر فى التعليم أما الذى كان السبب فى الدرس الغاضب فإنه بات من المتفوقين ، أصبح من ألمع مثلى المسرح القومى لدرجة أن الأستاذ ميشو كتب مسرحية (الهب) خصيصا له ، صحيح أن الدور قد لعبه ممثل آخر نظرا لسفر الممثل الشاب فى بعثة دراسية ولكن الأستاذ ميشو يعتز بتلميذه النجيب لأنه ألهمه هذه المسرحية الناجحة ..

صار من الواضح أنني كنت موضوع النم بينه وبين حميدة بلبل ، التي أشارت لى صائحة فى النادل : «هات قهوة ساده للبيه !» . وكان من الواضح أنني أترقب انصراف الأستاذ ميشو ، الذى أوقن أنه يحبنى ويحب المشى معى .

سرعان مارأيتنى أمشى بجواره فى شارع يبدو أنه شارع قصر النيل والوقت فيما يبدو قرب منتصف الليل . وكان من الواضح أنني قد وصلت الآن إلى هدف حميم جدا ، فهذه السرحة الليلية مع صديقى الأستاذ ميشو هى من أحب الأمور إلى ، منها تضيق وقت من عمر الليل فى صحبة حميمة أدخن فيها السجائر الكابتول بدون فلتر ، ومنها فائدة عظمى يشتغل خلالها خيالى باحتكاكه بخيال الأستاذ ميشو وثقافته الرفيعة ، يحكى لى عن مصادر مسرحياته ومشاريعها المبدئية وبعض المشاهد الختامية التى يغرم بكتابتها قبل المشاهد الأولية ، يحكى عن خصائص أرثر ميلر الذى يعشقه ويتأثر به ، وجماليات فوكنر الذى يحب إخلاصه لطبيعته الجنوبية ، يبدى اشمئزازه من كتب النقد الألبى يعتبرها وباء يطفح على جلد الأعمال الأدبية العظيمة ليشوهها ، ينصحنى بأن أنبذها فلا أضيق وقتى فيها حتى لاتشتت مخى وتقولبنى على مزاجها ، الخير كل الخير أن أقرأ النصوص الأدبية نفسها لأنها هى الوحيدة التى يمكن أن تفيدنى . لميشو أطوار غريبة غير مفهومة لى ، مثل أن يكون - وهو الكاتب المسرحى المجيد - على نفور دائم من العروض المسرحية ، لاينف من إعلان هذا مؤكدا أن أطول مدة قضاها فى عرض مسرحى لم تتجاوز الفصل الأول . إنه يسكن فى ضاحية المعادى ، وإذ نلتقى صدفة أو بتدبير يكون الإتفاق أن أوصله حتى محطة باب اللوق ليلحق بأخر قطار . فى العادة يسرح بنا الكلام فينسى آخر قطار ، ليجد مبررا يتنج له أن يحدود على أحد الأماكن الساهرة ليخطف كأسين يتحمل بهما سخافة سائقى الأجرة بالنقر . رغم ضيقه بهذه العربات وبغوغائية ركابها وسائقها فإنه فى

مثل هذه الليالى يفضلها على المترو ، إذ أنه ذات ليلة قريبة ركب المترو وكان مرهقا بسبب مناقشة حامية مع مسئول كبير فى المسرح ، فأخذته سنة من النوم فلم يستيقظ إلا فى حلوان ، فغضب ، ورجع فى نفس القطار إلا أن النوم غلبه مرة أخرى فلم يستيقظ إلا فى باب اللوق ، فظل أياما طويلة ساخطا على نفسه محتقرا لها ..

هاهوذا يتطرق إلى الحديث فى مسألتى الخاصة :

- « يبدو أنك معجب بتشردك ! كل من هب ودب يكتب للتليفزيون ويقبض المئات إلا أنت ! صحيح أنك لست ممن هب ودب لكنك تتمتع بغباء منقطع النظير ! تقول أنهم يرفضون شغلك ! وأنا أقول لك السبب ! أنت تكتب أعمالا واضحة جلية ! ومخروجونا بوجه عام لديهم ولع بالغموض حتى لو لم يفهموا منه شيئا ! هم فى الغالب لا يفهمون شيئا فى أى شىء ! لكن العمل الفنى الغامض يسحر خيالهم يوهمهم بأنه عمل عميق ! إسمع يا ولد ! أنا متطوع بأن أساعدك فى تغميض ماتكتب ! إكتب تمثيلية سهرة وهاتها لى أغمضها لك وهى تمشى فى الحال ! لاتحمل همها ! سأتصرف فيها بمعرفتى ! سأعطيكها لأى مخرج من الذين يثقون فى ذوقى فينفذها ! المهم أن تكتب أولا ! هات لى جسم الجريمة وأنا أجيء لك بحقك ! أعرف سنكم هذا ! يأخذكم الحماس نحو التجريب والشكلانية الجوفاء المفرطة فى الهوس بالشكل ! سأقول لك ما الذى يعطلك عن الكتابة الجيدة ! أنت تحتشد وتبالغ فى الإستعداد كأنك ستفتح عكا ! فتكون النتيجة أنك تشيل حملا ثقيلًا فتستمر فى تلفيق أشياء من الشرق والغرب متعسفة وملحومة فى بعضها بالغراء ! أو تنخ فتسأم وتهرب من الكتابة ! الواقع أن العملية الفنية ليست هكذا على الإطلاق ! المسألة كلها من أساسها لعبة ! فنان يلعب مع المتلقى ! متى ما اعطاه أصول اللعبة يكون قد لعب لعبته فعلا بشكلها الصحيح ! المتلقى من خلال هذه الأصول المرسومة سيفهم ما يجب أن

يفهمه ! إنه يلعبك ! يلغيك مثلما تلغيه ! يلغيك يعنى يفهم غمزاتك الخفية يشوف نهاية اكتشافك ! خذها نصيحة منى ! ساعة تزمع الكتابة ادخل على الكتابة بإحساس من سيلعب ! كن على أكبر درجة من المرح والتفاؤل والحب ! متى ماتمكن منك هذا الإحساس العبقري تجد نفسك مندمجا فى كتابة شئ جميل! أفهمت يا حيوان ؟! أقول لك هذه النصائح الغالية مع أنك نذل لاتستأهلها! والأن دعنى وانصرف لأننى على موعد فى هذه العمارة مع من لايصح أن يرى حيوانا مثلك ! هاك ربع جنيه وثلاث سجائر حار ونار فى جبتك !! »

★ ★ ★

.. وكنت عائدا وحدى فى ميدان كميدان الازهار نحو مقهى كمقهى الحرية أطفأت معظم أنوارها الخارجية حينما فوجئت بمن يعترض طريقى ، شهقت فرعا لبرهة ، تبينت أنه الممثل «سناء البسيقى» مجنون هاملت ، لابلطويل ولا بالقصير ، نحيف القوام خمري اللون بجبهة بارزة مظلمة بخصلتين هزليتين من الشعر الأسود كمقاصيص النساء الرقيقات ، طويل الأنف فى غلظ خفيف مدبب المقدمة فرق شفتين غليظتين عبر حنك واسع بارز الأسنان مفتوح على الدوام لا ينغلق برهة واحدة لا ينى يتكلم فى أى شئ بجدية هائلة تتخللها ضحكات متراوحة النبر بين السخرية والهزء والاستياء والاستهجان واصل إلى حد القهقهة بصوت مبحوح متحشرج ، ضحك غير واضح الأسباب فى العادة ، مما يجعل خيال ضحكاته ينعكس فى بحرى عينيه بلمعة جنونية لاشك فيها . يرتدى بذلة كاملة على أحدث طراز بفتحتين أسفل السترة من الخلف وخصر محرود وياقة معطف عريضة تتقابل معها ربطة عنق تخينة كالبصلة ينساب منها قرطاس من القماش المشجر الثمين وياقة قميص منشأة عريضة ومشبك ذهبي يثبت رباط العنق فى القميص مع أزرار مزدوجة فى كمى القميص . تخرج فى معهد الفنون المسرحية قسم تمثيل بدور هملت لشيكسبير ، بدرجة جيد جداً ، من لجنة تضم جهابذة التمثيل والنقد فى المعهد والحياة العامة ، جميعهم أثنى

عليه. كان ترتيبه الثالث على دفعته فكيف يصبحون كلهم نجوما ومشاريع نجوم فى حين يبقى هو محلك سر ، يجرى فى أروقة الإذاعة بحثا عن دور يمثله ، أينحط به الحال وهو المعهدى المتفوق إلى حد أن العيال الصاعدة يحققون فرصا ونجاحات أكثر منه ؟! الوالد «عبد الوديع الدوادر» ، ذلك القصير القامة ، ساقط الشهادة الابتدائية الذى بدأ منذ سنوات قليلة صبيا لمتعهد الكومبارس الشهير «رائف زهدى» شغلته تبليغ أوامر العمل ومواعيده إلى الناس المطلوبين ، تجرأ فدخل امتحان التمثيل بالإذاعة فنجح بالكوسة ، على أساس أن يستعين به المخرجون فى بناء بعض المسامع الدرامية كأصوات ثانوية مساعدة ، لكنه بات يلعب أدوارا ، ثم أدوارا مهمة فى برامج وسهرات ومسلسلات كان من الممكن أن يلعبها من هو أهل لها من المجهدين المطلوبين فى النادى وعلى المقاهى . أيلعب المؤهلون دور الكومبارس ويلعب الكومبارس دور المؤهلين ؟! كيف ذلك يا خلق الله ؟! أليس من الجنون أن يلعب عبد الوديع الدوادر - دور أمير المؤمنين مرة ، ودور الحجاج مرة ، ودور نابليون بوتابرت ودور عمر مكرم ؟! الذى غطى ووطى أن جئ به أخيرا ليلعب دور عباس العقاد فى شبابه فى برنامج يقدم قصة كفاح العقاد !! هذا المخرج ابن المعتوه يعطينى ظهره كلما رآنى أثناء توزيع الأدوار لأى برنامج يخرج ، ثم يعطى حضنه لعبد الوديع الدوادر . ما خفى كان أعظم ، يا صحافة الارتزاق ويا نقاد النُقر افتحوا أفواهكم بهذا الكلام نيابة عنى وعن التعساء من زملائى إن كان عندكم ضمير لكنكم كما قال أبى الشيخ أبناء العصر الذى يعود فيه الإسلام غريبا وتآكل الأم من فرج إبنيتها !! أنتم جميعا يا أبناء هذا الزمان زمان المسيح الدجال صور ممسوخة من ذلك المسيح الذى على وشك الظهور !! أبى الشيخ قالها كلمة حكمة وها هى ذى قد تحققت !! بدمتى يا ولد يا عكروت لو رأيت أبى الشيخ هذا لنزل الورع فى قلبك وخرجت من عنده تقول الحقيقة على الدوام ورزقك على الله !! أبى الشيخ البسيقى هو عمى الكبير ، أزهرى فقيه ذو مؤلفات فى الفقه يدرسونها فى

الأزهر ، قد ربانا جميعا على الغالى ، وما محتى هذه ونذالة الحظ معى سوى لعنة أبى الشيخ !! لقد سقت عليه أبى وأعمامى وأخوالى وكل أفراد القبيلة فى بنى سويف لاستصدار فتوى منه بجواز دخولى معهد الفنون المسرحية فلم نستطع ، وقال : والله لو وضعوا الشمس فى يمينه - يقصد يمينى أنا - والقمر فى يساره - يقصد يسارى أنا - على أن أوافق على دخوله هذا الميدان الفاسق المنحل ما وافقت وعندى أنه لو اشتغل زبالا أو خبازا أو ماسح أحذية فإنى أباركه إذ يباركه الله !! ولقد عصيته فدخلت المعهد واختلطت بحتالة القوم فشاهدت بعينى ما قتل الحارث بين طالبات وطلاب المعهد ، وشاهدت الطبخ يطبخ على رؤوس الأشهاد من أجل الشهرة العاجلة والفرصة السانحة !! بينى وبينك يا ولد يا عكروت كثيرا ما ضعفت وأوشكت على اقحام نفسى فى حل الطبخ وأناجر الفتة على أهدر هبرا مجزيا !! كثيرا ما كنت أمضى فى الطريق إلى قرب لحظة مد الأسمطة بأناجر الفتة لكننى كنت كالأنية الزجاجية فى يد مرتعشة سرعان ما تسقط على الأرض هشيما جارحا !! كثيرا ما كانت تركبى الجنونة حين أفيق على حقيقة أننى أهدرت من كيانى ومن قيمتى ما أهدرت وعند اللحظة المهمة وزعت الفتة والهبر على ناس كانوا بالصدفة مارين فى الطريق !! الجميع أصبح يتجنبنى كأتنى الشوك ، المخرجون يلاطفوننى بشكل مبالغ فيه كأنهم يتقون شرى ، أشعر أحيانا كأتنى مجرد طفل شرس يداعبونه بفنون المحايلة ولا بأس من قطعة حلوى صغيرة بدور مدته خمس دقائق فى برنامج عابر !! زملائى وأصدقائى من أيام المعهد يوالسون وينافقون ويبيعون ويستترون فى سبيل المكسب العاجل الرخيص التافه ، كلهم فسقة فجرة ، فالإنحطاط تنتشر عدواه كالانفلونزا بسرعة البرق !! الذين قُدر لهم - بفضل ثورة يوليو المجنونة الخرقاء - أن يكونوا أصحاب أدوار مركزية وهم فى الأصل من السفلة والرعاع هم أول من يفرط فى دوره فى مركزه فى شرفه فى موقعه

لقاء مكسب دنئ ربما انحصر طموحه فى مواجهة امرأة ساقطة !! أبى الشيخ قالها عن النبى عليه الصلاة والسلام كلمة عميقة الدلالة بعيدة النظر : لا تعلموا أولاد السفلة العلم ، لأنهم - فى تفسير أبى الشيخ - سينحطون به إلى الدرك الأسفل !! أتعلم يا من تزعم أنك صحفى وناقد ومؤلف ذو شخصية وضمير إن شخصية عبد الوديع الدوادار تلغى شخصية المخرج ؟! المخرج بذات نفسه يتنازل عن دوره طائعا مختارا لعبد الوديع ! أقول لك كيف ! إن عبد الوديع الدوادار هو الوسيط بين المخرج والممثلين ، يجمع له المعلوم منهم ! هى تسعيرة متفق عليها ويعرفها الجميع حتى رئيس الإذاعة ووزير الإعلام لكنهما يطمحان. بدعوى أن المخرجين غلبة ومرتباتهم ضعيفة أمام أجور الممثلين : تمثيلية السهرة رشوتها جنيه كامل ، نصف الساعة بنصف جنيه ، المسلسل كل أربع حلقات بجنيهين ، وحدة الصرف الفورى ملحقة باستديوهات التسجيل يخرج الممثلون من الاستديو عقب التسجيل مباشرة إلى وحدة الصرف ليأخذوا الأذونات إلى الخزينة المجاورة ، اللقاء فى العادة يتم فى بار الانجلو أو كافيتريا زوزو ماضى المواجهة له أمام مبنى البنك الأهلى فى شارع شريف على مرمى حجر من مبنى الإذاعة ، حيث يجتمع الممثلون على زجاجات البيرة وكؤوس المارتينى والزبيب ، ليتم تجميع الرشوة فى جيب عبد الوديع الدوادار ، الذى ينطلق من فوره إلى المخرج فى التادى أو فى ركن من الردهة أو المصعد أو دورة المياه ليغمره بالأمانة فى السر ولا من شاف ولا من درى !! مثلما هناك مخرجون نظفاء لا يرتشون ولا يقبلون العزومات أو الهدايا أو مرقعة النسوان هناك أيضا ممثلون لا يبرطلون لأنهم لو فعلوا ذلك فقدوا الثقة فى أنفسهم وهم يودون الوصول اعتمادا على مواهبهم فحسب ! هؤلاء أغبياء وأنا على رأسهم ، عشمهم عشم إبليس فى الجنة ، لن يفيدهم حسن الخلق ولا طيب المعشر ولا حلاوة الريق إلا قليلا ، من باب ذر الرماد فى العيون . ما لم تقع الطيور

على أشكالها فبشرهم بالبور ، كل حين تجئ صدفة يلتقى فيها مخرج شريف بممثل شريف بغية تقديم عمل جاد شريف ! إلى أن تجئ تكون نار الموهبة قد أبت إلى رماد !! الوليل لمن اشتهر بالشرف أو حسن الخلق !! أعرف ناسا طيبين يلوثون سمعتهم بأيديهم بغية استجلاب الفرص ! يصادقون أمثال عبد الوديع الدودار ويتوددون إليه ! لكنه ملعون ، خبير بالنفوس ، يعرف الحقيير الحق من الحقيير المقتل ، حين يجلس مع المخرج ليقوم بدلا منه بتوزيع الأدوار يضع فى حسابانه من يثق أنهم حقراء بالسليقة . إن الخراب قادم لاريب فيه ، ولكن قل لى : إلى أين أنت ماض فى هذا الليل البهيم ؟! هذه السترة فوق كتفك منذ ما يزيد على شهر وقد صار منظرها حقيرا مخزيا فما هى حكايتك بالضبط ؟! على فكرة ! أنا من هواة الفلسفة ! درستها مع أبى الشيخ وعندى ميل إلى جماعة تسمى بالرواقيين ! فما أنت ذا ترانى لا أحب إلا المتطهرين ! غير أننى أراك تحوم حولى كثيرا ، تستعير منى سجاثر كثيرة لا تردها ، كهذه التى سأعطيتها لك الآن حار ونار فى جنتك ، تستغفلنى كثيرا فى شايات وقهاوى على حسابى فى النادى ، فقل لى بصراحة هل أنت مخبر سلطك أحدهم على ومن الذى سلطك ؟! هو المخرج عثمان المهدي ؟ إنه يعرف أننى أملك وثائق تمحوه من على ظهر الأرض ، وأعرف أنه يدبر للإيقاع بى فى شر أعمالى ولا يتورع عن اغتيالى !! أهى المباحث الزاعمة ظلما وعدوانا بأنها أمن الدولة ؟! أعرف أن الذين يؤتون من الخلف يشيعون عنى التهم الباطلة ، بالشنوذ تارة والزئرية تارة أخرى والإخوان المسلمين تارة ثالثة والشيوعية تارة رابعة !! كل جريمتى أننى رأيتهم وجباههم تصافح الأرض لغير الله ! ثم إننى لم أعد أشتغل بالسياسة ، لم أعد سكرتيرا لإتحاد الطلاب ، ومعروف أننى منشق على الإخوان المسلمين منذ قيام الثورة ، وقطعت صلتى بالماركسيين بعد تعرفى عليهم بشهور قليلة ! هؤلاء وأولئك يقرشون ملحتى ، يشعرون أننى كشفت مستورهم رأيت عوارهم

فباتوا يدبجون التقارير فى شأنى فقل لى من فى هؤلاء أو أولئك سلطك على ؟! أنا الأبقى لك منهم جميعا ! أنا فقير إلى الله مثلك وحينما تميل على فى أى لحظة تجدنى أمد لك يدى ! ألم أعزمك على غدوة كباب يوم طلبت منى سندوتش الطعمية ؟ ألم أشتري لك علبة سجاثر كاملة يوم كنت جالسا تكتب فى النادى وأنت خرمان ؟ كنت أعرف أنك تكتب برنامجا للإذاعة ومع ذلك لم يخرج من يدك أن توزع للمخرج باستدعائى للتمثيل فيه ؟ ألم أقرضك خمسين قرشا يوم زعمت أنك مسافر إلى البلد تطلب عوننا من أهلك ؟! أنت لم تقل لى معلومة واحدة عن حياتك فى حين أنك تعرف عنى كل شئ !! ألم تعلم بأننى أمشى خلفك كظلك من أول الليل ؟ رأيته تدخل أماكن ثم تخرج منها فى الحال ، وتتوقف عند أماكن ثم تستأنف السير ، وتحد فى حوارى غريبة ثم تعود فترتد ، أطوارك غريبة ، وقد سمعتك بأننى فى أول الليل فى بوفيه الشاى فى سلم الخدم بمبنى علوى تقول أن بحور الدم ستغرق من يتاجرون بالشرف ، لماذا قلت هذه الكلمة عقب انصرافى مباشرة بعد أن كنا نتطاحن فى مناقشة حول الأخلاق وانحدار البشر ؟ كنت عدوانيا فى نقاشك معى وفى صوتك نفس النبذة التى يكلمنى بها أعدائى الذين تعرفهم أنت جيدا !! بصراحة قررت ألا أدعك الليلة حتى أعرف إلام ينتهى تجوالك وعلى أى بر ستسوقواربك الجانحة !! ...

اللجنة ، لسوف يعذبنى البسيقى بهذا المشهد بحذافيره شأنه كلما التقائى فى عمق الليل ، وما أكثر ما يلتقيني . فكيف أخلص منه ؟ الصراحة هى أقدم الطرق ، هذه حكمة أسمعها كثيرا والحقيقة لا تخجل . الوسيلة الوحيدة لقطع الطريق عليه ، بدلا من أن يقطع الطريق على ، هى أن أصارحه بحقيقة الأمر قبل أن ينخرط فى مونولوجه الأزل ..

المأفون لم يمهلى ، نظر فى عينى نظرة ثاقبة متشككة كأنه يقول : قفشتك . وجدتني أقول نه باسماء «بصراحة يا سناء ! أنا ليس لى بيت فى هذه

المدينة ! فكلما توفرت معى نقود بت فى لوكاندة من لوكاندات شارع كلوت بك الرخيصة ! وحيث لا يوجد نقود فالشارع مأوى ! والأماكن التى رأيتنى أدخل فيها وأخرج مسرعا هى أماكن يسكن فيها بعض الأصدقاء والمعارف الذين أطمح فى المبيت عندهم ! وسر جفاف النقود فى يدي هو نفسه سر أزمك مع المخرجين ! محنتى هى الشرف والكرامة وما إلى ذلك من صفات تحبها ! . هز رأسه فى اقتناع وإشفاق شديدين ، قال بأسف : بلد وسخة ما فى ذلك شك ! هذا ما توقعته والله ! أنت إذن غلبان مسكين ! تصورتك ولدا من المخربشين فإذا بك عابر سبيل ! هذه بلد معرضة ! تحكم على خيرة أبنائها بالتشرد والتسكع فى الطرقات بلا رغبة بلا مأوى ! تراك لم تاكل طول النهار ! الله وحده يعلم حقيقة ما فى جيبى ! لكننى أستطيع أن أشتري لك عشوة فول عند الدمياطى ! لن أعطيك شيئا فى يدك ! إنما أجلس معك حتى تاكل أمام عيني ! تراك لم تدخن طوال النهار ! خذ عفر هذه السيارة حتى نصل إلى المطعم !» .

مشيت بجواره كالطفل . لم أكن أحس بالجوع قبل برهة أما الآن فقد سال لعابى وانفتحت شهيتى . فى الطريق تذكرت أننى صرحت له بهذا التصريح عشرات المرات ، وأنه رد على نفس الرد وفعل نفس الفعل عشرات المرات كأنه يسمعى دائما لأول مرة . أدركت أننى يجب أن أحبه ، ويجب ألا أنفر منه ، وألا أقف فى ردهة النادى لأقوم بتقليده أمام شلة من الأصدقاء لكى يضحكوا حتى النخاع من براعتى فى تقليده وإحكام لهجته متسقة مع نمطه فى التفكير ..

صرنا على وشك أن ندلف إلى مطعم الدمياطى فيما العمال يقبلون المناضد فوق بعضها تهيدا للكس والتشطيب . إن هى إلا برهة وجيزة حتى رأيتنى جالسا فى ركن قصى إلى إحدى المناضد . كنت وحدى ، وكان من الواضح أننى قد أكلت طبقا من الفول ورغيفين ، ويدي كانت قابضة على نصف

الفرنك الفضى فما أن رأيت النادل مقبلا نحوى حتى مددت يدي بنصف الفرنك ورميت به فوق رخامة المنضدة مستهدفا أن ينط محدثا رنينه الفضى الصافى ، هكذا تعودت أن أفعل دائما ، خوفا من شرود النوادل عند الزحام فإذا ما اعترضنى عند خروجى قلت له لقد أعطيتك نصف الفرنك بأمانة ما رن فوق الرخامة . ثم رأيتنى أقف متأهبا للإنصراف .

★★★

نفس العمارة مرة أخرى ؟ ما الذى جاء بى إلى هنا بحق الشيطان ؟ أشعر أننى منذ مدة تقدر بالأسابيع وربما بالشهور لم أحم حول عمارة الإذاعة القائمة على ناصيتى علوى والشريفين . الوقت يبدو ظهرا أو بعد الظهر بقليل . تذكرت أننى يجب أن أهرب فى الحال قبل أن تقبض على يد المحظور . سرعان ما تذكرت أننى مدين بثلاثة جنيهات لبائع السجائر على ناصية الشريفين ، وجنيهين لبائع السجائر على ناصية علوى ، وحوالى سبعين قرشا للمقهى المجاورة ، ونصف جنيهه للحلاق القائم بينهما . استدرت فى الحال لأختفى ، لكننى تذكرت أننى يجب أن أدخل هذه العمارة الآن بأى شكل لأمر ما على جانب كبير من الأهمية ..

فى الحال رأيتنى أمشى بحذر فى ممر ضيق ذى درابزين من الحديد بقوائم وعمدان . سرعان ما وضع لى أنه سلم الخدم . كان ييبو حميما وأليفا ، سرعان ما وضع لى أننى ذاهب إلى هذه الحجرة الصغيرة القابعة فى نهاية الممر . من الواضح أنها فى الأصل حجرة مطبخ الشقة المطلة على هذه البسطة المستطيلة الضيقة تم إغلاقها من داخل الشقة وفتح بابها الذى يفتح على سلم الخدم . سرعان ما اتضح لى أنها مقر البوفيه الذى يديره الولد «فايد الغزولى» ، يصنع الشاي والقهوة لموظفى مكاتب الإذاعة التى تحتل فى هذه العمارة طابقين كاملين ، يزورها فى اليوم مئات من الفنانين ، فيها إذاعة

البرنامج الثانى وإذاعة صوت العرب ومراقبة التمثيليات وبعض كبار المراقبين والمذيعين ومقدمى البرامج والمسؤولين الإداريين . تبين لى أننى الآن قادم لاشك من إذاعة البرنامج الثانى ، فبدلاً من الإستمرار فى المشى حتى السلم العمومى أو الوقوف أمام المصعد للصعود إلى النادى حودت فى هذا المدخل الشبيه بالسرداب لأجدنى فى هذا الممر مقترباً من حجرة البوفيه هذه . الحجرة ليس بها سوى ترابيزة خشبية كالحة ، فوقها وابور غاز ماركة بريموس ، حوله مجموعة من الفناجين والأكواب والكلك والبراريد الألونيوم بأحجام مختلفة ، وكرسى من كراسى المكاتب المجاورة . الوابور مشتعل على الدوام وفوقه البراد الكبير - العمال - مملوء بالماء الساخن ليصب منه على البن أو الشاي . أم فايد الغزولى سيدة عجوز تجاوزت الخمسين من عمرها بسنوات كثيرة ، لكنها متماسكة بعض الشيء وإن تمايلت فى مشيتها كشجرة يابسة طوحتها الريح ، جارمة الأطراف ضخمة عظام الحوض ، ناشقة الوجه كقرص العجين الخمران طال اختماره حتى تشقق وتجدد وكثرت كرمشاته حول عينيْن معروقتين مقروحتين من طول ما بكت وسهرت وولولت ولطمت الخدين الأعجفين ، ينساب على جانبيه مقاصيص شعر أبيض به بعض بقع سوداء وأخرى حمراء تحت مدورة تعصب بها رأسها تاركة خلف ظهرها ضفيرتين سمينتين تشهدان بأن صاحبتها ذات يوم ليس بالبعيد كانت تتباهى بشعرها الجميل ، كما أن شفيتها المزمومتين على كثير من الاسى والتنهيدات المكتومة كانتا كحبتى الفراولة . مقوسة الساقين قليلاً فى غير عوج . تتكلم بصوت خافت بنبرة حكيمة تعكس أمومة عريقة فى التحنان وبعث الدفء ، تختلط الحروف ببعضها أحياناً ، لكن حرف السين ينقلب شينا على طول الخط حتى وطاقم الأسنان فى فمها . كانت زوجاً لشرطى فى إدارة المرور، تسكن معه فى شقة متهاكة فى قلب حارة سد من حوارى حى الحنفى بحى السيدة زينب ، فى الطابق الثالث ، إيجارها ثمانون قرشاً ومكونة من ثلاث غرف ضيقة وردهة مربعة ، الشقة مبنية بخشب

البغدادلى حيث تساقط الغفق عن جدرانها وانكشفت أضلاع الخشب الرفيعة . مات زوجها فى عز شبابه مخلفاً ثلاثة صبيان وفتاة زغب الحواصل ، ومعاشاً لا يكفى لشرب الماء وحده . الفتاة هى البكرية ، على درجة كبيرة من الجمال التركى اليونانى ، إلى الدم اليونانى أقرب ، البياض الشاهق والشعر الأسود والتقاطيع المسممة . فيها وفى كل إخرتها حنك أهمهم الواسع واختلاجة الخجل الرقيقة فى الشفتين المضمومتين ، والأنف المستطيل المحرود كحردة الياقة المنشأة ، وطول القامة مع نحافة الجسد . هكذا كان «مرتضى الغزولى» ، الإبن الثانى ، الطالب النجيب بكلية الحقوق ، الجميل كالقمر ، المهذب كفتاة ريفية عذراء تتدفق صفائح الدم على صفحة وجهه البياض لدى أقل شعور بالحرج ، خافت الصوت كأمه تماماً ، لا بد أن يخدعك مظهره بأنه ابن بأشوات مدلل منعّم، فإذا ما احتكتك به لأول وهلة فاجأك برجولة راسخة ، وروح صلبة لإبن بلد حقيقى ، وفاجأك بأنه على شىء كثير من المعلومات المهمة التى قد يجهلها المثقفون الذين يملأون العمارة ، يعرف الكتاب والشعراء والصحفيين الكبار فى جميع أنحاء العالم العربى معرفة متابع دعوب ، يعرف الأقاليم العربية وطبائع أهلها وبعض عاداتها وعائلاتها الشهيرة ، يعرف القصص الحقيقية لحياة الكثيرين من الأعلام والنجوم بل يعرف عنهم كثيراً من الأسرار المحطة بالكرامة المناقضة لكل ما يظهرون به لكن الله حليم ستار ، مالناش دعوة ، اللهم أكفنا شر التنمية والإغتيا ب . عند خروجه من الكلية يأتى إلى البوفيه لاليساعد أمه بل ليكون بجوارها والسلام ، يسحب أى كرسى من أى مكتب مجاور ، يجلس فى آخر الممر مستنداً على الدرابزين بساقيه ممسكاً بأى كتاب أو جريدة أو مجلة ، وسلم الخدم من تحته ومن فوقه كهيكل عظمى لحيوان خرافى انقرض من ملايين السنين ، يندمج فى القراءة بشغف حقيقى وتطلع نهم للمعرفة ، حتى إذا ما رأى أن الطلاب تكاثرت على أمه نهض فنحاهما جانباً ليقوم بتخليص الطلاب فيما تقوم هى بغسل الأكواب أو شراء المونة أو تدبير طعامهم . البوفيه فى الأصل

باسم أخيه فايد ، الذى يصغره بعام واحد ، ومع ذلك يبدو أكبر منه سنا ، وأطول قامة ، لكنه أقل ذكاء واهتماما بالدرس ، وأقل تناسقا فى ملامح الوجه من قريب وإن بدا من بعيد كنجوم السينما ، فمثلهم يرتدى أفخم القمصان أفخم السراويل أفخم الأحذية أرق الجوارب ، يترك أزرار القميص مفتوحة على الصدر الذى بلا فائلة داخلية لكى تظهر شبكة الشعر الثقيل الأسود ، لا يرى إلا حاملا صينية حافلة بالأكواب والفناجين إما فارغة أو ملأنة، من البوفيه إلى المكاتب ومن المكاتب إلى البوفيه ، القلم الرصاص نائم فوق أذنه اليمنى ، ما أن يصل إلى البوفيه حتى ينزع من درج التراييزة دفترا كان فى الأصل أجندة قديمة ، يفر الصفحات المترهلة ، يقيد أثمان الدفعة التى وزعها على المكاتب . فى انتظار تجهيز الطلبات يقف على الباب مائلا فى عياقة يصفر لحن عبدالوهاب ياوابور قوللى رايح على فين ، وربما ترنم بأغنية أهواك لعبد الحليم حافظ أو يأعز من عيني قلبى لقلبك مال لليلى مراد . من يراه يتصوره «دون جوان» بذاته لا هم له سوى الإيقاع بالفتيات فى غرامه المشبوب ، لكن من يتصوره هكذا سوف يدهش إذا رآه يتكلم مع أى فتاة أو سيدة حتى لو كانت متسولة حقيرة ، إذ يطرق بوجهه فى الأرض ، يحمر وجهه الدور المصفوظ الخدين بما يعطيها استطالة كاذبة ، تتلعثم الحروف على شفثيه ، ليس فى فمه سوى كلمة : حاضر ، حاضر يامدام ، حاضر يايبه ، فإن جادله أحدهم فى قيمة حسابه المثبوت فى الدفتر أغلق باب الجدل بصوت غاية فى الرقة والأدب : بينى وبينك ربنا والدار أمان. محبوب من الجميع، من أكبر رئيس إلى أصغر مرؤوس ، إذ أنه موهوب فى استقطابك دون أى قصد ، يغريك بأن تتبناه ولذا فإن الشفاء تردد اسمه بحميمية عميقة. هو الوحيد الذى تنفتح أمامه أبواب المسؤولين مهما كانت الإجتماعات سرية أو الزحمة حابكة، ما أجمل أن يفاجأ ضيوف المسؤولين بشاب فى غاية من الأناقة والنظافة والجمال والتهديب يدخل

عليهم بصينية القهوة لينحنى واضعا أمامهم الفناجين بعناية فائقة وابتسامة لطيفة خجول . قد يستغرق بضع دقائق أثناء احتدام مناقشة حامية فى مواضيع حساسة فى اجتماع رسمى ؛ قد تصل إلى أذنه بعض الأسرار أو بعض الحقائق التى يفهمها بفطرته الذكية لكنه أبدا لا يذكر عنها أى شئ بعد خروجه ؛ قد يستمع إلى شتائم واتهامات موجهة إلى ناس فى المكاتب المجاورة التى قد يضطر لدخولها فى البرهة التالية لكنه لا يبدو عليه أنه استمع . هو بالكاد يجيد القراءة والكتابة حيث قد ترك المدرسة فى السنة السادسة الابتدائية لنفوره من خشونة المعلمين ولعبكة المواد الدراسية ، فصار يتنقل بين الحرف ، من صبى مكوجى إلى صبى عجلاتى إلى صبى كهربائى سيارات ، لكنه فى أعماقه كان يهوى فن التمثيل كعمل توهم أنه غير محتاج للشهادات ، فلما عرف أن الممثلين أصبحوا يتخرجون فى معهد الفنون المسرحية بمؤهل عال فكر فى الدخول من الأبواب الخلفية مثل الكثيرين ، إلا أنه وجد الطريق صعبا ، فى الوقت الذى فوجئ بأنه قادر على نظم الكلمات المرعوشة المزخرفة فى شطرات تحت قواف مسبوكة من ألفاظ كثيرة جدا يحفظها من أغنيات أحمد رامى ومأمون الشناوى، فقرر أن يجرب حظه فى تأليف الأغنيات للمطربين مثلما يفعل بعض من يراهم من الشبان . فوق سطح أكبر عمارة فى شارعهم العتيق كان يسكن شاعر أغنيات كبير الموهبة فريد القاموس ينتظره مستقبل حافل لولا أنه مريض بالقلب رغم أنه فى عز شبابه المبكر ، يعمل موظفا صغيرا بهيئة الإذاعة إذ هو الموظف المختص بتوزيع أنونات الصرف من شبك بجوار الخزانة ، عن طريقها تعرف على الفنانين فوصلت كلماته إلى بعض كبار المطربين والملحنين وأصبحت على وشك الوصول إلى أم كلثوم وعبدالوهاب . كان فايد يزوره فى غرفته فوق السطح وفى مكتبه بالإذاعة ليعرض عليه كلماته ، فأنشقق عليه ورأى أنه قد أهمل أكل عيشه جريا وراء وهم، وباتت أمه تذهب إلى الشاعر وترجوه أن يخلص النصيح لولدها فيرده عن غيه . كان الشاعر يعرف أن ذلك صعب ، لكنه

عالجه خير علاج : فبحكم موقعه عرف أن مكاتب الإذاعة فى العمارة الجديدة فى حاجة إلى بوفيه خاص يخدم موظفيها ، فاقترح على المسؤولين الاستغناء عن مطبخ إحدى الشقق غير المزدحمة ، وأقنع فايد بأنه يستطيع أن يكون فى قلب ميدان هوايته إذا أخذ عهدة هذا البوفيه وتولى إدارته خاصة وأنه ليس مطلوباً منه أى تأمين أو رأس مال . إن هى إلا أيام قليلة حتى أصبح هذا البوفيه جزءاً لا يتجزأ من هذه المكاتب ، وبات فايد الغزولى ملمحاً رئيساً فى هذا المجتمع الخاص ، لديه موهبة التعرف على الناس بسرعة ، فإستطاع أن يكون لافتة تجلب على إخوته عطف الجميع وعونهم . حريص هو على أن ينوه لك بشكل ما أنه ليس مجرد قهوجى بل إنه مؤلف أغان إلا أن زمن ظهوره لم يحن بعد ، يطول حديثه معك إذا عرف أنك شاعر أو صحفى فيما هو يسير بجوارك وأنت خارج من أى مكتب ، فإذا ما شرع يحود فى الفتححة المؤدية إلى سلم الخدم دعاك إلى زيارته فى البوفيه وشدد فى العزومة . هذا ما قد حدث معى حين التقيته أول مرة ، وكانت شمس الضحى الكهرمانية اللون تسقط فى بئر سلم الخدم كأنها اختارته بيتاً لها تتكىء أشعتها على أفاريز السلم ، والبوفيه فى منطقة الظل يذكرنى بالدكاكين الحميمة التى أغرم بالجلوس فيها فى قريتي النائبة . أذكر أننى كنت أصاب بكثير من الحرج كلما لمحنى أحد المتحذلقين داخلًا إلى البوفيه فيوجه لى نظرة معناها أننى عرفت مكانى الصحيح فى البوفيه على سلم الخدم بدلا من إدعاء التأليف أو الأدب . أذكر أننى تحدثتهم جميعا ، بل أغريت بعضهم بمشاركتنا الحديث وقوفا على البسطة الضيقة فيما يشبه النوات السريعة الساخنة التى كانت تترك فى النفس مذاقا طيبا ..

ها أنذا قد صرت أمام البوفيه . نظرت فى داخله ، لم أجد أحداً على الإطلاق . الوابور فى مكانه لكنه غير مشغل ، الأكواب والفناجين متناثرة وغير مغسولة . قلت لنفسى إن هذا يحدث كثيرا خاصة فى فترة بعد الظهر حيث تضمحل الحركة تماما ويخلد المبنى كله إلى السكون هكذا . كنت تواقا لكوب

من الشئى المعمول جيدا ، شعرت أن من الطبيعى أن أشعل الوابور بنفسى فأصنع لنفسى شايًا ، تذكرت أن هذا قد حدث كثيرا فيما مضى ، بل لقد يفاجئنى أحد الزبائن طالبا شايًا فأعده له بالمرّة وأقيد ثمنه فى الدفتر وأنادى الساعى ليوصله .

حين أغلقت محبس الوابور وشرعت أملأه بالهواء خطر لى أن الفرصة سانحة لما هو أهم بكثير من شرب الشاي الآن ، أن أسحب هذا الكرسي وأعدله فى هذا الركن القصي وأنجعص فوقه سائدا رأسى على الحائط وساقى مدقورتان فى الحائط المقابل وأندمج فى نوم عميق لمدة ساعتين أو أكثر . إن جاءت أم فايد ورأتنى ستنظر لى قائلة : « حبة عيني ! خليك نايم ياخويه باين عليك تعبان ! » ، وقد تغلق الباب على وتنصرف حتى صبيحة اليوم التالى . وإن رأى أبنها مرتضى فسوف يوقظنى ليسألنى إن كنت قرأت الأهرام اليوم . وإن رأى أبنها الثانى فايد فسيتركنى حتى آخر لحظة ينصرف فيها ليخبرنى بين الإنصراف أو البقاء أو الذهاب معه إلى البيت . وإن رأى ابنها الصغير مرتجى فسيصنع لى شايًا ثقيلًا ويهزنى برفق قائلا : صحصح ..

الكرسى الذى سحبه كان مختل الأرجل ، فقوجته فى الركن ورميت بثقلى كله فى تجويف الركن منعوج الجسد فى شبة تكور حتى احتفظت بتوازن الكرسي . بدأ تنفسى ينظم ، ستار العزلة يزداد ثقلا وحلكة فى عيني ، تناهى إلى سمعى صوت وقع خطوات مقبلة فى الممر الطويل ، جزمتم بأنها خطوات «أمير فايق» : شاب من الكومبارس ، على شئ قليل جدا من الوعى والتفتح ، شكله خادع ، يبدو كوكلاء الوزارات ، كالدبلوماسيين ، كمدراء مكاتب المسؤولين ، شكل غاية فى الرصانة والإنضباط ، بوجه مستطيل ممتلىء الخدين مكتنز الشفتين ، بأنف مستقيم ذى شموخ صناعى متقن ، وعينين ذكيتين ، وشعر كثيف لكنه قصير متناسق الفودين قصير السوالف مدرج على القفا

بانسياب ناعم ينتهى بحد كالخيط الرفيع . لون الوجه قمحى ، حليق اللحية ، دائم النظارة ، يرتدى سترة من الصوف الكاروهات الغامق اللون فوق سروال بندقى اللون ، مع رباط عنق معقوف عند العقدة . فصيح ولبق حتى لتخاله من كبار المثقفين الواثقين من معلوماتهم ، ولكنك بعد دقائق معبودة تكتشف أنه غير واثق من أى شىء ، وأن كل معلوماته مصدرها الإنحشار بين المتكلمين فى الندوات أو التسجيلات ، وحتى تعابيره الرصينة البليغة يقتبسها بنصها من متحدثى البرنامج الثانى ويستخدمها كيفما اتفق ، مع ذلك يستطيع الإحتفاظ بالستر لوقت طويل ، إذ هو يعرف متى يحق له الكلام ومتى يجب أن يحترم نفسه بالسكوت ، كما أنه يجيد الإنصات بطريقة إيحائية تعطيك الإنتطباع بأنه تواق إلى المعرفة فلا تضن عليه بها إن توفرت لديك . يبدأ دائما مرفوع الهامة مهيب الكبرياء ، يعاملك على هذا الإعتبار لحين يعرف من أنت فيتغير سلوكه فى الحال ليناسبك ، فإن علم أنك مخرج أو مؤلف فإنه يحدثك بتواضع شديد يكاد يصل إلى حد الإنسحاق ، يستميل عطفك عليه بأى شكل ، يحدثك عن أمه المريضة ، عن إخوته الصغار الذين يتكفل برعايتهم بعد موت أبيه ، فإن كنت مسئولاً فإنه يشكو لك - بصنعة لطافة - من المخرجين الذين يتجاهلون حقه فى العمل ، فإن كنت صحفياً حامل الذكر حدثك عن أمجاده السابقة فى الفرق المسرحية القديمة وعن مواهبه التى لا ينكرها سوى الأغبياء وعن المخرجين الذين يرتشون جهارا نهارا ، فإن كنت مساعد مخرج فإنه يعزمك على واحد شأى مع سيجارة بلمونت مع وعد مستتر بعزومات سخية إذا أنت لفت نظر مخرجك إلى مواهبه . هو مع ذلك يشتغل كثيرا ، طول النهار فى استديوهات علوى من كلمة فى برنامج إلى سطر فى تمثيلية ، فإذا دعى للتمثيل فى برنامج ممتد الحلقات فإنه يقدم خدمات إضافية إذ يفرض مساعدته على المخرج ولو بحمل حقيبته أو شرائطه أو نداء الممثلين من الإستراحة أو خطف الرجل للبحث عن فلان فى المقهى التحتانى أو لتوقيع ورقة من مسئول قبل انصرافه أو

المشاركة مع الإداريين فى تجهيز وثائق ميزانية الصرف ثم الجرى وراء السعاة حتى يضمن صرفها فى نفس اليوم . إلا أنه مفلس على طول الخط . أذكر يوم عرفته أول مرة ، فى هذا البوفيه على وجه التحديد ، قدم لى «فايد الغزولى» ثم قدمنى له بقوله : «الصحفى فلان !» ، فإذا به يسألنى بكل ثقة ولماضة : «فى صفحة من ؟ أقصد مع من تشتغل من رؤساء الأقسام ؟» . قلت بضيق وغلظة : «ليس مع أحدا» ولم أزد ، لكننى أسفت بعدها مباشرة لأنه تلقى صفعتى ببساطة وواصل الحديث معى بكل ود ، بل إنه عزمنى - بإصرار شديد - على واحد شأى فى مقهى الفيشاوى فى آخر الليل .

رأيتنى أمضى بجواره حول مقهى الفيشاوى فى صمت مريب ، لمدة بدت طويلة . كلما واجهنا المقهى إستأذن لبرهة ، فيروح يبحث فى المقصورات الداخلية ، ثم يعود فيسحبنى لنمشى من جديد فى ميدان الحسين لدقائق نعود بعدها إلى المقهى . لم يكن من الصعب أن أفهم أنه قد عزمنى ولكن على نفقة شخص آخر هو على وجه التحديد ذلك الشخص الذى يبحث عنه الآن . فلما عاد مبسوط الوجه يدعونى للتفضل عرفت أن الشخص الذى سيدفع ثمن شاينا قد حضر . هو ما توقعته ، وقف لملاقائنا أفندى مهيب جدا ، طويل القامة رفيع القوام يضع على عينيه منظارا ذهبى الإطار عريض العيونات ، تركى الملامح والسمت صلب التقاطيع حاد القسمات أشقر شقرة خفيفة . يرتدى فوق البذلة الكاملة معطفا ثميना جدا ، يمسك بيمناه مسبحة مطعمة بالعاج والذهب والفضة: أهلا يابكوات ! .. قالها بلهجة أرسنقراطية عريضة النغم طالعة من الحلق المجوف . سلمت عليه . أشار أمير فايق نحوه قائلا كأنه يرهبنى : «الأستاذ محسن كامل البدرى» .. «أهلا يا أفندم ! فرصة سعيدة جدا ! يبدو أنى محظوظ !» .. هكذا رحت أردد ، فمحسن كامل البدرى هذا كان سفيرا لنا فى موسكو فى وقت قريب ، وكان كاتباً قرأت له بعض الرحلات الأدبية والترجمات

الروائية ، وله مواقف سياسية محترمة ضد الإستعمار ، فضلا عن أنه من عائلة كبيرة مرموقة مرهوبة الجانب في الصعيد . أشار فجلسنا ، وأمر فجىء لنا بالشأى الأخضر ، وقدم لنا علة سجاثره الاجنبية والقداحة الذهبية فوقها . دقائق معدودة اكتشفت بعدها أن الرجل مغرم بالشعر والزجل إلى حد الإفتتان المنبهر ، يردد أزجال بيرم وأبى بثينة وأشعار حافظ إبراهيم وعبد الحميد الديب وإمام العبد . من حسن الحظ أنى أحفظ أرتالا من هذه الأشعار ، ما صدقت أن فتحنى ، فانهلت عليه إلقاء ، أسمعتة ديوانا كاملا لبيرم من الشعر الحلمنتيشى غير المشهور ، وهو يشب على قدميه من فرط الإعجاب والإمتنان ، ومن قصيدة لأخرى يجىء شأى جديد أو قهوة جديدة وتنهمر السجاثر حتى انتشيت حقا . ثم فوجئت به يمزوى نحو الحائط قليلا ويخرج محفظته الجلدية الأنيقة فيقلب فيها بأطراف أصابعه الطويلة ثم يكور قبضته على ورقة مالية ثم يعيد المحفظة إلى جيبه الداخلى ثم يخفى الورقة فى جيب المعطف ، ففهمت أنه يستعد لمحاسبة الجرسون ، ثم مال على أمير فايق وقال له : «ياترى الجرايد تكون وصلت ؟ إخطف رجلك شوقها ! هات لنا الجرايد كلها ! خذ من عمك فؤاد الجرسون ! » ثم نادى : «ياأبو حمادة ! أعط الأستاذ أمير ما يطلبه منك ! » . ما كاد أمير يعطينا ظهره حتى فوجئت به يسرب يده نحوى مطبقة من تحت الترابيزة ناظرا فى عيني نظرة ذات معنى قائلا : «مد إيدك ! » ، فأسقط فى يدى ، إرتعت مفاصلى لكننى مع ذلك مددت يدى ، فإذا بالورقة المالية الثمينة الملمس تلتصق براحة يدى . جرادل من المياه الباردة تتدفق فوق رأسى تغرقنى بالعرق ، تكاد الدموع تطفر من عيني . إخشوشنت نظرتة ، قال فى تهديد أخوى عميق النبرة : «باقولك أيه ! معيلة مش عايز ! ما تعودت أن يكسبنى أحد فاحذر أن تكون أول من يكسبنى ! ستدفع ثمنها غاليا ! » ، ثم ابتسم فى رقة . نظرت حوالى ، فرأيت المقصورة المقابلة لمقصورتنا خالية ، وليس معنا أحد ، وتذكرت أننى لم أر شكل النقود منذ شهور طويلة ، وأننى محتاج لأكل وشرب

ونوم وتنقلات ، فسحبت يدى بالورقة صاغرا ووضعتها فى جيبى وثمة خاطر خبيث يلح على : من أدراه أننى محتاج ، هل شكلى يوحى بذلك ؟ هل أصبحت على سمت المتسول المدموغ ؟! ونظرت فى عيني الرجل فوجدت شيئا كالنبل إلا أنه مشوب بغلالة من ظل كالخبث أو عدم الصفاء .

إقترب أمير فايق حاملا كومة من الجرائد والمجلات رمى بها أمامنا فانبرينا نتصفحها على عجل . لاحظت أن أمير فايق صار يرشقنى بنظرات تحتية قلقة متوترة مليئة بالأسئلة الغامضة كأنه يوشك أن يتهمنى بالخيانة . فازددت قلقا لكننى قررت تجاهله . كان من الواضح أنه يريد قول شئ للرجل ، أخيرا مال نحوه قائلا كأنه يحدث أمير المؤمنين : «اتدرى من قابلت الآن ؟! » . قال الرجل : «أعرف ! لابد أنه المأفون رجال الوطنية ! » . قال أمير : «نعم ! » . أسرعت قائلا : «تقصد مختار البهلول ؟ » . قال الرجل بامتعاظ لاويا شفتيه : «مختار الزفت ! » . ارتعت ، كانت هذه أول كلمة نابية تخرج من فمه منذ جلسنا ، قال لأمير وقد تغير وجهه : «لمحته ينظر إلينا منذ دقائق وهو فانت من هنا ! يجر معه طفليه الصغيرين ! جاء يشحذ بهما ! رجل واطى ! لن أستجيب له ثانية ! سأتكره يجوع لأرى آخره الصفاقة ورفع الأنف بالكذب ! كيف يرانى مقبلا عليه منذ أيام فلا يقف لتحيتى ؟ كيف يتحدانى وأنا أطعمه ؟! أنسى أن البذلة التى يرتديها هى بذلتى ؟! » . فى الحال نظرت إلى البذلة الثمينة التى يرتديها أمير فعرفت أنها هى الأخرى بذلته بعد تقييفها وتقصيرها ، فتملكتنى رعشة داخلية وشعرت كما لو كنت قد فقدت بكارتى . ثم رأيتنى فجأة فى بيت الزجال مختار البهلول ، حجرة فى بيت قبيح سئ السمعة فى حارة متفرعة من شارع كلوت بك ، فيها ينام هو وزوجه وثمانية أولاد على جرائد مفروشة فوق البلاط حيث لا شئ سوى وابور غاز أعرج وبعض أوان صدئة ، وحيث يصحو هو من النوم ظهرا فيسعى فى شوارع المدينة بحثا عن قطعة أفيون يستقيم بها

عوده ، ثم زجاجة صغيرة من الخمر الرخيص يسهل بها رأسه . ثم طبخة مكرونة أو حلة بطاطس مقلية أو حلة عدس يأكلونها . أما كيف ينجح فى ذلك فهذا سر غريب لا يتكرر إلا فى مصر وحدها كما يخيلى لى ، إنه دائما أبدا ينجح فى تدبير يومه بأى شكل . كان قمينا بأن يكون نجما ساطعا فى عالم الكلمة الساخرة اللاذعة لما لديه من موهبة خارقة فى نظم الصور التى تنم عن أفكار عميقة السخرية ومعان مشبعة بالحكمة والموعظة ، لولا أنه رخيص بطبعه ، على شئ كثير من الوضاعة ، كان يكتب المنولوجات الساخرة باسمه وبأسماء غيره من المشهورين مقابل أجر مضاعف ، ينشر أزجاله فى بعض الصحف والمجلات وبعد يومين يذهب مطالبا بالأجر على طريقة البلطجية والعصبجية وباعة الخضار ، ثم يهجو الجريدة بأزجال جارحة تسلق رئيسها ومحرريها بألفاظ سوقية مغرقة فى البذاءة ، ويوزعها كالمنشورات صانعا منها فضيحة العصر ، حتى امتنعت الجرائد كلها عن ذكر اسمه ، وأهل الغناء عن رؤيته ، فلجأ إلى الكباريات يرتجل الأزجال الماجنة للراقصات مقابل سهرة ويضع شلنات آخر الليل ، يؤجر موهبته لمرشحي مجلس الأمة ، يكتب أزجالا إعلانية للتجار كى تنشر فى إمساكيات شهر رمضان ، لا يتورع عن نشر صورته مع أى غثاء يكتبه : بصلعته ذات الخصلات الرخوة النازلة على صدغيه كمقاصيص المومسات الغشيمات ، وعينيه اللوزيتين الخبيثتين الماجتنتين ، وخدود وجهه الناضحة بالخسة ، وفمه الشهوانى الواسع الغليظ الشفتين المفشوخ دائما عن ابتسامة بليدة لزجة . كل آماله اليوم تنحصر فى بنتين من أبنائه وهبهما الله خفة الظل وجراة وصوتا مسرعا ذا نبرة فكاكية إلا أنها طروبة بعض الشئ ، الأولى فى الثالثة عشرة من عمرها لكنها فائزة الجسد ، والثانية فى الثامنة من عمرها ، فجعل منهما ثنائيا أعطاه اسما فنيا : بندق ولوز ، وألف لهما بعض المنولوجات الإنتقادية الضاحكة وعهد إلى موسيقى محبط من شارع محمد على يشتغل مع العوالم ، بتلحينها نظير أن يكتب له كلمات يغنيها فى الأفراح .

باللبط والتلامة والصفافة تمكن من فرض هذا الثنائى على أحد الكباريات فى شارع الهرم فأصبح يقدم نمرة يومية ، حيث يذهب بهما إلى الكباريه فى أول الليل وهو نصف ثمل ، ويعود بهما آخر الليل يترنح من السكر التام . البنتان تعطيان أجرهما لأمهات تصرفه على الطعام ، ويحظى هو بالبقيشيش .. «العجيب أنه يسمى نفسه زجال الوطنية ! أليس هذا شيئا يفقع المرارة ؟!»، وكان صوت هذه العبارة مختلفا عن صوتى فانتبهت فزعا فإذا بقائلها هو «محسن كامل البدرى» الذى كان قد استأنف الحديث بشأته مع «أمير فايق» ..

فجأة دخل «مختار البهلول» ساحبا بنتيه : بندق ولوز ، متجها مباشرة إلى محسن كامل البدرى بك ، الذى بقى مكانه دون أن يعيره أدنى اهتمام . هجم عليه باسماء وجعل يقبل رأسه قائلا : «والله ما رأيته ! لماذا لا تصدقنى ؟ أنا عدم المؤاخدة كنت فى حالة سيئة ! شربت من غلبى خمسة قراع من البوظة قبل أن ترانى بدقائق ! فكيف لكب مثلى أن يتجاهلك يا سيد الكل ؟! استاهل ضرب الحذاء لو ثبت أننى عن عمد تجاهلتك ! وحق أبنائى هؤلاء الذين أرجوهم من الله ما كان ولا يمكن أن يكون !» . حاول تقبيل رأسه ثانية لكن محسن بك دفعه عنه بغلظة واستكبار ، فكاد البهلول يترنح بشدة لولا أنه استند على حافة الكرسي ، ثم قال بصوت شاحب : «أنت ظلمتنى ! سأترك الآن حتى يروق مزاجك !» ، ثم سحب بنتيه ومضى ، فشيعة البك متمتما فى غيظ : «حيوان ! متسول !» ، فشعرت أن عنقى يتهاوى تحت ضربة قاصمة ، وأن رقبتى قد انكسرت ، فاعتدلت فى جلستى كأننى خرقة بالية ، ثم اعتدلت مرة أخرى ، ثم عدت إلى الوضع السابق ، وضع الإنسان الغلبان أمام رجل ذى هيبة وماض مجيد . لكننى ما لبثت حتى اعتدلت من جديد منجصعا عن عمد ، واضعا ساقا على ساق فى شئ من التحدى الخفى ، مما جعل الدماء تترقق فى صدغيه

لبرهة برقت خلالها فى عينيه بوارق لهب خاطف . قلت له بشئ من التحفظ والحذر : حضرتك هجرت العمل الدبلوماسى وهجرت الكتابة ؟! » . اتسعت ابتسامته ، قال : « الجميع يخلطون بينى وبين عمى ! يا سيدى أنا لست هو ! عمى محسن كامل البدرى بك السفير والكاتب والمترجم يعيش الآن فى الخارج للإستشفاء ! » ، ثم وقف مصفقا للجرسون ، وقبل أن يصل أبو حمادة الجرسون كان قد أخرج جنيهين جديدين رمى بهما على طبق صغير فوق الترابيزة وقال : « أحب أن أراك ثانية وثالثة ! مع السلامة ! » . وانسلت من بين الترابيزة والكرسى ، ثم لوح لنا بيده ومضى مشيعا منى بنظرة متفحمة ، وفى ذهنى خاطر يؤكد لى أننى لن أراه ما حييت ، حتى لو ألفت به الظروف فى طريقى فلسوف أتجاهله عن عمد ..

ثم فوجئت بأننى قد انزويت فى محل بدورة مياه عمومية ملحقة بمسجد لعله مسجد الحسين ، وجعلت أفرد الورقة المالية فإذا هى خضراء عليها مئذنة حمراء . كانت من فئة الجنيه ، فجاعنى إحساس بهيج بمنظرها فقررت أن أستبقها طويلا دون أن أفكها مهما كانت الأسباب . ثم وجدتني أبرمها حول نفسها كالسيجارة الرقيقة ، وأسربها فى فتحة بكية السروال الداخلى فى مجرى الأسك ، غيبتها فى الداخل فى الجنب اليمين ، الجنب الذى أنام دائما عليه . وكنت أعرف أن أمير فايق ينتظرني خارج المراحيض ، وأننى مسرور بذلك إذ ما يزال فى جوف الليل بقية تحتاج إلى ونيس مسل ... ثم رأيتني أصعد وراء أمير فايق على درج سلم طينى متآكل إلى سطح بيت لا فرق بينه وبين أى بيت طينى فى العزب المجاورة لقريتي ، مع أن هذا البيت فيما قيل لى فى محافظة الجيزة ركبنا له أتوبيسين ومشينا وسط شوارع مشهورة فتجاوزناها إلى مناطق زراعية بعيدة جدا . فوق السطح حودنا إلى غرفة

صغيرة يحتلها سرير قديم الطراز بعمدان نحاسية عليه ملاءة بيضاء نظيفة . إستقبلتنا سيدة ريفية عجوز تنهض بصعوبة وتتحرك بصعوبة . سلمت علينا وخرجت . من فوق الدايير الحديدى للسرير سحب أمير فائق جلابية رخوة رماها نحوى قائلا : « غير هدمك ! » ، شممت رائحة عرقها الزنخ فقلت : « لا ! سأنام كما أنا ! » ، ثم خلعت حذائى مداريا فى قلبه جوربى النتن ، وتمددت على السرير . فلبس هو نفس الجلابى وتمدد بجوارى قائلا : « عندى بروفة غدا فى النادى فى الثانية عشرة ظهرا فى برنامج خمسة إلا خمسة ! » . فغمغمت قائلا « لن تروح علينا نومة ! » ، ثم رحت فى النوم

.. رأيتنى أمشى وحدى فى شارع الشريفين بلا وجهة محددة . لمحت الشاعر الأسود خارجا من مبنى الشريفين حيث توجد مكاتب كبار المسؤولين واستديوهات البث المباشر وإذاعة ركن السودان وإذاعة ركن فلسطين . إنه الشاعر «محمود الفرنوانى» ، الكبير رغم حداثة سنه ، الذى يعد بين الشعراء المرموقين فى حركة الشعر العربى الحديث كصوت مستقل يعبر عن الإنسان الأسود ابن القارة السوداء وأحقيته فى التحرر . هو سودانى الأصل لكنه مولود بمدينة القاهرة فاكسب مصرية صميمة بالمزاج واللكنة واللهجة والثقافة ، ويقال أن أصله البعيد من ليبيا ، ولربما ظهر فى أحيان أخرى أنه سعودى البذرة ، أو أن أمه خليجية . إلا أنه مشهور جدا ، ويعيش كلاجئ سياسى ولا أحد يعرف كيف تحقق له ذلك ، ربما لأنه منذ نعومة أظفاره اتخذ صبغة نضالية ثورية تتيج له الصدام المحسوب الذكى مع القوى الحاكمة فى المنطقة العربية ، لكى يظل فى الصورة صوتا ثوريا مرموقا وفى نفس الوقت لا يخسر مساندة السلطات الحاكمة . تمكن أن يرتحل من حين إلى حين ليعيش فى هذه العاصمة العربية أو تلك ، كلاجئ سياسى . هو قد تعلم فى القاهرة حتى وصل إلى كلية الآداب

قسم اللغة العربية ، وأثناء ذلك كان يعمل محررا مراجعا بجريدة يومية من جرائد الثورة . يقال إنه أهمل في حضور المحاضرات حتى جاء الامتحان فذهب إلى عميد الكلية يطلب حقه في النجاح بدون امتحان ، شفاعا لمركزه ومكانته كشاعر حر مرموق يحق للكلية أن تفخر بأنه أحد أبنائها . لم يقبل العميد بالطبع ، والواقع أن أحدا لا يعرف إن كان ذلك قد حدث بالفعل أم أنه مجرد شائعة من الشائعات الكثيرة التي تحاك حوله . كذلك لا أحد يعرف إن كان قد حصل على الشهادة النهائية أم لا ، إنما الواقع أنه شاعر كبير مرموق ، وأنه حاليا يعيش في سوريا كخبير في إحدى إدارات وزارة الثقافة ، وأنه الآن في زيارة للقاهرة في مهمة قد تستغرق عدة أشهر ، وأنه متزوج من سيدة فلسطينية من غزة ، أنجب منها ستة صبيان يحملون ملامحه على سحنة بيضاء ، بعيونه اللوزية البارزة البراقة كعيون التمساح ، وجبهته الضيقة المدببة ، وفمه الضيق المزموم وأسنانه الكبيرة وحجمه الدقيق ، وقد أجز شقة مفروشة في الدور الخامس في عمارة علوى والشريفين فوق مكاتب الإذاعة ..

تذكرت أنني كنت على موعد معه وأننى حرصت على الحضور لأنه عزمنى على الغداء كى يقرأ على فصولا جديدة كتبها فى أول مسرحية شعرية يكتبها بعد مجموعة من الدواوين ، يريد أن يأتس برأى فيها . هى فرصة من الخطل أن أفوتها ، ففيها غدوة بيتية وأنا منذ سنوات صرت أشتاق لرائحة المطبخ البيتى ولجو العائلة ، وفيها عصرية جميلة على أنغام الشعر . ثم رأيتنى جالسا فى ركن من حجرة صالون شديد الفخامة ، مقاعده كلاسيكية الطراز ، فى ردهة كبيرة تحتلها مجموعة متنوعة من المقاعد الثمينة . بجوارى مدفأة كبيرة فى الحائط مبنية بالطوب الحرارى الأحمر على شكل بوابة فرعونية كل من

صدغها على هيئة زهرة اللوتس . على المقعد المجاور للصدغ الآخر يجلس الشاعر الكبير الأسود مرتديا سترة من الشمواه البنى المحروق على سروال من صوف الهيلد الأسود وفانلة صوفية بنصف رقبة ذات لون سمنى . كان يدخن بشراهة ويقلب فى مجموعة أوراق سائبة مليئة بالشطب والتعديل أغلب الظن أنها مسودة المسرحية الشعرية التى سيقراها على . من برهة لأخرى يرفع عينيه عن الورق ليصيح فى عصبية مكبوتة وتوتر دفين : « ترى هل سنتغدى اليوم ؟! مش خلاص يا ست ولا لسه ؟! » فيأتى مما عرفت أنه المطبخ صوت نسائى غليظ مسترجل أشد عصبية وأكثر توترا ولهجة مصرية كلهجة أولاد البلد الفتوات : « بطل تدى أوامر يا فرنوانى وأنت قاعد على طيزك ! » ، فانحرفت عنه نحوى بنظرة يبرق فيها الخوف والفرع والاستنكار ، فحفظت بصرى تجنباً لإحراج ، فراح يشد الأنفاس من السجاجة مضيقا ما بين حاجبيه محاولا التركيز على ما فى يديه من أوراق . وكان ستة أطفال متفاوتى الأعمار فى لون الجراد يملأون الشقة صخبا وعفرتة ، يجرون خلف بعضهم محاولين الإمساك ببعضهم البعض فى صياح انتصار واحتجاج ، منهم من يقع فيرج الأرض صارخا ، ومنهم من يصطدم بالأشياء فيكسرها فينطلق جعيره الرنان . لحظتها كان الفرنوانى قد انتهى من ترتيب الصفحات ومال نحوى وشرع يقرأ بصوت متهدج أوصاف المشهد وزمنه وشخصياته ، ويزداد تهديجا ودفقا منذ بدأ يقرأ الحوار الشعرى . لكنه ما كاد يكمل المشهد حتى شعر بضياح صوته بل بضياعه نفسه وسط ضجيج الأطفال وصراخهم ، وكركبة المواعين واصطكاكها بشدة داخل المطبخ ، وصوت صنبور مفتوح عن آخره يوش ويكر بصوت خريز الماء . فإذا به يصرخ بكل ما فيه من قوة وتوتر : « بس! حيوان منك له ! يلا امشى خش جوه ! ياست انتى حوشى العيال مقاصيفالرقبة دول ! » . ظهرت

من طرقة المطبخ سيدة قصيرة القامة مبرومة الجسد تبدو صغيرة فى السن لكن وجهها بلا ملامح كقطعة لحم نصفها أحمر ونصفها الآخر أبيض دهنى ، يطل منها عيان سوداوان يتصاعد منهما بريق حاد ، وجهها كما هو واضح محروق حتى نهاية الرقبة بشكل يثير الفزع والحزن والشفقة الكئيبة . صاحت بصوت أكثر حدة : «بتزقق ليه ؟! وترت أعصابى ! ما تهمد شوية ! دماغك مصفح ؟! » . فوضع ساقا على ساق وشوح لها بأصبعه قائلا فى جدية كبيرة كأنه يخاطب رئيس الوزراء فى مفاوضات سياسية خطيرة : «إذا ما احترمتيش نفسك حاقوم أضربك بالجزمة ! » . وبدا فى الحال كأنه ندم ندما شديدا على انزلاق لسانه إلى البئر السفلى . جعرت هى فيه بلهجة تفيض بالتهديد والوعيد : «فرنوانى ! احترم نفسك أنت ! » . إنفلت عياره ، صرخ : «يا بنت الكلب احترمى نفسك ! » . صرخت فيه : «إنت اللى ابن ستين كلب ! » . رمى بالأوراق وانتفض واقفا كالأسد الذبيح مندفعاً نحوها . قمت مسرعا واحتجزته بكل قوتى . أما هى فقد تصدت له كالمصارع الذى يعرف ألاعيب خصمه ، فنحانى عنه بقوة وقفز فانقض عليها ضربا وتلطيشا بالبونية والشلوت وهى ترسل الصراخ والشتائم البذيئة الجارحة فلا يزداد إلا عنفا وهياجاً فيما الأطفال مندمجون فى صراخ فزع ، لكنه ذلك الفزع السطحى الذى يشى بأنهم عاشوا مثل هذه اللحظات كثيرا . صرت بكل جهدى أحاول فض الاشتباك لكن كلا منهما يلف من وراء ظهري فيشتبك مع الآخر فى ضربة شلوت أو بصقة ، إلى أن تعب الفرنوانى فانهط جالسا على المقعد يلهث بأنفاس متلاحقة حتى خلت أنه سيلفظ روحه بين زفرة وأخرى . وجدتتى فى حيرة شديدة وخرج أشد . تهيأت للانصراف . جذبنى قائلا : «إقعد ! سنقرأ ! لا يهمك ما رأيت فهذه هى حياتنا اليومية ! وهذا مجرد حوار عادى بسيط !!» قلت : «لا أظنك الآن قادرا على القراءة ! ولا أظننى قادرا على الاستماع ! » ، ثم وقفت مرة أخرى ، فوقف هو الآخر وسار معى نحو الباب ..

فوجئت بأننا نجلس معا فى شرفة نادى الإذاعة المطلة على شارع علوى ، الهدوء شامل ، كان الفرنوانى يشعل سيجارة جديدة من عقب السيجارة المنتهية ويبتسم فى تهكم عميق مرير وصوته لايزال يتهدج :

- «هذه البنت المجنونة ! لا يغرنك ما رأيت ! لا ترع ! إنها فى الواقع سيدة عظيمة جدا ! وهى تحبنى حبا عميقا ، وهذا هو سر المحنة ! ألم تر إلى وجهها ورقبتها ؟! لقد سبق أن أشعلت النار فى نفسها ذات يوم احتجاجا على خبر سمعته بأننى انتويت الزواج عليها من امرأة سورية عاشقة لأشعارى ! أنقذناها من الموت باعجوبة ! هى مجنونة لأنها لا تدرك أننى أحبها بالفعل وأحترمها !! لقد ضحيت من أجلها بالكثير والكثير ولمست نادما على ذلك لأنها هى الأخرى تحملتنى كثيرا ! سافرت معى من منفى إلى منفى ! وطوال عمرنا لم يكن لها بيت كبقية النسوة ! كل البيوت التى سكناها كانت مفروشة وتستنزف معظم دخلى المادى على قلته ! حياتنا كلها فنادق رخيصة وحقائب سفر وغرف مبقعة الفرش بعرق الآخرين وبقاياهم ! أحيانا كنت أتركها وحدها مع الأولاد فى بلدة بعيدة لأعيش أنا فى دولة أخرى لما يزيد عن العام وربما العامين دون أن أرسل لها إلا ما يقيم الأود ! ولقد طلقته أكثر من مرة وأخشى أن أطلقها للمرة الأخيرة التى لا ردة بعدها فأتعرض للندم !!» ..

ثم استغرق فى الشروء والتدخين بشراهة ، فيما استغرقت أنا فى مشاعر متضاربة . فمئذ قليل كنت أشعر أننى متعاطف معه ضدها ، الآن أشعر أننى متعاطف معها معا ضد طرف ثالث مجهول ، ثم شعرت أننى ضائق بالدنيا وبالناس وبكل شئ . ثم رأيتنى أقف وفى نيتى أن أفعل شيئا أخفف به عنه . . وهجس فى نفسى خاطر : لو كان معى نقود لعزمته على كأسين ، فلقد كان منظره هو التعاسة بعينها . كنت أشعر أن قلبى يتمزق من أجله بل من أجلهم جميعا كأسرة فى مهب الريح لا يعوضها عن ضياعها أى هدف مهما كان

نبيلًا وعظيمًا . قلت : « تشرب قهوة ؟ » ، ولم أكن واثقًا أن النادل سيلبى طلبى فى الحال إذ تذكرت أننى لم أحاسبه منذ وقت طويل . مع ذلك كررت عليه السؤال بإصرار ، فهز رأسه أن نعم ، فمضيت أبتخر كطاووس من الورق فى الممر الجانبى ، واضعًا يدى فى جيبى السروال ، محاولًا تدبير خطة تقنع مصطفى النادل بأننى جاد فى دفع حسابه بعد أيام قليلة

وكنت مرتكنا بكوعى على حافة سور الممر حينما فوجئت بمنظر الشارع فى عيني . استقر بصرى على المبنى الخلفى لمبنى إذاعة الشريفيين ، إنه فندق الكوزمو بوليتان ، الذى يؤمه لفيث من الأدباء والفنانين ليمتعوا أنفسهم بالشرب فى قاعته الشرقية البديعة . خطر فى بالى أننى يمكن أن أحظى بالجلوس فى هذه القاعة ذات يوم بشرط أن يكون ذلك فى الصباح الباكر والقاعة فارغة إلا منى والهدوء يتسلل إلى عبر ثقوب السواتر الخشبية المشغولة بالأصداغ بنفوس طراز المقاعد والمناضد والأرائك الواطئة قليلًا للإغراء بالجلوس طويلًا ، ويكون أمامى على المنضدة أوراق ، والقلم فى يدى ، وفنجان القهوة بدلًا من الكأس يؤنس وحدتى ، وعلبة سجائر كاملة ، فأظل أكتب وأكتب وأكتب إلى ما لا نهاية ففى قلبى كتابة لا حدود لها وإن كنت لا أعرف الآن ما هى على وجه التحديد ، كل ما أعرفه عنها أن النار تحترق بأعماقى ، بصراعات عارمة ، ومصادمات حامية الوطيس ، ومأزق ومأرب ومحن ونبل فاجع وحزن عميق وأفكار تبرز فى ظلماء العناء تفتح الأفاق على مساحات شاسعة من حداثق تجرى من تحتها الأنهار .. ذلك حلم قريب المنال فيما يبدو ...

– « القهوة يا بيه ! حضرتك قاعد فين ؟! »

مصطفى النادل يقف بجوارى حاملًا صينية عليها فنجانان . فوجئت به ، ارتبكت . تذكرت أننى طلبت منه هذه القهوة منذ وقت مضى فلم يتلأ كما كنت أتوقع ، لأننى فيما يبدو مرتبط بصديق كنت أجلس معه منذ قليل فى الشرفة

الحميمة المطلة على شارع علوى ، وفيما يبدو أننى استأذنت منه لأمر ما ، ربما لأدخل دورة المياه ؟ ربما أكون قد دخلتها بالفعل منذ برهة ؟! الواضح أننى أهملته منذ فترة طويلة حتى نسيته ، ولولا حضور القهوة ما تذكرته ، الواضح أننى كنت عظيم الشك فى مجئ القهوة ولهذا تركت نفسى على مشارف الهرب من الحرج أمام الصديق . جال بخاطرى أن صديقى الذى لا بد أنه فى انتظارى . شك معه سجاثر . أشرت بيدي لمصطفى النادل أن اتبعنى ، ومضيت إلى الشرفة الحميمة . لأول وهلة لم ألمح أحدا ، فلا بد إذن أنه استعفينى فانصرف غاضبا . شعرت بكثير من النكد والكآبة ، لكننى انتهيت على صوت طرقة أصبعين مع بسبسة تتأدنينى ، فانشرح صدرى واندفعت مسرع الخطى . كان صديقى الحميم ، الممثل الناشئ « بشير القلبنى » ، الذى ينتظره مستقبل باهر كمشروع نجم كبير ، نمط من الفتيان الأول ذو طعم خاص غائب عن السينما والمسرح ، خمري اللون بعينين ملونتين فى وجه دائرى صارم الملامح جاد القسمات بما يخفى ذلك المهرج العظيم بداخله ، ربعة القامة رشيق القوام ، يرتدى أفخر الملابس وأبسطها ، القميص والسروال فحسب فى الصيف ، يضاف إليهما بلوفر فى الشتاء مع كوفية كنزة ، لكن القميص دائما أبدا فريد فى تفصيلته ، والبلوفر دائما أبدا وارد سان مايكل لم ينزل مثله فى القاهرة بعد ، وألوانه دائما رزينة ، فيها شباب ورصانة وسخاء وأبهة . تخرج فى كلية أداب القاهرة قسم الفلسفة ثم تخرج بعدها فى معهد الفنون المسرحية قسم التمثيل فأصبح يحمل مؤهلين عالين فوق موهبته الفطرية الفياضة . بهرنى من أول ما رأيته فى النادى ذات يوم بعيد إذ كان أول ممثل أراه ممسكا بآخر رواية لنجيب محفوظ ، كانت هى القنطرة التى ربطت بيننا فى صداقة عميقة ، إذ شملتنا أخوة القراءة الأدبية واتفاق مزاجنا فى حب يوسف إدريس وصلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتى . هو عضو بفرقة المسرح

القومى ويلعب أدوارا صعبة باللغة الفصحى فى مسرحيات البرنامج الثانى ، ويراهن عليه بعض كبار المخرجين فى أدوار بطولية سينمائية فى القريب العاجل. يؤمن بمواهبى أكثر مما أؤمن بمواهبه ، كثيرا ما يتكلم عنى على ترابيزة البروفات محاولا إغراء المخرجين بتكليفى بالكتابة لهم ..

ها هو ذا يستقبلنى ساخرا : «إنت رحى تشتري البن ولا إيه ؟ خليتنى سبت البروفة ! تعزمنى على فنجان قهوة وتهرب ؟! ولا كنت بتتفاوض على تمويل السد العالى ؟! » . قلت ضاحكا : «أنت تحب التزويغ من البروفات ! » . كان موليا وجهه نحو ركن ، وقد فرد ساقيه على مقعد مجاور ، ودكن يديه فى حجره بحركة سرية مع أن النوادل وأنا وربما كل من فى النادي يعرف أنه يبرم قطعة حشيش كالفتلة لينزع المسمار من قلب السيارة ويسقطها فى الفراغ الذى خلفه خروج المسمار . قلت على سبيل الترحاب : أهلا ! أهلا ! وجلست فى مواجهته . أعطانى السيارة قائلا : «عندنا الليلة عزومة على كأسين من الويسكى فى مركب قاصد خير ! » . قلت : «على بركة الله ! » . مرت بجوارنا مؤخرة رهيبة ينسدل فوقها ثوب حريرى مشجر يشف عن نعومة اللحم وعريه . رفعت رأسى إلى الجذع الطويل البادئ من خصر ضيق كدبة الخطوية يتعاضم امتلاؤه عند الصدر الناهد والكتفين العريضين حيث ينزوى الشديان كل فى ناحية بينهما برزخ من الضوء الوردى مثير للجنون ، ينحدر البرزخ من عنق طويل ممثلى بين شلالين من الشعر الأسود الفاحم منسدلين على الكتفين ، ووجهه كالتفاحة بقم واسع وعينين واسعتين فيهما كل ملامح فتحة الفم . تلك هى «حمديا إسماعيل» الممثلة ، دخلت حقل التمثيل برخصة جانبية ، بحكم كونها زوجة سابقة لمطرب شهير دالت دولته وهو فى عز ازدهاره وكسدت سوقه بعد انتشار عبد الحليم حافظ وتوابعه . كان من الممكن أن يستمر نجما طول حياته لولا أنه كان على شئ كثير من الشراسة وخشونة الطبع والعذوانية ، مما جعل

دوائر التعاون معه تضيق شيئا فشيئا إلى أن اضطر للرحيل إلى الكويت تارة وبلاد الفرنجة تارة أخرى ليؤدى نمر فى كباريهات باريس ولندن ويعود محطوما يفتقره المرض بعض الوقت ليصحو من جديد بفضل عناية زوجته الثانية الشابة التى تكلفه أموالا باهظة ، إضافة إلى أن زوجته السابقة حدية إسماعيل تتقاضى نفقة شهرية تصل إلى مائتى جنيه وهو مبلغ كبير جدا ، إذ أن فى حضانتها ثلاث بنات منه . يعرف الجميع أنه طلقها لسوء سلوكها ، فهى امرأة شهوانية وهو ضعيف مهزول مشغول البال على الدوام وكان على ثقة من أنها تستغفله وتخونه مع شبان من الوسط الفنى وكبار التجار الملاحيس . بمجرد حصولها على الطلاق نزلت إلى الوسط الفنى تطلب أدوارا فى تمثيلات ومسرحيات وأفلام ، زاعمة أنها فى الأصل فنانة وأن زوجها هو الذى أقعدها المنزل يريد بها جارية فحسب وأن هذا هو سر الخلاف بينهما وسبب الانفصال . وقد وجدت الأدوار فى انتظارها ، الفضل فى ذلك لمؤخرتها ، وعينيها ، ولسانها الزرب ، الذى لا يخجل من أى لفظ . فإينما أدارت مؤخرتها سال لعاب الجميع ، لكن أحدا منهم لم يذق طعم لحمها ، لم يذقه إلا قلة محدودة جدا ويثمن باهظ يقصم الظهر . هى لم تعشق سوى صديقى «بشير القلبنى» ، لفحولته البارزة ، وشبابه الغض ، ولأنه - كما يشاع - يرضى فى نفسها نزعات معينة ويجيد العزف على أوتار تطربها وتسكرها . ثم إنها امرأة كيادة ، أرادت أن يتزوجها على سنة الله ورسوله ، لكنه عقلها بلجام ذى طرفين : إن زواجها يعطى زوجها السابق الحق فى حضانة الأولاد وسحب النفقة ، وإنه غير قادر ماديا على تعويضها ثم إن أمامه طريقا طويلا لم يبدأه بعد ولا بد أن يمضى فيه متحررا من أى قيد . بناء عليه وافقت على أن تستمر العلاقة بينهما مجرد علاقة عشق ، لكن لكر تضمن ألا يلعب بذيله ويتركها إلى غيرها استكتبته إيصال أمانة بمبلغ مائتى ألف جنيه وأخفته . الطريف أن علاقتهما هذه قد باتت معروفة كالماء

والهواء ، الكل يعرف أنها لا تبخل عليه بالمال ، ولا العزائم المتكررة فى أفخر المحلات ، كما أنه يستطيع انتزاعها من أى قعدة ليمضى بها إلى حيث يشاء ، ويمكن أن يشخط فيها فيسكتها ، أو يأمرها بالانصراف فتتصرف . إلا أنها مع ذلك قادرة على الهجمات المرتدة فى أى وقت تشاء ، وهجمات المرتدة دائما فى منتهى الخطورة ، تستطيع أن تردح له بصوت عال فى أى مكان فى أى لحظة ، وأن تهد أناقته بجرة لسان ، وأن تفضحه ، إلا أن ذلك نادرا ما يحدث ، لأنه يعرف كيف يتجنب هجماتها المرتدة فى اللحظة المناسبة فيسارع بتطويقها وسد المنافذ أمامها ، قد يبقى عندها بضع ليال لا يفارقها ليل نهار حتى يخمد كل تأججها يستل سمومها ثم يرحل ليتفرج عليها مع الآخرين بعد ساعة وهى تخطر كالأوزة فى طرقات النادى مرحلة مبتهجة سائلة سخية العطر والأنوثة ..

ها هى ذى الآن تروح وتجى بجوارنا فى الممر ، تتمحك فينا ، تستلقط عيني لتفرغ فيهما نظرة ذات معنى فيما هى مرتدة تتبخر ، فعرفت أن الشقاق دب بينهما كالعادة ربما منذ ساعات ، وأن عزومة الليلة ستكون على حسابها لتصفية الخلاف المزعوم وأنا سنقضى سهرة مليئة بالصداق والمناقشات البيزنطية التى تنتهى من حيث بدأت وتبدأ من حيث انتهت وتظل تدور فى الفراغ ، والتى لابد تنتهى بأن يقوم معها إلى بيتها فى حى الدقى ، لأبقى أنا ومن تصادف أن كان مشاركا لنا ، نشرب بقايا الكئوس ، وأكون فى العادة آخر من ينصرف ، ربما بعد الفجر .

تفرجت على القبة المفلوكة وهى تعلو وتهبط فى سحر خرافى ، وعلى الجذع الذى يختلج كلما انشد فى خطوة قدم ، وعلى سمانتى ساقها المسحوبتين كانسباب الضوء كقرطاس من أشعة رخامية ، وعلى الكعبين الدورين . شعرت بأننى أحسد صديقى بشير القلبنى على هذا الكنز الثمين . أحس هو بذلك ، قال مع ابتسامة ذات معنى :

- «لو كنت تستطيع تخليصى منها فهنيا لك ! فليهنأ بها كل من هو قادر على تخليصى منها بالرضا والتسليم ! لقد أصبحت لى مثل قدرى الذى لا مفر منه ! لكننى سأعرف كيف أتخلص منها عن قريب !» .

اتسعت عيناي دهشة وربما حقدا :

- «ذلك هو البطر بعينه يا بشير ! هذه أول مرة أرى رجلا يحلم بالخلاص من الجنة الفحاء !» .

فى زهو شديد قال :

- «لكل شئ ضريبة ! وهذه ضريبتها باهظة تقصم الظهر ! إنها تقريبا نصف مجنونة ! أحيانا تستل سكين المطبخ لتمزح معى بها فى لحظات المرح القصوى ! مرة أو شكت أن تغرزاها فى جنبى بحركة هبلاء ! ليس ضيقا بى بل إعجابا مع الأسف ! عمرك رأيت واحدة تعبر عن إعجابها بمثل هذا العنف ؟ ! ثم إنها ترهق جدا فى النوم ! إنها بصراحة لابد أن تغتصب ! لابد أن يكون بالك طويلا وأعصابك من حديد وكذلك ذراعيك حتى تقدر على اغتصابها وتتحمل عضها وخرابيشها ونباحها وصواتها مثل كلبة منحرفة المزاج ! إن لم تقدر أنت على ذلك فإنها تخرع لك أسبابا للخلاف تؤدى إلى عراك يتطور إلى التماسك بالأيدى فاستنفار الغضب فاستخدام القوة الغاشمة !! منتهى لذتها أن تستسلم لك بعد أن تهد قواها من الضرب المبرح تفكها من بعضها لتعيد تجميعها من جديد على هواك وهى بين يديك ! متى ما صارت هكذا فحدث ولا حرج ! قل يامغيث ! لا أستطيع وصف النشوة التى تسببها ! لكننى أكون قد انهزت من التعب ولهت وتبددت قواى فيجئ اللقاء سريعا خاطفا كلسعة النار ! فيتعين على أن أوصل اللقاء الثانى فى الحال بأى شكل قبل أن تبترد وتلزمنى جهدا جديدا !! لكم تمنيت تحت وطأة خاطر خبيث أن يسبقنى إليها من يقوم بهذه

العملية التمهيدية البشعة بشرط أن ينصرف في الحال لأدخل أنا على الأكل وهو ساخن بنار الفرن !! أصل الحكاية فيما فهمت منها أنها اغتصبت وهى طفلة فى التاسعة من عمرها !! هى سكندرية من أب مصرى وأم مالطية ! أبوها قبطان سفينة ركاب أجنبية تعمل على خطوط طويلة فى أعالي البحار فكان أبوها يأخذها معه فى الاجازات الصيفية مع أمها ! ثلاثتهم ينامون فى قمرة واحدة وأبوها سكير قرارى وزئ نساء لا يهدم ! فتظل هى طول الليل تسمع سمفونية النشوة من أمها فتتقل على جمر النار ! فى أحد الموانئ الإيطالية تعرفت على ضابط بحرى ألمانى من أصدقاء أبيها استنفرت رجولته حتى اغتصبها فى نادى البحرية فى الميناء ! من يومها وهى تشعر بالذنب بقوة الشعور بالخطيئة لكنها فى أعماقها البعيدة ترغب فى تكرار الخطيئة بنفس الفنون على شرط أن تكون مغلوطة على أمرها !! لابد أن تشعر أن الأمر تم بالقوة رغما عنها وبدون إرادتها !! المدهش أنها حين تسكر تعترف بأشياء كهذه من خلال الثثرة التى تموت هى فيها !!

لم يدر صديقى بشير أنه أشعل جسدى من حيث أراد تزهيدي فيها وهكذا تلقفت عينيها وهى عائدة ، فتلقتنى بابتسامتها العريضة وفى عينيها سؤال واضح : هل شبعتما من الودودة عني ؟! فاستأذنت من بشير ومضيت خلفها ، فنادانى قائلاً فى همس : «كل مهمتنا الليلة محاولة انتزاع إيصال الأمانة منها بأى شكل ! لابد أن ندبر خطة لذلك من الآن ! لن أذهب معها إلى البيت إلا بعد أن تسلمنى وصل الأمانة فإن ادعت أنه ضاع منها استكتبناها ورقة مضادة !» . قلت باستعجال : «سنرى ذلك !» ، وتبعتها فلحقت بها ، بجرأة حسدت نفسى عليها طوقت خصرها بذراعى ماضيا بجوارها فلم تعترض ، بل انتحت بى ركنا قصيا مطلا على شارع الشريفين وقالت لى :

«ماذا كان يقول لك هذا الولد ؟!» .

قلت : «لا شئ ! كنا نتفق على سهرة !»

قالت بذعر : «إنه الليلة محجوز !»

قلت : «على مركب قاصد خير !»

قالت : «نعم !»

ثم ابتسمت ، وقبل أن تستأنف الكلام جاء مساعد المخرج فنادها فقالت لى : «جاية لك حالا !» . ثم مضت تتبختر مثل الباليرينا فى بحيرة البجع . ومضى عقلى يتبختر وراءها حتى اختفت ..

ارتكنت بمرفقى على حافة السور ملقيا بصرى على شارع الشريفين ، فرأيت على ناصيته الواقعة على شارع قصر النيل بائع الجرائد بفرشه الكبير ، فتذكرت أن له فى ذمتى خمسة وسبعين قرشا وأنه كف عن مطالبتي وعن توعدي بعد أن وقف على حقيقة الحال . توقف عنده «ربحى عزيز» ، قصير القامة الذى يعمل ناقدًا سينمائيا بجريدة أبى الهول ، ويكتب البرامج الخاصة ويترجم المسرحيات لإذاعة البرنامج الثانى فيكسب الكثير ولا يمشى إلا حاملا تلا من الكتب والمجلات الإنجليزية والفرنسية ، ليجلس فى أى مكان ، وفى الغالب على مقهى الحاج أو فى قاعة الكوزمو بوليتان فيكتب ويترجم أشياء ستذاع بعد ساعات قليلة . فكرت أن أناديه من فوق السور ليصعد ويكتب فى النادى لعلى أتمكن من أن أقترض منه خمسين قرشا أدبر لاقتراضها منه منذ شهور طويلة ولم تأت الفرصة بعد رغم أننى أستشعر سهولة ذلك بالنسبة له ، لكن الصعوبة هى أننى لا أفلح أبدا فى النطق كلما عزمت على ذلك ، وفى ظنى أن وجودنا معا فى النادى وحدنا قد يعطينى بعض الجرأة . فكرت أن أزوغ من صديقى بشير مكتفيا بموعد المساء ، لأنزل فالحق بربحى عزيز وأمضى معه إلى حيث هو ذاهب كما يحدث دائما كلما التقيته . مع يقينى بأن الواقف فى

الشارع لا يستطيع رؤيتي جيدا فإننى شعرت - بقلب فزع - بضرورة الاختفاء خلف السور فورا ، إذ رأيت «أحمد أبو خربوش» المحرر بجريدة مسائية ، الذى لا يعرف الفرق بين الألف والنبوت ويتسكع طول النهار فى الوسط الفنى بحثا عن أخبار ملفقة يكتبها له ناس عن أنفسهم ، ويلجأ إلى كثيرا لكى أعيد صياغتها له ، وألجأ إليه بدورى كلما تعبت من المشى بقرب الجرنان فأصعد إليه لأستريح وأشرب كوبا من الشاي . هذا الولد لا مانع لديه من أن يبيع أباه نظير مكسب مهما ضؤل حجمه ، وقد أخبرنى مؤخرا أن البوليس قد سألته عنى بإلحاح وأنه أنكر معرفته بى ، وقال إن ضابط مباحث قسم الأزيكية استدعاه وقرره بكل المعلومات التى يعرفها عنى ، وأوصاه بأن يبلغهم إذا رآنى فى أى لحظة فى أى مكان . ظننت أنه يهرج أو يقصد إبعادى عن الجرنان حتى لا أكلفه شايًا إذ هو شديد البخل شديد الحقارة ، لكننى سرعان ما تذكرت أن «ربحى عزيز» نفسه أخبرنى أنه تعرض لنفس الموقف بسببى وبسبب اثنين من زملائه وأصدقائه ، إلا أن «ربحى» بحكم مركزه وقوة شخصيته واتصالاته بشخصيات كبيرة استطاع أن يلم بحقيقة الموقف ، وبلهجة ذكية جدا لمح لى - دون أن يتورط فى الإفشاء أو الاعتراف - أن الأمر بالنسبة لى - ربما - يكون بسبب علاقتى الوثيقة ببعض شعراء العامية الذين قبض عليهم أخيرا بتهمة الشيوعية مع لفيف من الكتاب الشبان ، وأننى لا يجب أن أستسلم للذعر أو الخوف حتى لو قبضوا علىّ فإن الأمر لن يتجاوز الاستجواب خاصة أننى لست أمارس أى نشاط جماهيرى . أذكر أننى سألت ربحى : «وأنت ما رأيك ؟ هل أسلم نفسى ؟» قال بسرعة «إياك !» ، ثم أضاف ببلهجة ذات معنى يختبئ فى ابتسامة غامضة : «فى المقبوض عليهم ناس فرحوا بشدة من القبض عليهم لأنهم أخيرا قد حصلوا على البصمة التى تدرجهم ضمن المناضلين بشكل رسمى ! لقد حصلوا على الشهادة التى يتاجرون بها فى الوسط الثقافى ومنهم

صديقك إياه الذى لا داعى لذكر اسمه !» . ويبدو أنه رآنى فى حيرة ، فقال بجدية : «اسمع ! هل أنت شيوعى ؟» . قلت فى شئ من التردد : «فى رأسى بعض أفكارهم !» سألتنى بنفس الجدية : «فهل تؤمن بهذه الأفكار ؟» قلت «أحبها !» قال : «إذن فانتظر حتى يقبضوا عليك ! عليك أن تواجه الأمر بشجاعة !» . قلت بشئ من الخوف : «لكننى لست مشتركا فى أى تنظيم أو جمعية ! كما أننى لا أمارس هذه الأفكار ولا أعمل على نشرها ! ولست أحب أن أسجن فى سبيل قضية هلامية ؟» . قال ببساطة : «إذن فعليك بالاختفاء الآن من القاهرة حتى يهدأ الحال ! إنهم يقبضون على الشبان الجدد بالذات بطريقة عشوائية بحثا عن معلومات جديدة تفيدهم ! الهرب فى هذه الحالة أفضل ! لأنهم سيورطونك فى اعترافات غير مضمونة العواقب ! ولا بد أن يستدرجوك فى كلام يضر أصدقاءك !» شعرت بوجاهة رأيه ، فقررت الاختفاء بأى شكل

.. رأيتنى أمضى فى حارة ظلماء كالجب ، ثم رأيتنى فى حجرة سرعان ما عرفت أنها حجرة صديقى السكندرى «إبراهيم الفجلاوى» ذلك الاستورجى الذى كان يكسب الكثير من صناعته فى تلميع الأثاث ودهنه وكان صاحب ورشة لا بأس بها إلا أن موهبة الزجل عنده رشحته لكتابة الأغنيات الطريفة التى يستخدم فيها قاموس مهنته فى حديث العشق والهوى ، فأذاعت له إذاعة الإسكندرية المحلية بعض هذه الأغنيات ، فهداه طموحه إلى بيع الورشة واقتحام القاهرة ليدخل عالم الشهرة من أوسع أبوابه ، لكن الحال تدحدر به حتى سكن فى هذه الحجرة فى سفح منزل متداع من منازل حى معروف القديمة الصادر من المحكمة حكم بإزالتها ، خلف هيلتون النيل مباشرة ، لا تدخلها الشمس أبدا ، ولا الضوء ولا الهواء ، عطنة الرائحة لقربها من المرحاض الطافح ولامتلائها بالرطوبة حتى أن حوائطها تنضح عرقا غزيرا . كان مع ذلك سعيدا بها لقربها من جميع الأماكن خاصة مبنى التلفزيون الجديد على الكورنيش حيث بدأ يسعى للإلتحاق بوظيفة فيه فى قسم العرائس ، وكنت أدرس أخبارا

فنية عنه فى الأخبار التى ألقها لأبى خربوش ؛ فى مقابل أن أبيت عنده بعض الليالى ، ها هو ذا يستقبلنى فى توتر شديد وفتور مع أنه لم يرنى منذ ما يقرب من عام أو يزيد ، قال بلهجة خطيرة : « كويس أنى شفتك ! على فكرة ! البوليس جه سأل عليك هنا ! قلت لهم ما أعرفش عنه أى حاجة ! الكلام ده من مدة فاتت لكن أكيد لسه بيدوروا عليك ! » ، إبتسمت فى مرارة ، إذ انتهت إلى أن الفجلاوى لضيق أفقه وانعزاله لم يعرف بعد أن الحكومة قد أفرجت عن أصدقائى الذين قبضت عليهم وأنها كفت عن البحث عنى ، بل لعله لم يعرف أصل الحكاية من أساسها ، مع ذلك تجاهلت كلامه ، وكان كل هدفى أن أروح فى النوم بأى شكل ، ولكن ، ترى ما الذى يصيبنى بالإنقباض كلما جلست فى هذه الحجرة ؟! أهو شعورى بأننى لا أجيئها إلا مضطرا كما يضطر الشريد إلى الترحيب بالمبيت فى تخشبية قسم الشرطة ؟! أم لأنها جحر خائق تعشش فى جدرانها الفران والسحالى والعرس والصراصير والعقارب ؟! سرعان ما تبين لى أن زمنا طويلا يقاس بالسنين قد مر وأنا فى نفس هذه الجلسة المتكورة فى نفس هذه الحجرة مع نفس هذه الكآبة ، حتى هذا الصراخ الذى بدأ يخرج من حلق حنجرة فزعة هو نفسه سمعته كثيرا من قبل ، مع ذلك انتفضت واقفا كالعادة ؛ صرت أنتفض من قمة رأسى إلى إخصم قدمى ، تبين لى أن الفجلاوى تركنى جالسا واندمج فى غفوة عميقة ، ظلام الحجرة يتكاثر يتموج يلمع كالتقار يغلى فى قدر ، بفعل شمعة ذات ضوء مرمد فى ركن بعيد من الحجرة ، كان الصراخ الفزع يتوالى بغير توقف يرج الأرض رجا ، رأيت الفجلاوى متشنج الجسد كعرق من الخشب ينتفض وقد طوق رقبتة بيديه إندفعت نحوه ؛ هزته بعنف ، إنتفض جالسا ثم واقفا على حيله ينظر حواليه ، رغم علمى بحقيقة السبب سألته «مالك يا جدع ؟» قال ما كنت أعرف ومالا يمل أبدا من ذكره : إن الثعبان كان يطوق رقبتة منذ برهة ويضغط عليها حتى كاد يزهق روحه ، رحت من فزع أشب على أطراف أصابعى وقد تملكنتى الرعدة ،

أضيت الحجرة ، ورمى الفجلاوى بزر الكهرباء الشبيه بالبلحة وقال : « تشرب شاي ؟ » قلت : « أشرب ! » قال : « تذهب فتشترى لنا شايًا وسكرا من آخر شارع معروف ! » قلت « نحن على أبواب الفجر » قال : « ليس عندي سوى تلقية واحدة سأتركها للصباح ! » شعرت أنى يجب أن أقوم الآن لأنصرف ؛ لكن السماء مالبت حتى أرعدت وزمجت ثم انهمر وشيش انهمال المطر ، قال : « كيف رأيت الجو وأنت قادم ؟! » تفكرت قليلا ؛ تذكرت أن الجو كان شديد الحرارة خانقا ؛ تذكرت أننا فى عز الصيف ؛ تذكرت أن حصيرة الصيف واسعة ؛ تذكرت أن بهمة الليل قد مضت ، قررت أن أخرج من هذه الحجرة مهما كانت العواقب وخيمة ..

كانت شوارع وسط المدينة كلها مطفأة تبين أن الفجر الذى أدركنى فى حجرة الفجلاوى كان فجرا كاذبا ، وأن الساعة لم تكن الخامسة صباحا كما قرأتها فى ساعة يدى بل كانت الثانية عشر والثلاث ، بعد منتصف الليل بثلاث ساعة فقط . كرهت هذه الساعة التى تخدعنى دائما بعقربيهما المتساويين فى الطول حتى لا أستطيع التمييز بين عقرب الدقائق وعقرب الساعات فأخلط بينهما فى كثير من الأحيان . الناس فى شارع سليمان يتخطون على ضوء ذبالات زرقاء اللون تنبعث من هنا وهناك ، وثمة من تنشق عنهم الأرض فيصرخون فى وجه أى ضوء أهوج فينطفئ فى الحال . فوانيس السيارات وفوانيس الشوارع كلها مدهونة باللون الأزرق ، الحياة كلها مدهونة بالأزرق القاتم . صوت المدافع والطائرات الحربية مازال يرد فى سماء القاهرة منداحا فى الأفق البعيد ليرتد عائدا من جهات متعددة ثم ما يلبث حتى يتضاعف

فض اشتباك الجفون

.. رأيتنى معلقا بيدي فى قضيب معدنى يتدلى من سقف «الأتوبيس»
الفاص بكتل بشرية تعجن بعضها بعضا وتعصر نفسها عصرا . وكان المحصل
اللعين قد نجح فى اختراق كل هذه اللحوم البشرية وصار على مقربة منى ،
وكان يضرب سقف «الأتوبيس» بيد القلم المعدنية ضربات مقرعة تصم الأذان
يقصد بها تنبيه الركاب إلى وجوده .

حريف أنا فى فن التزويغ من محصلى الناقلات العمومية بوجه عام . فى
البداية كنت أحرص على القرش فى جيبي تحسبا لحالة الوقوع فى مأزق
اللامفر من قطع التذكرة غير أنى كنت أضن به على هيئة النقل التى تمتهن
أدميتنا وتأخذ فوق ذلك أجرا . ثم بات عدم وجود القرش أصلا حافزا أقوى
لركوب «الأتوبيس» متحديا وليكن ما يكون . شيئا فشيئا بدأت أستمتع بالتزويغ
حتى لو توفرت بجيبي قروش عدة . صرت أفتن وأخترع أساليب جديدة فى فن
التزويغ ، صرت أكثر سخرية من المزوغين المبتدئين الذين يمارسون أساليب
بالية متخلفة تدفع المحصل إلى التشكك فيهم ، كأن يهرب الواحد منهم من
نظرات المحصل ويتجاهل وجوده تماما ، أو ينظر من الشباك منهمكا فى
اللا شئ ، بعضهم ينتهز فرصة اشتباك المحصل مع أحد جيرانه فيجئ هو فى

ويرزاد قوة وكثافة فتتزلزل الأرض بزلزال عنيف مبر فلا نعرف إن كان الرعد
هابطا من السماء أم صاعدا من الأرض . وكان من الواضح أن جعبة يونيه
اللعين لم تفرغ بعد من أسرار النكسة ، وأن النكسة ليست مجرد نكسة ، وأن
الآلاف مثلى يتعرضون الآن للقصف المدمر فى العراء ، وأن جميع الأفراح
مؤجلة إلى أجل غير مسمى . اخترقت ميدان طلعت حرب الغارق فى الظلام ،
فوجئت بالحاج مدبولي يفرش كتبه وجرائده على الرصيف وقد غطاها بالمشمع
وجلس بجوارها مع بعض صبياناه . العجيب أنه رغم الظلام والرعد والتوتر كان
هناك من يسأله عن أسماء بعض الكتب وهو يؤكد أنها موجودة لكن البيع لا يتم
إلا فى النهار . جلست بجواره على الرصيف فوق تل من الجرائد المحزمة
بالحبال . قال إن هناك من سأله عنى وترك لى قصاصة ورق معه ، ودب يده فى
جيب الجلباب فأخرج رزمة من النقود والفواتير والأوراق استطاع أن يميز بينها
فى الظلام وأن يسحبها ويعطيها لى قائلا : تعال جوه ، وسحبني إلى مدخل
العمارة التى يفرش أمامها حيث انزويئا فى ركن خلف الباب ليشعل سيجارة له
وأخرى لى كى أتمكن على ضوءها من فض القصاصة . اكتفيت بقراءة توقيعها
فإذا هو توقيع المهندس مختار الحباك زميل الصبا فى القرية ، الذى يعمل
مهندسا بشركة السكر ، يقول إن الجيش طلبه مع الرديف ، وأنه كان يود أن
يرانى قبل رحيله . وضعت القصاصة فى جيبي برفق كأنها زجاجة أخشى عليها
من الكسر ، ثم انتظرت حتى أجهزت على السيجارة خلف درفة الباب ، ثم
خرجت أدب فى الظلام على غير هدى . وكنت ألاحظ أن قدمي تقودنى إلى
شارع الشريفين على الرغم من يقينى أنه ليس فيه ثمة من ملاذ .

صف المحصل على طول الخط ويدافع عن حقه بشكل مبالغ فيه اعتمادا على أن المحصل سيخجل بعد ذلك أن يسأله عن التذكرة وإن سأله فبشكل عابر ترضيه أى إجابة ، بعضهم الآخر يرى أحد الجالسين بعيدا يمد يده بالنقود فى اتجاه المحصل فيتطوع هو بأخذ النقود وتوصيلها للمحصل الذى يعطيه التذكرة فيتلکأ فى تسليمها لصاحبها بهدف التمويه على المحصل ، وحينما كان المحصل يلح فى النداء على بعض الشاردين قائلا : تذاكر يا أفندى ، فينجعص هذا قائلا فى ثقة شديدة : أبونيه .. حينئذ أعرف أنه من عتاة المزوغين فى حين قد يبلغها المحصل . أما أنا فما يكاد المحصل يقترب منى حتى أركز عينى فى عينيه بقوة وجسارة متجاهلا مسألة التذاكر هذه كأنها شئ لم أعرفه فى حياتى ، فأحيانا يتجاوزنى ، وأحيانا يسألنى عن تذكرتى ، فأهز رأسى فى ثقة تامة ودودة ومبتسمة قائلا : خلاص يا حبيبى - ثم أشفع ذلك بنزع كفى من القضيب الحديد وتعريضها له لكى يرى تذكرة مبرومة بعناية ومحشورة فى عروة ساعتى، وهى فى الواقع تذكرة قديمة أحتفظ بها جديدة على الدوام إذ كنت بارعا فى التقاطها من أى مكان ، فإن بليت ولم يكن معى غيرها فإننى أهز رأسى دون اهتمام قائلا : أبونيه يا حبيبى، ثم أبالغ فى صلب نفسى على القضيب الحديدى المحاذى للسقف ليرى هو كيف أننى مشغول وغير قادر على استخراج «الأبونيه» . وكنت دائما أدخر سلاحا أخيرا فى جعبتى هو قدرتى على التمثيل المتقن وهو سلاح لا أستخدمة إلا عند الزنقة الشديدة إذا ما أصر المحصل على رؤية «الأبونيه» ، إذ أروح أحسّس جيوبى فى اضطراب مفاجئ ثم أبدأ فى إزاحة من حولى بحركة مسرحية وارتياح مبالغ فيه لكن بإتقان يوازنه ، انظر فى الأرض وفى المحيطين بى نظرات تستغيث تارة وتتهم تارة أخرى وقد تتصافق بعض الشئ تصافقا يعقبه جر ناعم ، أملا الدنيا صياحا بأننى قد

نشلت ، محفظتى بكل ما فيها ضاعت يا ناس خلوا فى قلوبكم رحمة ويا أيها السارق حلال عليك المحفظة بفلوسها وارم بالأوراق التى فيها على الأرض ينوبك ثواب ينشغل الركاب لبرهة طويلة أكون خلالها قد تزحزحت شيئا فشيئا نحو أقرب باب ، فما يكاد المحصل يمر معطيا إياى ظهره حتى أكون قد انتهزت فرصة محطة قريبة فأهبط منها خلسة لأتصيد الأتوبيس القادم . المرات التى تعرضت فيها للتهزئ كانت قليلة ولست أذكرها . بل لست أذكر أننى تأملت ذات يوم لمأى واحد من هواة التزويغ المبتدئين حين يقع تحت طائلة التهزئ ويصبح منظره هو المهانة بعينها ، يحلولى حينئذ - بسفالة لم أكن من أهلها أبدا - أن أشارك فى تهزئ المتهزئ مع الآخرين ، ربما لأدارى بذلك ارتكابى لنفس الجرم، إنما الذى بقى يؤلمنى حقا هو هذه الدقات السخيفة الملحاحة بيد القلم الحديدية على سقف «الأتوبيس» . كل دقات تعطى صوتا كصوتها كفيلة بوضعى داخل «الأتوبيس» على الفور ، حيث تظللنى خيمة من الخوف أمقتها وأمقت «الأتوبيس» كله بركابه وأصحابه !..

ولاح لى أن كل هذه الأفكار والتخوفات قد ودعتنى منذ بضع سنوات ، ولاح لى كائننى كنت قد هجرت ركوب عربات النقل العام بجميع أنواعه لأننى - فيما بدا لى وأنا مصلوب لأزال على قضيب من الحديد المعدنى الأملس - كنت قد صرت من ركاب السيارات الخاصة !.. ثم عبرنى خاطر سريع امتعض له قلبى ونشف ريقى إذ أننى لا أتذكر شكل سيارتى الخاصة هذه مثلها مثل الأمنيات الكثيرة الحميمة التى لم أعد أعرف إن كانت تحققت لى بالفعل أم هى مجرد وهم وأضغاث أحلام ! . ثم لاح لى أننى أشغل ذهنى الآن بأى أشغال تصرفه عن التفكير فى أمر المحصل الذى كلما اقتربت دقاته هبط قلبى بين الأقدام . سرعان ما لاح لى كائننى الوحيد المصلوب فى هذه الناقلة فحاولت

التلفت يمينا أو شمالا فلم أتمكن من ضغط أجساد غير مرئية ولكننى أشم رائحتها وأشعر بنبض عروقه فوق صدرى وظهري وجنبى وحتى ذراعى المشبوحتين ..

لاح أننى ارتب نفسى للقاء بالمحصل وكان من الواضح لى أننى منذ عهد طويل طويل لم ألقه حتى صددت محاولتى وقلت ثقته فى نجاحى ، وكان ثمة ما يشبه اليقين فى قرارة نفسى أننى قد صرت أقل صفاقة عن ذى قبل بكثير جدا ، وأن جانبا عظيما من الحياء والوقار قد أضيف إلى شخصى لأدرى له سببا ، مع أن رجرجة «الأثوبيس» وانهراسى بين كتل اللحم لم يكن يحفظ لى أى حياء أو وقار بأى درجة ! ..

ثقل رأسى وازداد ثقلا وصرت أشعر كأنه عبء داهم الوطاء على جسدى المسحوق تماما والضائع تماما بين عشرات الساحقين المسحوقين كرها وبرغمهم . وكانت دقات القلم على السقف الخشبي قد صارت تثقب فى أذنى مباشرة حتى لينتفض منها كل عرق فى عروقى ..

فتحت عيني بصعوبة شديدة .. فإذا بى جالس فوق كرسي من الجلد وثير ، أمسك بيدي صحيفة مفردة تبينت أننى كنت أتصنع الاندماج فى قراءتها فى حين أننى استخفى بها عن عين الجرسون ريثما أخطف لى لحظات من النوم .. وكان الجرسون اللعين لا يزال يطرقع بالمعلقة على الصينية بجوار أذنى يستهدف إيقاظى ، وكان انتزاعى القهرى المفاجئ من بحر النوم العميق القرار قد علق روى بأنفاسى لبرهة وجيزة وأصداء صوت الطرقات تزغدنى بقسوة فى دماغى الذى بدا لى كالبيضة أم رشت عجينة منكورة . استدركت نفسى موهما إياه - بوجه كالح - أننى يقظ ولم أنم ! .. ينصرف ملقيا على

نظرة فيها كثير من التأفف المتمسك بأهداب التهذيب . ظلت لبرهة طويلة جدا أموه عليه بكثرة الكح والاعتدال فى جلستى وتصفح الجرنان باهتمام شديد ثم سرعان ما انزلق غارقا فى بحر الظلمات ..

أرأى متربعا تحت شجرة التوت الممتدة فروعها فوق باب وشباك منزلنا فى البلد وظلها عتيق عمره مائة عام صادق خلالها قوافل الرياح من جميع الاتجاهات يستقطب ودها يستضيفها على الدوام فتملأ له الدنيا زفيقا وأنسا وبهجة ومودة وأحلاما رائقة فلا تعرف إن كان ذلك صادرا عن الأضياف أم عن الأعشاش الكثيرة المتوطنة بين الفروع سنوات طويلة . وكنت لحظتها متمطرقا على مصطبة لصق جدار الدار والفروع تصفق بأوراقها فى سرعة نشوانة تسعى لبلوغ ذروة من النشوة طويلة النفس لا حدود لها وتنتثر فوق رأسى وحوالى زفيقا وثمار توت جافة وناضجة فيما أنا على برزخ من الرغبة فى نوم لذيق والرغبة فى يقظة ألد .. وإذا بطلقات الرصاص تندلع فوق رأسى مباشرة تفرز منها العصافير والرياح والفروع والأوراق ويمتلئ الهواء النقى برائحة البارود الخائق ..

سقطت رأسى على صدرى فاعتدلت فى الحال قبل أن يضبطنى مراقب مجهول ، وقد حلا لى أن أتجاهل طرقات الجرسون الواقف بجوارى يواصل الطرقة فى إلحاح ينطق رنينه بالنذير الأخير فى مجال الحوار المذهب . أحسستنى أستند على الترابيزة الفرومايكا الأنيقة بكوعى فى وضع مريح قليلا ، مداريا وجهى بجريدة أغلب الظن أنها جريدة الأهرام بتاريخ قديم تهدلت صفحاتها واسودت وأبت إلى أضلاع من التثنى والتكسر ، وكان منظر الأهرامات الأحمر يطالعينى كلما انفرجت جفونى فيداخلى مزيد من الإعياء ، أحاول التيقظ بالقراءة فتمر عيني على كلمة بصراحة وتحتها إسم ورسم محمد

حسنين هيك ! أتذكر أنه يتحدث عن أزمة المثقفين وأننى قرأت هذا الكلام عشرات المرات ، أتذكر أننى أحتفظ بهذا الملحق من أجل مقالة للدكتور «لويس عوض» لا أذكر ما هى على وجه التحديد ، أتذكر أننى لم أحتفظ بأى شئ طول عمرى ، بقايا ثيابى مودعة فى حقيبة «هاندباچ» أمانة لدى أحد الأصدقاء فى مدينة ما كنت ذات يوم مقيما بها ضمن رحلة الوصول إلى هذه المدينة العاصمة الكبيرة لسبب لم أعد أدريه على وجه التحديد ولغاية - لا شك كانت هامة وحقيقية - لم أعد أعرف عنها سوى أطراف غامضة تتضح أحيانا وتنهم فى معظم الأحيان ! ..

بذلت جهدا جبارا لكى أرفع رأسى وأسندنه بين كتفى فى وضع رزين كبقية عباد الله الجالسين أمامى الآن فى بوفيه المحطة ، فكل الذين جاؤا هاهنا الآن هم فى الأصل مسافرون بعد برهة تقصر أو تطول ، هم لهذا على يقظة تامة ودائمة تلتقط صفير القطارات فتنهض فى لهوجة وهرجلة جامعة حقائب وأسبنة وأشياء وأطفالا صغارا ، صار من الواضح لى أننى أختار هذا البوفيه لأنه يسهر حتى الصباح متوهما - بعشم إبليس فى الجنة - أننى قد انتهز فرصة الهرجلة واللهوجة المتجددة كل حين لأغفو قليلا من وراء ظهر القوم الذين هم جميعا وبلا شك يتميزون عنى بأن لهم مخادع فى مكان ما من هذه المدينة أو غيرها سيخلدون إليها بعد حين أما أنا فليس لى ثمة مخدع فى أى مكان على الإطلاق ، غير أننى لم أكن أتوقع أن هذا الجرسون الطيب المهذب جدا يمكن أن يقسو علىّ إلى هذا الحد الكريه ! ..

صار من الواضح أن الجرسون يترصدنى عن عمد بعد انصراف القطار الفاصل بين شقى الليل وخلت قاعة البوفيه العريضة المترامية المزدانة بترابيزاتها وكراسيها الجلدية الوثيرة المضيافة الحنون وأرضها الناعمة المنيّة

بمربعات ملونة من الخشب الرقيق الأملس ، وبدا أن الجرسون لم يعد وراءه من عمل سوى فجاء وارتكن بمؤخرته على الترابيزة المقابلة وأشعل سيجارة وشبك ذراعيه على صدره وراح يدخن فى فروغ بال ونظراته كالمغناطيس تتصيد عيني كلما انطبقت جفونى على بعضها ، فكان لزاما علىّ أن أظل مبحلقا فى وجهه وتمنيت لو أن معى سيجارة إذن لأشعلتها الآن فى مواجهته وصحصحت بها عيني ..

لاح لى الجرسون طيبا ما فى ذلك شك برغم ذلك . طويل القامة هو ، رفيع مستطيل الوجه والأنف واسع الفم بشنب غنجه ، حليق الذقن يربط حول عنقه ما يسمى بالكـ «بابيون» الأسود ، يضع يده دائما فى جيب المريلة الأنيقة البضاء حيث تشغل البراز والشلنات ! ..

لاح لى كأننى واثق من أن الجرسون الطيب لن يقل بأصله معى ، لن يطردنى صراحة على الأقل .. ثم اتضح لى أن الجرسون لن يفعل ذلك احتراما لى فأنا فى الواقع لا أدفع بقشيشا بل لا أدفع أصلا ! .. ثم اتضح لى فجأة أننى جالس هاهنا بحجة انتظار ذلك الرجل الذى يحترمنى الجرسون إكراما لخاطره ، إنه «كامل بيك عبد الغفار» ابن الناس الذوات فى أقاليم المنوفية ذوى الأملاك الشاسعة العريقة ، هو شخص كما قالب السكر المحمر ، طويل سمهري فى قوامه نبل ورجولة وإقدام واستئمان واسع النطاق ، أنيق الملبس على الدوام، فى عقد الثلاثينات من عمره ، على ثقافة مبهرة حقا يحمل على الدوام ذخائر من الآداب الأجنبية الثمينة بلغاتها الأصلية حيث يجلس ونحن من حوله يقرأ علينا ما استحسنه من روائع شيكسبير ودموع تشيكوف وملهاة بلزاك وماسى ديستيوفسكى وأشعار بيرون ، يقرأ ويترجم لنا ويرسم الحدود الفاصلة بين الفن الرديء والفن الجيد ، يتجلى فتتساقط من فيه الدرر الثمينة التى نحس فور

استمعنا لها أننا قد صرنا من المثقفين الأصلاء ، ينتهز الفرصة ويمتدح عملا فنيا لواحد ممن يجلسون معنا فى أواخر الليالى فى ضيافته طوال الجلسة لا يد تعلو على يده لدرجة أن من يمعنون فى التهذب معه وتوقيره لا يجروؤن على إخراج علب سجائرهم فى محضره إذ أن الترابيزات المضمومة أمامنا على شرفه منثور عليها عشرات من العلب المفتوحة تنادى المدخنين ولا تفرغ مهما أحلو الكلام وتواتر التوليع بدون وعى ، ونحن نسمع فى كل حين أن فلانا وعلانا من لوامع الشبان فى القصة والشعر والمسرح والنقد من تلاميذه وإن كانوا أكبر منه سنا ، أحس بمواهبهم منذ وقت مبكر واقتنع بها فاحتضنهم وصار ينفق عليهم بكرم لا مزيد عليه ويتوسط لهم لدى أصدقائه من رؤساء التحرير والهيئات لكى ينشروا لهم إنتاجهم وقد ينشر لأحدهم كتابا على نفقته الخاصة ويسعى لدى النقاد وأصحاب العواميد كى ينظروا له بعين الرعاية ، وهو يعرف أن شبانا كثيرين ينصبون عليه فيقترضون نقودا كبيرة ينقذون بها أنفسهم من كوارث مرعومة ثم يختفون لأشهر طويلة فيظل هو يواصل السؤال عنهم فى ود ضاحك ساخر دون أن يصرح بشئ لكنه يجعل من أمرها أنسا حقيقيا ولكننا نشعر بألمه حين تجمع الصدفة بينه وبين أحدهم فيروح يقرعه على ضيق أفقه ولا بد أن ينهى اللقاء بأن يعزم عليه بنقود أخرى أو قد يغمزه بها فى السر ، وكان كثيرا ما يردد بحميمية بالغة قول اسكندر ديماس الإبن لإسكندر ديماس الأب معاتبا له على إسرافه : يا أبى إنك كمن يلقى بأمواله من النافذة ، وكيف رد أبوه عليه قائلا : لا بأس يا بنى طالما أن هناك من سيلتقطها ! ..

تذكرت كل هذا بصحبة مفاجئة كان سببها سحب الدخان المنبعثة من فم الجرسون فى غزارة متواصلة الأمر الذى أقتعنى بأنه شرب ذوب عدساية أفيون فى مطلع الليل أصابته بشراهة فى التهام دخان السجائر .. وظننت أننى بلغت حدا من بحلقتى فيه يكفيه للإقتناع بأننى صاح عن حق فيحل عنى

ويعتقنى لوجه الله ، ولقد تركنى الجرسون بالفعل يأسا منى أو لقضاء حاجة ، فأردت أن أكون أخص منه فأظل مفنجل العينين حتى إذا ما دهمنى فجأة ليمتحن صحوى فوجئ بأننى صاح بالفعل لم أستغفله . غير أن ظهري كان يؤلمنى ويرغمنى على الإنحناء بل الانكفاء ، فاكثفت بأن عدلت ظهري على مسند الكرسى وأرحته عليه تماما ومددت ساقى عن آخرهما وطرقت قدمى وتتأبعت ثم تمطعت جيدا حتى طقطقت عظامى وكادت تتفسخ ثم عدت فأرحت ظهري وسندت مرفقى على مسند الكرسى وصرت أهدق فى الفراغ لبرهة طويلة جدا وكل همى أن أفصل بين الجفن والجفن من كتل العماص الجاف واللزوج معا بشكل متجدد ، لكن دماغى رغما عنى ارتد مستندا على حافة مسند الكرسى ، ومالبثت حتى شعرت بأن هواء يدخل فى فم مفتوح أغلب الظن أنه فمى ويخرج كاسحا من نسيق فيتوالى فى أذنى صوت كقاذفات القنابل المدوية فأرتعد وأفصل بين جعونى على الفور منتبها بشهقة والريالة تسيل على ذقنى من بين شفتى ، أمسحها بسرعة كائننى أمحو دليل الإتهام القاطع . أنظر حوالى متلصصا أبحث عن الجرسون ، لا أجد أثرا لأى أحد فى طول القاعة وعرضها ، أسند رأسى ثانية محاولا إغلاق فمى بشدة وحسم قاطع . يغيب دوى القنابل الشاخرة ، أرانى واقفا فى الفجر فى سوق بلدتنا أتفرج على ثور ذبيح وصوت الشخير والفحيح يخرج من ثنايا عروق رقبتة المجزورة .. وكان ثمة صراخ ملتاغ ينبعث قادما من وراء بيوت السوق لعله نذير بموت أحد ولعله نواح صاحبة الثور الذى قضى نحبه الآن ! .. لكن الصراخ ظل يشتد ويزداد عنفا وشراسة حتى تيقظت فزعا وقد انفض الاشتباك نهائيا بين جفونى ، وكان صغير القطار قد شمل الكرة الأرضية كلها وهو يدخل الرصيف بدوى عظيم الهول ! .. وكان الجرسون اللعين قد تسلل وانزوى واقفا على مقربة منى منذ وقت دون أن أشعر به ، وقد راح يصفق كفا على كف فى أسف عميق عميق ! ..

ثم رأيته أعتدل في جلستى محاولا استبيان لون الظلام خارج القاعة استدرازا للون الصباح الإربوازي المنشود . وكنت أحس بقلق مفاجئ يشتد متصاعدا مع إحساسى بالتعاسة كعادتى كلما انصرم الليل دون أن يحضر صديقنا المهيب الجليل الحميم . لكن سرعان ما انتفض قلبى فجأة وتوجع من قرصة الألم .. حيث قد اتضح لى أن صديقى الحميم المهيب قد مات منذ بضع سنوات ! .. ثم لاح لى أنني كنت فى قرارة نفسى أعرف هذه الحقيقة ولقد بكيت منها عشرات الليالى والأيام .. ثم لاح لى أنني كنت أضمر إخفاء هذه الحقيقة عن نفسى لسبب من الأسباب .. ثم اتضح لى بجلاء أنني كنت أتعمد الإيحاء للجرسون بأننى لم أعلم بخبر موت صديقى بعد وأننى لهذا انتظر مجيئه كالعادة وهدفى أن يشعر الجرسون نحوى بالثناء فيتركنى أغفو بعض لحظات أتحمل المسير بموجبها طوال النهار فى شوارع المدينة بحثا عن عمل أو بالأحرى عن كسرة خبز محشوة بالفول وكوب شاي .. على أن الجرسون كان قد قرر أن يكون نذلا ، وظهر الشريط الأحمر القانى فى بياض عينيه ، وأيقنت أنه طاردى لا محالة بقلة ذوق بل بغلظة . حينئذ لممت نفسى ونهضت واقفا ، ثم حييته بصفاقة وعدوت خارجا من القاعة إلى رصيف المحطة وقد اصطبغ الليل باللون التركوازي الحزين . وكنت أدبر فى ذهنى أمر ضرورة البحث عن مكان جديد يسهر حتى الصباح غير بوفيه المحطة ومنطقة المحطة برمتها . وكنت أجتاز البوابة الكبيرة خارجا إلى ميدان رمسيس ومع ذلك شعرت أن الطرقات السخيفة لا تزال تطاردنى وتتقّب أذنى فكورت قبضتى من الغضب واستدرت فى انتفاضة شرسة لأهشم وجه ذلك الجرسون القدر ، فاصطدمت قبضتى بشئ - كاد يهشمها فصحت متوجعا ببكاء حقيقى غسل الجفون فقبل أن أفتحهما ركت أن هذا هو فض الاشتباك الحقيقى بين جفونى وما قبلها كان شيئا عابرا

كعبور كالسنوات عمرى السابقة كعبور القذيفة بانسياب فى الفراغ اللا نهائى البعيد حيث يتضائل صوت انفجارها دون أن يصيب مقتلا . وكان الصوت اللعين الذبيث المرعب قد استأنف رنينه بجوار أذنى مباشرة ، فلما فتحت عيني فى تحفز شرس وجدت زوجتى تقف بجوار السرير باسمه مازحة وهى تطرّع لى بملعة الشاي على الصينية الموضوعة فوق الكومودينو ، وإذا بى ويكل شراسة أضرب الصينية بيدى فأقلب شاي الحليب الصباحى على الأرض فتتكسر الأكواب وتتلوث المفروشات كلها بالبقع ، وإذا بى أتحوّل إلى غجرى طويل اللسان قليل الحياء يسب للزوجة المسكينة ديك الذين خلفوها . ثم أنني انتبهت فجأة كأن يدا قد هزت قلبى بعنف لتفقيه ، فأدركت أن هذه هى لحظة فض الاشتباك الحقيقى بين جفونى وما قبلها لم يكن إلا وهما عابرا ، أدركت كذلك أنني قد أخطأت بالغ الخطأ وتلبسنى العار من فوقى لتحتي ، فما لبثت حتى اندفعت باكيا وتلقفت زوجتى فى حضنى وصرت أربت على ظهرها معتذرا أقبل رأسها فى استرضاء وهى من فرط الذهول فى ذهول لا تكف عن التساؤل فى خوف وشك عظيمين : هو فيه إيه ؟! حصل إيه ؟! . وأنا أردد خلفها دامعا : مش عارف ! مش عارف . لكنها حين نظرت فى وجهى باشفاق وعطف ومسحت دموعى بكفها أدركت أن هذه هى لحظة فض الاشتباك الحقيقى بين جفونى وما قبلها كان فلفصة ونضالا ، وقد سطع الصفاء فى عيني تماما حتى تمكنت من رؤية نملة تعاود الكرة مرات ومرات لتخرج من تحت بلاطة غليظة وتندفع نحو خيط من خيوط الشمس السائلة من خلل شيش النافذة على الجدار . وحينئذ تطمعت واقفا وأنا أواصل الإستغفار والإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، ثم تقدمت إلى الشباك ففتحته على مصراعيه فتدفقت الشمس فى أحضاننا بشوق سرمدى حبيب .